المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الدعوة والإعلام بالرياض
قسم الدعوة
الدراسات العليا

الدعوة إلى الله بالمنهج العقلي
من خلال سورة البقرة

رسالة دكتوراه

إعداد الطالب
عمر أبو المجد بن حسين قاسم النعيمي

إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور
زاهر بن عواض الألمعي
عضو مجلس الشورى - الدورة الأولى

عام ١٤١٨ هـ

سُورَةُ البَقَرَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى
لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن
قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ
هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾

وآياتها ستٌّ وثمانون ومائتان

شكر وعرفان

عملاً بقول النبي ﷺ : « لا يشكر اللهَ مَن لا يشكر الناس »(1) ، أجد لزاماً عليّ بعد الانتهاء من كتابة الرسالة أن أقدّم الشكر والعرفان لكل من مدّ لي يد العون والمساعدة أثناء إعداد هذه الرسالة .

وأبدأ بالشكر والتقدير لوالدي العزيز الدكتور حسين قاسم النعيمي الذي تابعني بملاحظاته وتشجيعه ، رغم معاناته من المرض الشديد ، جمع الله له بين الأجر والشفاء ، وأحسن مثوبته في الدارين .

كما أشكر فضيلة الأستاذ الدكتور : زاهر بن عواض الألمعي ، الذي تجشم عناء الإشراف على الرسالة ، فحظيت بتوجيهاته وإرشاداته ، وأفادني بنصائحه وتجاربه، فأسأل الله تعالى أن يحفظه ويرعاه ، ويسدد مسعاه ، ويبارك له في وقته وجهده .

وأشكر أيضاً فضيلة الدكتور أبوالفتح البيانوني الذي غمرني بفضله وساعدني بالمراجع والآراء السديدة في بداية خطة الرسالة ، وقد رُشح بعد إقرارها للإشراف عليها ، ولكن حالت ظروفه الشخصية دون ذلك .

وأتقدم كذلك بالشكر والعرفان للقائمين على إدارة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية التي أتاحت لي فرصة الالتحاق بمرحلة الدكتوراه في كلية الدعوة والإعلام ، وأخص بالشكر معالي مدير الجامعة الدكتور عبدالله بن يوسف الشبل ، وفضيلة عميد كلية الدعوة والإعلام ، والأساتذة الفضلاء في قسم الدعوة بالكلية ، فلجميعهم مني جزيل الشكر ووافر التقدير .

ولا يفوتني أن أبدي خالص المحبة والوفاء لكل من أسدى لي مشورة ، وقدم لي مرجعاً أو أرشدني إليه ممن ذكرت ومن لم أذكر ، وأدعو الله أن يكتب لهم السعادة والتوفيق والنجاح ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(1) رواه أبوداود في كتاب الأدب ، باب في شكر المعروف ، ح ٤٨١١ . السنن ٥ : ١٥٧ . والترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ، ح ٢٠٢٠ ، ٢٠٢١ وقال : هذا حديث حسن . تحفة الأحوذي ٦ : ٨٧ – ٨٨ . والإمام أحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، انظر : ٢ : ٢٩٥ و ٣ : ٧٤ .

المقدّمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

فإن الدعوة إلى الله تعالى واجبة على الأمة الإسلامية (١) ، حيث قال الله سبحانه : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) ، وجاء التوجيه الرباني للنبي ﷺ بالقيام بها ، والسعي لها ، وذلك في قوله جل وعلا : ﴿ ياأيها المدثر * قم فأنذر ﴾ (٣) ، وقال جل شأنه : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (٤) .

وهي ابتداءً وظيفة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، فهم سلسلة متصلة الحِلَق ، بُدِئت بآدم عليه الصلاة والسلام ، وخُتِمت بالنبي ﷺ ، يصدق ذلك قول النبي ﷺ : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وُضِعت هذه اللبِنة ؟ قال : فأنا اللَّبِنة وأنا خاتَم النبيين » (٥) ، وتشهد الآيات القرآنية الكريمة بأن كلّ واحد منهم دعا إلى دين الله الواحد «الإسلام» فالقرآن الكريم يتلو علينا خاتمة الحوار بين نوح عليه الصلاة والسلام وقومه فيقول : ﴿ فإنْ تَوَلَّيتُم فما سألتكُم من أجْرٍ إنْ أجْرِيَ إلا على اللهِ وأمِرْتُ أنْ أكون من المسلمين ﴾ (٦) ، ويحكي عن إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام قولهما : ﴿ رَبَّنا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْن لك ومن

(١) حكم الدعوة مستقى من أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقوله تعالى : ﴿ ولْتَكُنْ مِنْكُم أمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيرِ ويأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عن المُنْكَر ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٤]، وقد ذهب أبوبكر بن العربي إلى أنه فرض كفاية [انظر : أحكام القرآن ١ : ٢٩٢] ، وبه قال القاضي ابن عطية [انظر : المحرر الوجيز ٣ : ٢٥٥] ، والقرطبي [انظر : الجامع لأحكام القرآن ٤ : ١٦٥] ، والغزالي [انظر : إحياء علوم الدين ٢ : ٣٠٧] وابن تيمية [انظر : مجموع الفتاوى ٢٨ : ٨١ ، ١٢٦] ، وهو مفهوم كلام الماوردي [انظر : الأحكام السلطانية : ٢٩٩] . وظاهر كلام ابن الجوزي أنه فرض عين مع إشارته إلى القول الآخر ، حيث قال : « ويدلُّ على أن الكلَّ أمِرُوا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أمَّةٍ أخْرِجَتْ للنّاس تأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَر ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] . قال : ويجوز أن يكون أمر منهم فرقة ، لأنّ الدعاة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون إليه ، وليس الخلق كلهم علماء » [زاد المسير ١ : ٤٣٥] .

ومِمن تحدث عن حكم الدعوة في الحاضر على سبيل المثال : علي محفوظ [انظر : هداية المرشدين : ٢١ ، ٢٢] . و محمد السيد الوكيل [انظر : أسس الدعوة وآداب الدعاة : ١٧] . وعبدالكريم الخطيب [انظر : الدعوة إلى الإسلام : ٤١ ، ٤٧] . وطالب إلب في بحثه « الدعوة إلى الإسلام » ضمن كتاب « الدعوة الإسلامية : الوسائل ، الخطط ، المداخل » : ٢٩٥ . وجمع أدلة القولين د . أبوالفتح البيانوني [انظر : المدخل إلى علم الدعوة : ٣١ - ٣٦]. ومحمد أمين حسن [انظر : خصائص الدعوة الإسلامية : ١٧-٢١] .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٠٤ .

(٣) سورة المدثر ، آية : ١ - ٢ .

(٤) سورة النحل ، آية : ١٢٥ .

(٥) رواه الإمام مسلم في كتاب الفضائل ، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ، ح ٢٢ ، انظر : الصحيح ٤ : ١٧٩١ .

(٦) سورة يونس ، آية : ٧٢ .

ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لك ﴾ [١] ، ويحكي القرآن الكريم عن موسى عليه الصلاة والسلام قوله لقومه : ﴿ وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ [٢] ، وجاء ذكر الإسلام في القرآن الكريم فيما قصه عن يعقوب ويوسف وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، والسحرة الذين آمنوا رحمهم الله تعالى .

وحديث النبي ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتّى ودينهم واحد » [٣] واضح الدلالة على وحدة دعوة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولايضيرها نسبة بعض الأديان إلى الأنبياء كما هو الحال في اليهودية والنصرانية (المسيحية) إلا أن الله تعالى أوكل حفظ هاتين الديانتين إلى علمائها حيث قال سبحانه : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هُدى ونورٌ يَحكُم بها النبيُّون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيُّون والأحبارُ بِما اسْتُحْفِظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ [٤] فنالها التحريف والتبديل ، وتكفل سبحانه بحفظ القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [٥] فسلِم ويسلم إلى قيام الساعة صحيحاً كما نزل .

ولضمان استمرار الدعوة الإسلامية وتجددها عَهِد الله تعالى بهذه الأمانة وكلف بها القادرين عليها والمؤهلين لها من أمة محمد ﷺ وبخاصة العلماء ، فهم ورثة الأنبياء في حمل العلم وتعليم الناس وتفقيههم ، وفي ذلك يقول النبي ﷺ : « ... وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولادرهما ، ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » [٦] .

والدعوة الإسلامية منذ بدئها على يد النبي ﷺ قامت على أساس دقيق محكم ، لديها منهج يحدد مسلكها وغايتها وهويتها ، وتعتمد أساليب تبين الكيفيات الملائمة لكلٍ من فئات المدعوين ، إضافة إلى الوسائل المساعدة في تبليغ الدعوة ونشرها ، كل هذه الأمور برزت واضحة في سير الدعوة النبوية ، واستمرت من بعده على أيدي الصحابة ثم التابعين ومن سار على نهجهم .

وقد واكبت المناهج الدعوية مسيرة الدعوة من حين بزوغ فجرها ، وسايرتها منذ انطلاقتها الأولى ، ويمكن لهذه المناهج أن تتنوع وتُقَسَّم وفقاً للجانب الذي تُعنى به ، فإن كانت تعنى بالموضوع تناولته من جوانبه المتنوعة ، وبذا تقسم إلى مناهج عقدية ، أو عبادية ، أو أخلاقية ...

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٢٨ .

(٢) سورة يونس ، آية : ٨٤ .

(٣) رواه الإمام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ [سورة مريم ، آية : ١٦] انظر : فتح الباري ٦ : ٤٧٨ . والإخوة لعلات هم الإخوة لأب ، انظر : المصدر السابق ٦ : ٤٨٩ .

(٤) سورة المائدة ، آية : ٤٤ .

(٥) سورة الحجر ، آية : ٩ .

(٦) رواه الترمذي في كتاب العلم ، باب فضل الفقه على العبادة ، ح ٢٨٢٢ ، انظر : تحفة الأحوذي ٧ : ٤٥٠ - ٤٥٣ . وأبوداود في كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم ، ح ٣٦٤١ ، انظر : السنن ٤ : ٥٧ .

ونحو ذلك . وإن نُظِر إليها من حيث عنايتها بالمدعو فتُقَسَّم إلى : مناهج عقلية ، أو حسية (تجريبية) ، أو عاطفية (وجدانية) [1] .

وإن المناهج المعنية بالمدعو ذات نفاذ وفاعلية في النفس البشرية، لتعاملها مع أُسِّ المرتكزات لدى الإنسان (العقل ، والحس ، والعاطفة) ، إذ بها يتعامل مع ماحوله ومن حوله ، وفي قول الله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [2] ذكرٌ لتلك الركائز التي أودعها الله سبحانه في الإنسان ، قال الرازي : « وقال المفسرون : وجعل لكم السمع لتسمعوا مواعظ الله ، والأبصار لتبصروا دلائل الله ، والأفئدة لتعقلوا عظمة الله » [3] ، والعقل عمادها فهو مناط التكليف ، وإليه المنتهى في الإدراك ، فالحس والعاطفة تؤديان وظائف وأعمالا ، ثم العقل يفسرها ويدرك نتائجها ومدلولاتها .

وبالعقل يتوصل الإنسان إلى معرفة مايجهل بداهةً أو بالتعلُّم ، فبالبداهة يعرف مبادئ العلوم ويدرك - على سبيل المثال - أن الصدق والعفة والأمانة فضائل ضرورية له وللمجتمع ، أما الشريعة الإلٰهية بماتحوية من أحكام وشرائع وتوجيهات فلابد من تعلمها ابتداءً من خلال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم الذين أوكل الله تعالى إليهم مهمة تبليغ الرسالة وتعليمها للناس ، قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزِّل إليهم ﴾ [4] ، ثم يضطلع بها من بعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وحاملو الأمانة إلى أن يأتي أمر الله .

وهذا التلازم بين الدعوة والعقل في العملية الدعوية يجعل استيعاب الدعوة والاقتناع بها أمراً مقارباً ، إذ يتوجب على المدعو أن يستخدم عقله لفهم الدعوة وإدراك مراميها ، ولاشك بأن من كتب الله له الهداية سيعرف صحتها وصدق الداعي إليها ، ومن ثَمّ يؤمن بها ، فالعقل نعمة من الله تعالى امتنّ بها على خلقه ، وطالبهم باستعمالها لإدراك الحق ومعرفة الصواب ، وأنكر على المعرضين إغلاق عقولهم ، وصدود قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[5] وقال سبحانه : ﴿ إنّ شرَّ الدوابِّ عند الله الصمّ البكم الذين لايعقلون ﴾ [6] .

---

(١) انظر : د . أبوالفتح البيانوني ، المدخل إلى علم الدعوة : ١٩٥ - ٢١٩ . والبوطي ، منهج تربوي فريد في القرآن الكريم : ٦٤ .
(٢) سورة النحل ، آية : ٧٨ .
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ٢٠ : ٩٠ .
(٤) سورة النحل ، آية : ٤٤ .
(٥) سورة محمد ، آية : ٩ .
(٦) سورة الأنفال ، آية : ٩ .

تعريف الدعوة

التعريف اللغوي :

الدعوة : من دَعَا ، يدعو ، دُعاءً ، ودَعْوَةً ، وأصل الدعوة : أن تميل الشيء إليك بصوت أو كلام يكون منك [1] ، ودعوة الحق : شهادة أن لا إله إلا الله [2] ، مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾ [3] ، والدعوة تطلق أيضاً ويراد بها الحَلِف ، يقال : دعوة فلان في بني فلان [4] ، ويراد بها أيضاً الدُّعاءُ إلى الطعام ، وتسمّى كذلك مَدْعَاة [5] .

ومن استخدام الدعوة مجازاً قول العرب : « تداعت الحيطان » إذا آيلت للسقوط أو سقطت، « وتداعت إبل فلان » إذا تحطّمت هُزلاً ، قال ذوالرمّة [6] :

تباعدتَ مِنّي أنْ رَأيْتَ حَمُولَتِي تَداعَتْ وَأنْ أحْنَى عَلَيكَ قَطِيعُ

والتداعي في الثوب : إذا أخْلَق ، كأنه يدعو صاحبه إلى استبداله ، وفي الدار: إذا تصدعت من نواحيها، وفي السحابة إذا أرعدت وبَرَقَتْ من كل جهة ، قال ابن أحمر [7] :

وَلا بَيْضَاءَ فِي نَضَدٍ تَداعَتْ بِبَرْقٍ فِيْ عَوَارِضَ قَدْ شَرِيْنَا

أما داعي الله فيُراد به النبي ﷺ ، مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ [8] ، ويقال : رجلٌ داعيةٌ ، إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أودين [9] .

ويطلق الداعية ويُراد به المؤذن ، ومنه حديث النبي ﷺ : « الخلافة في قريش ، والحكم في الأنصار ، والدعوة في الحبشة ، والهجرة في المسلمين ، والمهاجرين بعد » ، قال الزبيدي: « أراد بها الأذان » [10] ، والداعية : صريخ الخيل عند الحرب [11] ، وداعية اللبن : ما يترك في الضرع ليدعو ما وراء ه [12] ، ومنه ما جاء في الحديث عن ضرار بن الأزور رضي الله عنه قال : « أهديت لرسول

---

(١) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٢ : ٢٧٩ .
(٢) انظر : الزبيدي ، تاج العروس ١٠ : ١٢٨ ، مادة (دَعَوَ) .
(٣) سورة الرعد ، آية : ١٤ .
(٤) انظر : الزبيدي ، تاج العروس ١٠ : ١٢٧ ، مادة (دَعَوَ) .
(٥) انظر : الجوهري ، الصحاح ٦ : ٢٣٣٦ ، مادة (دَعَوَ) .
(٦، ٧) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٤ : ٢٦٢ ، مادة (دَعَوَ) .
(٨) سورة الأحزاب ، آية : ٤٦ ، وانظر : الزبيدي ، تاج العروس ١٠ : ١٢٧ ، مادة (دَعَوَ) .
(٩) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٤ : ٢٥٩ ، مادة (دَعَوَ) .
(١٠) الزبيدي ، تاج العروس ١٠ : ١٢٧ ، مادة (دَعَوَ) ، والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ٤ : ١٨٥ .
(١١) انظر : الفيروزأباذي ، القاموس المحيط ٤ : ٣٢٨ ، مادة (دَعَوَ) .
(١٢) انظر : الجوهري ، الصحاح ٦ : ٢٣٣٧ ، مادة (دَعَوَ) .

الله ﷺ لَقْحَة ، فأمرني أن أحلبها ، فحلبتها فجهدت في حلبها ، فقال : « دَعْ داعيَ اللبن »[1] .

وتطلق كلمة « دعا » في اللغة مجازاً على معانٍ عدّة منها :

* الاستغاثة : ومنه قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[2] ، قال ابن منظور : « فالدعاء هنا بمعنى الاستغاثة »[3] .

* التسمية : يقال : دعوته زيداً أي سميته به[4] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[5] ، وقول ابن أحمر الباهلي[6] :

أَهْوَى لَهَا مِشْقَصاً جِشْراً فَشَبْرَقَهَا ... وَكُنْتُ أَدْعُوا قَذَاهَا الإِثْمِدَ القَرِدا

* التمني ، قال تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾[7] ، قال القرطبي : « يَدّعون : يتمنّون ، من الدّعاء »[8] .

* العبادة ، ومنه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذّبين ﴾[9] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولايزنون ﴾[10] .

* العذاب والمكروه ، قال تعالى : ﴿ تدعو من أدبر وتولّى ﴾[11] ، قال الزبيدي : « أي تفعل بهم الأفاعيل المنكرة والمكروهة »[12] ، ومنه قول الشاعر[13] :

دَعَاكَ اللهُ مِنْ قَيْسٍ بِأَفْعَى ... إِذَا نَامَ الْعُيُوْنُ سَرَتْ عَلَيْكَا

* النّسبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾[14] .

---

(١) رواه الدارمي ، كتاب الأضاحي ، باب في الحالب يجهد الحلب ، ح ٢٠٠٧ ، انظر : السنن ٢ : ١٥ . والإمام أحمد في مسنده ٤ : ٧٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٣ .
(٣) ابن منظور ، لسان العرب ١٤ : ٢٦١ ، مادة (دَعَوَ) .
(٤) المصدر السابق ١٤ : ٢٦١ ، مادة (دَعَوَ) .
(٥) سورة الإسراء ، آية : ١١٠ .
(٦) ابن أحمر : عمرو بن أحمد بن قَرّاص بن معن بن أعصر ، انظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٢٧٣ . والبيت عند ابن منظور ، لسان العرب ١٤ : ٢٦١ ، مادة (دَعَوَ) ، ومِشْقَص جَشْرٌ : أي قاطع ، انظر : الجوهري الصحاح ٢ : ٦١٤ . وشبرقها : أي قطّعها ، انظر المصدر السابق ٤ : ١٥٠٠ . والقرد يعني الرديء ، يقال قَرِد : للصوف إذا التصق وتلبّد ، وللعلك إذا فسدت ممضغته ، انظر: الزمخشري ، أساس البلاغة : ٣٦١ .
(٧) سورة يس ، آية : ٥٧ .
(٨) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٥ : ٤٥ .
(٩) سورة الشعراء ، آية : ٢١٣ .
(١٠) سورة الفرقان ، آية : ٦٨ .
(١١) سورة المعارج ، آية : ١٧ .
(١٢) الزبيدي ، تاج العروس ١٠ : ١٢٨ ، مادة (دَعَوَ) .
(١٣) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٤ : ٢٦٠ ، مادة (دَعَوَ) .
(١٤) سورة الأحزاب ، آية : ٥ .

التعريف الاصطلاحي :

لم يصل إلينا عن السلف رحمهم الله تعالى تعريف اصطلاحي محدد للدعوة ، ولعل ذلك راجع إلى اهتمامهم بالجانب العملي أكثر من النظري ، إضافة إلى وضوح الغاية والمقصد منها .

وبالنظر إلى تعريفات العلماء المحدثين للدعوة يمكن القول : إن بعض تلك التعاريف انصبَّ على العملية الدعوية والغاية منها ، ويظهر ذلك في تعريف كلٍ من :

الشيخ آدم عبدالله الألوري حيث يقول : « صرف أنظار الناس وعقولهم إلى فكرة أو عقيدة ، وحثهم عليها »(١) .

والشيخ علي محفوظ الذي قال : « حث الناس على الخير والهدى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل »(٢) .

والدكتور محمد حسن كاسولي في قوله : « هي عملية دعوة الناس إلى التمسك بالإسلام أو اعتناقه ، أو تطبيق مبادئه وممارسة شعائره »(٣) .

وهنالك تعاريف تتناول تعريف الدعوة من حيث هي علم ذو أصول وأركان كما في تعريف الدكتور أحمد أحمد غلوش ، قال : « هي العلم الذي تعرف به كافة المحاولات الفنية المتعددة ، الرامية إلى تبليغ الإسلام للناس ، بما حوى من عقيدة ، وشريعة ، وأخلاق »(٤) .

ويقرب منه تعريف الشيخ محمد الغزالي (٥) على ما فيه من عموم وسعة .

ويرى فريق من العلماء أن « الدعوة » بمعنى « الإسلام » انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾ (٦) أمثال الدكتور عبدالكريم زيدان ، حيث لم يورد أي تعريف للدعوة وشرع في الحديث عن الإسلام على نحو عام (٧) .

ولا يعنينا إيراد التعاريف وسردها بقدر ما يعنينا ماتفيده من مدلول وترمي إليه من مقاصد ، وهي بمجملها تنبّه وتركز على أن الدعوة علم قائم بذاته ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر عملية نشر تقوم على أسس قويمة ، ودعائم ثابتة ، ينطلق القائمون بها تجاه غاية نبيلة يسعون إلى تحقيقها مستعملين كافة المناهج والأساليب والوسائل المتاحة والمباحة .

(١) الألوري ، تاريخ الدعوة الإسلامية بين الأمس واليوم : ١٧ .
(٢) علي محفوظ ، هداية المرشدين : ١٨ .
(٣) الدعوة الإسلامية ، الوسائل ، الخطط ، المداخل : ٣١٥ . وتعريف فتحي يكن ، و أبوالمجد نوفل ، و محمد السيد الوكيل ، و محمد نمر الخطيب من هذا القبيل .
(٤) غلوش ، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها : ١٠ .
(٥) محمد الغزالي ، مع الله : ١٧ .
(٦) سورة الرعد ، آية : ١٤ .
(٧) انظر كتابه : أصول الدعوة .

تعريف المنهج العقلي

المنهج العقلي مصطلح مركب من مفردتين ، الأولى : المنهج ، والثانية : العقل ، وسيسبق تعريفَ المصطلح تعريفٌ لمفرداته أولاً ، وذلك كما يلي :

أولاً : تعريف المنهج :

التعريف اللغوي :

المَنْهج كالمِنْهاج ، وهو الطريق البين الواضح ، يقال : أنهج الطريق إذا وَضُح واستبان وصار نهجاً واضحاً بَيِّناً ، قال يزيد العبدي[١] :

ولقد أضاء لك الطريق وأنهَجتْ   سبل المكارم والهدى تُعدي

وفسر الطبري قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجاً ﴾[٢] ، قال : « معنى الكلام : لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمّه ، وسبيلاً واضحاً يعمل به »[٣] . وفَسَّر المنهاج بالسبيل كل من ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي ، وقتادة ، والضحاك رضي الله عنهم[٤] .

التعريف الاصطلاحي :

اجتهد علماء البحث العلمي في وضع تعاريف للمنهج ، وكان من أبرز من تصدى لذلك :

١) الدكتور علي سامي النشار الذي عرف المنهج بأنه : « طريق البحث عن الحقيقة في أي علم من العلوم ، أو في أي نطاق من نطاقات المعرفة الإنسانية »[٥] .

٢) الدكتور عبدالرحمٰن بدوي ، وقد عرف المنهج بأنه : « الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة »[٦] .

وتعريف الدكتور بدوي تضمن التعريف الأول ، وزاد عليه القواعد المنظمة للمنهج ، ولو قال في تعريفه « البحث » عوضاً عن « العقل » لكان أقرب إلى إصابة أسِّ المعنى للمنهج ، حيث يشمل بذلك العلوم النظرية والتطبيقية ، ولا شك أن العقل هو المرشد الرئيس في فهم العلوم ، وإدراك النتائج النهائية للتجارب والتطبيقات الحسية .

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٢ : ٣٨٣ ، مادة « نَهَجَ » .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٤٨ .
(٣) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٠ : ٣٨٤ .
(٤) المصدر السابق ١٠ : ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .
(٥) النشار ، نشأة الفكر الفلسفي عند المسلمين : ٧ .
(٦) بدوي ، مناهج البحث العلمي : ٥ .

أهمية المنهج :

تظهر أهمية المنهج في المجال الدعوي من حيث إنه الطريق المنظَّمَة التي يُقَدَّمُ من خلالها حقائق دقيقة ، وتربية عميقة ، تهدف إلى بناء مجتمع مؤمن ، جيد العلم والثقافة ، سَوِي الشخصية ، يعرف واجباته بقدر معرفته لحقوقه ، ويقدر على تحمل المسؤولية ، والتعاون مع الآخرين ، مع احترام آرائهم وحرياتهم .

إضافة إلى أنه يقدم الخبرات السابقة والمكتسبة من خلال الزمن وطول التجربة ، بعد تهيئتها وتنقيحها لتقدَّم إلى الجيل التالي ليواصل الدعوة بكل جوانبها : العقدية ، والفكرية ، والعلمية ، والسلوكية . إذ التربية بالنسبة للفرد تعني الحياة بكل أبعادها : الماضي بخبراته ، والحاضر بواقعه ، والمستقبل بتوقعاته .

ثانياً : تعريف العقل :

التعريف اللغوي [1] :

يطلق العقل في اللغة ويراد به ما قابل الجنون والحمق ، ولذا قيل في تعريفه : « الحِجْر والنُّهىٰ » قال ابن منظور : « قال ابن الأنباري[2] : رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عَقَلْتَ البعير إذا جمعتَ قوائمه » .

ويطلق أيضاً ويراد به الرادع عن الهوى ، والمبعد عن الخطأ ، ومنه قول القائل : عَقَل فلان ، إذا عرف الخطأ الذين كان عليه وتراجع عنه ، قال ابن منظور : « وسُمِّيَ العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه » . كما يطلق على « الدِّية » أيضاً .

التعريف الاصطلاحي :

إن مكانة العقل وضرورته للإنسان جعلته مثار اهتمام عدد كبير من العلماء الذين نقَّبوا عن ماهيته بغية التعرف عليها ، وبحثوا في آثاره وحاولوا تقصي جُلّها ، ومن ثم عمدوا إلى وضع تعريفات للعقل جاءت متباينة تبعاً لما استقر لدى كل واحد منهم من معرفة ، ومن هؤلاء :

١) الراغب الأصفهاني [3] :

يقسم الراغب الأصفهاني العقل إلى قسمين :

الأول : يطلق على القوة المتهيِّئة لقبول العلم ، ويرى في قول النبي ﷺ : « ماخلق الله خلقاً

---

(١) انظر مفصلاً : ابن منظور : لسان العرب ١١ : ٤٥٨ - ٤٥٩ مادة « عقل » . والزمخشري ، أساس البلاغة : ٣٠٩ مادة « عقل » .

(٢) ابن الأنباري : محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري النحوي ، ت ٣٢٨ هـ . انظر : الزُّبيدي ، طبقات النحويين واللغويين : ١٥٣ .

(٣) انظر : الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ٣٤١ - ٣٤٢ .

أكرم عليه من العقل »[1] إشارة إليه .

الثاني : العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة ، ويجعل منه حديث النبي ﷺ : « ما كَسَبَ أحدٌ شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عن ردى »[2] .

قال : « وكل موضع ذمّ اللهُ فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول ... وكل موضع رُفع [فيه] التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول »[3] .

ولهذا تجده يفسر « الأمانة » بالعقل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ الآية [4] قال :« وقيل العقل ، وهو صحيح ، فإن العقل هو الذي لحصوله يتحصل معرفة التوحيد ، وتجري العدالة ، وتُعلم حروف التهجي ، بل لحصوله يعلم كل ما في طوق البشر تعلمه ، وفعل ما في طوقهم من الجميل فعله ، وبه فُضِّل على كثير من خلقه – أي الله – »[5] .

٢) الفخر الرازي :

عرف الفخر الرازي العقل فقال : « وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية ، وهذه العلوم هي رأس المال ، والنظر والفكر لامعنى له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلى تحصيل علوم كسبية »[6] .

٣) الخطيب البغدادي :

قال الخطيب البغدادي معرفاً العقل : « وأما العقل فهو ضرب من العلوم الضرورية محله القلب »[7] .

ويلاحظ عليه بأن العلوم الضرورية مجملة وغير محددة ، ويدخلها الاحتمال ، وبالتالي تصعب معرفة المقصد من هذا التعريف .

---

(١) استشهد الراغب الأصفهاني به ولم أقف عليه بهذا اللفظ ، وعند الطبراني : « ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدىً ، أويرده عن ردىً ، ولا استقام دينه حتى يستقيم عمله » انظر : المعجم الصغير للطبراني ٢ : ٥ ، وذكر الهيثمي أن الطبراني رواه في الأوسط بلفظ « عقله » بدل « عمله » ثم قال : « فيه عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف » انظر : مجمع الزوائد ١ : ١٢١ .

(٢) ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات : ٢٩ وقال : « للحكيم [الترمذي] ضعيف » .

(٣) الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن : ٣٤٢ ، وما بين المعقوفين إضافة من الباحث لاستقامة العبارة .

(٤) سورة الأحزاب ، آية : ٧٢ .

(٥) الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن : ٢٦ ، و انظر له :تفصيل النشأتين في تحقيق السعادتين : ٥٣ – ٥٤ .

(٦) الرازي ، التفسير الكبير ٢٦ : ٢٥٦ .

(٧) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٢٠ .

٤) الشريف الجرجاني :

أورد الشريف الجرجاني تعاريف عدّة للعقل ، ثم قال بعد ذلك : « والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط ، والمحسوسات بالمشاهدة »[١] .

ويرى الماوردي فساد تعريف من قال بأن العقل جوهر لطيف من وجهين[٢] :

الأول : « أن الجواهر متماثلة ، فلا يصح أن يُوْجِب بعضها مالا يُوْجِب سائرها ، ولو أوجب سائرها ما يُوْجِب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله » .

والثاني: « أن الجوهر يصح قيامه بذاته، فلو كان العقل جوهراً لجاز أن يكون عقل بغير عاقل، كما جاز أن يكون جسم بغير عقل » ، قال : « فامتنع بهذين الوجهين أن يكون العقل جوهراً » .

٤) التعريف المختار عند الماوردي :

قال أبوالحسن الماوردي : « وقال آخرون - وهو القول الصحيح - : إن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية ، وذلك نوعان : أحدهما ماوقع عن دَرْك الحواس ، والثاني ماكان مبتدأ في النفوس .

فأما ماكان واقعاً عن دَرْك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر ، والأصوات المدركة بالسمع ، والطعوم المدركة بالذوق ، والروائح المدركة بالشم ، والأجسام المدركة باللمس ، فإذا كان الإنسان ممن أدرك بحواسه هذه الأشياء لَعَلِم ؛ ثبت له هذا النوع من العلم ، لأن خروجه في حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم ، لايخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث عُلم من حاله أنه لو أدرك لعلم .

وأما ماكان مبتدأ في النفوس فكالعلم بأن الشيء لايخلو من وجودٍ أو عدم ، وأن الموجود لايخلوا من حدوثٍ أو قدم ... وهذا النوع من العلم لايجوز أن ينتفي عن العاقل ، مع سلامة حاله وكمال عقله ، فإذا صار عالماً بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل »[٣] .

والذي أميل إليه هو أن العقل من الأشياء التي تدرك آثارها ولاتعرف ماهيتها ، وهبه الله تعالى للإنسان ليستعين به في أمور معاشه ومعاده ، ومحاولة التعريف من خلال حصر الآثار يُقَرِّب المعنى ولايصيب عين الحقيقة .

---

(١) الجرجاني ، التعريفات : ١٥٢ .
(٢) الماوردي ، أدب الدنيا والدين : ٢١ .
(٣) المصدر السابق .

ثالثاً : تعريف المنهج العقلي :

المنهج العقلي من حيث الاستخدام في المجال الدعوي قديم جداً ، لأنه مرتبط بالعقل وهو موجود في الإنسان بالقُوَّة ، لكنه من حيث الاستخدام الاصطلاحي قريبٌ جداً ، ولم أقف على محاولات لتعريفه سوى ما ذكره الدكتور أبوالفتح البيانوني حيث عرفه بتعريفين هما[1] :

أ - « النظام الدعوي الذي يرتكز على العقل ويدعو إلى التفكر والتدبر والاعتبار »

ب - « مجموعة الأساليب الدعوية التي ترتكز على العقل وتدعو إلى التفكر والتدبر والاعتبار » .

ومؤداهما واحد لأن النظام يتكون من مجموعة أساليب ، إلا أنه يمتاز بتوجيه الأساليب وتسييرها وفق إطار محدد الهدف قبلاً .

وأذكر هنا خطوات إجرائية تحدد المراد من المنهج العقلي في هذا البحث وهي كالتالي :

- الدعوة إلى الله تعالى تقدم حقائق للمدعوين .
- تأخذ هذه الحقائق عند طرحها أشكالاً وكيفياتٍ متعددة .
- اصطلح العلماء على تسمية هذه الأشكال والكيفيات بالنُّظُم ، أوالطرق ، أوالأساليب .
- ينتظم هذه الكيفيات إطار عام ومحدد يعرف بالمنهج .
- يعتمد هذا المنهج الجانب العقلي في مخاطبة المدعوين .
- الجانب العقلي هنا يعني استخدام الاستدلال ، والاستقراء ، والجدل .
- يتفاوت المنهج العقلي وفق الفئات الموجهة إليها الدعوة ، فهناك المنهج العقلي المبسط ، تدرك مغازيه بقليل إنعام نظر ، يخاطب به العامة من الناس . أما المنهج العقلي المتقدم فيوجه إلى الأشخاص ذوي الاعتداد الشديد بالعقل .

---

(١) البيانوني ، المدخل إلى علم الدعوة : ١٥٢ .

سورة البقرة

سورة البقرة مدنية ، وأطول سور القرآن ، وعدد آياتها على المشهور مائتان وستٌّ وثمانون آية ، نزلت على مدد طويلة ، ، وقيل هي أو ل سورة نزلت بالمدينة المنورة [1] ، وبها أعظم آية في القرآن « آية الكرسي » ﴿ الله لاإلـٰه إلا هو الحي القيوم ﴾ [2] وأطول آية في القرآن « آية الدَّين » ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ [3] و آخر آية نزلت من السماء ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ [4] .

قال أبوبكر بن العربي : « سمعت بعض أشياخي يقول : فيها ألف أمر ، وألف نهي ، وألف حكم ، وألف خبر » [5] . وفيها خمسة عشر مثلاً .

مكث عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في تعلمها وحفظها ثماني سنين [6] .

وفيما يلي حديث مجمل عن السورة ومكانتها وفضلها :

تسميتها :

سُميت بـ « سورة البقرة » لورود ذكر البقرة في المعجزة التي أجراها الله تعالى على يد نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بإحياء قتيل بني إسرائيل لما اختصموا في قاتله ، قال سبحانه : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ [7] .

وسماها النبي ﷺ هي وسورة آل عمران بـ « الزهراوين » ، روى أبوأمامة الباهلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اقرؤوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران » [8] ، والزَّهر الأبيض النيِّر ، وهو من أحسن الألوان [9] . وسماها ﷺ أيضاً بـ « سنام القرآن » كما في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن لكل شيئ سناماً ، وإن سنام القرآن سورة البقرة » [10] .

---

(١) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٢ . و الألوسي ، روح المعاني ١ : ١٦٣ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٨٢ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٨١ .
(٥) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٥٢ .
(٦) انظر : المصدر السابق .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٦٧ - ٧١ .
(٨) رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ، ح ٢٥٢ (٨٠٤) ، الصحيح ١ : ٥٥٣ .
(٩) انظر : ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ٢ : ٣٢١ .
(١٠) رواه ابن حبان في كتاب الرقائق ، باب قراءة القرآن ، ح ٧٧٧ ، انظر : الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢ : ٧٨ . ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي ، ح ٢٨٧٨ وقال : حديث غريب لانعرفه إلا من حديث حكيم بن جُبير ، وقد تكلم شعبة [بن الحجاج] في حكيم بن جبير وضعفه ، السنن ٥ : ١٤٥ . والحاكم في كتاب فضائل القرآن ، باب أخبار في فضل سورة البقرة ، المستدرك ١ : ٥٦٠ .

وكان خالد بن معدان يسميها « فسطاط القرآن »[1] لعظمها ، ولما جمع فيها من الأحكام التي لم تذكر في غيرها .

فضلها ومكانتها :

اشتملت السنة المشرفة على أحاديث عِدَّة وردت عن النبي ﷺ في فضل سورة البقرة ، إنْ في عموم السورة أو في بعض آياتٍ منها ، ومما جاء في عموم السورة :

١) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان[2] ، أو كأنهما فِرْقان[3] من طير صوافّ ، تحاجّان عن أصحابهما . اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولاتستطيعها البَطلة .

قال معاوية (بن سلام) : بلغني أن البطلة السحرة »[4] .

٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « لاتتخذوا بيوتكم مقابر ، صلوا فيها ، فإن الشيطان ليفر من البيت الذي يَسْمع سورة البقرة تُقرأ فيه »[5] .

٣) وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيتُ سورة البقرة من الذكر الأول »[6] .

ومن الآيات الكريمة في سورة البقرة التي جاءت الأحاديث دالة على فضلها وشرفها مايأتي :

١) آية الكرسي :

فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يا أبا المنذر ، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : يا أبا المنذر ، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت : الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم . قال : فضرب في صدري وقال : ليهنك العلم أبا المنذر »[7] .

---

(١) انظر : الدارمي في السنن ٢ : ٣٢١ ، كتاب فضائل القرآن ، باب في فضل سُورة البقرة ، ح ٣٣٧٩ .

(٢) الغياية : كل ما أظل من غمامة أو عجاجة أو نحوهما ، انظر : الزمخشري ، أساس البلاغة : ٣٣٢ .

(٣) الفِرْق في الغنم : القطيع العظيم دون المائة ، انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٠ : ٣٠٤ ، والمراد به الجماعة من الطير إذا فردت أجنحتها وهي متقاربة أصبحت وكأنها غمامة .

(٤) رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ، ح ٢٥٢ (٨٠٤) ، الصحيح ١ : ٥٥٣ .

(٥) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي ، ح ٢٨٧٧ وقال : هذا حديث صحيح ، السنن ٥ : ١٤٥ . وابن حبان – واللفظ له – في كتاب الرقائق ، باب قراءة القرآن ، ح ٧٨٠ . انظر : الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢ : ٧٩ .

(٦) رواه الحاكم في كتاب فضائل القرآن ، باب أخبار في فضل سورة البقرة ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . المستدرك ١ : ٥٦١ .

(٧) رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ، ح ٢٥٨ (٨١٠) ، الصحيح ١ : ٥٥٦ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « سورة البقرة فيها آية سيّد آي القرآن ، لا تُقرأ في بيت وفيه شيطان إلا خرج منه ؛ آية الكرسي »[١] .

وورد في حديث أبي بن كعب[٢] وأبي أيوب الأنصاري[٣] ومعاذ بن جبل[٤] رضي الله عنهم أن آية الكرسي تجير من الشياطين .

٢) الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة :

روى أبومسعود الأنصاري عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه »[٥] .

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : « بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً[٦] من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم . فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك ، فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته »[٧] .

بين يدي السورة :

افتتحت السورة بتقرير مقومات الإيمان : التقوى ، والإيمان بالغيب ، وبالكتب ، وباليوم الآخر ... ونحو ذلك من أمارات عمق الإيمان وصدق المؤمن .

وأردفت السورة الكريمة علامات المؤمنين ، وما وُعِدوا به من خير ؛ بذكر أحوال الكفار مع هذا الكتاب المبين ، والنبي الأمين ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾[٨] . صدود وإعراض ، وعداء محض للحق ، ومناوأة للدعوة الإسلامية من مشركي مكة أولاً ، ثم منهم و من المشركين حول المدينة المنورة عقب الهجرةِ إليها وتأسيسِ المجتمع المسلم الأول فيها .

---

(١) رواه الحاكم في كتاب فضائل القرآن ، باب أخبار في فضل سورة البقرة ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . المستدرك ١ : ٥٦١ .

(٢) رواه ابن حبان ، انظر : الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢ : ٧٩ . والحاكم في المستدرك ١ : ٥٦٢ .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ١ : ٥٦٣ .

(٤) رواه الترمذي في سننه ٥ : ١٤٦ وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٥) رواه الإمام البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب فضل سورة البقرة ، ح ٥٠٠٩ ، انظر : فتح الباري ٩ : ٥٥ . والإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة .... ح ٢٥٥ (٨٠٧)، الصحيح ١ : ٥٥٤ . والآيتان من قوله تعالى: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴾ إلى آخر السورة . ومعنى قوله : « كفتاه » قيل : أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن . وقيل : كفتاه شر الشيطان . وقيل : كفتاه ما حصل بسببهما من الثواب عن طلب شيء آخر . انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٩ : ٥٦ .

(٦) النَّقِيض : صوت يشبه صوت فتح الباب . انظر : الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ٨٤٦ مادة « نقض » . (ط الرسالة) .

(٧) رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة .... ح ٢٥٤ (٨٠٦) ، الصحيح ١ : ٥٥٦ .

(٨) سورة البقرة ، آية : ٦ .

وبعد الحديث عن المؤمنين الصرحاء ، والكفار المجاهرين ، تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن فئة جديدة لم تكن تعرف عند بزوغ الدعوة في مكة المكرمة ، المنافقين الذين أظهروا الإيمان ، وأبطنوا الكفر ، فبات أمرهم أشد وأعظم ، لخفاء حالهم والتباس أقوالهم على الكثير من عامة المسلمين ، فأفشى الله تعالى لنبيه سرهم ، وهتك سترهم ، وضرب للناس أمثالهم ابتداءً من قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ [1] .

وأعقبت هؤلاء بالحديث عن شياطينهم ، أهل الكتاب ، وبخاصة اليهود الذين كان لديهم من العلم ما يكفي لمعرفة النبي ﷺ واتّباعه ، لكنهم عوضاً عن ذلك عزفوا عن الإسلام ، وحاربوا النبي ﷺ ، فتحدثت الآيات الكريمة عن سلوكهم ، وأخلاقهم ، وتعاملهم مع أنبيائهم ، مع التقريع والوعيد لهم على انحرافهم وكفرهم .

ثم عُنِيَت السورة الكريمة بعد ذلك بالمسلمين تربية وإعداداً لهذه الفئة المقبلة على دين الله تعالى ، وبناءً لهذا المجتمع الذي سيتحمل أعباء الدعوة والتبليغ وعمارة الأرض ، فبينت الشرائع والأحكام الكفيلة بذلك ، فكان من أبرز ما ساقته السورة الكريمة في ذلك ما يأتي :

١ – أحكام الصوم والحج والجهاد .

٢ – أحكام الأسرة ، من نكاح ، وطلاق ، ورضاع ... ونحو ذلك .

٣ – أحكام المعاملات .

٤ – التربية السلوكية للمسلمين ، وتوجيههم إلى الولاء الشرعي ، والتعلق بالله تعالى ، والبراءة من المشركين ، والمداومة على الاستغفار . وبذلك ختمت السورة .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٨ – ٢٠ .

أهمية الموضوع وسبب اختياره

الإنسان مستخلف في الأرض ، وموظف لعبادة الله تعالى ، زوّده سبحانه بما يمكنه من ذلك ، ومن أعظم ما أعطي « العقلُ » ، فبه يفسّر درك الحواس ، ويفهم معانيها ومراميها ، ولذا كان العقل مناط التكليف والمسؤولية .

والنفس البشرية واقعة بين قُوّتين : قُوة الشهوة التي يحرص بها على تناول اللذات البدنية ، وقُوّة العقل وبواسطته يحرص على اعتناق الدّين ، وينظّم حياته ، ويكتسب العلوم ... ونحو ذلك .

والعقل يسمو بصاحبه ، ويكبح انطلاقه في تناول اللذات البدنية ، ويَحُدّ من انحرافه في تيار الهوى ، ولايكمل له ذلك إلا إذا كان موجهاً بشريعة الله تعالى ، ولاشريعة غير الإسلام بعد مبعث النبي محمد ﷺ .

ومن أهم المبادئ التي عُني بها الإسلام احترام العقل وتكريمه ، وإعطاؤه حقه في حياة الإنسان ، حتّى في اختيار الدين الذي يعتنقه .

فالدعوة إلى الإيمان بالله قائمة على الإقناع ، قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ (1) ، وضرب له الأمثال في البعث ، وأهلِ الصلاح ، وأهلِ الفساد ، والحياةِ الدنيا ... وما إلى ذلك من أجل الوصول إلى الإقتناع بالدعوة ومن ثَمَّ اعتناقها ، دون قَسْر على الاتباع (2) ، قال تعالى : ﴿ لاإكراه في الدّين قد تَبَيّن الرُّشْدُ من الغَيّ فمن يكفر بالطاغوتِ ويؤمن بالله فقد اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَة الوُثْقىٰ لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ (3) ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ وقل الحقّ من ربكم فمَنْ شاء فليؤمن ومن شاء فَلْيكفر إنا أعْتَدْنا للظالمين ناراً أحاط بِهِم سُرادِقُها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهْل يَشْوي الوُجُوه بِئسَ الشَّراب وساءت مُرْتَفَقا ﴾ (4) .

ومن تكريم الإسلام أيضاً للعقل إلغاء الوسائط بين العبد وربه ، قال تعالى : ﴿ وقال ربكم ادْعُوني اسْتَجِبْ لكم إنّ الذين يَسْتكبرون عن عِبادتي سيدخلون جَهَنّم داخرين ﴾ (5) ، ونعىٰ على أولئك الذين اتخذوا أولياء ليكونوا - بزعمهم - دالّة لهم عند ربهم ، قال سبحانه : ﴿ ألا لله الدّين

---

(1) سورة ص ، آية : ٢٩ .

(2) اتفق العلماء على أن أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ومن دان بدينهم مخيرون بين الإسلام وبين الإقرار على دينهم إذا أعطوا الجزية ، وكذا من له شبهة كتاب كالمجوس ، واختلف العلماء في الكفار مما سواهم ، فظاهر مذهب الإمام أحمد والشافعي أنه لا يقبل منهم سوى الإسلام أو القتل . وذهب الإمام أبوحنيفة إلى أن الجزية تقبل من جميع الكفار إلا العرب . ويرى الإمام مالك أنها تقبل من جميعهم عدا مشركي قريش . ومذهب الأوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز أنها تقبل من جميعهم . [انظر : ابن قدامة ، المغني ١٠ : ٥٦٨ - ٥٦٩ ، ٥٧٣ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٢٨٠] .

(3) سورة البقرة ، آية : ٢٥٦ .

(4) سورة الكهف ، آية : ٢٩ .

(5) سورة غافر ، آية : ٦٠ .

الخالص والذين اتّخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ إن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون إنّ الله لايهدي من هو كاذب كفّار ﴾ (١) .

يضاف إلى ذلك الأمر بالتعلم ، ورفع مكانة العلماء ، والحثّ على الاجتهاد كما في حديث معاذ ابن جبل رضي الله عنه (٢) ، وتحريم الخمر وكل مايذهب العقل ويضرّ به .

والآيات القرآنية الكريمة المختومة بقوله تعالى : ﴿يتفكرون﴾ و ﴿يتدبرون﴾ و ﴿يعقلون﴾ إضافة إلى ماسبق دالّة على استخدام القرآن الكريم للمنهج العقلي في الدعوة إلى الله تعالى ، كما استخدمه النبي ﷺ على نطاق واسع ، فحاور ، وناقش ، وضرب الأمثال ، رغبة في إقناع المدعوين بما بعثه الله به من الهدى والنور .

ويلاحظ عند ذكر المنهج العقلي انصراف كثيرٍ من الأذهان إلى تلك الأساليب المنطقية المعقدة والطرق الفلسفية عند أهل الكلام وأهل الجدل ، وحقيقة الأمر أن هذه الأساليب إنما هي دخيلة وغريبة على اللغة العربية ، والقرآن الكريم استخدم المنهج العقلي على النسق العربي الأصيل، بعيداً عن تلك التراكيب المستحدثة ، قال السيوطي : « قال العلماء : قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يُبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به ، لكن أورده على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قاله : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ (٣) .

والثاني : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليّ من الكلام ، فإن استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لايعرفه إلا الأقلون ، ولم يكن مُلْغِزاً .

فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ، وتفهم الخواصُّ من أنبائها مايربو على ما أدركه فهم الخطباء » (٤) .

وذلك البعد عن التعقيد المنطقي ، والاستخدام الواضح للمنهج العقلي ؛ يسّر على الناس فهمه على مختلف أصنافهم ، ويرى الشيخ أبو زهرة أن الناس في أصنافهم ثلاثة أقسام (٥) :

---

(١) سورة الزمر ، آية : ٣ .
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ١ : ٢٧ .
(٣) سورة إبراهيم ، آية : ٤ .
(٤) السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ٢ : ١٧٢ .
(٥) انظر : ابوزهرة ، تاريخ الجدل : ٦٠ - ٦١ .

أ ـ الذين غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية ، وهؤلاء لا يصدقون إلا بالبراهين ، ولا يرضيهم إلا الأقيسة المنطقية وما جرى مجراها ، وهم قلّة من الناس انصرفوا إلى هذا المسلك ، وانهمكوا في تلك الدراسات .

ب ـ المتعصبون لفكرة أو مذهب ديني غلب عليهم بالوراثة وطول العهد ، والتعصب نتيجته إقفال العقول وصدّ القلوب عن قبول الحق وربما مجرد السماع له ، وهؤلاء بحاجة إلى أدلة عقلية ، ومجادلة حسنة ، تزيل المُلتبس عليهم ، وتتخذ مما يعرفون وسيلة لقبول ما يرفضون ، وهم وإن كانوا أكثر من الأوائل إلا أنهم ليسوا بغالبية .

ج ـ عامة الناس الذين هم أقرب في تفكيرهم إلى الفطرة السليمة ، وهؤلاء ليسوا بحاجة إلى طرق منطقية ، إنما تلائمهم الأدلة العقلية التي يدرك مدلولها من الوهلة الأولى ، مقرونة بالإثارة الوجدانية ، فذلك أجدى وأنجع في دعوتهم .

وإن ما تقدم بيانٌ لأهمية الموضوع ومن البواعث الرئيسة لاختياره ، يضاف إلى ذلك أسباب أخرى أذكر بعضها بإيجاز :

١ ـ معرفةأبعاد الدعوة بالمنهج العقلي وطرق استعماله من خلال القرآن الكريم وبخاصة سورة البقرة ، ومن فوائد ذلك توعية الداعية ببعض أفانين الدعوة ، وتنشيط العملية لدى القائمين على نشر الدعوة والمهتمين بها .

٢ ـ بيان حدود المنهج العقلي وضوابط استخدامه ـ قدر المستطاع ـ ، ومعرفة ما يجوز للعقل أن يخوض غماره ، وما ليس من شأنه الخوض فيه .

٣ ـ أن ثمرات الدعوة بالمنهج العقلي سرعان ما تظهر سلباً أو إيجاباً ، لأن من مميزات الدعوة بالمنهج العقلي الوضوح والإلزام ، وهما كافيان ليحدد المدعو موقفه من الدعوة .

٤ - اشتمال سورة البقرة على أصناف المدعوين الأربعة : المسلمين ، وأهل الكتاب ، والمشركين ، والمنافقين .

٥ ـ ندرة المراجع التي تحدثت عن الدعوة بالمنهج العقلي على ضوء الكتاب والسنة عموما ، وفي سورة البقرة تحديداً ، رغم أهميته ، وأرجو من خلال إعداد الرسالة بهذا العنوان أن أسهم ولو بشيء يسير في هذا الأمر .

الدراسات السابقة

تنقسم الدراسات السابقة فيما يتعلق بالمنهج العقلي إلى قسمين :

أولاً : الدراسات الجامعية :

بعد البحث عن الرسائل (المُناقَشَة) التي تتعلق بهذا الموضوع ، لم أقف إلا على بحث تكميلي لمرحلة الماجستير مقدم من الطالب محمد بن علي العثمان في كلية الدعوة (المعهد العالي للدعوة الإسلامية سابقاً) بالمدينة المنورة ، بإشراف فضيلة الدكتور محمد عبدالله أبوالفتح البيانوني ، بعنوان (تطبيقات الرسول ﷺ للمنهج العقلي في الدعوة) ، وقسمه الطالب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : المحاكمات العقلية ، وتحدث فيه عن الأقيسة بأنواعها : المساوي ، والضمني ، وقياس الخلف . والاستفهام التقريري .

والفصل الثاني : المجادلات ، واشتمل على أربعة مباحث هي : الاستدلال بالأثر على وجود المؤثر ، والسبر والتقسيم ، والإسجال ، وإبطال الدور والتسلسل .

والفصل الثالث : ضرب الأمثال .

وأوجه استفادة الباحث في هذه الرسالة من هذا البحث محدودة للغاية حيث إن هذه الرسالة تعنى بـ « سورة البقرة » أصالة ، وتدرس المنهج العقلي من ثلاثة جوانب هي فئات المدعوين بهذا المنهج ، ووسائل المنهج ، والعقبات وطرق التغلب عليها ، أما البحث التكميلي المشار إليه فإنه يعنى بجانب التطبيقات فقط كما هو واضح من التقسيم ، ومقتصر على الحديث النبوي دون التطبيقات الواردة في القرآن الكريم .

وهنالك أطروحة دكتوراه مسجّلة في كلية الدعوة ذاتها للطالب : إبراهيم الجارالله ، بعنوان (منهج القرآن في مخاطبة الإنسان بين العقل والفطرة) ، وقد أفادني الباحث نفسه أنه يعتمد المنهج الاستقرائي للقرآن كله من سورة الفاتحة إلى سورة الناس .

ولهذا الموضوع صلة بهذه الرسالة من حيث المخاطبات العقلية للمدعوين بالمنهج الاستقرائي، ولكن فاتني الإفادة منها حيث إن الباحث لمّا ينته من إعدادها حتى وقت كتابة هذه السطور .

ثانياً : الكتب العلمية :

تتعدد المصادر والبحوث في المنهج العقلي وفق الموضوع الذي يطرح فيه . وبما أن هذه الرسالة مختصة بالدعوة ، فقد عني الباحث بتتبع موضوع هذه الرسالة في المراجع العلمية اللصيقة به وهي كتب الدعوة والتربية الإسلامية . وبعد البحث والتنقيب تم العثور على مرجعين تحدثا عن بعض جوانب المنهج العقلي في الدعوة وهما :

١ - كتاب « المدخل إلى علم الدعوة » للدكتور أبوالفتح البيانوني ، تحدث في الفصل الثالث منه عن المناهج من خلال ثلاثة مباحث ، الأول في تعريف المناهج وبيان أنواعها وأهدافها ، والثاني في التعريف بالمناهج الثلاثة : العاطفي والعقلي والحسي مع بيان أساليبها ، والثالث في الملامح العامة للمناهج وخصائصها العامة .

وبهذا يكون الحديث عن المنهج العقلي ورد في الفقرة الثانية من المبحث الثاني من الفصل الثالث ، وأبرز عناصره :

أ) تعريف المنهج العقلي .

ب) أبرز أساليب المنهج العقلي وهي : المحاكمات العقلية ، والجدل والمناظرة ، والحوار ، وضرب الأمثال ، والقصص .

ج) مواطن استعمالات المنهج العقلي .

د) من خصائص المنهج العقلي .

وهذه المادة في مجملها مفاتيح موضوعات مختصرة جداً ولكنها أعطت الباحث دفعة جيدة في تكون خطة الرسالة والتعرف على أبرز العناصر التي ينبغي دراستها والوقوف عندها ، بل إن الباحث استقى فكرة عنوان الرسالة من هذا الكتاب .

٢ - كتاب « منهج تربوي فريد في القرآن الكريم » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، أورد فيه مبحثاً بعنوان : (المحاكمات العقلية) ، وعالجها من ثلاثة جوانب :

أ) تعريف الإنسان بذاته ، وتحدث فيه عن خطاب القرآن الكريم للناس بلَفْتِ أنظارهم إلى أنفسهم ، مع الحديث عن أصل الإنسان ، وحقيقته وكيفية نشأته وتناسله ، مستعرضاً نماذج من الآيات القرآنية الكريمة التي تناولت هذه الفقرات مصاحبة بالتحليل العلمي والعقلي لهذه الآيات .

ب) اختيار أسلوب صالح لجميع الناس، وأورد له أمثلة نحو (كفاتاً) و (دحاها) و (مقوين) التي يتبادر إلى ذهن الإنسان العادي معناها البدهي ، ويجد فيها العالم معاني ومدلولات عميقة

ودقيقة بعد البحث والدراسة .

ج) الاعتماد على المناقشة والحوار ، وركز فيه على مناقشة المشركين فقط ، مع أمثلة قرآنية كريمة عليها ، وشيء من التعليق والشرح والبيان .

وقد أفاد الباحث من هذا المرجع في كيفية مناقشة المشركين .

المشكلة البحثية وتساؤلات البحث

القضية الرئيسة التي لازمت البحث منذ انطلاقته الأولى هي كيفية استخلاص الدعوة بالمنهج العقلي من خلال سورة البقرة ، فالمصادر قليلة ، والمعلومات مبعثرة في بطون الكتب ، وقد اشتغل كل ذي فَنٍّ بفَنِّه ، فأهل المنطق اشتغلوا بالخلافات المذهبية والعقدية ، وربما خاضوا في مسائل أصول الفقه ، وعلماء التفسير اشتغلوا به وفق مشرب كلّ واحدٍ منهم ، فمن كان فقيهاً خرج بتفسير فقهي ، ومن كان من أهل الحديث جاء بالتفسير بالمأثور ، ومن كان من أهل اللغة بانت آثار صنعته على تفسيره ، وكذا أصحاب المذاهب الفكرية لم تخل تفاسيرهم مما يذهبون إليه .

فكان لزاماً على الباحث أن يخرج بالمنهج العقلي السليم ، البعيد عن شوائب المشارب الفكرية المجانبة للصواب ولمنهج السلف رضوان الله عليهم ، مع الاستعانة بما يتفق مع أصول الشريعة من الطرق والأساليب المنطقية ، مع الحرص على أن تكون سهلة بعيدة عن الغموض والتطويل .

ثم جرى السير في البحث ومعالجة موضوعات الدعوة بالمنهج العقلي من خلال سورة البقرة انطلاقاً من التساؤلات الأولى التي طرحت نفسها عند اختيار الموضوع وهي :

١ - هل استخدمت الآيات الكريمة في سورة البقرة المنهج العقلي في الدعوة ؟

٢ - وكيف ناقشت السورة الكريمة عقلياً فئات المدعوّين ؟

٣ - وماهي الطرق والوسائل التي جرى من خلالها عرض المنهج العقلي وتقديمه ؟

٤ - وماهي العقبات والعوائق التي واجهت هذا المنهج ، وكيف أمكن مواجهتها ؟

وبحمد الله تعالى وتوفيقه تم إكمال البحث حتى خرج على هذا النحو المعروض في الرسالة .

منهج الدراسة وتقسيم البحث

كل بحث يجري إعداده لا بدّ من السير فيه وفق مناهج تتواءم مع طبيعة موضوعاته ، وتخدم الغاية التي يسعى لها . والمناهج التي جرى إعداد البحث من خلالها هي : المنهج الاستدلالي ، والمنهج الاستقرائي ، والمنهج الجدلي ، وسيأتي قريباً ذكرها مفصلة مع الأمثلة عليها في الفصل التمهيدي [1] .

وأما الخطوات المتبعة في إعداد الرسالة وإخراجها فهي كالتالي :

١ - تتبع الآيات ذات الصلة بالمنهج العقلي من خلال سورة البقرة ، وتصنيفها حسب الموضوعات المراد دراستها في هذه الرسالة ، وقد كان ذلك بتوجيه مباشر من فضيلة المشرف الدكتور زاهر الألمعي جزاه الله خيراً ، وكان له أكبر الأثر في تحديد أطُر الموضوعات ، وفقراتها الرئيسة .

٢ - الاستعانة بشواهد من الآيات الكريمة غير ما ذكر في سورة البقرة ، وكذلك الأحاديث النبوية والآثار ، لإخراج الموضوع المطروح في سورة البقرة مكتمل الأطراف - قدر المستطاع - .

٣ - يلاحظ القارئ للرسالة تكرار الاستشهاد بالنص الواحد في أكثر من موطن ، وذلك راجع إلى أن بعض الآيات تحوي أكثر من موضوع ، فيستشهد بها بحسب الموضوعات الواردة فيها .

٤ - لم يعن الباحث بترجمة جميع الأعلام الواردين في الرسالة ، تحاشياً لتطويل الرسالة بما ليس من صلب موضوعها ، ولعدم الحاجة الملحة لذلك .

٥ - الطريقة التي سار عليها الباحث في العزو إلى المصادر كالتالي :

أ) إحالة الآيات إلى سورها وأرقامها .

ب) تخريج الأحاديث من مظانها بذكر الراوي ، واسم الكتاب واسم الباب ورقم الحديث ، والمصدر ، وأما في المسانيد فيذكر الراوي والجزء والصفحة ، ورقم الحديث إن وجد .

ج) عزو الأقوال المقتبسة إلى مصادرها مباشرة بذكر اسم المؤلف واسم كتابه والجزء - إن وجد - والصفحة ، وإن تكرر في الصفحة الواحدة متتالياً أشرت إليه بعبارة « المصدر السابق » ، وأحب التنبيه هنا إلى أن الباحث وقف على نصوص لآيات كريمة حرفها الشيعة في كتاب « الشيعة

---

(١) انظر صفحة ٤٤ - ٤٩ من هذه الرسالة .

والقرآن » لإحسان ظهير رحمه الله ، ولم استطع الوصول إلى مصادرها فأثبتها نقلاً عنه .

د) تخريج الأبيات الشعرية من مظانها الشعرية قدر الإمكان ، وقد يجد القارئ للرسالة أبياتاً شعرية غير مخرّجة ، فذلك عائد لتعذر الوقوف على قائلها .

ومجمل معالم الرسالة بعد المقدمة :

الفصل التمهيدي : وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : عرض موجز لأبرز المدارس العقلية في الإسلام .

المبحث الثاني : المناهج العقلية المستخدمة في سورة البقرة .

المبحث الثالث : الإطار العام للأدلة العقلية في القرآن الكريم .

الباب الأول : وعنوانه « الدعوة بالمنهج العقلي من خلال سورة البقرة » ، وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : استخدام المنهج العقلي في دعوة المشركين ، ويحوي ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : المنهج الاستدلالي في الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى .

المبحث الثاني : المنهج الاستدلالي في إثبات نبوة محمد ﷺ .

المبحث الثالث : المنهج الاستدلالي في الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر .

الفصل الثاني : استخدام المنهج العقلي في دعوة أهل الكتاب ، ويحوي خمسة مباحث :

المبحث الأول : المنهج الاستدلالي في دعوة أهل الكتاب إلى التصديق بالنبي ﷺ .

المبحث الثاني : المنهج الاستقرائي لبيان التحريف عند أهل الكتاب .

المبحث الثالث : المنهج الاستقرائي لبيان موقف أهل الكتاب من الدعوة .

المبحث الرابع : المنهج الاستقرائي لبيان أخلاقيات بني إسرائيل .

المبحث الخامس : المنهج الاستدلالي لمواجهة نقائض أهل الكتاب .

الفصل الثالث : استخدام المنهج العقلي في دعوة المنافقين ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : المنهج الاستقرائي لبيان سلوك المنافقين .

المبحث الثاني : المنهج الاستدلالي لمعرفة واقع المنافقين .

المبحث الثالث : المنهج الاستقرائي لتحديد تعامل المسلمين مع المنافقين .

الفصل الرابع : استخدام المنهج العقلي في دعوة المسلمين ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : المنهج الاستقرائي لمعرفة الولاء والبراء عند المسلمين .

المبحث الثاني : المنهج الاستدلالي في قضايا الأحكام والتمسك بها .

المبحث الثالث : المنهج الاستدلالي في ترسيخ القيم والأخلاق .

الباب الثاني : بعنوان : وسائل الدعوة بالمنهج العقلي من خلال سورة البقرة ، وفيه ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول : وسيلة الاستدلال بالغيب ، وفيه ثلاثة مباحث هي :

المبحث الأول : قصص الأنبياء والأقوام السابقين .

المبحث الثاني : أحوال يوم القيامة .

المبحث الثالث : كشف أسرار النفوس .

الفصل الثاني : وسيلة الحـــــوار ، وفيه ثمانية مباحث هي :

المبحث الأول : المعارضة .

المبحث الثاني : المناقضة .

المبحث الثالث : المنع .

المبحث الرابع : القلب .

المبحث الخامس : المقابلة .

المبحث السادس : التحدي .

المبحث السابع : السبر والتقسيم .

المبحث الثامن : المجاراة .

الفصل الثالث : وسيلة الأمثال ، وفيه أربعة مباحث هي :

المبحث الأول : أمثال المنافقين .

المبحث الثاني : أمثال الكفار .

المبحث الثالث : أمثال المسلمين .

المبحث الرابع : التشبيهات .

الباب الثالث : بعنوان : ضوابط المنهج العقلي في سورة البقرة وموانع الاستفادة منه وسبل التغلب عليها ، وفيه فصلان هما :

الفصل الأول : ضوابط المنهج العقلي في الدعوة ، وفيه خمسة مباحث هي :

المبحث الأول : الضابط الشرعي في التفكير .

المبحث الثاني : التوقف عند الحدود المتاحة للعقل .

المبحث الثالث : توفر الشروط اللازمة للتأويل .

المبحث الرابع : عدم تحميل النصوص ما لا تحتمل .

المبحث الخامس : عدم تعليل ما لا يعلل .

الفصل الثاني : موانع الاستفادة من المنهج العقلي في سورة البقرة وسبل التغلب عليها ، وفيه مبحثان هما :

المبحث الأول : موانع الاستفادة من المنهج العقلي في الدعوة .

المبحث الثاني : سبل التغلب على الموانع .

الخاتمة .

فهارس الرسالة .

الفصل التمهيدي

المبحث الأول : عرض موجز لأبرز المدارس العقلية في الإسلام .

المبحث الثاني : المناهج العقلية المستخدمة في سورة البقرة .

المبحث الثالث : الإطار العام للأدلة العقلية في القرآن الكريم .

أبرز المدارس العقلية في الإسلام

انطلقت الدعوة الإسلامية من مكة المكرمة في بيئة مشركة، تعبد الأصنام، وبها بقية من دين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، عرف أهلها بالدهاء والصلابة وقوة الحدس، قاوموا الدعوة الإسلامية بعنف وقسوة لمناقضتها عقيدة ترسخت في نفوسهم بالقِدَم والتوارث.

وبانتقالها إلى المدينة المنورة واجهت صنفين آخرين من المدعوين هما أهل الكتاب والمنافقون، وامتاز أهل الكتاب عن المشركين بما لديهم من علم وكتاب، وقدرتهم على المراء والجدل.

وقد اقتضى هذا أن تعتمد الدعوة أساليب تساعد في التغلب على صلابة المشركين من ناحية، وتحد من جدال أهل الكتاب وكيد المنافقين من ناحية أخرى، فكان من تلك الأساليب: الإقلال من الدخول في الجدال والخصومات، ويدلل عليه ما يلي:

١ - كراهة النبي ﷺ للإكثار من السؤال، قال أبوموسى الأشعري رضي الله عنه: « سئل رسول الله ﷺ عن أشياء كرهها فلما أكثِر عليه غضب، ثم قال: سلوني عمّ شئتم. فقال رجل: من أبي؟ قال: أبوك حذافة. فقام آخر فقال: من أبي يارسول الله؟ قال: أبوك سالم مولى شيبة. فلما رأىٰ عمر مافي وجه رسول الله ﷺ من الغضب قال: إنا نتوب إلى الله »[1].

٢ - ترك النبي ﷺ للإطالة في الجدال واكتفاؤه بذكر أقوى الأدلة وأوضح البراهين، كما في محاورة النبي ﷺ للمشركين بحضرة أبي طالب[2]، ومجادلته ﷺ لوفد نجران[3].

وهذه جملة من المبادئ التي تعلمها جيل الصحابة رضوان الله عليهم وسار عليها في حياة النبي ﷺ، وانصب اهتمامهم عقب وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام على نشر الإسلام وتعليمه، ومجانبة الجدال في مسائل الصفات بخاصة، رغم ما حباهم الله سبحانه من نضوج عقل، وقدرة على الحوار والمناقشة، لأنه مما أعفي الإنسان منه ولم يكلف به، يقول هاملتون جب: « شيئان إذن ميّزا تطور التشريع الإسلامي وهما: الصبغة العملية، والكره للحذاقة الفكرية أو مواجهتها بالارتياب، وكلا هذين يميز أيضا تطور علم الكلام السني، ولكن المرء في هذه الحال أيضاً يجب

---

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لايتعلق به تكليف، وما لا يقع.. ونحو ذلك، ح ١٣٨ (٢٣٦٠)، الصحيح ٤: ١٨٣٤ - ١٨٣٥.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ١: ٣١٥.

(٣) انظر: الواحدي، أسباب النزول: ١٢٨، ١٣٦.

أن يحذر سوء الفهم حين يسمع الحديث عن كره الحذاقة الفكرية أو الارتياب فيها ، ذلك أن الخطر من تلك الحذاقة لايكمن في استغلال قوة الذكاء ، وإنما في إساءة استغلالها ، وبخاصة وأنها قد تقود إلى الاعتداد الذاتي أو إلى الاستسلام لمتعة المران العقلي ، وكلا هذين صورة من صور الكفر ، فأولهما لايتلاءم مع مايراه المسلم من واجب الخضوع لله ، والثاني يتحول بالتفكر في الله إلى لَهْو »(1) .

وبقي هذا الأسلوب النبوي سائدا لدى معظم التابعين رضوان الله عليهم ، لكن توسع الفتوحات الإسلامية ، واحتكاك المسلمين بالشعوب الأخرى من أهل البلاد المفتوحة ودخول كثير منهم في الإسلام ، والعلاقات المتبادلة مع الدول الأخرى المعاهدة وسّع من من حجم التبادل المعرفي والثقافي ، تبدّى ذلك في نشاط حركة الترجمة أيام الخليفة العباسي « المأمون » فظهر نمط جديد في التفكير اصطبغ بصفة التوسع والانفتاح مبتعدا بذلك عن أسلوب التحفظ والحذر الذى دَرَج عليه المسلمون ، مما أفرز مدارس فكرية جديدة كان لبعضها جذور في نهاية القرن الأول الهجري ، منها :

المعتزلة :

جاءت هذه التسمية من مقولة الحسن البصري رحمه الله « اعتزل عنا واصل » إذ يُرْوىٰ أن رجلاً دخل على الحسن البصري بجامع البصرة فقال : « يا إمام الدين ، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج من الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لاتضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ركنٌ من الإيمان ، ولايضر مع الإيمان معصية ، كما لاينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟

فتفكّر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء الغزّال : أنا لاأقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين .

ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل »(2) فسمي هو وأصحابه بعد ذلك معتزلة .

وكانت هذه أول قاعدة قررها مؤسس المدرسة الاعتزالية حتى إنه صنف في ذلك كتابه

---

(1) جب ، دراسات في حضارة الإسلام : ٢٦٦ .
(2) الشهرستاني ، الملل والنحل ١ : ٤٨ . وانظر : الرازي ، اعتقادات فرق المسلمين : ٣٩ .

« المنزلة بين المنزلتين » [1] ، ثم أخذ أمرها بالظهور ، إلى أن توسعت وتشعبت إلى فرق متعددة لكل واحدة منها أصول فكرية تختلف عن الأخرى ، لكنهم يشتركون في أصول خمسة هي [2] :

التوحيد ، ويريدون به نفي صفات الله تعالى وردها جميعاً إلى كونه عالماً قادراً [3] .

والعدل ، ومعناه أن الله تعالى ليس خالقاً لأفعال العباد ، ومما نقل عن واصل أن « الباري تعالى حكيم عادل ، لايجوز أن يضاف إليه شر ولاظلم ، ولايجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر ، ويحتم عليهم شيئا ثم يجازيهم عليه » [4] ، فقرر بذلك أن « العبد هو الفاعل للخير والشر ، والإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، وهو المجازى على فعله ، والرب تعالى أقدر على ذلك كله » [4] .

والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

يقول الرازي : « اعلم أن المعتزلة متفقون كلهم على نفي صفات الله تعالى من العلم ، والقدرة ، وعلى أن القرآن محدث ومخلوق ، وأن الله تعالى ليس خالقاً لأفعال العباد » [5] .

وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من أرباب المدرسة الاعتزالية عرفوا بسعة العلم ، والزهد ، ومناوأة العصاة ، والرد على الملحدين من الفلاسفة والزنادقة ، وكان مبدأ ظهورهم الدفاع عن الإسلام والوقوف - بخاصة - في وجه الفلاسفة المعتمدين على البحث والتفكير من خلال الاستدلال والنظر العقلي .

وقادهم هذا إلى دراسة مصادر الفلسفة ، والتعرف على أصولها للرد على الفلاسفة بأسلوب عقلي يماثل المبدأ الذي يسيرون عليه .

إلا أنهم أخذوا بالانحراف عن النهج القويم من جرّاء القاعدة التي اعتمدوها في بحثهم وتفكيرهم وهي « تقديم العقل على النص » [6] ، ورغم أن هذه القاعدة لم يُنصّ عليها في بادئ الأمر، إلا أنها ظاهرة في مناهجهم ، والمتأمل في رسالة (حجج النبوة) للجاحظ يدرك ذلك بوضوح [7] . وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « كما أن المعتزلة لما نصروا الإسلام في مواطن كثيرة ، وردّوا على الكفار بحجج عقلية ، لم يكن أصل دينهم تكذيب الرسول ﷺ ، وردَّ أخباره ونصوصه ، لكن احتجّوا بحجج عقلية ، إمّا ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وإمّا تلقوها عمّن

(١) انظر : ابن النديم ، الفهرست : ٢٠٣ ، والذهبي ، سير أعلام النبلاء ٥ : ٤٦٥ .
(٢) انظر : الجويني ، مناهج في التفسير : ١٠٧ .
(٣) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ١ : ٤٦ .
(٤) انظر : المصدر السابق ١ : ٤٧ .
(٥) الرازي ، اعتقادات فرق المسلمين : ٣٨ .
(٦) د . عبدالمجيد بدوي ، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني : ٢٣ .
(٧) انظر : الجاحظ ، رسالة حجج النبوة ٣ : ٢٢٦ .

احتجّ بها من غير أهل الإسلام ، فاحتاجوا أن يطردوا أصول أقوالهم التي احتجُّوا بها لتسلم عن النّقص والفساد ، فوقعوا في أنواع من ردّ معاني الأخبار الإلهية ، وتكذيب الأحاديث النبوية .

وأصل ما أوقعهم في نفي الصفات والكلام والأفعال والقول بخلق القرآن وإنكار الرّؤية والعلوّ لله على خلقه ؛ هي طريقة حدوث الأعراض وتركيب الأجسام ، وعنها لزمهم ما خالفوا به الكتاب والسّنة والإجماع في هذا المقام ، مع مخالفتهم للمعقولات الصريحة التي لا تحتمل النقيض، فناقضوا العقل والسمع من هذا الوجه ، وصاروا يعادون من قال بموجب العقل الصريح ، أو بموجب النقل الصحيح ، وهم وإن كان لهم من نَصْرِ بعض الإسلام أقوال صحيحة ، فهم فيما خالفوا به السُّنة سلَّطوا عليهم وعلى أهل الإسلام أعداء الإسلام ، فلا للإسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا »(١) .

ونتج عن القاعدة التي أصلوها ومسلكهم الذي نهجوه ، أن قرروا مسائل عدة تصور الطريق الذي ساروا عليه ، منها(٢) :

١/ أصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع .

٢/ الحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل ، واعتناقهما واجب كذلك بالعقل قبل الشرع .

٣/ ورود التكاليف ألطاف للباري تعالى أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام امتحانا واختباراً ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حيّ عن بيّنة ﴾(٣) .

٤/ وجوب تأويل الآيات المتشابهة في الصفات .

ويذكر الجاحظ مثلا عن العرب يظهر من خلاله مبدأ التأويل الذي يسير عليه المعتزلة ، قال الجاحظ : « كان يقول أحدهم في موضع الكفارة والأمنية : إذا بلغت إبلي كذا وكذا ، وكذلك غنمي ، ذبحت عند الأوثان كذا وكذا عتيرة ، والعتيرة من نسك الرّجَبِيّة ، والجمع عتائر ، والعتائر من الظباء ، فإذا بلغت إبل أحدهم أو غنمه ذلك العدد استعمل التأويل وقال : إنما قلت إني أذبح كذا وكذا شاء ، والظباء شاء ، فيجعل ذلك القربان شاء كله مما يصيد من الظباء »(٤) .

وهذا يعني استغلال مرونة اللغة العربية وسعة مدلولات الألفاظ فيها ، مما يعطي القدرة على توجيه اللفظ وجهة أخرى تحقق رغبة المتأول غير الوجهة المقصودة أولا .

ومن أعلام مدرسة المعتزلة :

---

(١) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ٧ : ١٠٦ - ١٠٧ .
(٢) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ١ : ٤٥ .
(٣) سورة الأنفال ، آية : ٤٣ .
(٤) الجاحظ ، الحيوان ١ : ١٨ .

أبعد الناس عن معرفة الحديث وأقوال الصحابة ، ويذكرون أحاديث يظنونها صحيحة وتكون من الموضوعات المكذوبات ، وأحاديث تكون صحيحة متلقّاة بالقبول ، بل مجمع على تلقيها وصحتها عند علماء أهل الحديث ، وهم يكذّبون بها أو يرتابون فيها ، وكذلك نجدهم - وغيرهم - في العقليات قد أحسنوا الظنّ بطريقة دون طريقة ، وفي كل من الطريقتين ما يؤخذ ويترك ، وأهم الأمور معرفةُ ما جاء به الرسول ﷺ وفهم ذلك »[(١)] .

ونبه في موضع آخر أن مسلك أهل الكلام العقلي وبعدهم عن النصوص الشرعية مكّن الفلاسفة من الاستطالة عليهم في بعض الاستدلالات ، وذلك في قوله : « والمقصود أن هؤلاء المتكلمين الذين جمعوا في كلامهم بين حقّ وباطل ، وقابلوا الباطل بباطل ، وردّوا البدعة ببدعة ، لما ناظروا الفلاسفة وناظروهم في مسألة حدوث العالم ونحوها ، استطال عليهم الفلاسفة لمّا رأوهم قد سلكوا تلك الطريق التي هي فاسدة عند أئمة الشرع والعقل ، وقد اعترف حُذّاق النُظّار بفسادها ، فظنّ هؤلاء الفلاسفة أنهم إذا أبطلوا قول هؤلاء بامتناع حوادث لا أوّل لها وأقاموا الدليل على دوام الفعل لزم من ذلك قِدَم هذا العالم ومخالفة نصوص الأنبياء .

وهذا جهل عظيم ، فإنه ليس للفلاسفة ولا لغيرهم دليل واحد عقلي صحيح يخالف شيئاً من نصوص الأنبياء »[(٢)] .

الأشاعـــــرة :

نشط المعتزلة آخر أيام الخليفة العباسي « هارون الرشيد » ومازالوا يزدادون وينتشر مذهبهم ، وتتعاظم قوتهم حتى أواخر زمن الخليفة المأمون الذي تبنى فكرة خلق القرآن ، ودعا الناس إليها بقوة السلطان ، ولم يستطع الوقوف في وجهه إلا نفر من العلماء أمثال محمد بن نوح ، والإمام البويطي ، والإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى ، إلا أن موقف الإمام أحمد نظراً لعلمه وشهرته ببغداد كان أظهر وأكثر تأثيراً ، ومن ثَمّ كان ابتلاؤه من قبل السلطان أشد ، فثبته الله تعالى ونصربه السنة وأهلها .

ومما قوّى موقف المعتزلة إعراض أهل الحديث عن علم الكلام وعدم اكتراثهم بمعرفة الطرق الكلامية ، مع تحذيرهم من الخوض فيما خاض فيه المعتزلة من أمور الصفات ، فخلت الساحة أمام زحف الفكر الاعتزالي حتى بلغ أوج قوته . ويشاء الله تعالى أن يؤيّد مذهب أهل السنة برجل منهم ، خرج عن مذهبهم وتمسك بمذهب الإمام أحمد ، وهو أبو الحسن الأشعري رحمه الله .

---

(١) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ٨ : ٢٧٧ - ٢٧٨ .
(٢) المصدر السابق ٨ : ٢٧٩ .

وأبوالحسن الأشعري هو علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، من ولد أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ[1]، ولد سنة ٢٦٠هـ وقيل سنة ٢٧٠هـ.

أقام على الاعتزال أربعين سنة، ودرس على زوج أمه أبي علي الجُبّائي[2]، حتى برع في الاعتزال وصار مقدماً فيهم، وصنّف في نصرة المعتزلة[3]، ثم شرح الله صدره لاتّباع الحق فأعلن البراءة من المعتزلة، قال السبكي: « فلما أراده الله لنصر دينه، وشرح صدره لاتباع الحق، غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً، ثم خرج إلى الجامع، وصعد المنبر وقال: إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرتُ فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي شيء على شيء، فاستهديت الله فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا - وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به - ودفع الكتب التي ألفها على مذهب أهل السنة والجماعة إلى الناس »[4].

ويذكر في موطن آخر أنه - أي الأشعري - رأى النبي ﷺ في المنام يأمره بهذا ويبشره بتأييد الله تعالى له، قال: « وكان يفتح عليه من المباحث والبراهين بما لم يسمعه من شيخ قط، ولا اعترضه به خصم، ولا رآه في كتاب »[5].

وإن نشأة أبي الحسن على المذهب الاعتزالي واشتغاله به سنين طويلة، وتبحره في علومهم مع ما آتاه الله تعالى من ذكاء وفطنة وقريحة وقّادة، وقوّة في الحجة، جعل من السهل عليه رد حجج المعتزلة ونقضها. وإن لم يسلم من آثار الاعتزال كما نبّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ويذكر عدد من الباحثين أن الإمام أبا الحسن بخروجه عن الاعتزال جاء بمذهب وسط بين أهل الحديث والمعتزلة، فهو يعتقد مذهب أهل السنة حيث يقول: « قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عزّ وجل، وسنّة نبينا ﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبوعبدالله أحمد بن محمد بن حنبل نضّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون »[6].

أما الدفاع عن هذه العقيدة فبالطريق العقلي الذي اعتمده المعتزلة في محاوراتهم، وبذلك تجنب عقيدة المعتزلة وخرج عن الطريقة الّتي كانت سائدة لدى أهل السنة.

---

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٥: ٨٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٥: ٨٦.
(٣) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى ٣: ٣٤٧.
(٤) المصدر السابق ٣: ٣٤٧ - ٣٤٨.
(٥) المصدر السابق ٣: ٣٤٩.
(٦) الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة: ٥٢.

ومن أهم المبادئ التي قررها الإمام أبو الحسن والمدرسة الأشعرية من بعده وطريقتهم التي ساروا عليها مايلي :

١/ تأكيد ظاهر النصوص الشرعية ، والإقلال من التأويل ، وعدم اللجوء إليه في جميع الأمور كما هي طريقة المعتزلة [٢] .

٢/ جعل العقل في خدمة النصّ ، وهذا خلاف المبدأ المقرر لدى المعتزلة بتقديم العقل على النص [٣] .

٣/ الرد على المعتزلة ، فقد وجد الإمام أبو الحسن أن السكوت عن المباحث التي أثارها المعتزلة أضرّ بعقيدة كثير من الناس حتى داخلهم الشكّ والوهن لفقدان مهابة السنة إذ عجز علماؤها عن الوقوف في وجه المد الاعتزالي .

وسبيل أبي الحسن الأشعري في ذلك غشيان مجالس المعتزلة وعدم مبادأتهم ، وقيل له في ذلك فقال : « أنا لا أكلم هؤلاء ابتداءً ، ولكن إذا خاضوا في ذكر ما لا يجوز في دين الله رددنا عليهم بحكم ما فرضه الله سبحانه وتعالى علينا من الردّ على مخالفي الحقّ » [٤] .

٤/ استخدام المصطلحات السائدة والمتداولة في ذلك العصر ، وعند المعتزلة بخاصة للردّ عليهم من خلالها [٥] .

ومما ساعد على انتشار وتوسع المذهب الأشعري ظهور عدد من تلاميذ أبي الحسن الأشعري امتازوا بالقوة العلمية والقدرة الفائقة على المناظرة والجدل ، وقد عمل هؤلاء بجهد دؤوب على نصرة المذهب والدفاع عنه ضد الأفكار الاعتزالية أو الفلسفية ، متبعين أصول مذهب الإمام أحمد ابن حنبل ، حتى أصبح لهذا المذهب أتباع في نواحي عدة من ديار المسلمين .

ومن أبرز أعلام هذه المدرسة :

١ - أبوبكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني ، ت ٤٠٣ هـ [٥] .

٢ - أبوبكر محمد بن الحسن بن فُوْرَك الأصبهاني ، ت ٤٠٦ هـ [٦] .

٣ - أبوإسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني ، ت ٤١٨ هـ [٧] .

---

(١) انظر : د . عبدالمجيد بدوي ، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني : ٢٦ .
(٢) انظر : المصدر السابق .
(٣) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ٣ : ٣٥٠ .
(٤) انظر : الندوي ، رجال من التاريخ ١ : ١٥٥ .
(٥) انظر ترجمته : الخطيب ، تاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ . والصفدي ، الوافي بالوفيات ٣ : ١٧٧ . والذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٧ : ١٩٠ .
(٦) انظر ترجمته : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٧ : ٢١٤ . والسبكي ، طبقات الشافعية ٤ : ١٢٧ .
(٧) انظر ترجمته : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٧ : ٣٥٣ . والسبكي ، طبقات الشافعية ٤ : ٢٥٦ .

٤ – عبدالقاهر بن طاهر التميمي البغدادي، ت ٤٢٩ هـ[١].

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في الأشاعرة:

تتبَّع شيخ الإسلام ابن تيمية مقالات أبي الحسن الأشعري وبعض أئمة الأشعرية، ذاكراً ما لهم وما عليهم.

فبيّن في عدة مواضع من كتابه «درء تعارض العقل والنقل» ما وافق فيه الأشعري وأئمة مذهبه السلف وأهل الحديث، إضافة إلى المخالفات التي وقعت منه أو من طائفته، وأبرزها:

أ) اتباع أبي الحسن الأشعري وأئمة مذهبه لأصول مذهب الإمام أحمد رحمه الله، يقول ابن تيمية: «وأبوالحسن الأشعري لما رجع عن مذهب المعتزلة، سلك طريقة ابن كُلاب، ومال إلى أهل السنة والحديث، وانتسب إلى الإمام أحمد، كما قد ذكر ذلك في كتبه كلها، كالإبانة والموجز والمقالات وغيرها، وكان مختلطاً بأهل السنة والحديث كاختلاط المتكلم بهم، بمنزلة ابن عقيل عند متأخريهم، لكن الأشعري وأئمة أصحابه أتبع لأصول الإمام أحمد وأمثاله من أئمة السنة من مثل ابن عقيل في كثير من أحواله، ومِمَّن اتبع ابن عقيل كأبي الفرج بن الجوزي في كثير من كتبه»[٢].

وساق لبيان ذلك قول البيهقي في الأشعري من أنه «أخذ أقاويل الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة في أصول الدين، فبصّرنا بزيادة شرح وتبيين، وأن ما قالوه وجاء به الشرع في الأصول صحيح في المعقول، خلاف ما زعمه أهل الأهواء، من أن بعضه لا يستقيم في الآراء، فكان في بيانه تقوية ما لم يزل عليه أهل السنة والجماعة، ونصرة أقاويل من مضى من الأئمة»[٣]. وذكر الأئمة الأربعة والأوزاعي والليث بن سعد وغيرهم.

وعلق عليه شيخ الإسلام بقوله: «وهذا الذي ذكره البيهقي هو المعروف في كتبه وعند أئمة أصحابه. وذكر ابن عساكر عن جماعة ما يوافق كلام البيهقي، فذكر أن أبا الحسن القابسي – وهو من كبار أئمة المالكية بالمغرب – سئل عنه فكان جوابه: واعلموا أن أبا الحسن الأشعري لم يأت من هذا الأمر – يعني الكلام – إلا ما أراد به إيضاح السنن، والتثبيت عليها، ودفع الشبه عنها. وقال ابن فورك: انتقل الشيخ أبوالحسن الأشعري من مذاهب المعتزلة إلى نصرة مذاهب أهل السنة

(١) انظر ترجمته: الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٧: ٥٧٢. والكتبي، فوات الوفيات ٢: ٣٧٠. والسبكي، طبقات الشافعية ٤: ١٢٧.
(٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل ٢: ١٦.
(٣) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل ٧: ٩٩ – ١٠٠.

والجماعة بالحجج العقلية وصنّف في ذلك الكتب »[1].

ب) تقديم النقل على العقل، وأثبت شيخ الإسلام هذا الأصل لأبي الحسن الأشعري وأئمة مذهبه، مع الإشارة إلى ميل متأخري الأشعرية إلى المعتزلة بل وأهل الفلسفة. فبعد انتقاده لمذهب المعتزلة والجهمية في تقديم العقل على النص قال: « وهذا الكلام في الأصل هو من قول الجهمية المعتزلة وأمثالهم، وليس من قول الأشعري وأئمة أصحابه، وإنما تلقّاه عن المعتزلة متأخرو الأشعرية لمّا مالوا إلى نوع التجهم، بل الفلسفة، وفارقوا قول الأشعري وأئمة أصحابه الذين لم يكونوا يقرّون بمخالفة النقل للعقل، بل انتصبوا لإقامة أدلة عقلية توافق السمع »[2].

ج) إثبات الصفات وإبطال تأويلها، مع تنبيهه إلى وقوع طائفة من الأشاعرة فيما وقع فيه المعتزلة من نفي الصفات، حيث قال: « والأشعري وأئمة أصحابه كأبي الحسن الطبري وأبي عبدالله بن مجاهد الباهلي والقاضي أبي بكر الباقلاني متفقون على إثبات الصفات الخبرية التي ذكرت في القرآن كالاستواء والوجه واليد، وإبطال تأويلها، ليس له في ذلك قولان أصلاً، ولم يذكر أحد عن الأشعري في ذلك قولين أصلاً، بل جميع من يحكي المقالات من أتباعه وغيرهم يذكر أن ذلك قوله، ولكن لأتباعه في ذلك قولان »[3].

ومن أبرز ما أخِذَ على أبي الحسن الأشعري: طريقته في الاستدلال التي وافق في كثير من جوانبها مذهب المعتزلة، فكانت محط انتقاد من أئمة السلف إضافة إلى المعتزلة أنفسهم[4].

وأما في جانب الاعتقاد، فيلخص شيخ الاسلام أهم مآخِذِ أهل السنة على الأشعري بقوله: « والذي كان أئمة السنة ينكرونه على ابن كُلاب والأشعري: بقايا من التجهم والاعتزال، مثل اعتقاد صحة طريقة الأعراض، وتركيب الأجسام، وإنكار اتصاف الله بالأفعال القائمة التي يشاؤها ويختارها، وأمثال ذلك من المسائل التي أشكلت على من كان أعلم من الأشعري بالسنة والحديث وأقوال السلف والأئمة كالحارث المحاسبي، وأبي علي الثقفي، وأبي بكر بن إسحاق الصبغي.

مع أنه قد قيل: إن الحارث رجع عن ذلك، وذكر عنه غير واحد ما يقتضي الرجوع عن ذلك، وكذلك الصبغي والثقفي قد روي أنهما استتيبا فتابا.

(١) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل ٧: ١٠٢ - ١٠٣.
(٢) المصدر السابق ٧: ٩٧.
(٣) المصدر السابق ٢: ١٧.
(٤) انظر: المصدر السابق ٨: ١٠٠ - ١٠١.

وقد وافق الأشعريَّ على هذه الأصول طوائفُ من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم ، منهم من تبين له بعد ذلك الخطأ فرجع عنه ومنهم من اشتبه عليه ذلك ، كما اشتبه غير ذلك على كثير من المسلمين ، والله يغفر لمن اجتهد في معرفة الصواب من جهة الكتاب والسنّة، بحسب عقله وإمكانه ، وإن أخطأ في بعض ذلك »[1] .

الفلاسفة :

صاحب التوسع العلمي عند المسلمين اتجاه كثير منهم إلى الترجمة بتشجيع من دولة الخلافة وبخاصة أيام الخليفة المأمون ، وحازت كتب الفلسفة اليونانية على النصيب الأوفى من تلك الأعمال .

وأدت حركة الترجمة هذه إلى شيوع علوم الأمم الأخرى لدى المسلمين ، وبخاصة علم المنطق اليوناني ، فتناقلها الناس واهتم بها طائفة منهم عرفوا فيما بعد بالفلاسفة الإسلاميين .

ويُعَرِّف الدكتور سليمان دنيا الفلسفة بأنها : « العمليات الفكرية ، والمحاولات العقلية ، التي يراد منها التوصل إلى الحق والاهتداء إلى الصواب »[2] ، ويتركز موضوعها في النظر وراء المادة بالعقل المجرد ، والبحث في ماهيات الأشياء وأصولها وعلاقة بعضها ببعض[3] .

ومن أهم مبادئ الفلسفة ما يلي[4] :

١ - أزلية العالم وأبديته .

٢ - نفس الإنسان جوهر قائم بذاته ليس بجسم ولاعرض .

٣ - أبدية الأجسام البشرية واستحالة فنائها .

٤ - إنكار بعث الأجساد .

٥ - إنكار النبوات والمعجزات .

٥ - التوحيد ، وهو نفي الصفات ، كالمعتزلة[5] ، وليس مرادهم ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فهم من أبعد الناس عنه ، « إذ فيهم من الإشراك بالله تعالى ، وعبادة ما سواه ، وإضافة التأثيرات إلى غيره ما هو معروف لكل من عرف حالهم »[6] .

---

(١) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ٧ : ٩٧ - ٩٨ .
(٢) د . سليمان دنيا ، مقدمة تهافت الفلاسفة : ١٩ .
(٣) انظر : أحمد أمين ، مبادئ الفلسفة : ١٦ ، ١٩ .
(٤) انظر : الغزالي ، تهافت الفلاسفة : ٨٦.
(٥) انظر : ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ٨ : ٢٤٧ .
(٦) المصدر السابق ٨ : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

وهذه المبادئ إلى جانب الدعاوى الفلسفية الأخرى تقف وجها لوجه مع الدين ، وتجر المقبل عليها إلى الابتعاد عن الدين سراعًا كان ذلك أم رويداً إلى أن يصل إلى دائر الإلحاد .

وبناءً على ذلك فإن هذه الطائفة في حقيقتها خارجة عن إطار الدين الإسلامي ، لكن سوغ ذكرها هنا على أنها إحدى المدارس العقلية في الإسلام تأثر عدد من العلماء المسلمين بها ، وانتماء عدد من الفلاسفة إلى الإسلام ، وتأكيدهم على ذلك ، حتى إن « ابن رشد » أشهر فلاسفة الأندلس حاول في كتابه « فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال » نفي تعارض الفلسفة مع الإسلام .

ومن أشهر الفلاسفة في المشرق :

١ - يعقوب بن إسحاق الصَّبَّاح الكندي ، الملقب بفيلسوف العرب ، ت ٢٦٠ هـ [١].

٢ - أبو نصر الفارابي محمد بن محمد بن محمد بن طرخان ، ت ٣٣٩ هـ [٢] .

٣ - أبوعلي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا الملقب بالرئيس ، ت ٤٢٨ هـ [٣] .

وفي الأندلس :

١ - أبوبكر ابن باجة محمد بن يحيى بن الصائغ السَّرَقُسطي ، ت ٥٣٣ هـ [٤] .

٢ - أبوالوليد ابن رشد الحفيد محمد بن أحمد بن محمد القرطبي ، ت ٥٩٥ هـ [٥] .

---

(١) انظر ترجمته : ابن النديم ، الفهرست : ٣١٥ . والذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٢ : ٣٣٧ .
(٢) انظر ترجمته : ابن النديم ، الفهرست : ٣٢١ .
(٣) انظر ترجمته : الصفدي ، الوافي بالوفيات ١٢ : ٣٩١ . والذهبي ، سير أعلام النبلاء ١٧ : ٥٣١ . وابن حجر ، لسان الميزان ٢ : ٢٩١ .
(٤) انظر ترجمته : الصفدي ، الوافي بالوفيات ٢ : ٢٤٠ . والذهبي ، سير أعلام النبلاء ٢٠ : ٩٣ .
(٥) انظر ترجمته : الصفدي ، الوافي بالوفيات ٢ : ١١٤ . والذهبي ، سير أعلام النبلاء ٢١ : ٣٠٧ .

المناهج العقلية المستخدمة في سورة البقرة

المناهج العقلية إحدى أهم المناهج المستخدمة لنشر الدعوة وتبليغ الإسلام للناس ، ولسورة البقرة نصيب وافر من هذه المناهج ، وأبرز ما أمكن التوصل إليه من خلالها :

أولاً : المنهج الاستدلالي :

الدليل في اللغة ما يُستَدل به ، والدَّالّ كذلك أيضا [1] ، وعرفه الخطيب البغدادي اصطلاحاً بأنه : « ما أكسب علماً بالمدلول عليه وأفضى إلى يقين » [2] ، فيكون الاستدلال هو طلب الدليل[3].

أما المنهج الاستلالي من حيث الاصطلاح فعرفه الدكتور عبدالرحمن بدوي بأنه « « البرهان الذي يبدأ من القضايا المسلمة ، وينتهي إلى قضايا تنتج عنها بالضرورة ، دون اللجوء إلى عملية التجربة » [4] ثم قال : « وهو بهذا يبحث في القضايا العقلية ، ويمتاز بالدقة إذا سلم من العناصر الدخيلة التي ليست من صلب الموضوع المطروح » [5] .

ولهذا المنهج أدواتٌ ثلاث يعتمد عليها أصالة هي : القياس ، والتجريب العقلي ، والتركيب . ومن خلال استعراض سورة البقرة تبيّن استخدامها لأداتي القياس ، والتجريب العقلي ، وذلك كما يلي :

١ـ القياس :

يُراد بالقياس في اللغة الشبه والمماثلة ، كما يطلق ويقصد به المقدار أيضاً [6] .

أما تعريفه في الاصطلاح فيكثر ويتعدد ، ومنها على سبيل الذكر :

أ) تعريف علي بن عبدالله السبكي قال فيه : « إثبات حكم معلوم في معلوم آخر لاشتراكهما في علية الحكم عند المثبت » [7] .

ب) تعريف ابن النجار الحنبلي ، قال : « ردّ فرع إلى أصل بعلة جامعة » [8] .

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١١ : ٢٤٨ مادة « دلل » .
(٢) انظر : الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٢٣ .
(٣) المصدر السابق ٢ : ٢٤ .
(٤،٥) بدوي ، منهج البحث العلمي : ٥ .
(٦) انظر : الفيروزابادي ، القاموس المحيط ٢ : ٢٤٤ مادة « قيس » .
(٧) السبكي ، الإبهاج ٣ : ٣ .
(٨) ابن النجار ، شرك الكوكب المنير ٤ : ٦ .

ج) تعريف الشيخ عبدالوهاب خلاف وهو : « إلحاق واقعةٍ لانص على حكمها بواقعة ورد نصّ بحكمها في الحكم الذي ورد به النص لتساوي الواقعتين في علة هذا الحكم » [1] .

ويعنى البحث هنا بعملية القياس ، وأركانه ، بعيداً عن الخلافات الاصطلاحية في التعاريف ، إذ المقصود منه موطن الاستدلال العقلي .

ومن الآيات الكريمة المتضمنة للقياس في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون ﴾ [2] .

والآية هذه في معرض الحديث عن بني إسرائيل - اليهود - ، وبعض العلماء جعلها موجهة إلى اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ لأنه حاضر حين تنزل الآيات والطمع في قبوله وارد آنئذٍ ، قال الرازي : « هم اليهود الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ ، لأنهم الذين يصح الطمع في أن يؤمنوا وخلافه ، لأن الطمع يصح في المستقبل لا في الواقع » [3] .

وذهب آخرون إلى أن هذه الآيات نازلة في جماعة من اليهود كانوا يسمعون الوحي إذا نزل على رسول ﷺ فيحرفونه قصد أن يدخلوا في الدين ماليس منه ، ويحصل التضاد في أحكامه [4] .

والقياس الوارد في هذه الآية الكريمة يعرف بـ(قياس الأولى) ، وبيانه كما يلي :

١ - من جِبِلّة آباء بني إسرائيل العدول عن الإيمان ، والجرأة على الله تعالى بتحريف كلامه [5] .

٢ - واليهود المعنيون بالآية الكريمة أسوأ خلقاً ، وأكثر انحرافاً ، وأقل تمييزاً من آبائهم .

٣ - وإذا كان آباؤهم أعرضوا عن الإيمان ، فمن باب أولى أن يسلك هؤلاء سبيل آبائهم حتى إنه ليستبعد منهم الإيمان والتصديق بالنبي ﷺ .

وإنما حصل الاستبعاد لما هم فيه من عناد ومكابرة ، ولايعنى ذلك توقف توجيه الدعوة إليهم فذلك ما لم يفعله النبي ﷺ ، وفائدة المسلمين من هذا التوجيه الرباني معرفة صنفٍ من المدعوين لأخذ الحذر والحيطة في التعامل معهم ، وعدم التأثر والانجرار إلى مزالقهم ، إلى جانب التحذير ، من المكابرة والمعاندة ، وتلبيس الحق ، فذلك مما قلل حظهم في الهداية والإيمان ، إضافة إلى

(١) خلاف ، علم أصول الفقه : ٥٢ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٧٥ .
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٣٣ .
(٤) انظر : أبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٢٧٢ .
(٥) أصل التحريف الإمالة ، قال الراغب الأصفهاني : « وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على وجهين » . [المفردات : ١١٤].

التوجيه بالتزام الحق ، والوقوف عنده ، وعدم الحِيدة عنه .

وأورد الفخر الرازي ثلاثة وجوه تبرر الاستبعاد فقال :[1]

« أحدها : أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع أنهم ما آمنوا بموسى عليه السلام ، وكان هو السبب في أن الله تعالى خلصهم من الذل ، وفضلهم على الكل ، ومع ظهور المعجزات المتوالية على يده ، وظهور أنواع العذاب على المتمردين .

الثاني : أفتطمعون أن يؤمنوا ويظهروا التصديق ؛ ومن علم منهم الحق لم يعترف بذلك بل غيره وبدّله .

الثالث : أفتطمعون أن يؤمن لكم هؤلاء من طريق النظر والاستدلال ؛ وكيف وقد كان فريق من أسلافهم يسمعون كلام الله ويعلمون أنه حق ثم يعاندونه » .

٢ـ التجريب العقلي :

التجريب العقلي هو : « أن يقوم الإنسان في داخل عقله بكل الفروض والتحقيقات التي قد ييأس أو لايتيسر له أن يقوم بها في الخارج »[2] .

ومن ثنايا هذا التعريف يتبين بأنه - أي التجريب العقلي - يدور حول أمور تقبل إجراء التجربة الحسية عليها ، لكن جرى عرضها وتقريرها بطريقة عقلية لما ذكر في التعريف ، وأيضاً لعدم الحاجة الملحة للتجربة الحسية إما لوضوح المعنى والقدرة السريعة على تصوره ومعرفة المقصود منه ، أو لأن المقام ليس بمقام تجربة حسية .

وهذا المعنى هو الأقرب إلى مقام الآيات القرآنية الكريمة التي جرى استخدام التجريب العقلي فيها ، فالأمثال المضروبة معلومة ومألوفة ، وبإمكان السامع للآيات أن يتأمل فيها ، ويتدبر المعنى الذي ترمي إليه ، دون الحاجة إلى التجربة الحسية .

ومن الأمثال المضروبة في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون ★ صمّ بكم عمي فهم لايرجعون ﴾[3] .

يأتي هذا المثل بعد أن سرد الله تعالى على أسماع المؤمنين حقيقة صفة المنافقين من الكذب

---

(١) الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٣٤ .
(٢) بدوي ، منهج البحث العلمي : ١١٦ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٧ - ١٨ .

والخداع ، ووصم المؤمنين بالسفه ، والتآمر عليهم في السر ، وإضمار الكفر وإن أعلنوا بألسنتهم الإسلام ... وما إلى ذلك من تقرير واقع أمرهم حين قال سبحانه : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فماربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين ﴾ (١) .

واستخدم المثَلُ القرآني هنا أمراً مألوفاً لدى الناس يمكن وقوعه وإن لم يكن حاضراً ، فمثّل الإيمان بالنور المنبعث من النار المستوقدة ، والكفر بالظلام الدامس عقب انطفاء النور فجأة ، في تلك اللحظة يحتار المرء ولايدري أين يتجه ، ويكون عندها أشبه بالأصم الأبكم الأعمى .

والمنافقون بإعلانهم الإسلام اكتسبوا نوراً ، ولو ضَمّوا إليه إيماناً في القلب لتمّ نورهم ، ولكنهم أضمروا الكفر فوقعوا في الضلالة والظلمة ، ولم يبق لهم من نور الإسلام إلا مايجري عليهم من أحكام المسلمين في الظاهر .

وهم في أمرهم هذا يعرفون الحق ، لكنهم متمسكون بالنفاق لايتركونه ، فلايعودون إلى الهدى بعد أن باعوه ، ولايدعون الضلال بعد أن اشتروه (٢) .

ثانياً : المنهج الاستقرائي :

عرف الجرجاني الاستقراء بأنه : « الحكم على كلي لوجوده أكثر في جزئياته » قال : « ويسمى هذا استقراءً لأن مقدماته لاتحصل إلا بتتبع جزئياته » (٣) .

وبهذا فالمنهج الاستقرائي يعتمد على أمرين هما :

أ) الحكم الإجمالي العام المقصود التوصل إليه أصالة .

ب) حالات متشابهة لموضوع واحد ، أو فئة معينة يجري تتبعها والتوصل من خلالها إلى الحكم العام .

وقد تكرر هذا المنهج - بهذا المعنى - مراراً في سورة البقرة ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ★ وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ★ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان

(١) سورة البقرة ، آية : ١٦ .
(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٧٣ ، ٧٦ . والبقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٢٠ - ١٢١ .
(٣) الجرجاني ، التعريفات : ١٨ .

وإنْ يأتوكم أسارىٰ تُفادُوهم وهو مُحَرَّمٌ عليكم إخراجُهم أفتُؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء مَن يفعل ذلك منكم إلا خِزْي في الحياة الدُّنيا ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشدّ العذاب وماالله بغافلٍ عما تعملون ★ أولئك الذين اشتَرَوا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ولا هُم يُنْصَرون » (١) .

ووجه المنهج الاستقرائي في هذه الآيات الكريمة :

أ) أخَذَ الله تعالى الميثاق من بني إسرائيل على الإيمان به سبحانه ، وتقريره إياهم على الالتزام ببعض القواعد الشرعية :

١ - إفراد الله تعالى بالعبادة ﴿ لاتعبدون إلا الله ﴾ .

٢ - برّ الوالدين ﴿ وبالوالدين إحسانًا ﴾ .

٣ - الإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين .

٤ - خطاب الناس بالحسنى ﴿ وقولوا للناس حسنى ﴾ يقول سيد قطب : « وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٢) .

٥ - إقام الصلاة .

٦ - إيتاء الزكاة .

ولم يلتزم بنو إسرائيل بهذا الميثاق والعهد الذي أخذه الله سبحانه عليهم رغم إقرارهم وتولوا عنه في معظمهم كما فعل اليهود في زمن النبي ﷺ فقد أعرضوا إلا قليلاً منهم .

ب) ثم أخذ الله سبحانه ميثاقهم على نوع آخر من التكاليف :

١ - تحريم القتل وسفك الدماء ﴿ لاتسفكون دماءكم ﴾ .

٢ - تحريم إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم قسراً ﴿ ولاتخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ .

ومع إقرارهم بالميثاق وشهادتهم له لم يلتزموا به ، بل قتل بعضهم بعضاً ، وأُخْرِج فريقٌ منهم من ديارهم ، ثم فادوهم بعد ذلك ، ففعلوا ماحُرِّم عليهم حين أخرجوهم ، وأتَوا بالواجب حين فادوهم فاستحقوا بذلك الذمّ على المناقضة في تطبيق أحكام الله .

والنتيجة الأولى للاستقراء هي نقض بني إسرائيل للمواثيق ، والتناقض في التمسك بالأحكام الشرعية .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٨٣ - ٨٦ .
(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ١ : ٨٧ .

أما الحكم الكلي عليهم فقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ ، وفي هذا تنبيه إلى أن بني إسرائيل متناقضون مع أنفسهم في دعواهم الإيمان بموسى عليه السلام والتمسك بشريعته مع تكذيبهم بالنبي ﷺ ومعارضتهم له ، فالحجة في أمرهما سواء (١) ، ولكنْ سيراً من هؤلاء على طريقة سلفهم في انتقاء الأحكام والعمل بها .

ثالثاً : المنهج الجدلي (٢) :

يأتي الجدل في اللغة العربية بمعنى شدة الخصومة ، ومقابلة الحجة بالحجة ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة (٣) .

والمراد من هذا المنهج هو مجموع تلك الأساليب الجدلية المستخدمة لإثبات قضية ما ، أو نفيها ، أو لبيان صحتها أوكذبها .

ومن تلك الأساليب المستخدمة في سورة البقرة على سبيل المثال :

أ) المعارضة ، والمعارضة كما قال الجرجاني : « إقامة الدليل على خلاف ما أقام الدليل عليه الخصم » وقال : « ودليل المعارض إن كان عين دليل الخصم يسمى قلباً » (٤) .

ومثاله من سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ وقالوا لَنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ إلا مَنْ كان هُوداً أو نَصارى تِلْكَ أمانيُّهُم قُلْ هاتُوا بُرْهانكم إن كُنتُم صادِقين ★ بلى مَنْ أسْلَمَ وَجْهَه للهِ وهُو مُحْسِنٌ فَلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ولا خَوْفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنون ﴾ (٥) .

ب) المنع ، وهو عدم التسليم بوجود الحكم في الأصل (٦) ، ومثاله من السورة الكريمة قوله تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لَهم لا تُفْسِدوا في الأرْضِ قالوا إنَّما نَحْنُ مُصْلِحون ★ ألا إنَّهم هُم المُفْسِدونَ ولكِن لا يَشْعُرون ﴾ (٧) .

(١) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٧٤ .

(٢) أشار إلى هذا المنهج الدكتور علي سامي النشار في كتابه (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص : ٧) دون ذكر تفاصيل عنه . وحيث إن أساليب المنهج الجدلي وأمثلته سترد في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذه الرسالة ، فقد فضلتُ عدم التوسع في شرح الأساليب والأمثلة هنا دفعاً للإطالة والتكرار .

(٣) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١١ : ١٠٥ مادة « جدل » .

(٤) الجرجاني ، التعريفات : ٢١٩ . وانظر صفحة ٢٣٣ من هذه الرسالة .

(٥) سورة البقرة ، آية : ١١١ – ١١٢ . وانظر صفحة ٢٣٧ من هذه الرسالة .

(٦) انظر : الجويني ، البرهان في أصول الفقه ٢ : ٩٦٨ . وانظر صفحة ٢٤٦ من هذه الرسالة .

(٧) سورة البقرة ، آية : ١١ – ١٢ . وانظر صفحة ٢٤٧ من هذه الرسالة .

الإطار العام للأدلة العقلية في القرآن الكريم

تضمن القرآن الكريم أدلة عقلية عديدة في كثير من مجالات الدعوة إلى الله تعالى ، نبه إليها بعض العلماء أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : « بل السمع فيه من بيان الأدلة العقلية على إثبات الصانع ، ودلائل ربوبيته ، وقدرته ، وبيان آيات الرسول ، ودلائل صدقه ، أضعاف مايوجد في كلام النظّار »[1] .

وحتى تبرز هذه الأدلة وتمتاز عن غيرها لابد من تحديد معالمها التي تطرق لها القرآن الكريم ، ويستفاد من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بعض الموضوعات المدعو إليها من خلال هذه الأدلة وهي : التوحيد ، والقدرة ، وصدق نبوة النبي ﷺ ، كما أنه أكد ذلك في معرض الحديث عن الأدلة وتقسيماتها فقال : « ثم الشرعي قد يكون سمعياً وقد يكون عقلياً ، فإن كون الدليل شرعياً يراد به كون الشرع أثبته ودل عليه ، ويراد به كون الشرع أباحه وأذن فيه ، فإذا أريد بالشرعي ماأثبته الشرع ، فإما أن يكون معلوماً بالعقل أيضاً ولكن الشرع نبّه عليه ودلّ عليه ، فيكون شرعياً عقلياً ، وهذا كالأدلة التي نبه الله تعالى عليها في كتابه العزيز من الأمثال المضروبة وغيرها الدالة على توحيده ، وصدق رسله ، وإثبات صفاته ، وعلى المعاد .

فتلك كلها أدلة عقلية يعلم صحتها بالعقل ، وهي براهين ومقاييس عقلية ، وهي مع ذلك شرعية »[2] .

وتحديد الإطار العام لهذه الأدلة ممكن من خلال العناصر التالية :

أولاً : الأسلوب الاستفهامي في الاستدلال :

تدل كلمة (الفهم) في اللغة على معرفة الشيء بالقلب ، ويقال : فهم الشيء إذا علمه[3] . وقيل : « الفهم تصور المعنى من اللفظ »[4] ، وفرق الزبيدي بين الفهم والعلم فقال : « فإن العلم مطلق الإدراك ، وأما الفهم فهو سرعة انتقال النفس من الأمور الخارجية إلى غيرها »[5] .

وبناءً عليه فالاستفهام يعني طلب الفهم ، وعرفه الجرجاني بقوله : « استعلام مافي ضمير

---

(١) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ١ : ١٩٣ .
(٢) المصدر السابق ١ : ١٩٩ .
(٣) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٢ : ٤٥٩ مادة « فهم » .
(٤) الزبيدي ، تاج العروس ٨ : ١٦ مادة « فهم » .
(٥) المصدر السابق .

المخاطب » وقيل : « هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن ، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين أولا وقوعها ، فحصولها هو التصديق ، وإلا فهو التصور »[1] .

وحاصله أن عملية الفهم والاستفهام أمر عقلي ، ويحتاج إلى مزيد استعداد ذهني لإدراك المراد منه . ومن هنا يمكن القول بأن الأدلة المعتمدة على الأسلوب الاستفهامي في القرآن الكريم إنما هي أدلة عقلية ابتداءً ، وربما استعانت بقضايا مسلم بها ، أومحسوسات مشاهدة حال وقوع الاستفهام أو يمكن تصورها إن كانت غائبة آنئذ ، أيًا كان نوع الاستفهام[2] .

ومن أمثلة الاستفهام في معرض إثبات وحدانية الله قوله تعالى : ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى **آلله خيرٌ أمّا يشركون** ★ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها **أإله مع الله** بل هم قوم يعدلون ★ أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً **أإله مع الله** بل أكثرهم لايعلمون ★ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض **أإله مع الله** قليلاً ما تذكرون ★ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته **أإله مع الله** تعالى الله عما يشركون ★ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض **أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾[3] .

استفتحت الآيات الكريمة بين يدي الدلالة على وحدانية الله تعالى بحمد الله والثناء على عباده المؤمنين ، قال أبوحيان : « وكان هذا صدر خطبة لما يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة »[4] .

ولم تتطرق لبحث الربوبية فهذا أمر مسلم به لدى المشركين ، وبه ساغت مناقشتهم في أمر الألوهية مباشرة ، حيث أقيمت الدلائل عليها وذلك كما يلي :

١ - لفت الأنظار إلى المحسوسات الدالة على وحدانية الله تعالى المتمثلة في مشاهد الكون : سماوات وأرضين ، والحياة القائمة المُوجَدَةُ من عدم .

٢ - توجيه التفكير إلى خاصة النفس الإنسانية وما تحتاج إليه من كشف الكرب ، وإجابة دعاء المضطر ، واستخلاف الإنسان في الأرض ، والرزق ، مما يرتبط بذات الإنسان

---

(١) الجرجاني ، التعريفات : ١٨ .

(٢) قسم الزركشي الاستفهام إلى خبري وإنشائي ، وجعل لكل واحد منهما أنواعاً واستعمالات . انظر : البرهان في علوم القرآن ٢ : ٣٢٦ - ٣٣٤ .

(٣) سورة النمل ، آية ٥٩ - ٦٤ .

(٤) أبوحيان ، البحر المحيط ٧ : ٨٨ .

ويدركه من نفسه ، مما يعجز عن تلبيتها أحد غير الله تعالى [1] .

٣ – قياس مايكون مستقبلاً من البعث والنشور على قدرة الله تعالى القائمة الدالة على الإحياء والإيجاد من عدم .

والعقل السوي لايمكنه أن يقبل بشريك لله تعالى الذي أنشأ الكون من عدم ، وبيده الملك ، واختص بالإحياء وجعله سراً من أسرار الغيب لايعلمه أحد غيره .

فالشريك لابد أن يساوي شريكه في القدرة ، وبما أن الخلق أزلي فإن كان هذا الشريك موجوداً فيفترض وجود أثرٍ له ، وكل الآثار القائمة الحاضرة من خلق الله تعالى وإبداعه ؛ إذاً لاوجود للشريك ، بل لايصح أصلاً القول به ، فما ادّعوه إنما هو خلق من مخلوقات الله تعالى .

وإن من يدعي أمراً ينبغي ألا يقدم عليه إلا ببرهان حاضر ، ينجّزه إذا طلب منه ، ويستدل به إذا اعتُرض عليه ، ولذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يطالبهم بالبرهان الذي استندوا عليه في ادعاء الشريك لله سبحانه ، بعد أن قدم البراهين الساطعة ، والدلائل القاطعة ، والحجج الباهرة ، على توحيده المستلزم للقدرة على البعث وغيره : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ [2] .

ثانياً : أسلوب التعريض :

التعريض خلاف التصريح ، والمعاريض التورية عن الشيء بالشيء [3] ، ومنه الحديث : « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب » [4] .

وعرف في الاصطلاح بأنه « الدلالة على المعنى من طريق المفهوم » [5] ، وقال الجرجاني : « التعريض في الكلام مايفهم به السامع مراده من غير تصريح » [6] .

وسمي تعريضاً لأن المعنى المقصود منه يؤخذ من جانب اللفظ ، ويسمى كذلك تلويحاً للمعنى ذاته [7] .

---

(١) انظر : سيد قطب ، في ظلال القرآن ٦ : ١٥ .
(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ١٤ : ٢٠٠ .
(٣) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٧ : ١٨٣ .
(٤) رواه البيهقي في سننه ١٠ : ١٩٩ موقوفاً على عمران بن حصين رضي الله عنه في كتاب الشهادات ، باب المعاريض فيها مندوحة عن الكذب ، وقال : هذا هو الصحيح موقوف . وقال أيضا : وروي من وجه آخر ضعيف عن علي رضي الله عنه . ورواه ابن عدي في الكامل ٣ : ٩٦٣ وقال : وهذا يرفعه عن سعيد بن أبي عروبة داود بن الزبرقان ، وغيره أوقفه .
(٥) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ٢ : ٣١١ .
(٦) الجرجاني ، التعريفات : ٦٢ .
(٧) انظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ٢ : ٣١١ .

واعتماد هذا الأسلوب على التلويح وعدم التصريح يحتاج من المتلقي إلى فطنة ، وجودة فهم، وسرعة بديهة ، ومن التعريض في الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين ★ اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون ★ ومالي لاأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ★ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمٰن بضر لاتغن عني شفاعتهم شيئاً ولاينقذون ★إنّي إذاً لفي ضلال مبين ★ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ (١) .

هذا الداعي هو صاحب ياسين ، سماه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما حبيب بن إسرائيل النجار (٢) ، آمن بالرسل ، وعرف صدقهم ، ولما سمع بتكذيب قومه للرسل وعزمهم على قتلهم أسرع إليهم ومحّضهم النصح رجاء إيمانهم وسلامتهم من غضب الله تعالى .

ويتجلى التعريض في الآيات الكريمة مما يلي :

١ - أن صاحب ياسين أشعر قومه بأن الرسل لابد وأن يكونوا صادقين ، فما الذي يدفعهم لتحمل مشاق الدعوة ، والتعرض للإيذاء والتعذب بل والقتل دون أجر يطلبونه أوكسب يرتجونه إن لم يكن ذلك تكليفاً من الله تعالى .

٢ - أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه - مع سبق الإيمان منه - ، وإنما قصد بذلك التلطف لقومه وإشعارهم بأن مايدعوهم إليه قد اختاره لنفسه أولاً .

٣ - وضع قوله ﴿ ومـاليَ لاأعبد الذي فطرني ﴾ مكان : ومالكم لاتعبـدون الذي فطركم ، بدليل قوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ (٣) ، واستمر في هذا السياق حتى قوله : ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ قال الألوسي : « وعدّ التعبير بـ« إليه ترجعون » بعد التعبير بـ« مالي لاأعبد » من باب الالتفات لمكان التعريض بالمخاطبين » (٤) .

٤ - أعلمهم وهو يتحدث عن نفسه بأن هذه الآلهة المزعومة لاتشفع لعابدها ، ولاتنقذه من عذاب الله . وأن الله تعالى هو الذي فطر العباد ، وإليه المآل ، فكيف يصح عقلاً أن تعبد هذه الآلهة دون الله تعالى ؟ .

وهنا يظهر جمال أسلوب التعريض في الدعوة ، حيث يقي الداعية مواجهة السامع بالخطاب

(١) سورة يس ، آية ٢٢ - ٢٥ . وأشار الألوسي وغيره إلى أن بعض العلماء يرى أن هذه الآية ليس فيها تعريضاً بل هي على الحقيقة ، وحملها آخرون على الكناية . انظر : روح المعاني ١٢ : ٣٣٧ - ٣٣٨ .
(٢) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٥ : ١٧ . والماوردي ، النكت والعيون ٣ : ٣٨٨ . وغيرهما .
(٣) انظر : الزمخشري ، الكشاف ٣ : ٣١٩ .
(٤) الألوسي ، روح المعاني ١٢ : ٣٣٨ .

الشديد المنكر ، ويتلطف إليه ، ويشعره بالقرب منه ، وذلك أدعى للقبول ، وإن كانت الهداية بيد الله عز وجل .

ثالثاً : الاستدلال بالمعنويات :

المعنوي هو « الذي لايكون للسان حظ فيه ، وإنما هو معنى يعرف بالقلب »[1] .

والقضايا المعنوية أمور يعايشها الإنسان في حياته ، ليست من قبيل الغيب ، ولاتدركها الحواس ، وليس للإنسان علم بحقيقة بعضها أوماهيته وذلك أمثال : الزمن ، والعقل ، والروح ... ونحوها مما يستفيد منه بنو آدم .

وخروجها عن إطار الحس يجعل إدراكها عقلياً ، والاستدلال بها كذلك ، وقد ورد في القرآن الكريم الاستدلال بمدة زمنية من عُمُر النبي ﷺ على صدقه وصحة نبوته وذلك في قوله تعالى : ﴿ وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا بَيِّناتٍ قال الذين لايَرْجُون لقاءنا ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هذا أوبَدِّلْه قل مايكونُ لي أن أبَدِّلَه مِن تِلْقاءِ نَفْسي إن أتَّبِع إلا مايُوْحىٰ إليَّ إنّي أخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيم ★ قل لو شاء اللهُ ماتَلَوْتُه عليكم ولا أدْراكُم به فقد **لَبِثْتُ فيكم عُمُراً من قَبْلِه أفلا تَعْقِلُون** ﴾[2] .

فالقرآن الكريم كتاب عظيم ، معجز في لفظه ، دقيق في أحكامه وتشريعاته ، فيه غيوب لايعلمها إلا الله جل وعلا ، وأخبار عن الأمم السالفة ، وعلوم لاعهد للمشركين بمثلها ، يتلوه عليهم النبي ﷺ وهو لم يقرأ قبل كتاباً ، ولم يتّلمذ لمعلم ، ولم يعش في موطن علماء .

والمشركون رغم حرصهم الشديد على تكذيب النبي ﷺ عجزوا عن معارضة القرآن الكريم فضلاً عن أن يأتوا بمثله ، إلى جانب أنهم عايشوا النبي ﷺ أربعين سنة قبل البعثة ، وما سمعه أحد منهم يقرأ من ذلك حرفاً ، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس إليه .

لذا فإنه لايصح عقلاً القول بأن رسول الله ﷺ جاء به من عند نفسه ، ويتعين بالضرورة أن يكون هذا القرآن وحياً من الله تعالى ، وإنكار المعلوم بالضرورة يقدح في صحة العقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾[3] .

---

(١) الجرجاني ، التعريفات : ٢٢٠ .

(٢) سورة يونس ، آية ١٥ – ١٦ .

(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ١٧ : ٥٧ . والزمخشري ، الكشاف ٢ : ٢٢٩ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٨٥ . والبقاعي ، نظم الدرر ٩ : ٨٩ .

رابعاً : الأساليب الجدلية :

المراد بالأساليب الجدلية تلك الطرق المستخدمة في مغالبة الخصم لإثبات الحجة عليه ، وهي في القرآن الكريم براهينه وأدلته التي ساقها لدعوة الكافرين ، وإلزام المعاندين ، وتقويم المنحرفين ونحو ذلك من المقاصد التي يريد إثباتها والاحتجاج عليها (١) ، كالسبر والتقسيم ، والتمانع ، والمعارضة ... ونحو ذلك من الأساليب الجدلية (٢) .

ومما ورد في القرآن الكريم على سبيل التمانع قوله تعالى : ﴿ أم اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأرْضِ هُم يُنْشِرُونَ ★ لَوْ كان فيهما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتا فسُبْحان اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ (٣) .

ويدور موضوع الآية حول إثبات وحدانية الله تعالى ونفي الأضداد عنه ، وفي النص الكريم إنكار على المشركين اتخاذهم آلهة هي في نفسها موات ، فكيف تقدر على نشر الموتىٰ ، ومشاركة الله سبحانه في ألوهيته ؟ .

ثم يأتي دليل التمانع لإبطال تلك الدعوىٰ وإثبات وحدانية الله تعالى ، يقول الألوسي: « الآية كما قال غير واحد مشيرة إلى دليل عقلي على نفي تعدد الإلـه ، وهو قياس استثنائي ، استثني فيه نقيض التالي ، لينتج نقيض المقدم ، فكأنه قيل : لو تعدد الإلـه في العالم لفسد ، لكنه لم يفسد ، فينتج أنه لم يتعدد الإلـه » (٤) .

وسماه في موطن آخر بـ« برهان التمانع » (٥) ، وكذا الجرجاني الذي قال : « إن دليل التمانع المغترف من بحر هذه الآية المقتبس من نورها يورده المتكلمون على صورة التقسيم فيقولون : لوفرضنا وجود إلٰهين ، فإما أن يكونا جميعاً موصوفين بصفات الكمال اللاتي يندرج فيها القدرة على إحياء الموتى وإنشارهم وغير ذلك من الممكنات ، أو لايتصف بها واحد منهما ، أو أحدهما دون الآخر . ثم يحيلون جميع الأقسام ، وهو المسمى برهان الخلف ، وأدنى الأقسام إبطالاً قسم اتصافهما جميعاً بصفات الكمال ، وما عداه فبادئ الرأي يبطل ، فانظر كيف اختار له تعالى إبطال هذا القسم الخفي البطلان ، فأوضح فساده في أخصر أسلوب وأوجزه ، وأبلغ بديع الكلام ومعجزه » (٦) .

---

(١) انظر : الألمعي ، مناهج الجدل : ٢١ .
(٢) أفرد لهذه الأساليب فصل كامل من الباب الثاني لهذه الرسالة ، ولذا سأكتفي بذكر مثال واحد لها دون التوسع دفعاً للتكرار .
(٣) سورة الأنبياء ، آية ٢١ - ٢٢ .
(٤) الألوسي ، روح المعاني ١٠ : ٣٧ . وقد توسع الرازي في سرد آراء المتكلمين حول هذا الدليل وتفصيلاته ، انظر : التفسير الكبير ٢٢ : ١٥٠ - ١٥٤ .
(٥) انظر : الألوسي ، روح المعاني ٩ : ١١٨ .
(٦) حاشية الجرجاني على كشاف الزمخشري ٢ : ٥٦٧ - ٥٦٨ .

الباب الأول

الدعـوة بالمنهج العقلي من خلال سورة البقرة

الفصل الأول

استخدام المنهج العقلي
في دعوة المشركين

المبحث الأول

المنهج الاستدلالي في الدعوة إلى الإيمان بالله

الإيمان بالله تعالى عماد الرسالات ، وما اشتغل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بشيء اشتغالهم بقضية الألوهية والوحدانية ، يقول ابن القيم « والرسل من أولهم إلى خاتمهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أرسلوا بالدعوة إلى الله ، وبيان الطريق الموصل إليه ، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه » ثم قال : « فعرفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه »(١) ، ذلك أن الشرك فشا في البشرية حتى أصبح طابعاً لحياة كثير منهم .

وبما أن الإيمان بالله وتوحيده رأس الديانة ومفتاحها ، فلاعجب أن تلقى مثل ذلك الاهتمام في الكتب المنزلة ، ومن الأنبياء المرسلة عليهم الصلاة والسلام ، فإنْ وُجِد الإيمان تفتحت الغلوق ، وساغ عرض الشرائع والأحكام بعده ، وإن فقد فلاقيمة للأعمال بدونه ، قال تعالى : ﴿ إنَّ الله لايغفرُ أن يُشْرَكَ به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾(٢) .

ولم تأخذ قضية الربوبية حيزاً من الدعوة قدر ماحازته قضية الألوهية ، فالعرب في معظمهم مقرّون بالربوبية ، كما تدلل على ذلك الآيات الكريمة في مثل قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السمٰواتِ والأرضَ وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ ليقولُنَّ الله ﴾(٣) ، وإن وُجِد من بينهم من أنكرها ونسب مايشاهد من مجريات الأحداث إلى الدهر ، وهم الذين حكى الله سبحانه عنهم هذا في قوله : ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهلِكُنا إلا الدَّهْر ﴾(٤) .

وهذا الإنكار خلاف الفطرة السوية ، فعدد من العلماء يرون أن معرفة وجود الله تعالى فطري ضروري ، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : « الإقرار بالصانع فطري ضروري ، وهو قول أكثر الناس حتى عامة فرق أهل الكلام ، قال بذلك طوائف منهم من المعتزلة والشيعة وغيرهم »(٥) .

---

(١) ابن القيم ، مدارج السالكين ٣ : ٣٤٨ .
(٢) سورة النساء ، آية : ٤٨ و ١١٦ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية : ٦١ ، وتكرر مثل هذا في سورة لقمان آية : ٢٥ ، وسورة الزمر آية : ٣٨ ، وسورة الزخرف آية : ٩ و ٨٧ .
(٤) سورة الجاثية ، آية : ٢٤ .
(٥) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ٩ : ٤٤ .

ويقول الغزالي : « وجود الله وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل مانشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة » ثم قال « بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا »(١) .

بل إن من تفكّر بصدق من تلك البيئة المشركة وهم الحنفاء شعروا بانحراف دين قومهم وصرحوا بذلك لهم ، وكان منهم زيد بن عمرو بن نفيل ، ومما قال في ذلك(٢) :

أرباً واحــــداً أم ألف ربّ ... أدين إذا تقسّمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الرجل الصبور

وبناءً عليه فمعرفة وجود الله تعالى بدهية عقلية ، وأمر مغروس في الفطرة البشرية ، الأمر الذي أقر به بعض فلاسفة الغرب في زماننا ، يقول ديكارت : « إن الإيمان موجود فينا منذ خلقنا ، وإن الله حين خلقنا غرس فينا هذه الفكرة لكي تكون علامة للصانع مطبوعة في صنعته »(٣) .

وهذه البدهية الفطرية التي أقر بها المشركون ولم ينكروها في غالبهم جعلها القرآن الكريم حجة عليهم في إثبات الألوهية والوحدانية ، التي مافتئ المشركون ينكرونها ويكابرون فيها ، وذلك من خلال إثبات قدرته جلّ وعلا ، وتفرده بالخلق والتدبير ، ومن تفرد بهذا فمن باب أولى أن يتفرد بالألوهية .

وقد جاءت أكثر من آية في كتاب الله عزّ وجل تدعو إلى التصديق بوجود الباري سبحانه وقدرته ووحدانيته بأدلة عقلية منصوص عليها فيه مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾(٤) .

ولتأكيد الأمر بالعبادة ، وزيادة في البيان تعمد الأدلة الشرعية إلى بيان قبح الشرك ومجاجة التمسك به ، وسوء عاقبة الإصرار عليه ، يقول ابن القيم في معرض حديثه عن التوحيد : « والحق أن وجوبه ثابت بالعقل والسمع ، والقرآن على هذا يدل ، فإنه يذكر الأدلة والبراهين العقلية على التوحيد ، ويبين حسنه وقبح الشرك عقلاً وفطرة ، ويأمر بالتوحيد وينهى عن الشرك ، ولهذا ضرب الله سبحانه الأمثال وهي الأدلة العقلية ، وخاطب العباد بذلك خطاب من استقر في عقولهم وفطرهم حُسْنُ التوحيد ووجوبه، وقُبْحُ الشرك وذمّه، والقرآن مملوء بالبراهين العقلية الدالة على ذلك »(٥).

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ٤ : ٣٢١ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ١ : ٢٠٨
(٣) نقلاً عن : عثمان أمين ، التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت : ١٥٥ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢١ ، وانظر : ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ٩ : ٦٩ .
(٥) ابن القيم ، مدارج السالكين ٣ : ٤٨٨ .

أدلة الإيمان بالله في سورة البقرة :

سبقت الإشارة إلى أن قضية الألوهية والوحدانية كانت عماد دعوات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولهذا نجد الدلائل الداعية إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده تتخلل معظم سور القرآن الكريم ، وأبرز تلك الدلائل في سورة البقرة مايأتي :

أ) دلالة الخلق والإبداع :[1]

الخلق في اللغة العربية يعني « ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه »[2] ، وذكر أبوبكر بن الأنباري أنه يكون على وجهين[3] :

الأول : بمعنى التقدير ، ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفري ماخلقت وبعـ   ـض الناس يخلق ثم لايفري

والثاني : الإنشاء على مثال أبدعه ، وهذا الوجه يتناسب مع مقاصد الآيات التي تحدّثت عن خلق الإنسان والسموات والأرضين ومابينهما في سورة البقرة ، فالإنسان القويم يعلم بالضرورة أنه وجد بعد أن لم يكن ، وأن مَن خلقه – وهو الباري سبحانه – أوجده على غير مثال سبق .

وعند الحديث عن دعوة المشركين إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده ، جاء التعبير في الآيات الكريمة تارة بلفظ الخلق ، وتارة أخرى بلفظ الإبداع ، فالخلق جاء في قوله تعالى : ﴿ يا أيها النَّاسُ اعبدوا رَبَّكُم الذي خَلَقَكُم والذين مِنْ قَبْلِكم ﴾[4] ، وقوله جلّ وعلا : ﴿ هو الذي خلقَ لكم ما في الأرضِ جَمِيعًا ﴾[5] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأرضِ واخْتِلافِ الليلِ والنَّهارِ والفُلْكِ التي تَجْرِي في البَحْرِ ﴾[6] .

وجاء لفظ الإبداع في قوله تعالى : ﴿ بَدِيْعُ السَّمٰوَاتِ والأرض وإذا قَضَى أمرًا فإنَّما يقول له كُنْ فيكون ﴾[7] ، والبديع والبِدْعُ : الشيء الذي يكون أولاً ، ويأتي بمعنى المُبدع[8] ، يقال : أبدعت الشيء أي اخترعته لاعلى مثال سبق .

---

(١) أورده ابن رشد الحفيد في كتابه مناهج الأدلة في عقائد الملة باسم (دليل الاختراع) انظر : ص ١٥١ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ١٠ : ٨٥ مادة « خلق » .

(٣) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٠ : ٨٧ مادة « خلق » واستشهد بهذا البيت عدد من المفسرين انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ :٢٢٦ ، والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٩٧ ، والألوسي ، روح المعاني ١ : ٩٧ وغيرهم .

(٤) سورة البقرة ، آية ٢١ .

(٥) سورة البقرة ، آية ٢٩ .

(٦) سورة البقرة ، آية ١٦٤ .

(٧) سورة البقرة ، آية ١١٧ .

(٨) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٨ : ٦ مادة « بدع » ، والنيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ٤٢٥ .

والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها على ما أراد على غير مثال تقدمه[1] والمعنى في الآية : « أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حدٍ ولامثال »[2] .

والمراد بالناس في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ على رأي بعض العلماء هم الذين وقع عليهم التحدي بالقرآن في قوله عزّ وجلّ : ﴿ وإن كنتم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فأتوا بسورَة من مثله ﴾[3] ، ومعلوم أن التحدي موجّه إلى مشركي العرب وبخاصة مشركي قريش ، وبذلك يتوجّه الخطاب إليهم أولاً ، ويدخل سائر الناس فيه ، لأن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

وذهب آخرون إلى أن الخطاب في الآية الكريمة عام للذين حضروا النبي ﷺ وعاصروه من مشركين وأهل كتاب[4] ، ولمن بعدهم كذلك بحكم أنهم مطالبون بالإيمان بالنبي ﷺ واتباعه ، قال الألوسي : « الرسالة إنما تستدعي التبليغ في الجملة ، وهو لايتوقف على المشافهة ، بل يكفي في حصوله للبعض شفاهاً وللبعض بنصب الدلائل والأمارات ، على أن حكمهم حكم الذين شافهم »[5] ، وعليه يكون الخطاب للمؤمنين باستدامة العبادة ، وللكافرين بابتدائها .

ودلائل الخلق والإبداع في سورة البقرة تأخذ عدة مظاهر هي :

أولاً : خلق الإنسان :

الاستدلال بخلق الإنسان لإثبات ألوهية الله تعالى ووحدانيته جاء في قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[6] .

وخلق الإنسان آية من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى ووحدانيته ، لفت سبحانه نظر المدعوين إليها كما لفت أنظارهم إلى مخلوقاته الأخرى ، قال عزّ وجلّ : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[7] ، وقال جلّ شأنه : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾[8] .

كما أخذ حديث القرآن عن مادة خلق الإنسان صيغاً متعددة كلها تدل على مراحل تكوين هذا الخلق و تطوره : تراب ، طين ، طين لازب ، صلصال من حمأ مسنون ، صلصال كالفخار ، وما ذلك

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٨ : ٧ .
(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٨٦ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٣ و انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٢٥ .
(٤) انظر : النيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٨٩ ، وتفسير أبي السعود ١ : ٥٨ وغيرهما .
(٥) الألوسي ، روح المعاني ١ : ٢٩٥ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢١ .
(٧) سورة فصلت ، آية : ٥٣ .
(٨) سورة الروم ، آية : ٨ .

إلا ليدرك الإنسان أن هذه الأعمال لاتصدر إلا عن إرادة واحدة ، وليعرف من نفسه بالضرورة أن الله تعالى واحد لاشريك له ، ومن ثم فلا ينبغي صرف شيء من العبادة لغيره .

وتوجيه الخطاب إلى المخاطبين في آية سورة البقرة قبل آبائهم مع أنهم متأخرون في الخلق ينطوي على معاني ومدلولات جدّ عميقة ، منها :

١ - الاستدلال على التوحيد بأنفسهم [١] ، فكل إنسان يعرف بالضرورة أنه وجد بعد أن لم يكن ، فلابد من موجد غير الناس ، إذ لايصح أن يُسْنِد أحدٌ خَلْقه إلى مثله ، فالناس سابقهم ولاحقهم في الخلق والوجود من عدمٍ سواء ، ولا موجد لهم إلا الله تعالى .

والسواد الأعظم من المشركين يؤمنون بربوبية الله تعالى ، وهذا الإيمان يمكّن الداعية من الاعتماد على مايقرون به لينتقل منه إلىماينكرونه ويعرضون عنه وهي الألوهية ، فيحاجهم بل ويلزمهم بذلك ، فلازم تفرد الله تعالى بالخلق ، تفرّده بالألوهية .

٢ - معرفة الإنسان بنفسه وأحوالها أكثر من معرفته بأحوال الآخرين من الأمم السالفة أو المخلوقات الأخرى في هذا الكون ، والاستدلال على المدعو بنفسه أظهر دلالة ، وأقوى إفادة [٢] ، والمخاطبون عند تنزل الآية الكريمة هم المواجهون بالخطاب والمدعوون إلى الإيمان وعبادة الله ، فتنبيههم على أنفسهم آكد وأهم ، وأدعى لتحقق الغاية من الدعوة بدخولهم في الإسلام وانخلاعهم عن الشرك .

٣ - تذكير الإنسان بنعمة الله تعالى عليه الذي خلقه في أحسن تقويم ، وعلى خير وجه ، لبيان أحقية المنعم بالعبادة ، وهي ظاهرة بحيث لايجوز لذي عقل أن يقدّم طاعة غير الله عليه ، وهذا احتجاج على الإنسان وتقريع له إذ ترك عبادة الله تعالى وتوجه إلى غيره .

وبعد أن ذكرت الآية الكريمة خلق المخاطبين عقبت بخلق الذين من قبلهم لمافيه من التنبيه ، وبليغ العظة ، مذكرةً إياهم بأحوال الأمم السالفة ، مع ماتحمله تلك الذكرى من إشارات إلى ابتلاءِ وإذلالِ المعاندين المكذبين ، وإهلاك من هلك منهم ، فمن سار على نهجهم من هؤلاء وتابعيهم ، وأعرض عن دعوة الله وحارب رسوله ﷺ قمين أن يلقى مثل مالَقوا .

وتلك الدلائل التي أقامتها الآيات الكريمة من خلال خلق الإنسان تنفي البتة أن يكون الخلق عبثاً ، الأمر الذي نفاه القرآن الكريم نصاً في قوله تعالى : ﴿ أفحَسِبْتم أنّما خلقناكم عَبَثاً

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٤٣.

(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ١٠٢ . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٣٠٠ .

وأنكم إلينا لاترجعون ﴾ [١] ، وإنما غاية الخلق في هذه الدنيا عبادة الله تعالى .

ثانياً : خلق السموات :

السماء مشتقة من سما يسمو، وهي كل ما ارتفع وعلا، والسماء : سقف كل شيء وكل بيت [٢] ، وتطلق علماً على السماء التي تقابل الأرض وتجمع على سمٰوات .

وورد الاستدلال بخلق السموات في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ ... ﴾ [٣] وقوله سبحانه : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ والأرض ﴾ [٤] .

وعبرت عنها إحدى آيات القرآن باسم « طرائق » في قوله تعالى : ﴿ ولقد خَلَقْنا فَوْقَكُم سَبْعَ طَرائق وما كُنا عن الخلق غافلين ﴾ [٥] ، وهو إطلاق يفيد معنى الطبقات .

والسموات في عظم خلقها ، ودقة نظامها ، آية عظيمة دالة على عظم الخالق جلّ وعلا ، وعلى قدرته المطلقة ، وتفرده بالخلق، فلا أحد يعرف عن أسرار السموات وأفلاكها إلا الله تعالى ، وماعند الناس منها الا النزر اليسير ، كما أنها لايمكن أن تكون على تلك الهيئة والإحكام إلا لصدورها عن إرادة واحدة قادرة [٦] .

ثالثاً : خلق الأرض :

تحدثت آيات سورة البقرة عن خلق الأرض في قوله عزّ وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنَّهارِ ...﴾ [٣] ، وقوله سبحانه : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ والأرض ﴾ [٤] .

وإشارة من الخالق جلّ وعلا إلى حاجة الإنسان الدائمة للأرض ، وارتباط معاشه بها ؛ فقد وصف خلق الأرض بأوصاف متنوعة في الآيات الكريمة من ذلك قوله في سورة الرعد : ﴿ وهو الذي مدّ الأرض ﴾ [٧] ، وقوله في سورة الذاريات : ﴿ والأرض فَرَشْناها فنِعْم الماهِدُون ﴾ [٨] ، وقوله

---

(١) سورة المؤمنون ، آية : ١١٥.
(٢) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١ : ٣٩٧ مادة « سما » .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٦٤ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١١٧ .
(٥) سورة المؤمنون ، آية : ١٧ .
(٦) فسر الشيخ الطاهر بن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير ج٢ ق١ : ٧٧) السموات السبع والعرش بالأجرام السماوية السيارة ماعرف منها وما لم يعرف ، أمثال عطارد والزهرة والمريخ والشمس والمشتري وزحل وأرانوس ونبتون . والحقيقة أن ماذكر لايخرج عن إطار الكواكب التي زينت بها السماء الدنيا ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ [الصافات : ٦] كما أن هذه الأجرام إنما هي جزء من الكون المسخر للإنسان ، وقد دخلت إلى حد ما في محيط العلوم الإنسانية وضمن ملاحظات الإنسان ، فهل يمكن لأحد أن يدعي رؤيته للعرش أو حتى معرفة شيء عنه . وقد ثبت في حديث الإسراء والمعراج أن النبي ﷺ حين أسري به مرّ بالسموات واحدة واحدة وبلغ سدرة المنتهى ، ولم يصل إلى العرش . وعليه فلايصح تفسيرها بما ذكر وإنما هي من الغيب الذي لايعلم كنهه إلا الله .
(٧) سورة الرعد ، آية : ٣ .
(٨) سورة الذاريات ، آية : ٤٨ .

في سورة نوح : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ [١] ، وقوله في سورة النازعات : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [٢] .

وكل هذه المدلولات توحي بالمتطلبات الضرورية له ، ففرش الأرض يعني تذليلها بحيث يمكن الاستقرار عليها [٣] ، ودحْوُ الأرض بسطُها ، فسرها بذلك يحيى بن زياد الفراء [٤] ، وذكر ابن منظور عن شَمِر بن حمدويه « أن أعرابية أنشدت :

الحمد لله الذي أطاقا

بنى السماء فوقنا طباقا

ثم دحا الأرض فما أضاقا

قال : وفسرته فقالت : دحا الأرض أوسعها » [٤] .

وتجدر الإشارة إلى أن السموات والأرض يمدان بعضهما بحيث تبقيان مهيأتان لصالح بني آدم ، ويتجلى هنا معنى قوله تعالى : ﴿ وهو الذي مدّ الأرض ﴾ ، فإن مايحتاجه الإنسان يبقى متصلاً يجرّ بعضه بعضاً ما دام وجوده ، ويكتشف الإنسان من ذلك بقدر ما أوتي من علم وسلطان .

إن خلق الله تعالى للإنسان ، والسموات ، والأرض ، على ما أراد وقدر على غير مثال سبق ، وما في طيات ذلك الخلق من آيات ودلائل على تفرد الله تعالى بالخلق ، واختصاصه به دون سواه ، وحاكميته له : ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ [٥] ، كل ذلك يجعل من انتفاء الشريك عنه سبحانه من بداهة العقول ومسلماتها .

ورغم ذلك فإن الله تعالى بعد أن بين دلائل خلقه وأظهر قدرته للناس ؛ دعا المشركين إلى التفكر في صنعه ، وطالبهم ببيان ما صنعت آلهتهم المزعومة ، قال سبحانه : ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ [٦] ، وقال : ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ [٧] ، وما ذاك الطلب وهذا الاستفهام إلا ليظهر للمشركين وسائر الكفار بالله تعالى عجز تلك المعبودات عن نفع نفسها فضلا عن غيرها .

(١) سورة نوح ، آية : ١٩ .
(٢) سورة النازعات ، آية : ٣٠ .
(٣) انظر : الراغب الأصفهاني ، المفردات ص : ٣٧٥ .
(٤) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٠ : ٢٢٣ مادة « سما » .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٠٧ .
(٦) سورة لقمان ، آية : ١١ .
(٧) سورة يونس ، آية : ٣٤ .

ولما ثبت أن الله تعالى هو وحده الخالق ، وما يدعى من دونه لم يخلق شيئاً ، بل هم خلقٌ من خلقه ؛ فلا يصح شرعاً ولا عقلاً أن يسوّى الخالق بالمخلوق ، فكيف بأن يعبد دونه ، أو يُتّخذ عنده شفيعاً ، وما بهم إلى ذلك من حاجة .

ويشير الدكتور الكيلاني إلى أن المنطق الذي كان سائداً عند العرب آنذاك هو القوة ، ولذا فإن الاستدلال بالحاكمية لله تعالى وعجز المعبودات المزعومة ووهنها وتجردها من السلطة من خير الطرق لإزالة أوهامهم في عبادتها ، ومن ثم يسهل تخليهم عنها وتوجههم لعبادة الله تعالى [١] .

ب) دلالة العناية والتسخير : [٢]

ترتبط كلٌّ من دلالة الخلق والإبداع ودلالة العناية والتسخير ببعضهما ارتباطاً وثيقاً ، وتجد كثيراً من الآيات الكريمة تتحدث عن الخلق والعناية تباعاً كما في قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ﴾ [٣] ، فدلالة الخلق جاءت في قوله تعالى : ﴿ الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ ودلالة العناية والتسخير سيقت فيما بعدها .

وإن من أبرز مظاهر العناية والتسخير الواردة في سورة البقرة ما يأتي :

١ - تدل الآيات الكريمة في قصة خلق آدم عليه الصلاة والسلام على أن الله تعالى أودع في الإنسان جميع الخصائص والمميزات اللازمة له على هذه الأرض ، وينبئ بذلك قوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [٤] وقوله : ﴿ وعَلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها ﴾ [٥] .

ويأتي هذا في سياق الحديث عن النشأة الأولى للإنسان ، مبينة أن الله تعالى خالقه وموجده ، ومستخلفه في الأرض ، والخليفة : النائب عن غيره [٦] ، واستخلاف آدم عليه الصلاة والسلام وذريته في الأرض تشريف لهم ، قال ابن مسعود رضي الله عنه في معنى الآية : « أي يخلفني في الحكم بين خلقي ، وهو آدم ومن قام مقامه من ولده » [٧] .

ومن شأن الاستخلاف وضروراته أن يتمتع المستخلَف بخصالٍ ومزايا تؤهله له منها : الحياة

---

(١) انظر : د . إبراهيم الكيلاني ، تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام : ٢٩ .
(٢) انظر : ابن رشد ، مناهج الأدلة في عقائد الملة : ١٥١ .
(٣) سورة البقرة ، آية ٢١ - ٢٢ .
(٤) سورة البقرة ، آية ٣٠ .
(٥) سورة البقرة ، آية ٣١ .
(٦) انظر : الراغب الأصفهاني ، المفردات : ١٥٦ .
(٧) الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٨٦ . وللعلماء تفسيرات أخرى غير ماذكر ، انظر على سبيل المثال : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٨١ - ٢٨٢ .

والعلم ، والقدرة . وقد نصت الآيات هنا على التعليم في قوله سبحانه : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ أما نفخ الروح فجاء في مواضع أخرى من القرآن من مثل قوله تعالى : ﴿ وإذْ قال ربُّك للملائكةِ إنِّي خالقٌ بَشَراً من صَلْصالٍ مِن حَمأٍ مسنون ★ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (1).

والتعليم وقع لجميع الأشياء ، فالأسماء دلائل المعاني ، قال الألوسي في معنى الاسم : « مايكون علامة للشيء ودليلاً يرفعه إلى الذهن من الألفاظ الموضوعة بجميع اللغات والصفات والأفعال » (2) .

إذاً فخَلْقُ الإنسان حياً قادراً معلماً أصل في الاستخلاف ، وفي الانتفاع بالنعم التي أوجدها الله سبحانه في هذا الكون وسخرها له .

٢ - خَلْقُ السمٰوات والأرض على هيئة تناسب حال الإنسان ، وتسخير مافيهما لمصلحته . فتجد القرآن الكريم يتحدث عن أهم ما يحتاجه الإنسان : كالمطر ، والرياح ، والبحار ، والأنهار ، وجميع الأمور التي قدرها الله تعالى في هذه الأرض وتلك السماء .

وسيقت دلالة التسخير في قوله تعالى : ﴿ الذي جعلَ لكم الأرضَ فِراشاً والسماء بِناءً ﴾ (3) ، وقوله سبحانه : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ (4) ، فقوله « لكم » يعني تخصيص الإنسان بمنافع هذا الخلق الذي ذكر بعضه في الآية الأولى وأجمل في الآية الثانية ، قال الماتريدي : « وفي الآية دلالة على أن المقصود من خلق السماء والأرض وإنزال الماء منها وإخراج هذه الثمرات وأنواع المنافع ، بنو آدم ، وهم الممتحنون فيها بدلالة قوله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُم الأرضَ فِراشاً والسَّماء بِناءً ﴾ ... أضاف ذلك كله إلينا » (5) .

فكل ما في هذا الكون الذي نعيش فيه من بحار ، وأنهارٍ جارية ، وفُلْكٍ ماخرة ، وأفلاك سائرة ، وجبال شاهقة ، وأرزاق مقدرة ، وثروات مخبّأة ، كل ذلك دليل على العناية الإلهية بالإنسان ، سخرها الله له ، وأمرها بخدمته ، كما أمر الإنسان بعبادته وحده جل وعلا .

وتجدر الإشارة إلى أن آيات سورة البقرة المتحدثة عن السموات والأرض إذا كانت في معرض ذكر الخلق بدأت بالسمٰوات قبل الأرض لأنها أكبر شأناً وأعظم خِلْقة ، وإن تحدثت عن العناية والتسخير ذكرت الأرض أولاً لأنها مسكن الإنسان وهيَ به ألصق ، ومعرفته بأحوالها تربو على معرفته بأحوال السماء والطبقات العليا .

---

(1) سورة الحجر ، آية ٢٨ - ٢٩ .
(2) الألوسي ، روح المعاني ١ : ٣٥٦ .
(3) سورة البقرة ، آية ٢٢ .
(4) سورة البقرة ، آية ٢٩ .
(5) الماتريدي ، تأويلات أهل السنة ١ : ٧٠ .

٣ - إرسال الرسل . ومما لاشك فيه أن إرسال الرسل من أكبر النعم ، وأعظم مظاهر العناية الإلهية بالإنسان ، بل لاتتم إلا بها .

وقد تحدثت سورة البقرة عن رسالة النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ (١) .

والخطاب هنا موجه إلى العرب (٢) ، قال ابن جرير الطبري : « قال لهم جلّ ثناؤه : الزموا أيها العرب طاعتي ، وتوجهوا إلى القبلة التي أمرتكم بالتوجه إليها لتقطع حجة اليهود عنكم فلا تكون لهم عليكم حجة ، ولأتم نعمتي عليكم وتهتدوا ، كما ابتدأتكم بنعمتي فأرسلت فيكم رسولاً منكم » (٣) وهو النبي ﷺ .

والآية في سياق الامتنان علينا تعدُّ نبوةَ النبي ﷺ النعمة العظيمة والسابقة ، ومهمته ﷺ تعليم الدين والشرع . فليس بمقدور الإنسان مهما بلغ من العلم والحذق أن يضع شريعة كاملة وافية بجميع متطلباته ، لأن النقص مركب فيه ، وكل مايصدر عنه لابدّ أن يتصف بصفته ، والله تعالى في غاية الكمال والجلال ، وأعلم بمصالح العباد ، وما يصدر عنه لايكون إلا كاملاً مُحْكماً . ومن رحمته أن بعث النبي ﷺ بشريعة الإسلام على حين فترة من الرسل ، وجهالة عامة اندثرت معها الحنيفية إلا قليلاً ، وأمدّه بالقرآن الكريم ، فيه جميع الأحكام والتكاليف ، والأوامر والنواهي ، ومجامع الأخلاق ، وبه تتأتّى العبادات ، كما حَفِظَه معجزة باقية حتى يأتي أمر الله .

ولازم ذلك الإنعام صرفُ العبادة لله تعالى وشكره على تلك النعمة ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولاتكفرون ﴾ (٤) وذكر الله تعالى يجيء بعد الإيمان بالتفكر في آياته الدالة على ألوهيته من مشاهد خلقه وأسراره ، وعظيم شرعه وكماله .

ج) دلالة الحركة والتغير :

تتناول دلالة الحركة والتغير تلك الأحداث التي تجري بنظام دقيق ومتقن في هذا الكون والتي لاينفك الإنسان عن ملاحظتها والتعامل معها في مختلف أحواله لارتباطها به وبقضايا معاشه ، سواء كانت تلك الحركة في الأفلاك السماوية أمثال الكواكب والشمس والقمر و السحب و الرياح ، أوفي البحار كجريان الفُلك ، وتقلب الأمواج ، أو على الأرض كالحياة والموت .. ونحو ذلك من دلائل الحركة والتغير التي تجري وفق إرادة الله القادرة ، وحاكميته المطلقة .

(١) سورة البقرة ، آية ١٥١ .
(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٢١٠ ، الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٤٢ .
(٣) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٢١٠ .
(٤) سورة البقرة ، آية ١٥٢ .

وتأتي هذه الدلالة عند دعوة المشركين للإيمان بالله في عدد من الآيات ، منها قوله تعالى : ﴿ وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ (١) ، وقوله عزوجل : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وَكُنْتُم أمْواتاً فأحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم ثُمَّ إليه تُرْجَعُون ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّمٰوات والأرض واختلاف الليل والنَّهارِ والفُلْكِ التي تَجْري في البَحْرِ بما يَنْفَعُ النَاسَ وما أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ من ماءٍ فأحْيا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها وبَثَّ فيها من كُلِّ دابَّةٍ وتَصْريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والأرضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ (٣) .

ومجمل ما تحدثت عنه الآيات الكريمة هذه من حيث دلالة الحركة والتغير ما يأتي :

١ ـ اختلاف الليل والنهار :

الليل والنهار آيتان من آيات الله وسنتان من سننه في هذا الكون ، أقامهما سبحانه وتعالى وفق نظام دقيق تحدثت عنه جُمْلَة من الآيات الكريمة منها قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ⋆ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ⋆ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ⋆ لاالشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولاالليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ (٤) .

والتعبير عن حركة الليل والنهار بالاختلاف في قوله تعالى : ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ يشعر بمعنى التعاقب والاستمرار ، إذْ يجيء أحدهما عوضاً عن الآخر في حركة دائمة منتظمة ، كما يوحي بتنوع المنافع في كل واحد منهما ، وقد بينت آيات أخرى بعض تلك المنافع ، فالليل لراحة الإنسان وسكنه ، قال تعالى : ﴿ وجعل الليل سكنا ﴾ (٥) وقال سبحانه : ﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ (٦) ، أما النهار فللسعي وطلب المعاش : ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ (٧) .

إن حركة الليل والنهار وانتظامهما ، واستمرار تلك الحركة وفق ما أخبر الله سبحانه وتعالى به : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ ، وعدم قدرة أحد على التدخل في سيرهما أو التأثير عليهما ، إن ذلك كله لدلالة واضحة على تفرد الله تعالى في تصريف الكون وهيمنته عليه ، ومَنْ أقرّ بذلك لزمه أن يقر بوحدانية الله تعالى وألوهيته .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٢ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٦٤ .
(٤) سورة يس ، آية : ٣٧ - ٤١ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ٩٥ .
(٦) سورة النبأ ، آية : ٩ .
(٧) سورة النبأ ، آية : ١٠ .

وقد حاجّ القرآن الكريم المشركين باختلاف الليل والنهار للدلالة على وحدانية الله تعالى وذلك في قوله سبحانه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ★ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ (١) .

وبحركة الشمس التي هي مصدر ضياء النهار حجّ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام النمرود وذلك فيما يحكيه القرآن الكريم عنه : ﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ﴾ (٢) ، وإنما قال : « فإن الله يأتي بالشمس » لأن جريان الشمس والقمر واختلاف الليل والنهار مُسَلَّمٌ بأنه من فعل الله تعالى وتقديره وحده ، لايماري فيه أحد مهما بلغ من كبره وجبروته ، وإن كابر في قضايا أُخَر .

وكذا المشركون يسلمون بأن تصريف الكون بيد الله تعالى وحده ، ومع ذلك يدعون آلهة أخرى غيره ، فإن كانت تلك آلهة كما زعموا فماذا صنعت ؟ وهل لها في التصريف من أمر ؟ فكل الدلائل تثبت لهؤلاء أنهم إنما يؤلّهون عاجزاً ، ودلائل القرآن من أغراضها بيان ذلك العجز لتبصره عقولهم ، ومن ثَمَّ ينتهوا عن عبادتها من دون الله تعالى ، ويدركوا أنها ليست أهلا لذلك .

ولعل الله تعالى جعل من اختلاف الليل والنهار آية من الآيات الدالة على كذب الدجال آخر الزمان ، فقد ورد في الحديث الشريف أنه يمكث أربعين يوماً : يوماً بسنة ، ويوماً بشهر ، ويوماً بأسبوع ، وسائر أيامه كأيامنا (٣) . والدجال يدعي الألوهية ، وتظهر على يديه معجزات يُسْتَدرج بها، لكنه لايقدر من أمر الليل والنهار على شيء ، حيث يختل نظامهما بقدرة الله تعالى ، ولايستطيع أن يعيدهما إلى ماكانا عليه ، ويناله قيظ الحر في اليوم الأول بخاصة وهو عاجز أن يدفع عن نفسه – فضلاً عن غيره – مايعاني من الأذى والشدة .

٢ ـ تصريف الرياح :

الريح نسيم الهواء ، وتجمع على رياح (٤) ، والتصريف يعني تقليب الرياح حسب المصالح وعلى كيفيات متخالفة (٥) ، سواء كان ذلك من حيث هبوبها ، أو تعدد طبيعتها ، وهي في جميع أحوالها آية من آيات الله تعالى الدالة على قدرته ووحدانيته .

---

(١) سورة القصص ، آية : ٧١ – ٧٢ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٨ .
(٣) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال وصفة ما معه ، ح ١١٠ (٢١٣٧) . الصحيح ٤ : ٢٢٥٠ .
(٤) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٢ : ٤٥٥ مادة « روح » .
(٥) انظر : النيسابوري ، غرائب القرآن ٢ : ٥٦ .

وأنواع الرياح من حيث هبوبها أربع ، قال الثعالبي : « الصّبا وهي القَبول ، والدَّبور ، والجنوب ، والشمال . هذه معظم الرياح ، والصبا تهب من المشرق ، والدبور من المغرب ، والجنوب من مطلع سهيل إلى كرسي بنات نعش ، والشمال تقابلها » (١) ، وما جاء بين الريحين فهي النكباء (٢) .

وأما أنواع الرياح من حيث طبيعتها وصفتها التي تكون عليها فأورد القرآن الكريم أسماء بعضٍ منها ، كالريح الصرصر ، وهي شديدة البرد أو الصوت (٣) ، والريح العقيم ، وهي التي لاتلقح شجراً ولا تنشئ سحاباً (٤) .

ومن الأنواع الأخرى للرياح : البوارح ، وهي ريح حارة تهب في الصيف ، والسموم كذلك وتهب بالنهار . والإعصار ، وهي الغَبِرة التي تسطع في السماء . والنسيم ، وتجيء بنفس ضعيف لطيف . والمعصرات ، وتأتي بالمطر (٥) .

وجاء ذكر الرياح في سورة البقرة مجموعة كما هو غالب إطلاق القرآن الكريم ، حيث تأتي مفردة مع آيات العذاب ومجموعة في آيات الرحمة (٦) ، كما أن الجمع أنسب للتصريف لاختلاف مهاب الرياح كما سبق آنفاً .

ومن آثار تصريف الرياح جريان الفلك في البحار ، وسوق السحاب ، ونزول الأمطار ، وجلب الأرزاق للعباد ، وتبدل النّفَس عليهم ، كل ذلك بتقدير من الله تعالى الذي تفرد بذلك التصريف ، وليس بمقدور أحد سواه أن يغير ذلك النظام ، بل ولا أن يشارك فيه . فهي تسير وفق إرادة الله تعالى الواحدة ، وما كان لأحد ممن ناوأ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أو حارب دين الله تعالى أن يثبت شيئا منها لغير الله ، وأنّى له ذلك وكل الدلائل والشواهد تكذبه .

٣ ـ الحياة والموت :

الحياة والموت شكل آخر من أشكال الحركة والتغير في عالم الإنسان ، ومن أكثر الأدلة إبانة عن وحدانية الله تعالى .

---

(١) الثعالبي ، فقه اللغة ص : ٣٥٤ . وبنات نعش : منظومة الدب الأكبر والأصغر .
(٢) انظر : الهُنّائي ، المنتخب ١ : ٤٢١ .
(٣) انظر : الفيروزآباذي ، القاموس المحيط ص : ٥٤٣ (ط٢ موسسة الرسالة) ، وانظر : الهُنّائي ، المنتخب ١ : ٤٢٣ ، والثعالبي ، فقه اللغة ص : ٤٥٥ .
(٤) انظر : الهُنّائي ، المنتخب ١ : ٤٢٣ .
(٥) انظر : الهُنّائي ، المنتخب ١ : ٤٢١ – ٤٢٣ . و الثعالبي ، فقه اللغة ص : ٣٥٤ – ٤٥٥ .
(٦) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٩٨ – ١٩٩ . وابن منظور ، لسان العرب ٢ : ٤٥٥ مادة « روح » .

والآيات الكريمة تعرض الحياة الإنسانية منذ منشئها ، كيف خلق الإنسان ، ولماذا خلق ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وإذْ قالَ رَبُّكَ للملائكةِ إني جاعِلٌ في الأرضِ خَلِيفَة ﴾ (١) ، وتبين تنقل حال الإنسان بين الحياة والموت والمآل الذي يصير إليه ، قال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرونَ باللهِ وَكُنْتُم أمْواتاً فأحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم ثُمَّ إليهِ تُرْجَعُون ﴾ (٢) .

كما أنها تتحدث عن الحياة والموت في عالم المخلوقات الأخرى غير الإنسان أمثال النبات ، وذلك في قوله جل وعلا : ﴿ وما أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ من ماءٍ فأحْيا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها ﴾ (٣) .

أما مراحل الخلق وتنقل المخلوقات بينها فتسوقه آيات عديدة ، يقول الله تعالى عن مراحل خلق الإنسان : ﴿ هُوَ الذي خلقكم من تُرابٍ ثم من نُطْفَةٍ ثُمَّ من عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُم طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكم ثُمَّ لِتَكونوا شُيوخاً وَمِنكم مَّنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ولِتَبْلُغُوا أجلاً مُسَمًّى ولَعَلَّكم تَعْقِلُون ﴾ (٤) ، وعن مراحل خلق النبات يقول سبحانه : ﴿ ألم تَرَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ في الأرضِ ثُمَّ يُخْرِجُ به زَرعاً مُخْتَلِفاً ألوانُه ثُمَّ يَهِيجُ فتراه مُصْفَراً ثُمَّ يَجْعَلُه حُطاماً إنَّ في ذلك لَذِكرى لأولي الألباب ﴾ (٥) .

إن تقلب المخلوقات بين الحياة والموت والمراحل التي تمر بها سنة من السنن الكونية التي لايقدر عليها أحد إلاالله تعالى ، ومن هنا كانت حجة من حجج إبراهيم الخليل عليه السلام عندما ناظره النمرود : ﴿ إذ قال إبراهيم رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيت ﴾ (٦) ، فأجاب الأخير بما لايستقيم له مستغلا سلطانه ، وكابر في أمر يعرف حق المعرفة عجزه عنه فقال : أنا أحيي وأميت .

كما تعطي هذه الآيات وغيرها من كتاب الله تعالى التصور الحقيقي لأصل الإنسان ، ونشأته ، ومن أين أتى ، ولماذا خلق ، فتبطل زعم من ادعى أن الإنسان تطور عن مخلوق آخر ، وتذهب الحيرة عن النفوس المهتدية ، وتظل النفوس المبتعدة عن شرع الله تعالى وهديه تنادي : لست أدري . أو تحار في شتى الفكر .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٣٠ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٦٤ .
(٤) سورة غافر ، آية : ٦٧ .
(٥) سورة الزمر ، آية : ٢١ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٥٨ .

خاتمة المبحث

إن البراهين الثلاثة : الخلق والإبداع ، والعناية والتسخير ، والحركة والتغير ونحوها من البراهين إنما سيقت باديء ذي بدء للدلالة على وحدانية الله تعالى ، مع الاحتجاج على المشركين بوجود الله وربوبيته التي يؤمن بها غالبهم ، إذْ يقرون بأن لهم رباً في السماء غير هاته الآلهة التي يعبدونها في الأرض .

وتوجيه الدعوة إلى المشركين مفيد بأن لديهم الاستعداد الكامل للإيمان بها وإدراك مقاصدها، وإخبار الله تعالى بعدم وقوع الإيمان من طائفة منهم في قوله : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾[1] لاينفي القدرة عليه ، وإنما حصل تساوي الإنذار وعدمه لدى هذه الطائفة لأنهم تمسكوا بدين آبائهم ، وصرفوا قلوبهم وعقولهم عن دعوة النبي ﷺ ، والإعراض عن الحق زادهم إغراقًا في الكفر والطغيان ، والإصرار على الكفر والإغراق فيه مؤدٍ إلى الختم على القلب ، فإذا أصبح القلب كذلك تساوى عنده الإنذار وعدمه ، ولم يبق للدعوة تأثير عليه إلا أن يشاء الله ، ويرى الراغب الأصفهاني أن في قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾[2] « إشارة إلى ماأجرى الله به العادة أن الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل أو ارتكاب محظور ولايكون منه تلفُّتٌ بوجهٍ إلى الحق يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي وكأنما يختم بذلك على قلبه »[3] .

ويلاحظ أن أسلوب النفي تردد مراراً في الآيات الكريمة لإثبات الوحدانية ، والنفي أعمق في الدلالة من مجرد الإثبات ، لأنه يعمل على إزاحة الباطل واجتثاثه من النفوس حتى تصبح مهيأة لتقبل الحقيقة المتمثلة في وحدانية الله تعالى ، ومن أشكال النفي مايلي[4] :

١ - نفي وجود آلهة أخرى غير الله .

٢ - نفي صفات معينة لاتليق بمقام الله تعالى مثل تنزيهه عن الصاحبة والولد ، وتنزيهه عن الاعتماد على غيره في التصريف ... ونحو ذلك .

٣ - تنزيه الله تعالى عن الاتصاف بصفات المخلوقين : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[5] .

٤ - نفي الأفعال التي لاتليق بمقام الله تعالى كالظلم والعجز والنوم والغفلة ... ونحو ذلك مماهو صفات نقص في المخلوق فكيف بها في جناب الخالق سبحانه .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٧ .
(٣) الراغب الأصفهاني ، المفردات : ١٤٣ .
(٤) انظر : د . عبدالجليل عبدالرحيم ، لغة القرآن الكريم : ٢٧٢ - ٢٧٣ .
(٥) سورة الشورى ، آية : ١١ .

المبحث الثاني

المنهج الاستدلالي في إثبات نبوة محمد ﷺ

تقدم في دليل العناية والتسخير أن إرسال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أبرز وأهم تلك المظاهر[1] ، وقد أرسل الله تعالى نبيه محمداً ﷺ في زمن الحاجة للرسالة ، مؤيداً بالآيات والبراهين الدالة على صدقه ، والمقنعة للمدعوين بأنها رسالة من عند الله تعالى ، جيء بها لخيرهم وسعادتهم ، إذ لم يكن لعامة العرب من دين إلا مابقي من ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وداخل الديانات الأخرى التحريف والتبديل .

وفي سورة البقرة العديد من البراهين والأدلة المبينة لصدق النبي ﷺ وصحة رسالته ، وبيان المنهج الاستدلالي لذلك يظهر مما يأتي :

أولاً : الاستدلال بالأخبار الغيبية على صدق النبي ﷺ :

بُعث النبي ﷺ في بيئة أمية في مجملها ، لاتعرف القراءة ولا الكتابة ، وبما أنه أحد أفرادها فقد اكتسب تلك الصفة ، وأمضى مع قريش أربعين سنة من عمره ، عرفوا خلالها سمته وسلوكه وأخلاقه ، وأنه لم يجلس إلى معلم قط ، ثم جاءهم بعد ذلك بالقرآن الكريم ، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام ، ويتلو عليهم أخبار الأمم الماضية التي لايمكن لأمي أن يعرفها ، مما لايدع مجالاً للارتياب في أن هذا القرآن إنما هو موحى به من الله تعالى .

ومن أخبار الأمم الغابرة التي قصها القرآن الكريم قصة بني إسرائيل مع نبيهم في تمليك طالوت ، ونزول التابوت ، وهزيمة جالوت وجنوده ، وعقب ذلك السياق قال تعالى : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾[2] .

والتأكيد على الرسالة وتقريرها في قوله تعالى : ﴿ وإنك لمن المرسلين ﴾ يدل على أمرين اثنين هما :

أ) إثبات صدق النبي ﷺ ، فهذه الآيات المتقدمة وأمثالها التي عَلِمها من غير مُعَلِّم من البشر؛ تدل على أنه ﷺ إنما ذكرها وعرفها بسبب الوحي من الله تعالى[3] .

---

(١) انظر صفحة ٦٥ من هذه الرسالة .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٢ .
(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٦ : ١٩٣ .

ب) إعجاز هذه الآيات الكريمة ، فهي طائفة من القرآن الكريم المتحدَّىٰ به . وسيأتي الحديث قريباً عن التحدي بالقرآن ووجوه إعجازه[1] .

ثانياً : الاستدلال بتميز الرسل عن غيرهم من البشر :

الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مرسلون وموحى إليهم من الله تعالى ؛ هذا ما تتضافر عليه آيات القرآن الكريم نصاً ، ومن تلك الآيات في حق عامة الأنبياء قوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾[2] ، وقال سبحانه في حق النبي ﷺ : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾[3] ، وقال في آية أخرى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾[4] .

ودلالة التأكيد على بعث الأنبياء وإرسال الرسل ؛ بيانُ أن النبوة لاتنال بالاجتهاد ، وليست من الكسب في شيء ، بل هي هبةٌ من الله تعالى لمن أوحى إليه من خلقه وتشريفٌ له ، تجعل النبي أو الرسول في رتبة أعلى وطبقة أسمى من سائر الناس ، يقول البقاعي عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ فبعث الله النبيين ﴾ : « رفعهم الله تعالى على بقية خلقه ، فأنبأهم بما يريد من أمره وأرسلهم إلى خلقه »[5] ، ومما قيل في قوله تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾[6] أن الإشارة لجماعة الرسل ومنهم النبي ﷺ وما فيها من معنى البُعْد للإيذان بعلو طبقتهم وسموّ منزلتهم[7] .

وكبراء قريش أدركوا ذلك التميّز وعَجْزَهم عن المنافسة في أمر النبوّة ، إلا أنهم كفروا كبراً وعناداً ، روي أن الأخنس بن شريق أتى أباجهل فقال : « يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال : ماذا سمعتُ ! تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذينا على الركب وكنا كفرسي رِهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ »[8] .

ولازم معرفة تميّز النبي ﷺ بما أوحى الله تعالى إليه ؛ تصديقه فيما أخبر به عن الله تعالى ، ومعرفة أن الشريعة التي جاء بها متميزة عمّا عداها من الشرائع والملل الأخرى ، وأنها الوحيدة التي يجب اتباعها دون غيرها .

---

(١) انظر صفحة ٧٥ من هذه الرسالة .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢١٣ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١١٩ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٥١ .
(٥) البقاعي ، نظم الدرر ٣ : ١٦٩ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٥٣ .
(٧) انظر : الألوسي ، روح المعاني ٣ : ٣ .
(٨) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٣١٦ . وفي معنى تجاذينا « قال الخليل : وجذا يجذو مثل جثا يجثو ، إلا أن جذا أدلّ على اللزوم » ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ١ : ٤٣٩ .

ثالثاً : الاستدلال بأن إرسال الرسل سنة جارية :

إرسال الرسل سنة أقامها الله سبحانه في خلقه من بني آدم ، قال تعالى : ﴿ وإنْ مِنْ أمَّةٍ إلاّ خلا فيها نذير ﴾ (١) ، وقد تحدثت بعضُ آيات سورة البقرة - كما سبق آنفاً - عن إرسال الرسل ، وتفضيل بعضهم على بعض ، وإرسال النبي ﷺ بخاصة مؤيداً بالآيات البينات ، الدالة على صدقه ، وصحة رسالته .

ومن هنا فإن إرسال النبي ﷺ والتأكيد عليه في قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ (٢) ، وقوله عزّ وجل : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ (٣) ليس مستغرباً ، بل كان مستمراً على العادة بوجود مثله في الأمم ، قال تعالى : ﴿ قل ماكنتُ بِدْعاً من الرُّسُل ﴾ (٤) .

ولما كان إرسال النبي ﷺ سُنَّة جارية ، وجب القبول أولاً بإمكانية نزول الوحي عليه من الله تعالى ، وهذا بحد ذاته يذهب الوهلة والرهبة من نفوس المدعوين ، ويجعلهم أكثر قابلية لتفهم الدعوة ، والتفاعل معها ، ولهم النظر بعد ذلك في الأدلة والبراهين المبينة لصدقه .

وإمعاناً في إثبات صدق النبي ﷺ آتاه الله تعالى الآيات ، وأيده بالمعجزات ، وأعظم معجزاته القرآن الكريم . يقول القرطبي : « وقد قام الدليل العقلي على أن بعثة بعض المخلوقين إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة ، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة »(٥) .

رابعاً : الاستدلال بإعجاز القرآن الكريم على صدق النبي ﷺ :

المعجزة : أمر خارق للعادة ، مقرونة بدعوى النبوة ، قصد إظهار صدق من ادّعى أنه رسول الله (٦) وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها .

وهي من أقوى الدلائل على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وبها تعلم صحة دعوتهم ، فالسحرة لما عارضوا معجزة موسى عليه الصلاة والسلام بسحرهم فبطل سحرهم تبين لهم صدقه ، وأن معه آية لايقدر عليها مخلوق ، فآمنوا : ﴿ قالوا آمنا برب العالمين ★ رب موسى وهارون ﴾(٧) .

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٣٤ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١١٩ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٥٢ .
(٤) سورة الأحقاف ، آية : ٤٦ .
(٥) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٧١ - ٧٢ .
(٦) انظر : الجرجاني ، التعريفات : ٢١٩ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٦٩ .
(٧) سورة الشعراء ، آية : ٤٧ - ٤٨ .

ومعجزة كل نبي تأتي ملائمه لبيئته وما أبدعوا فيه ، قال ابن عطية : « فإن الله تعالى جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع مايكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره ، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته ، وكذلك الطب في زمن عيسى ، والفصاحة في مدة محمد ﷺ »[١] .

ومما ذكره العلماء في شروط المعجزة ما يلي[٢] :

١ - أن تكون مما لايقدر عليه إلا الله تعالى .

٢ - أن تخرق العادة .

٣ - أن يستشهِد بها مدَّعي الرسالة على الله عزّ وجل ، فيقول : آيتي أن يفعل الله كذا ... ونحوه .

٤ - أن تقع على وفق دعوى المتحدّي بها المستشهِد بكونها معجزة له .

٥ - أن لا يأتي أحد بمثل ما أتى به على وجه المعارضة .

وقد ذكرت بعض آيات سورة البقرة أن المشركين طالبوا النبي ﷺ بالمعجزات الدالة على صدقه وذلك في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لايعلمون لولا يُكَلِّمُنا اللهُ أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مِثْل قولهم ﴾[٣] ، والمراد بـ ﴿ الذين لايعلمون ﴾ في قول كثير من المفسرين مشركو العرب[٤] .

وكشفت آيات أخرى بعض مطالبهم ، قال تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنْبُوعاً ★ أو تكونَ لك جَنَّةٌ من نَخيلٍ وعنب فَتُفَجِّرَ الأنهارَ خِلالها تفجيراً ★ أو تُسْقِطَ السماء كما زعمت علينا كِسَفًا أو تأتي بالله والملائكة قَبِيلاً ★ أو يكونَ لك بيت من زُخْرُفٍ أو ترقى في السماء ولن نؤمن لِرُقِيِّك حتى تُنَزِّل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشراً رسولا ﴾[٥].

ولايخفى مافي هذه المطالبات وأشباهها من التعنت والمكابرة ، وما تشعر به من تهرب عن مواجهة الدعوة وحقائقها ، ولذا فإن الله تعالى لم يجبهم إلى تلك المطالب ، وآتىٰ النبي ﷺ آية عظيمة بينة هي القرآن الكريم .

ومما جاء في وصف هذا القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ ألم ★ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾[٤] ، قال الألوسي : « قررت بعض إشاراتها بأنه الكتاب الذي لايحق غيره أن يسمى

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١ : ٧٣ .

(٢) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٦٩ - ٧١ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ١١٨ .

(٤) انظر : الماتريدي ، تأويلات أهل السنة ١ : ٢٦٩ ، والنيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ٤٢٧ ، والبقاعي ، نظم الدرر ٢ : ١٣٤ ، والمراغي في تفسيره ١ : ٢٠١ ، ونبهوا إلى القول الآخر بأن المراد بـ (لايعلمون) أهل الكتاب .

(٥) سورة الإسراء ، آية ٩٠ - ٩٣ .

(٦) سورة البقرة ، آية : ١ - ٢ .

كتاباً في جنسه ، أي باب التحدّي والهداية ، يُتحدّى به لكمال نظمه في باب البلاغة ، وكماله في نفسه »[1] ، فهو الكتاب الذي لايحوم حوله شكٌ ولا يتشبث به طرفٌ من ريبٍ ، وإن وقع فمن جهة المرتاب لا من جهته هو .

وقد جعله الله المعجزة الكبرى والباقية لنبينا محمد ﷺ ، وتحدى الشاكين بها في قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مِثْلِه وادعوا شهداءكم من دون الله إنْ كنتم صادقين ★ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النار التي وقودُها الناسُ والحجارة أعِدَّتْ للكافرين ﴾[2] ، وهذا التحدي عام لجميع الخلائق ، وإنما جابه الله به قريشاً ومشركي العرب لأنهم الغاية في الفصاحة والبلاغة . قال الألوسي « لما أقر الله سبحانه أمر توحيده ، عقّبه بما يدل على تصديق رسوله ﷺ ، والتوحيد والتصديق توأمان لاينفك أحدهما عن الآخر ، فالآية وإن سيقت لبيان الإعجاز ؛ إلا أن الغرض منها إثبات النبوة »[3] .

وسيق التحدي بالقرآن على ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : التحدي بالقرآن كاملاً ، قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[4] .

الوجه الثاني : التحدي بعشر سور من القرآن ، قال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سورٍ مِثله مفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[5] .

الوجه الثالث : التحدي بسورة واحدة من القرآن ، قال سبحانه : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ★ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[6] .

والخطاب في آية سورة البقرة مرادٌ به المشركون الذين تُحُدُّوا « فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا : مايشبه هذا كلام الله ، وإنا لفي شك منه . فنزلت الآية »[7] .

وإلى جانب التحدي بسورة واحدة من القرآن ، اشتملت هاتان الآيتان على وجه من وجوه

---

(١) الألوسي ، روح المعاني ١ : ١٨١ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٣ - ٢٤ .
(٣) الألوسي ، روح المعاني ١ : ٣٠٧ - ٣٠٨ . وانظر : الرازي ، عجائب القرآن : ١٣ .
(٤) سورة الإسراء ، آية : ٨٨ .
(٥) سورة هود ، آية : ١٣ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٣ - ٢٤ .
(٧) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٣١ - ٢٣٢ .

الإعجاز ، إذ سبق من الله تعالى إعلامهم بعجزهم ، وهو إخبار بالغيب قبل وقوعه .

ومجمل معالم التحدي في آيتي سورة البقرة مايأتي :

١ - التحدي بسورة واحدة من القرآن ، وعليه فالتحدي قائم بطوال السور وقصارها على حد سواء ، وسورة الكوثر أقصر سور القرآن وعدد آياتها ثلاث .

٢ - حث المشركين على الاستعانة بالشهداء ، والشهيد الحاضر ، أو القائم بالشهادة ، أو الناصر (١) . واختلف أهل التفسير في المراد بالشهداء على أقوال منها :

أ) الآلهة التي كانوا يعبدونها ، والمعنى : استعينوا بآلهتكم التي تعبدونها من دون الله حتى تعينكم على الإتيان بمثل سورة من القرآن (٢) .

ب) أكابر القوم ومن وافقهم في إنكار نبوة محمد ﷺ ، فيكون المعنى : ادعوهم ليعينوكم على المعارضة (٣) .

جـ) روي عن مجاهد أن معنى قوله تعالى : ﴿ وادعوا شُهداءكم ﴾ أي ادعوا ناساً يشهدون أنكم عارضتم القرآن ، وأن ماجئتم به مُماثِلُه (٤) .

٣ - الإخبار بالعجز عن المعارضة قبل وقوعها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ .

ومجيء التحدي والإخبار المسبق بالعجز يحرك النفوس ويشحذ الهمم للمعارضة ، ولو كانت في مقدورهم ؛ لبادروا إليها ، مع توفر الدواعي لها ، وحرصهم الشديد على إبطال دعوة المصطفى ﷺ ، فقد سلكوا لأجل ذلك ما أمكنهم من السبل : فنسبوا النبي ﷺ إلى السحر ، والجنون ، والشعر ، والكهانة (٥) . وأرسلوا وفداً إلى أهل الكتاب ليسألوهم عن أمور يختبرون بها النبي ﷺ ، فأمرهم أحبار اليهود أن يسألوه عن : أصحاب الكهف ، وذي القرنين ، والروح (٦) . وحاول بعضهم إشغال الناس عن النبي ﷺ ، حيث روي أن النضر بن الحارث كان يتتبع النبي ﷺ حيثما جلس يذكر الناس بالله ويدعوهم إلى الإسلام ، فينادي : « أنا والله يامعشر قريش أحسن منه حديثاً ، فهلم إليّ أحدثكم حديثاً أحسن من حديثه » (٧) . وجهدوا في تنفير الناس عن الجلوس إلى النبي ﷺ

(١) انظر : تفسير أبوالسعود ١ : ١١٣ .
(٢) انظر : الماتريدي ، تأويلات أهل السنة ١ : ٧٢ ، وعزاه القرطبي للفراء ، انظر : الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٣٢ .
(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ١١٨ ، وتفسير أبوالسعود ١ : ١١٣ .
(٤) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٣٣ .
(٥) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٢٧٠ ، ٢٨٩ .
(٦) انظر : المصدر السابق ج١ : ٣٠١ .
(٧) المصدر السابق ج١ : ٣٠٠ .

والاستماع لدعوته . وتمادوا في إيذاء النبي ﷺ وتعذيب أتباعه لإجبارهم على ترك الإسلام والرجوع إلى الشرك ... ونحو ذلك من سبل العداوة والمحاربة .

ولكنهم لم يتعرضوا لمعارضة القرآن الكريم . ولقد كان فيها - لو استطاعوا - غُنْية عن كثير مما صنعوا ، فبقي التحدي قائما ، وأحجم الفصحاء والبلغاء عن المعارضة لتيقنهم بعدم القدرة عليها. قال ابن عطية : « فصورة قيام الحجة بالقرآن على العرب أنه لما جاء محمد ﷺ به وقال : فأتوا بسورة من مثله ؛ قال كل فصيح في نفسه : وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله ؟ فلما تأمله وتدبره ميّز منه ما ميّز الوليد بن المغيرة حين قال : والله ما هو بالشعر ، ولا هو بالكهانة ، ولا بالجنون . وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لاقدرة لبشر على مثله . فصح عنده أنه من عند الله تعالى »[(1)] .

وبيان كون القرآن الكريم معجزاً أن يقال : إن هذا القرآن لايخلو من ثلاثة وجوه :

الأول : أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء .

والثاني : أن يكون زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة .

والثالث : أن يكون زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدر ينقض العادة .

وبطلان الأول والثاني بين ، ولو كان غير ذلك لأمكنهم المعارضة ، ولجاؤوا بمثل سورة من القرآن وقد كانوا من أحرص الناس عليه كما تقدم .

فبقي أن هذا القرآن لايماثل قولهم ، وناقض للعادة ، ومن ثَمّ وجب أن يكون معجزاً[(2)] .

أما وجوه إعجاز القرآن الكريم وما هو المعجز منه ، فتفاوتت أقوال العلماء في ذلك على النحو التالي :

١ - ذهب أبوسليمان الخطابي إلى أن أبين وجوه إعجاز القرآن الكريم وجودُه القائم المستمر على مدى الدهر منذ نزوله وحتى يأتي أمر الله ، دون أن يقدر أحد على معارضته ، مع أنه لم يخل زمان ممن يعادي الإسلام ويحرص على إبطاله ، وقال بعد بيان هذا الوجه : « وهذا أبين دلالة وأيسرها مؤونة ، وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه »[(3)] .

٢ - ويرى عبدالقاهر الجرجاني أن القرآن « معجز في نفسه ، وأنه في نظمه وتأليفه على

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٧٣ .

(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ١ : ١١٥ .

(٣) الخطابي ، بيان إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٢٢ .

وصفٍ لايهتدي الخلق إلى الإتيان بكلام هو في نظمه وتأليفه على ذلك الوصف »(١)، وهو يعني بذلك أن الإعجاز متمثل في نظم القرآن، وهذا ماذهب إليه ابن عطية حيث قال: « وهذا القول الذي عليه الجمهور والحذاق، وهو الصحيح في نفسه: أن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه »(٢). وكمال الدين الزملكاني الذي قال: « الأكثر على أن نظم القرآن معجز »(٣)، ثم قال بعد ردّه على من قال بالصرفة: « فتعيّن أن يكون الإعجاز نشأ من جهة التأليف الخاص، لامطلق التأليف، وذلك بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة، وعَلَتْ مركباته معنى »(٤).

٣ - وذهبت طائفة من العلماء إلى أن إعجاز القرآن له وجوه عدة(٥)، وأبرز ماقيل في تلك الوجوه:

أ) نظم القرآن، وفصاحته، وأسلوبه المعتلي جميع أساليب العرب، وجزالته.

ب) إخباره عن أمورٍ غيبية، سواء كانت ماضية أم مستقبلة، فمن إخباره عن الماضي ماجاء في قصة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وأخبار بني إسرائيل، أما الإخبار عن المستقبل فمنه قوله تعالى: ﴿ ألم * غُلِبَت الرُّوم * في أدنى الأرضِ وهم من بعد غَلَبِهِم سيغلبون ﴾(٦)، وقوله سبحانه: ﴿ سيُهْزَم الجمعُ ويُوَلُّون الدُّبُر ﴾(٧).

جـ) ما تضمنه القرآن الكريم من العلم، وما شرع فيه من الأحكام.

د) التناسب في جميع ماتضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف.

هـ) ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة حاجة المشركين لها.

و) تحديه لكافة الناس.

ز) نقض العادة، قال الرماني: « فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة »(٨).

حـ) قياسه بكل معجزة، وتقدم أن المعجزة تأتي خارقة للعادة، ويقعد الخلق عن معارضتها،

---

(١) الجرجاني، الرسالة الشافية (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ١٥٦.
(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز ١: ٧١.
(٣، ٤) الزملكاني، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٥٣، ٥٤.
(٥) من هؤلاء العلماء: القرطبي، أنظر: الجامع لأحكام القرآن ١: ٧٢ - ٧٥. وأبوالحسن الرمّاني، انظر: النكت في إعجاز القرآن - ضمن كتاب بعنوان: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - ص: ٧٥ و ١٠٩. وابن تيمية، انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٣: ٧٤ - ٧٥. وابن جزي، انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ١: ٢٣ - ٢٤.
(٦) سورة الروم، آية: ١ - ٣.
(٧) سورة القمر، آية: ٤٥.
(٨) الرمّاني، النكت في إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ١١١.

والقرآن الكريم حائز على هذين الأمرين .

٤ - ومذهب النظام ومن حذا حذوه أن القرآن الكريم معجز بالصرفة ، ومرادهم بها أن الله تعالى صرف همم المشركين عن معارضة القرآن .

وقد جعله الرماني أحد وجوه الإعجاز[١] ، ولم ينكره الخطابي[٢] ، إلا أن آخرين من العلماء أفسدوا هذا الرأي بوجوه منها[٣] :

أ) أن المعجز هو القرآن الكريم نفسه ، ولو قيل إن الصرفة هي المعجزة لزال وصف الإعجاز عن القرآن الكريم ، وذلك خلاف إجماع المسلمين[٤] .

ب) إذا وقع إعجاز القرآن الكريم بالصرفة ، لكان ينبغي أن يتعجب المشركون من حالهم دون حاله ، وإذا لم يحسوا بالعجز من أنفسهم لم تقم عليهم الحجة[٥] .

جـ) إذا كانت الصرفة وقعت حال التحدي فبإمكانهم معارضة القرآن بما قبل صرفهم عن فصيح كلامهم[٦] .

د) سلبُ قُدَرِهم على المعارضة لايُبقي فائدة من تحديهم مجتمعين أو مستعينين بشهدائهم ، إذ لايجدي اجتماعهم قوة وظهوراً على المعارضة في أمر سلبوا القدرة عليه[٧] .

---

(١) انظر : الرماني ، النكت في إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ١٠٩ .
(٢) انظر : الخطابي ، بيان إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٢٣ .
(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٧٥ . والجرجاني ، الرسالة الشافية (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ١٤٦ - ١٥٥ . والزملكاني ، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : ٥٣ - ٥٤ .
(٤) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٧٥ .
(٥) انظر : الزملكاني ، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : ٥٣ . والجرجاني ، الرسالة الشافية (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ١٤٧ .
(٦) انظر : الزملكاني ، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن : ٥٣ .
(٧) انظر : المصدر السابق : ٥٣ - ٥٤ .

المبحث الثالث

المنهج الاستدلالي في الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان ، وقد اهتم القرآن الكريم بتقرير الإيمان باليوم الآخر نظراً لأهميته من جهة ولما لاقاه من إنكار شديد لدى مشركي العرب من جهة أخرى ، إذ لم يدركوا حقيقة الكمال المطلق لله تعالى التي قررتها الشريعة الإسلامية ورسختها في النفوس ، بأن الله تعالى قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء .

والله تعالى عندما خلق الإنسان ركب فيه خاصية النظر في العواقب ، ولم يجعلها لغيره من سائر المخلوقات الأخرى ، وأقام حياة الإنسان على ذلك ، فجعل لكل أمر عاقبة ، فالحسنة عاقبتها الثواب ، والسيئة عاقبتها العقاب ، والحياة عاقبتها الموت ، والدنيا عاقبتها الآخرة .

فالدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر تتماشى مع خاصية مركبة في الإنسان ، ولو أنه تملّى وتدبر لوجدها من نفسه بداهة ودون عناء .

إلا أن فكرة البعث انتسخت من عقول مشركي العرب ، وحلّت مكانها أوهام وخيالات ترسخت على مدى السنين ، ومن أوهامهم اعتقادُهم بـ « الهامة » قال ابن منظور : « كانوا يقولون : إن القتيل تخرج من هامته هامةٌ فلاتزال تقول : اسقوني ، اسقوني حتى يقتل قاتله »[(١)] ومنه قول ذي الإصبع[(٢)] :

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي أضربْك حيث تقول الهامةُ اسقوني

وقيل في معناها : أن أرواحهم تصير هامة فتطير . وقيل : طائر يُخْرج من هامة الميت صدى[(٣)] ، قال لبيد[(٤)] :

وليس الناس بعدك في نقير ولا هم غير أصداء وهام

وجعله بعضهم طائر البوم ، وقيل : دودة تخرج من رأس الميت فتدور حول قبره[(٥)] .

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ١٢ : ٦٢٤ مادة « هوم » .
(٢) انظر : الضبي ، المفضليات : ١٦٠ .
(٣) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٢ : ٦٢٤ مادة « هوم » .
(٤) ديوان لبيد : ١٧٢ .
(٥) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٢ : ٦٢٤ مادة « هوم » ، وابن حجر ، فتح الباري ١٠ : ٢٤٢ .

وعندما دعا الإسلام إلى الإيمان باليوم الآخر كان لابد من إزالة تلك العقائد المسيطرة على أذهان المدعوين ولذلك أبطل النبي ﷺ عقيدة المشركين في الهامة حيث قال : « لاعدوى ولاطِيَرة ولاهامة ولاصَفَر »(١) .

ولخص القرآن الكريم عقيدتهم هذه في قوله تعالى : ﴿ وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدهر ﴾(٢) ، وبين من خلال جدالهم ونقاشهم في البعث الدوافع الرئيسة لإنكاره ، قال تعالى : ﴿ ويقول الإنسانُ أإذا ماتّ لَسوف أُخْرَجُ حياً ﴾(٣) ، وقوله سبحانه : ﴿ وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَولُهم أإذا كنا تراباً أإنا لَفِي خلقٍ جَدِيد ﴾(٤) ، فليس لهم من حجة لإنكار البعث والكفر به إلا التعجب والاستبعاد الشديد لإمكان القدرة على جمع الإنسان وإحيائه بعدما أصابه الفناء وابتلعته الأرض ، وأضحَو لايرون الحياة إلا أرحاماً تدفع ، وأرضاً تبلع ، فشاهدوا الفناء والموت ، وجهلوا حقيقة ماتدفعه الأرحام من أنه خلق تام للإنسان .

وأقام بعد ذلك الدلائل لإثبات الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ، وأنه آت لامحالة ، وكان من تلك الدلائل في سورة البقرة ما يأتي :

أولاً : الاستدلال بالخلق الأول للإنسان :

أشارت آياتٌ من سورة البقرة إلى ابتداء خلق الإنسان ، ونشأته الأولى منها :

١ - قوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يُمِيتكم ثم يُحْيِيكم ثم إليه تُرْجَعون ﴾(٥) .

والاستفهام في قوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ للتعجب ، فالله تعالى أقام عليهم الحجة في لزوم الإيمان به ، وبرسوله ﷺ ، وباليوم الآخر ، ولكنهم كفروا ، فكان كفرهم مدعاة للعجب . وأصل الكفر الجحود والستر ، وغالب إطلاقه في القرآن الكريم على الإشراك بالله .

قال ابن عباس في المراد بالآية : « كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تخلقوا ... ثم خلقتم وأخرجتم إلى الدنيا ، فأحياكم ، ثم أماتكم الموت المعهود ، ثم يحييكم للبعث يوم القيامة »(٦) .

(١) رواه البخاري في كتاب الطب ، باب لاهامة ، ح ٥٧٥٧ و ٥٧٧٠ ، انظر : فتح الباري ١٠ : ٢١٥ و ٢٤١ .
(٢) سورة الجاثية ، آية : ٢٤ .
(٣) سورة مريم ، آية : ٦٦ .
(٤) سورة الرعد ، آية : ٤ . وأفرد ابن نجم الحنبلي في كتابه (استخراج الجدل من القرآن الكريم) فصلاً جمع فيه كثيراً من أدله البعث ، انظر : ٨٧ - ٩٧ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .
(٦) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢١١ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٤٩ .

وورد في معنى الآية أقوال أخرى ، إلا أن ابن عطية صحح قول ابن عباس رضي الله عنهما فقال : « هو أولى هذه الأقوال ، لأنه الذي لامحيد للكفار عن الإقرار به في أول ترتيبه ، ثم إن قوله أولاً : ﴿ كنتم أمواتاً ﴾ وإسناده آخر الإماتة إليه تبارك وتعالى مما يقوي ذلك القول . وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين ، ثم الإحياء في الدنيا ، ثم الإماتة فيها ؛ قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر ، وجاء جحدهم له دعوى لاحجة عليها »[1] .

وأبرز دلالات الآية الكريمة تظهر مما يأتي :

أ) إثبات قدرة الله تعالى على الإحياء والبعث يوم القيامة ، فهو الذي أنشأهم أول مرة ، فخلقهم من عدم ، وعلى غير مثال تقدّم ، وهم لايرتابون في أنهم مخلوقون ، بل وأن الله تعالى هو خالقهم ، قال سبحانه : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنّ الله ﴾[2] وعدم ارتيابهم في أن الله خالقهم صار حجة عليهم في ارتيابهم في اليوم الآخر ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في رَيْبٍ من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نُطْفَةٍ ثُمَّ من عَلَقَةٍ ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغير مُخَلَّقة لنبيّن لكم ونُقِرُّ في الأرحام مانشاء إلى أجلٍ مسمى ، ثم نُخْرِجكم طِفْلاً ﴾[3] ، وإحياؤهم ليوم البعث نظير النشأة الأولى التي لايرتابون فيها .

ب) تأييس المشركين من نصرة آلهتهم[4] ، حيث قصر الله تعالى الرُّجْعى إليه فقال : ﴿ وإليه تُرْجَعون ﴾ ، وكان المشركون يجادلون بأنه إن كان ثمت بعث فستنصرهم آلهتهم ذلك اليوم ، فنبه الله تعالى أن لاأحد يملك من أمر الحشر والحساب شيئاً إلا هو ، وأخبر بعجز الآلهة عن نفع عابديها في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ وما ظَلَمْناهم ولكن ظلموا أنْفُسَهم فما أغْنَتْ عنهم آلهَتُهم التي يَدْعُون مِنْ دُون اللهِ مِنْ شَيءٍ لمَّا جاء أمرُ رَبِّك وما زادُوهم غير تَتْبِيب ﴾[5] .

٢ - قصة الخلق الأول للإنسان ، وجاء طرف منها في حوار الله تعالى مع الملائكة : ﴿ وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خَلِيفة قالوا أتجعلُ فيها من يُفْسِد فيها ويَسْفِك الدِّماءَ ونحن نُسبِّح بحمدك ونُقدِّس لك قال إنِّي أعلم ما لا تعلمون ﴾[6] ، وفسر بعض العلماء قوله تعالى : ﴿ جاعل ﴾ بمعنى خالق[7] .

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢١١ - ٢١٢ .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٨٧ .
(٣) سورة الحج ، آية : ٥ .
(٤) انظر : الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ج١ ك١ : ٣٧٧ .
(٥) سورة هود ، آية : ١٠١ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٣٠ .
(٧) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٦٣ .

ولم تُفَصَّل هنا قصة خلق آدم عليه الصلاة والسلام ، لكنها جاءت مبثوثة التفاصيل في آيات كريمة أخرى تحدثت عن مادة خلقه ، وكيف أن الله خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، قال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صَلْصال من حَمأ مَسْنون ★ فإذا سَوَّيتُه ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (1) ، وقال سبحانه : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من طين ★ فإذا سوَّيتُه ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (2) ، وقال ﴿ قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بِيَدَيَّ ﴾ (3) .

وفي هذه الآيات إشارة إلى أحد البراهين المساقة للاستدلال على البعث وهو قياس الإعادة على البدء (4) وإن لم تصرح بطرفي القياس ، فهي تضع حقيقة أن الله تعالى وحده خالق الإنسان من عدم وعلى غير مثال سبق ماثلة للعيان ، ومن قدر على الخلق ابتداءً فهو أقدر على الإعادة ، قال تعالى : ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ﴾ (5) ، بل الإعادة على الله أهون ، قال سبحانه : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ (6) .

ثانياً : الاستدلال على إمكان البعث بحدوث الموت بعد الحياة (7) :

وردت الإشارة إلى هذا الاستدلال في قوله تعالى ﴿ ثم يميتكم ﴾ من الآية الكريمة : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ (8) .

فالمشركون تناسوا قضية خلقهم أو جهلوها ، وسلموا بالموت لمشاهدتهم له في كل حين ، ولذا قيل لهم : إنه لما جاز حصول الموت بعد الحياة ، لم يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد هذه الموتة . ومن الآيات الكريمة المقررة لهذا الاستدلال قوله تعالى : ﴿ نحن قدَّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾ (9) .

---

(1) سورة الحجر ، آية : 28 - 29 .
(2) سورة ص ، آية : 71 - 72 .
(3) سورة ص ، آية : 75 .
(4) أورده ابن تيمية بعنوان (الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى) انظر : درء تعارض العقل والنقل 1 : 32 . وانظر مفصلاً : د. زاهر الألمعي ، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم : 278 .
(5) سورة الإسراء ، آية : 51 .
(6) سورة الروم ، آية : 27 .
(7) عبر عنه الدكتور زاهر الألمعي بـ « الاستدلال على إمكان البعث بحصول أحد المتضادين » انظر : دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم : 288 .
(8) سورة البقرة ، آية : 28 .
(9) سورة الواقعة ، آية : 60 .

ثالثا : الاستدلال بمن أماتهم الله ثم بعثهم في الدنيا :

تضمنت سورة البقرة عدة مواقف للإماتة والإحياء ، وجيء بها للدلالة على قدرة الله تعالى على البعث ، ومن تلك المواقف :

١ - قال تعالى : ﴿ أو كالذي مرّ على قريةٍ وهي خاويَةٌ على عُرُوشِها قال أنّىٰ يُحْيي هذه اللهُ بعد موتِها فأماته اللهُ مائة عام ثم بعثه قال كم لَبِثْتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم قال بل لبثتَ مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها ثم نكسوها لحماً فلما تبيّن له قال أعلمُ أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير ﴾ [١] .

وللمفسرين في اسم الرجل أقاويل كثيرة ، لكن العبرة في ماجرى له وليست في اسمه ، يقول الطبري : « وجائز أن يكون ذلك عزيراً ، وجائز أن يكون أورميا ، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك ، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقَه بعد مماتهم ، وإعادتهم بعد فنائهم ، وأنه بيده الحياة والموت ؛ من قريش ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب » [٢] .

وجاءت الإجابة على الرجل من جانبين هما : جانب إظهار قدرة الله تعالى على البعث بعد الفناء ، والجانب الثاني : قدرة الله تعالى على إبقاء الذوات على حالها دون فناء ، رغم حدوث مسبباته . وذلك في ثلاث إجابات نصت عليها الآية الكريمة هي :

الإجابة الأولى : من نفس السائل : ﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾ .

الإجابة الثانية : من طعامه وشرابه : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يَتَسَنَّهْ ﴾ ، بقيا على حالهما رغم مرور مائة سنة عليهما ، وهذه آية في قدرة الله تعالى على إبقاء الذوات دون فناء .

الإجابة الثالثة : من دابّته : ﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ .

واختلف الأقوال فيمن أصابه البلى : الرجل أو دابته أوكليهما ، وصحح الطبري أن يكون الفناء قد أدركهما معاً ، لأنه لايمكن صرف قوله : ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ﴾ إلى أنه أمر له بالنظر إلى عظام الدابة دون عظامه هو ، ولا إلى أنه أمر بالنظر إلى عظام نفسه دون عظام الدابة ، ثم قال : « وإذا كان البلى قد لحق عظامه وعظام حماره كان الأولى بالتأويل أن يكون الأمر بالنظر

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٥٩ .

(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٤٤٢ ، ومفاد قوله أن في الآية دلالتين : الأولى على إثبات البعث والاحتجاج على منكريه ، وتقدم قوله . والثانية على صحة نبوة محمد ﷺ والرد على الطاعنين فيها من أهل الكتاب ، وتمام كلامه : « وتثبيت الحجة بذلك على من كان بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيل ، بإطلاعه نبيه على مايزيل شكهم في نبوته ، ويقطع عذرهم في رسالته » .

إلى كل ما أدركه طرفه مما قد كان البلى لحقه لأن الله تعالى ذكره جعل جميع ذلك عليه حجة ، وله عظة وعبرة »[1] .

وإجابة رابعة ذكرها بعض أهل التفسير وهي أن الله تعالى ألقى في روع أحد ملوك الأرض أن يتوجه إلى القرية الخاوية على عروشها - قيل إنها بيت المقدس - فيعمرها ، فلما بعث الرجل بعد مائة عام كانت القرية أعمر ماكانت[2] .

وبهذه الإجابات تبيّنت له قدرة الله تعالى على الإحياء والبعث بعد الفناء ، فقال معبراً عما استقر في نفسه - فيما يحكيه القرآن عنه - : ﴿ أعلمُ أنّ اللهَ على كلِّ شيء قدير ﴾ .

٢ - إحياء الطير لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كلِّ جبل منهُنَّ جُزءاً ثم ادعُهُنَّ يأتِينَك سعياً واعلم أنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم ﴾[3] .

ولم يكن الخليل عليه الصلاة والسلام شاكّاً في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، لكنه لمنزلته عند الله تعالى طلب معاينة الكيفية ليزداد يقيناً ، وما جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال : « نحن أحق بالشك من إبراهيم »[4] ، قال ابن عطية فيه : « معناه أنه لوكان شاكّاً لكنا نحن أحق بالشك منه ، ونحن لانشك ، فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك »[5] .

وبيان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى تمثل في أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يأخذ أربعة من الطير فيتأملهن ، ثم يذبحهن ويفرقهن على الجبال ، ففعل ، وأمسك برؤسهن في يده ، ثم دعاهن أن يأتين إليه بإذن الله تعالى ، فأتينه يسعين على أرجلهن[6] .

وجَمْعُ الله تعالى الموتى وإحياؤهم يوم القيامة لايعدو أن يكون مثل جمعه أجزاء الطير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو يشاهد ذلك بأم عينه ، والعرب في الجزيرة كانوا يعيشون على

---

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٤٧٣ .

(٢) انظر : المصدر السابق ٥ : ٤٥٥ - ٤٥٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٢٩١ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٦٠ .

(٤) رواه البخاري ، في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب رقم ١١ ، ح ٣٣٧٢ . انظر : فتح الباري ٦ : ٤١٠ .

(٥) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤١٨ . ووافقه القرطبي ، انظر : الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٢٩٩ . والزمخشري ، انظر : الكشاف ١ : ٣٩١ . وهو بذلك يخطئ الطبري فيما ذهب إليه من أن مقوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام جاءت لعارض من الشيطان عرض في قلبه . انظر : جامع البيان في تأويل آي القرآن ٥ : ٤٩١ .

(٦) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٠٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٣٠١ . والزمخشري ، الكشاف ١ : ٣٩٢ .

ما تبقّى من ملة إبراهيم عليه السلام، ويزعمون أنهم على دينه، فجاءت هذه القصة وأشباهها حجة عليهم، فقد كان عليه عليه السلام يؤمن باليوم الآخر، ويصدق بالبعث والنشور، وذلك خلاف ماهم عليه.

رابعاً : الاستدلال على البعث بالإنبات [1] :

ورد إحياء الأرض ومافيه من إشارة إلى الإنبات في قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ وما أنْزَلَ اللهُ مِن السَّماءِ مِن ماءٍ فأحيا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها ﴾ [2] .

ولم تفصّل هنا قضية الإنبات وارتباطها بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى . ولعل ذلك لما في الآية الكريمة كاملة من دلائل متعددة على وحدانية الله تعالى، وقدرته على الإحياء والبعث، وحاكميته المطلقة .

وقد جاء هذا التفصيل صريحاً في مواطن أخرى كثيرة من القرآن الكريم، منها قول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه حَتَّى إذا أقلَتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناه لِبَلَدٍ مَيِّت فأنْزَلْنا بِه الماء فأخْرَجْنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتى لَعَلَّكُم تَذَكَّرون ﴾ [3] ، وقال : ﴿ وَتَرَىْ الأرْضَ هامِدَةً فإذا أنْزَلْنا عَلَيْها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وأنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ★ ذَلِك بِأنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وأنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وأنَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِير ﴾ [4] .

والاستدلال وقع عن طريق قياس إخراج الموتى من قبورهم يوم القيامة بإخراج النبات من الأرض الميتة القاحلة، بل إن القرآن الكريم عبر عن إحياء الناس وإماتتهم ثم بعثهم يوم القيامة بالإنبات في قوله تعالى : ﴿ واللهُ أنْبَتَكُم مِن الأرضِ نَباتاً ★ ثُمَّ يُعِيدُكُم فِيها وَيُخْرِجكُم إخْراجاً ﴾ [5] .

وفي القرآن الكريم استدلالات أخرى لم ترد لها إشارة في سورة البقرة، ولابأس من ذكرها موجزة فيما يلي [6] :

١ - الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأكوان، قال تعالى : ﴿ وقالوا أإذا كنا عِظاماً ورُفاتاً أإنا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ★ أوَ لَم يَرَوْا أنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرضَ قادِرٌ على أن يَخْلُقَ

(١) انظر : د . زاهر الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم : ٢٨٤ .
(٢) سورة البقرة، آية : ١٦٤ .
(٣) سورة الأعراف، آية : ٥٧ .
(٤) سورة الحج، آية : ٥ - ٦ .
(٥) سورة نوح، آية : ١٧ - ١٨ .
(٦) انظرها مفصلة : د . زاهر الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم : ٢٨٣ - ٢٩٢ .

مِثْلَهُمْ وجَعَلَ لَهُم أجلاً لارَيْبَ فيه ﴾ (١) .

٢ - الاستدلال على البعث بإخراج النار من الشجر الأخضر ، قال تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُم مِن الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً فإذا أنْتُم مِنْهُ تُوْقِدُون ﴾، وهي ردّ على من قال فيما يحكي عنه القرآن : ﴿ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِي رَمِيم ﴾ (٢) .

٣ - الاستدلال على البعث بحاجة الناس إلى موقف يرفع فيه الخلاف وتنقطع فيه الخصومة، وليس هذا من سنن الدنيا ، إذاً فلابدّ من دار أخرى لذلك ، وقد جعلها الله تعالى الدار الآخرة ، قال سبحانه : ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لايبعثُ اللهُ مَنْ يموت بلى وَعْداً عليه حقاً ولكنَّ أكثر الناس لايعلمون ★ ليُبَيِّنَ لهم الذي يَخْتَلِفُون فيه وليَعلم الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين ﴾ (٣) .

٤ - الاستدلال على البعث بأن حكمة الله تعالى وعدله يقتضيان البعث والجزاء ، فمعلوم أن الحياة الدنيا دار تظالم ، وتكليف . وعدل الله تعالى يقتضي أن يُقتصّ للمظلوم من ظالمه ، ويجازى المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، قال تعالى : ﴿ ونَضَعُ المَوازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيئاً وإنْ كان مِثْقالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ أتَيْنا بِها وكَفى بِنا حاسِبِين ﴾ (٤) .

٥ - الاستدلال على البعث بحصول اليقظة بعد النوم ، قال تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّىٰ الأنفُسَ حِيْنَ مَوْتِها والتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها فيُمسِكُ التي قَضَىٰ عَلَيها المَوْتَ ويُرسِلُ الأخْرىٰ إلى أجلٍ مُسَمّى إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفكَّرُون ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٩٨ - ٩٩ .
(٢) سورة يس ، آية : ٧٨ و ٨٠ .
(٣) سورة النحل ، آية : ٣٨ - ٣٩ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية : ٤٧ .
(٥) سورة الزمر ، آية : ٤٢ .

الفصل الثاني

استخدام المنهج العقلي
في دعوة أهل الكتاب

تمهيد

أهل الكتاب ، مصطلح أطلقه القرآن الكريم على اليهود والنصارى ، وعرفوا به لِما نزل على أنبيائهم من كتب كالتوراة ، والزبور ، والإنجيل .

وهؤلاء رغم مافي دينهم من تحريفات وشوائب ؛ يؤمنون بالله تعالى ، لذا لم يكن موضوع الإيمان بالله تعالى مثار جدل طويل ، بل عمد القرآن الكريم إلى تصحيح تصور الألوهية الذي انحرف عند اليهود فأصبح غير لائق بمقام الله تعالى ، وأدى بالنصارى إلى اعتناق الثالوث .

ومع ذلك فقد كانوا قبل مبعث النبي ﷺ أصحاب العلم الديني ، وبخاصة بين مشركي العرب ، وبقوا طيلة الفترة بين عيسى عليه الصلاة والسلام إلى مبعث النبي ﷺ ينتظرون النبي المرتقب ، بل سكن بنوالنضير ، وبنو قينقاع ، وبنو قريظة المدينة المنورة لمعرفتهم بأنها مهاجره ، وأكثروا من نعته والتبشير به بين أهل المدينة ومن حولها ، بل كانوا يستنصرون به على أعدائهم .

وعندما بعث النبي ﷺ في مكة لم يذكر عن اليهود أنهم سعوا لمحاربته أو تكذيبه ، حتى إذا هاجر إلى المدينة وتأكدوا بأنه هو النبي المرتقب داخلهم الحسد أن زالت النبوة من بني إسرائيل فكفروا به وأخذوا يكيدون له ، قال تعالى : ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ [1] .

وإزاء ذلك الموقف أخذ القرآن الكريم يحاورهم بالأدلة الدينية العلمية تماشياً مع طبيعتهم وما لديهم من علم ، لإلزامهم الحجة ، وتفنيد دعاويهم ، وتبديد أعذارهم ، وذلك ماتوضحه مباحث هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٩٠ .

المبحث الأول

المنهج الاستدلالي
في دعوة أهل الكتاب إلى التصديق بالنبي ﷺ

تقوم الديانة اليهودية والنصرانية على أساس تخصيص العلم الديني بالأحبار والرهبان ، وعدم تقديمه لغيرهم إلا بحدود معينة ، مما أعطى هذه الطائفة قدرة فائقة في السيطرة على أتباعهم الملوك منهم والعامة ، والتصرف بالمعطيات الدينية حسب أهوائهم بالحجب والكتمان أو التحريف .

وكان من العلم الذي آثروا الاحتفاظ به صفة النبي ﷺ وبشارات الأنبياء به ، وما أن وصل النبي ﷺ المدينةَ المنورة مهاجراً ، وعرف أحبار اليهود فيه تلك الصفة والبشارات ؛ حتى ناصبوه العداء ، وتواصوا بكتمانها بل وتقديمها محرفةً إلى عامتهم ، فجاءت الآيات الكريمة لتكشف ماكتموا، وتُبيّن سلوكهم مع النبي ﷺ ، مُوْرِدَةً الحجج والاستدلالات التي تلزمهم بالتصديق بالنبي ﷺ وتدعوهم إلى الإيمان به . وفيما يلي بعض تلك الاستدلالات من سورة البقرة :

أولاً : الاستدلال على أهل الكتاب بمعرفتهم بالنبي ﷺ :

صرحت الآيات الكريمة بمعرفة أهل الكتاب للنبي ﷺ ، كقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ (٢) .

والذين عرفوا هم العلماء من أحبار اليهود وقساوسة النصارى ، أي عرفوا نبوة النبي ﷺ وصدق رسالته (٣) ، روى عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة ونزل بقباء خرج إليه أبوها حيي بن أخطب وعمها أبوياسر بن أخطب قالت : « فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس . فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى ، فهششت إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إليّ واحدٌ منهما ، مع مابهما من الغمّ . قالت : وسمعت عمي أباياسر وهو يقول لأبي

(١) سورة البقرة ، آية : ٨٩ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٦ .
(٣) هذا أحد الأقوال في الآية الثانية ، والقول الآخر : يعرفون تحويل القبلة . انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ١٨٧ . ورجّح الرازي القول الأوّل ، انظر : التفسير الكبير ٤ : ١٢٩ . وانظر : البغوي ، معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ١٢٣ . والخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل ١ : ١٢٣ . و الألوسي ، روح المعاني ٢ : ١٩ .

حيي بن أخطب : أهو هو؟ قال : نعم والله . قال : أتعرفه وتُثْبِته ؟ قال : نعم. قال : فما في نفسك منه؟ قال : عداوته والله مابقيت »[1] .

وجاء قوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ بعد تحذير المؤمنين من اتّباع اليهود والنصارى في قوله سبحانه : ﴿ ولئن اتّبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين ﴾[2] ، ومعنى الآية - كما قال الرازي - أن الله تعالى « أخبر المؤمنين بحاله ﷺ في هذه الآية فقال : اعلموا يامعشر المؤمنين أن علماء أهل الكتاب يعرفون محمداً وما جاء به ، وصدقَه ، ودعوتَه ، وقبلتَه ، لايشكون فيه كما لايشكون في أبنائهم »[3] .

وفي القرآن الكريم آيات أخرى نصّت على الصفة التي في التوراة والإنجيل ، قال تعالى : ﴿ الذين يَتَّبِعُون الرَّسُول النَّبيَّ الأميَّ الذي يَجِدُونَه مكتوباً عِنْدَهم في التوراة والإنجيل يأمرُهم بالمعروفِ وينهاهم عن المنكر ويُحِلُّ لهم الطَّيِّبات ويحرِّم عليهم الخبائثَ ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾[4] ، وأن عيسى عليه الصلاة والسلام بشر به ، قال سبحانه : ﴿ ومُبَشِّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾[5] .

ورغم كثرة التحريف ؛ وجد بعض علماء المسلمين بشارات بالنبي ﷺ من ثنايا نصوص العهدين القديم والجديد ، منها : « قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا . أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه »[6] ، واستنتج الشيخ رحمة الله الكيرانوي[7] وجوه البشارات من هذا النص كالتالي :

١ - أنه لم يقم في بني إسرائيل من هو مثل موسى عليه الصلاة والسلام من يوشع بن نون وحتى عيسى عليهم الصلاة والسلام ، وهذا مانصت عليه التوراة ، وبهذا فليس هذا النبي من بني إسرائيل بل من إخوتهم .

٢ - قوله : أجعل كلامي في فمه إشارة إلى أنه أميّ لايعرف القراءة ولا الكتابة . ولم تعرف هذه الصفة لأحد من الأنبياء إلا للنبي ﷺ .

وفي إنجيل برنابا الحواري المكتشف عام ١٧٠٩م نصوص صرحت باسم النبي ﷺ منها :

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٥١٩ . انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٢ : ٥٣٣ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٥ .
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ٤ : ١٢٩ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٥٧ .
(٥) سورة الصف ، آية : ٦ .
(٦) العهد القديم ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، سفر التثنية ١٨ ، النص ١٨ - ١٩ . وانظر : أبو عبيدة الخزرجي ، بين الإسلام والمسيحية : ٢١٣ .
(٧) انظر : الكيرانوي ، إظهار الحق على الخلق ١ : ٥٨٨ .

« أجاب التلميذ : يامعلم ، من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عندي الذي يأتي إلى العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب : إنه محمدٌ رسول الله »[1] .

ولنا أن القرآن الكريم طرق مسامع أهل الكتاب وبخاصة اليهود في المدينة المنورة بهذه الحقائق ، وما كان أحد من أحبارهم قادراً على تقديم حجج وبراهين تنفي النبوة عن ﷺ بعد أن أخبر الله بصفته والبشارات به ، وأخرج من بين أظهرهم من آمن بالنبي ﷺ من أحبارهم وأماط اللثام عنها أمثال عبدالله بن سلام ومخيرق رضي الله عنهم .

وإلى جانب معرفتهم النبي ﷺ من خلال الصفة والبشارات ، فقد عرفوه من الأخبار التي أنبأهم بها عن أنفسهم ، وحدثهم عنها بما أُوحي إليه من ربه ، ولم يكن يعلم كثيراً منها إلا العلماء منهم ، ومِمّا جاء منها في سورة البقرة : قصة البقرة ، وفلق البحر ، ونزول المنّ والسلوى ، وتفجير الماء من الحجر ، ورفع الطور ، والتحايل يوم السبت ... ونحوها .

وورود تلك الأخبار على لسان النبي الأمي ﷺ حجة ظاهره بأنه رسول الله ، وهذا ماجعل الطبري يرى في قصة المار على القرية - بعد استدلاله بها على منكري البعث - حجةً على أهل الكتاب حيث قال : « وتثبيت الحجة بذلك على من كان بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيل ، بإطلاعه نبيه على مايزيل شكهم في نبوته ، ويقطع عذرهم في رسالته »[2] .

بل إن اليهود في المدينة تلاوَموا لما سمعوا النبي ﷺ يذكر من أخبارهم وأحوال أسلافهم ما لا يعرفه إلا خاصّتهم ، فوبخ رؤساؤهم أمثال كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا المنافقين منهم ظانّين أن تلك الأخبار خلُصت للنبي ﷺ منهم ، فأنزل الله تعالى في شأنهم هذا : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بمافتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴾[3] ، قال البغوي في معنى الآية : « ليخاصموكم به - يعني أصحاب محمد ﷺ ويحتجّوا بقولكم عليكم فيقولوا : قد أقررتم أنه نبي حقّ في كتابكم ثُمّ لا تتبعونه ؟! وذلك أنهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم في اتّباع محمد ﷺ آمنوا به فإنه حق »[4].

ثانياً : الاستدلال بتصديق القرآن الكريم لكتبهم ونسخه لها :

أنزل الله تعالى على أنبياء بني إسرائيل عدداً من الكتب منها : التوراة ، والزبور ، وكتاب

---

(١) إنجيل برنابا ، الفصل ٦٣ نص ٢ و ٨ ص ٢٥٢ . وانظر قصة اكتشاف هذا الإنجيل : محمد تقي الدين العثماني ، ماهي النصرانية : ٢٣٣ .
(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٤٤٢ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٧٦ .
(٤) البغوي ، معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ٧٦ .

أشعياء حزقيال ودانيال وآخرها الإنجيل المنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام [1] ، وكلها ملحقة بالتوراة . وبإرسال النبي ﷺ ونزول القرآن الكريم انتسخت كلها وأصبحت له الهيمنة عليها . ولذا دُعي أهل الكتاب إلى التصديق بالقرآن الكريم في آيات عديدة منها قوله تعالى : ﴿ وآمِنُوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولاتكونوا أوّل كافر به ﴾ [2] وقال سبحانه : ﴿ من كان عدوا لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله مصدّقاً لما بين يديه وهدىً وبشرى للمؤمنين ﴾ [3] .

وفي قوله تعالى : ﴿ أنزلت ﴾ و ﴿ نزّله على قلبك بإذن الله ﴾ تنبيه ولفت نظر إلى وحدة المصدر للكتب والأنبياء ، فكل هذه الكتب منزلة من الله تعالى ، وجميع الأنبياء مرسلون منه كذلك ، ويترتب عليه مايلي :

١ - أن الإيمان بأحدها يستلزم الإيمان بجميع هذه الكتب ، كما أن التكذيب بواحد منها يؤدّي إلى التكذيب بجميعها ، لأن التوراة مبشِّرة بالنبي ﷺ ، والقرآن الكريم مصدِّق لها . وفيه ردٌّ على دعوى أهل الكتاب التمسك بدينهم والإيمان بالتوراة دون غيرها ، قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ [4] .

٢ - أن إنكار أهل الكتاب للقرآن الكريم يوقعهم في التفريق بين الأنبياء المناقض لدعوى الإيمان ، فمن صفة المؤمنين عدم التفريق بين الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحدٍ من رسله ﴾ [5] .

٣ - أن نزول الوحي على النبي ﷺ نظير نزوله على أنبيائهم ، يؤكده قوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ﴾ [6] .

فما يقولونه ويحتجّون به في إثبات حادثة الوحي هناك يُحْتَجّ به عليهم هنا . قال أبو السعود : « وفيه تحقيق للمماثلة بين شأنه ﷺ وبين شؤون من يعتقدون بنبوّته من الأنبياء عليهم السلام في مطلق الإيحاء ، ثم في إيتاء الكتاب ، ثم في الإرسال ، فإن قوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك ﴾ منتظمٌ لمعنى آتيناك وأرسلناك حتماً » [7] .

(١) انظر : العهد القديم ص : ٢ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٤١ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٩٧ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٩١ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٨٥ .
(٦) سورة النساء ، آية : ١٦٣ .
(٧) تفسير أبوالسعود ١ : ٦٨ .

وتصديق القرآن الكريم لما معهم من كتب يتمثل في عدة وجوه [1] :

أ) الموافقة في أصل الدين ، وبعض الأحكام كتحريم الربا والزنا ، وفضائل الأخلاق . وما جاء مخالفاً فإنه يدخل في دائرة النسخ وإبدال الأحكام وفق حكمة يريدها الله تعالى .

ب) الموافقة في ما أخبر به من أحوال بني إسرائيل مع أنبيائهم .

جـ) الموافقة في نعت النبي ﷺ وبشارات الأنبياء به .

ولازم معرفة أهل الكتاب بوجوه تصديق القرآن الكريم لمامعهم من كتب المبادرة إلى التصديق بالقرآن الكريم ومن ثم بالنبي ﷺ دون تراخ أو تردد ﴿ ولاتكونوا أول كافر به ﴾ ، والكفر عن علم أشد وأعظم منه عن جهل ، فحذرهم الله تعالى ونهاهم عن المسارعة إليه ، ودعاهم إلى التثبت ومراجعة عقولهم عند سماع القرآن ، لأنهم محط أنظار سائر اليهود فإن كفروا تتابع أولئك على الكفر ، فباؤوا بآثامهم جميعاً [2] .

وتصديق القرآن الكريم لما عند أهل الكتاب في أصل الدين يقود إلى استدلال آخر من استدلالات القرآن الكريم عليهم للتصديق بالنبي ﷺ هو :

ثالثاً : الاستدلال على أهل الكتاب بالدين الحق لأنبيائهم :

الإيمان بالله تعالى واحد لا يختلف باختلاف الشرائع ، وعليه تعاضد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، بل جعله ديننا الحنيف الركن الرابع من أركان الإيمان ، قال تعالى – في معرض محاجته أهل الكتاب – مخاطباً المؤمنين : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [3] ، قال ابن عطية : « فالمعنى : أنا مؤمن بجميع الأنبياء ، لأن جميعهم جاء بالإيمان ، فدين الله تعالى واحد وإن اختلفت الشرائع والأحكام » [4] .

ودين الله الذي دان به النبي ﷺ وهؤلاء الأنبياء الذين يدّعي أهل الكتاب التمسك بدينهم هو الإسلام والتوحيد الخالص لله تعالى ، لا الثالوث الذي تعبده النصارى ، ولا الإله الخاص ببني إسرائيل . وهو عهْد الأنبياء بعضهم إلى بعض ، وبه وصّى إبراهيم ويعقوب عليهما الصلاة والسلام ،

---

(١) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ٤٠ ، والخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل ١ : ٥٣ ، والطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ج٢ ك١ : ٢٥٩ .

(٢) انظر : تفسير البغوي – بحاشية تفسير الخازن – ١ : ٥٣ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ١٣٦ .

(٤) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٣١ .

قال تعالى : ﴿ ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ [1] ، والكلمة الموصّى بها قيل هي : لاإله إلا الله . وقيل قوله : أسلمت لرب العالمين [2] . قال الطبري : « وهي الإسلام الذي أمر به نبيه ﷺ ، وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله ، وخضوع القلب والجوارح له » [3] .

وإثبات الإسلام ديناً لهؤلاء الرسل يقتضي بالضرورة نفي أي دين آخر عنهم وبخاصة اليهودية والنصرانية ، وقد جهد أهل الكتاب في نسبة دينهم لهؤلاء الأنبياء ، فوبّخ الله تعالى اليهود الذين قالوا للنبي ﷺ : « ألست تعلم أنّ يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية ؟ » [4] فأنزل الله تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحدا ونحن له مسلمون ﴾ [5] ، فحجّهم القرآن الكريم بأنكم لم تشهدوا وصيّة يعقوب عليه السلام والتزام أبنائه له بالإسلام عند احتضاره ، « ولو شهدتم ذلك لتركتم ما أنتم عليه من الدين ولرغبتم في دين محمد ﷺ الذي هو نفس ما كان عليه إبراهيم ويعقوب وسائر الأنبياء عليهم السلام بعده » [6] .

وإن فُسّرت (أم) بمعنى بل ، فكأنه قيل لهم : « أتدّعون على الأنبياء اليهودية أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموت ؟ يعني أن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام ، وقد علمتم ذلك فمالكم تدّعون على الأنبياء ما هم منه براء » [7] .

وعلى كلا المعنيين فإن الغاية من الآية الكريمة تكذيب أهل الكتاب فيما افتروه على الأنبياء بنسبتهم إلى دين لم يعرفوه ، ولم يدينوا به قط ، بل هو حادث بعدهم ، وقد أثبت الله تعالى لهم دين الإسلام في كتبهم وفي القرآن الكريم ، وقطع الطريق على مزاعمهم بأن الهداية محصورة فيما هم عليه فقال سبحانه : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ [8] ، والاقتصار على إبراهيم الخليل عليه السلام دون بقية الأنبياء لما له من مكانة رفيعة لدى اليهود والنصارى ، وكذلك مشركي العرب والمسلمين . ونظراً لتبجيل أهل الكتاب له دعاهم القرآن الكريم للرجوع إلى الأصل المتفق عليه وهو ديانة إبراهيم عليه السلام التي جاء بها

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٢ .
(٢) انظر : البغوي ، معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ١١٣ .
(٣) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٩٤ .
(٤) البغوي ، معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ١١٤ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٣٣ .
(٦) الرازي ، التفسير الكبير ٤ : ٧٣ .
(٧) الزمخشري ، الكشاف ١ : ٣١٤ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ١٣٥ .

النبي ﷺ نقية كاملة . وأصل الحنف الميل ، قال الراغب الأصفهاني : « هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة » [1] .

وأتبع سبحانه ذلك المنع والتكذيب بالتدليل على بطلان دعواهم أن الأنبياء كانوا يهوداً أو نصارى ، فقال سبحانه : ﴿ أم تقولون إنَّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادةً عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ [2] .

ولايمكن لبشر أن يدّعي أنه أعلم من الله عزّ وجل ، وإلا كذبه حتى السفلة من الناس فضلاً عن ذوي العقل والنهىٰ . وإن قالوا : الله أعلم . توجّب عليهم أن يقبلوا شهادته ويأخذوا بما أخبر به ، وقد شهد سبحانه وأخبر بأن دينهم هو الإسلام ليسوا بيهود ولا نصارى ، وأن اليهودية والنصرانية حادثة بعدهم ، قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم وما أنزلت والتوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ★ ها أنتم هٰؤلاء حاجَجْتُم فيما لكم به علم فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ★ ماكان إبراهيم يهودياً ولانصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ [3] .

ولم يبق أمام أهل الكتاب بعد المحاجة والاستدلال القرآني إلا أن يختاروا بين التصديق بالنبي ﷺ والإيمان به ، وقد فعله بعض اليهود وكثير من النصارى ، أو يجحدوا بها فيكفروا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

رابعاً : الاستدلال عليهم باستفتاحهم على الذين كفروا :

كانت العرب في الجزيرة العربية قبل مبعث النبي ﷺ أهل جاهلية ، وعباد وثن ، لاعهد لهم بالرسل ، وليس عندهم علم من كتاب ، إلا نزراً مما يسمعونه من أهل الكتاب ، فلا يعبؤون به ، ولا يثبت في صدورهم ، أما اليهود فأهل كتاب وأصحاب علم ، ونظراً لما استنبطوا من كتبهم من قرب مبعث النبي المرتقب ، أكثروا من ذكره على مسامع أولئك المشركين ، وبخاصة أهل المدينة المنورة (يثرب) .

واستمروا على ذلك دهراً من الزمان وللمشركين عليهم الغلبة في الحرب ، وإذا مرّوا بيهود

(١) الراغب الأصفهاني ، المفردات : ١٣٣ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٠ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٦٥ - ٦٧ .

يؤذونهم ، فيسأل اليهود الله تعالى أن يبعث لهم ذلك النبي ليؤمنوا به ويقاتلوا العرب معه . روى البيهقي أن « يهود خيبر كانت تقاتل غطفان ، فكلما التقوا هزمت يهود خيبر ، فعاذت اليهود بهذا الدعاء فقالت : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم . فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان »(١) .

فلما بعث الله النبي ﷺ من قريش ، وعرفته يهود أنكروه وكفروا به ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ولمَّا جاءَهُم كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُم وكانوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الذين كَفَروا فَلَمَّا جاءَهُم ما عَرَفوا كَفَروا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلى الكافِرين ﴾(٢) .

وهذا على رأي من فسّر قوله تعالى : ﴿ يَسْتَفْتِحُون ﴾ بطلب النصرة ، أي يستنصرون(٣) . وذهب بعض العلماء إلى أنه بمعنى الاستعلام ، قال الأصفهاني : « يستعلمون خبره من الناس مرة ، ويستنبطونه من الكتب مرّة »(٤) ، وحكي أن الأحبار كانوا يسألون مشركي العرب عن النبي ﷺ ويذكرون صفته ليعلموا إن كان ولد فيهم من يوافق حاله حال النبي المبعوث آخر الزمان(٥) .

وقيل أيضاً في معنى الآية : يفتحون عليهم ويعرّفونهم أن نبياً منهم يبعث آخر الزمان(٦) ، واليهود حينئذٍ حلفاء للأوس والخزرج ، فكانت يهود تعرّفهم بذلك ، فلما بعث النبي ﷺ من غير بني إسرائيل كفروا به . روى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن يهودَ كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة يامعشر يهود ، اتّقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل الله جل ثناؤه من ذلك في قولهم : ﴿ ولمَّا جاءَهُم كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُم وكانوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الذين كَفَروا فَلَمَّا جاءَهُم ما عَرَفوا كَفَروا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلى الكافِرين ﴾ »(٧) .

---

(١) البيهقي ، دلائل النبوة ٢ : ٧٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٨٩ .
(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٣٣٢ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٤٩ . والبغوي ، معالم التنزيل -بحاشية تفسير الخازن- ١ : ٨٢ ... وغيرها .
(٤) الراغب الأصفهاني ، المفردات : ٣٧١ .
(٥) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٨٠ . وأبو حيان ، البحر المحيط ١ : ٣٠٢ .
(٦) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٩٦ .
(٧) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٣٣٣ .

المبحث الثاني

المنهج الاستقرائي لبيان التحريف عند أهل الكتاب

الحرْفُ طرف الشيء وحدُّه ، والتحريف : التغيير [١] ، قال الطبري : « وأصله من انحراف الشيء عن جهته وهو ميل عنها إلى غيرها » [٢] .

وقد جاء ذكر التحريف والإشارة إليه في عدد من آيات سورة البقرة التي أعطت حكماً عاماً بوقوع التحريف من أهل الكتاب على سبيل الإثبات والقطع ، مستقرئة بعض الحالات التي وقع فيها التحريف أو اكتُشِف من أفعالهم ومواقفهم ، ومنها :

الحالة الأولى : مع النبي ﷺ :

تضمنت بعض آيات سورة البقرة مايفيد وقوع التحريف من أهل الكتاب حيال النبي ﷺ منها قوله تعالى : ﴿ وآمِنُوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرٍ به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴾ [٣] وقوله سبحانه : ﴿ فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون ﴾ [٤] .

والاشتراء - كما قال الزمخشري - : « استعارة للاستبدال ... يعني ولا تستبدلوا بآياتي ثمناً ، وإلا فالثمن هو المشترى به » [٥] .

أما كيفية التحريف فتشعر الآيات الكريمة بأنهم حرّفوا المعاني عن وجهها إلى غيره ، وروّجوا تلك التأويلات ، قال الطبري : « يميلونه عن وجهه ومعناه الذي هو معناه إلى غيره » [٦] . ولجوؤهم إلى تحريف المعاني مكنهم من التلبيس على العامة ، بل ومحاولة التنصل من استفتاحهم في الجاهلية على الأوس والخزرج وذلك حين قال سلام بن مشكم لمعاذ رضي الله عنه : « ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم » [٧] ، وهذا يعني أن الصفة والبشارات كانت بإشارات

---

(١) انظر : الفيروز آباذي ، القاموس المحيط : ١٠٣٢ - ١٠٣٣ مادة « حرف » (ط . دار الرسالة) .
(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٢٤٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٤١ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٧٩ .
(٥) الزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٧٦ . وانظر : الألوسي ، روح المعاني ١ : ٣٨٩ .
(٦) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٢٤٨ .
(٧) المصدر السابق ٢ : ٣٣٣ .

تستنبط من النصوص ، قال الألوسي : « قال بعض العلماء : ما انفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبي ﷺ ولكن بإشارة لايعرفها إلا العالمون »[١] .

لكن قوله تعالى : ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ يوحي بأن التحريف لم يقتصر على تحريف المعاني ، بل تعدّاه إلى تغيير الألفاظ بغيرها كتابة ، قال الألوسي : « روي أنهم كتبوا في التوراة مايدل على خلاف صورة النبي ﷺ وبثوها في سفهائهم وفي العرب ، وأخفوا تلك النسخ التي كانت عندهم بغير تبديل ، وصاروا إذا سئلوا عن النبي ﷺ يقولون : ما هذا الموصوف عندنا في التوراة ، ويخرجون التوراة المبدلة ويقرؤونها ويقولون : هذه التوراة التي أنزلت من عند الله »[٢] . وقد تمحى الألفاظ دون استبدال ، روى الطبري عن عثمان بن عفان رضي ﷺ عنه : « أن اليهود حرفوا التوراة فزادوا فيها مايحبون ، ومحوا منها مايكرهون ، ومحوا اسم النبي ﷺ »[٣] .

وتدل بعض أحداث السيرة النبوية أنه ثمت صفات محددة للنبي ﷺ عند أهل الكتاب في كتبهم ، فبحيرى الراهب عرف أن النبي ﷺ مات والدُه وأمه به حبلى . وسلمان الفارسي رضي الله عنه تحرى بعض الصفات في النبي ﷺ : يأكل من الهدية ، ولايأكل من الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة[٤] . كما نصّ القرآن الكريم على أن عيسى عليه الصلاة والسلام بشّر صراحة بالنبي ﷺ ، قال تعالى - فيما يحكيه عنه - : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾[٥] ، إلا أن علماء أهل الكتاب أخفوا تلك الصفات والبشارات ، ويؤكده صنيعهم في آية الرجم ، قال الألوسي : « والجمهور على أن تحريفها - يعني التوراة - بتبديل كلام من تلقائهم كما فعلوا ذلك في نعته ﷺ ... وغيروا آية الرجم بالتسخيم وتسويد الوجه »[٦] .

الحالة الثانية : مع موسى عليه السلام :

درج بنو إسرائيل على التحريف حتى مع أنبيائهم قبل النبي ﷺ ، ولقي موسى عليه الصلاة والسلام الكثير منهم في جانب التحريف والتبديل ، ومما ذكرته سورة البقرة :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حِطَّةٌ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ★ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل

(١) الألوسي ، روح المعاني ١ : ٤٧٧ .
(٢) المصدر السابق . وذكر غيره من علماء التفسير تغيير أهل الكتاب لصفة النبي ﷺ بغيرها كتابة ، انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٣٢ . و القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٩ .
(٣) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٧١ .
(٤) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٢ : ٢٨ ، ٩٥ .
(٥) سورة الصف ، آية : ٦ .
(٦) الألوسي ، روح المعاني ١ : ٤٧٥ .

لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ (١) .

والأصل في الإبدال : جعل شيء مكان شيء آخر ، وبَدَلُ الشيء : غيرُه ، وبدَّله : حرَّفه وغيره بغيره (٢) .

والله تعالى أراد إكرام بني إسرائيل بإسكانهم بيت المقدس ، وإباحة طيباتها لهم ، فأمرهم بدخولها مظهرين علائم الشكر ، وطالبين المغفرة منه سبحانه : ﴿وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم﴾ ، لكن جِبلّة بني إسرائيل في النزوع إلى الباطل وحب التحريف والتبديل جعل فريقاً منهم يسخر ويستهزئ بأمر الله تعالى بدلاً من الشكر والاستغفار ، فقالوا : حنطة حمراء فيها شعيرة ، أو حبة في شعرة ، عوضاً عن قولهم : « حُطّ عنا خطايانا » وهو الأمر الذي أمروا به (٣) . روى أبوهريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً ، وقولوا حطّة يُغْفر لكم خطاياكم . فبدَّلوا . فدخلوا يزحفون على أستاهِهم . وقالوا : حبّة في شَعَرَة » (٤) .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ (٥) .

والفريق الذي قام بالتحريف هنا في قول عدد من العلماء ، السبعون الذين كانوا مع موسى عليه السلام حين ذهب لميقات ربه . فمنهم من ذهب إلى أنهم سمعوا كلام الله تعالى بلا واسطة ، قال محمد ابن إسحاق : « وهؤلاء هم السبعون الذين خرجوا مع موسى عليه السلام فلما منعوا من رؤية الله طلبوا أن يسمعوا كلام الله تعالى ، فأمرهم موسى أن يتطهّروا ويطهّروا ثيابهم ويصوموا . ففعلوا . فأسمعهم الله تعالى كلامه حتى عقلوا ماسمعوا ، فلمّا بلّغ موسى عليه السلام ماأمره الله به خالفه فريق منهم مع معرفته للحق » (٦) .

وذهب ابن عطية والقرطبي إلى أنهم إنما سمعوا كلام الله تعالى على لسان موسى عليه السلام، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ (٧) ، قال ابن عطية : « ومن قال إن السبعين سمعوا ماسمع موسى فقد أخطأ وأذهب فضيلة موسى عليه السلام

(١) سورة البقرة ، آية : ٥٨ - ٥٩ .
(٢) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١١ : ٤٨ - ٤٩ مادة « بدل » . و الزبيدي ، تاج العروس ٧ : ٢٢٣ مادة « بدل » .
(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ١١٢ - ١١٣ . والرازي ، التفسير الكبير ٣ : ٨٩ ، ٩١ . والزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٨٣ . وابن جزى ، التسهيل ١ : ٣١ . والبقاعي ، نظم الدرر ١ : ٣٩٨ - ٤٠٠ .
(٤) رواه الإمام مسلم في كتاب التفسير ، ح ٣٠١٥ . الصحيح ٤ :٢٣١٢ . وأستاههم جمع أست وهو الدبر ، انظر : الأبي ، إكمال إكمال المعلم ٧ : ٣٢١ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٧٥ .
(٦) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٢٤٧ . وانظر : البغوي ، معاني التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ٧٦ . والزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٩١ .
(٧) سورة التوبة ، آية : ٦ .

واختصاصه بالتكليم »(١) .

وكان تحريفهم بأن زادوا في الكلام ماليس منه فقالوا : « سمعنا الله يقول في آخر كلامه : إن استطعتم أن تفعلوا فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا »(٢) .

ويمكن إطلاق التحريف على عامة العلماء من أهل الكتاب الذي أدخلوا في كتبهم ماليس منها فحرموا حلالاً ، وأحلّوا حراماً ، تبعاً لأهوائهم ومصالحهم ، بل أفسدوا بتحريفهم ذلك أصل عقيدتهم .

موضوعات التحريف :

أكدت الآيات الكريمة في سورة البقرة وقوع التحريف في كتب أهل الكتاب على نحو عام ، وكان من الموضوعات الرئيسة المشار إلى تحريفها : صفة النبي ﷺ والبشارات به ، إذ صرحت الآيات الكريمة بأن أهل الكتاب عرفوا النبي ﷺ وكتموا صفته ، والكتمان جزء من التحريف وسبيل له ، قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾(٣) .

وعندما دُعي أهل الكتاب للتصديق بالقرآن الكريم ، ونُهوا عن التحريف والتبديل ، بيّن العلماء أن هذا متعلق بصفة النبي ﷺ ، يقول ابن عطية - عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾(٤) - : « قال ابن السراج : هي كناية عن أنه من تلقائهم ، دون أن ينزّل عليهم ، وإن لم تكن حقيقة من كتب أيديهم ، والذي بدّلوا هو صفة النبي ﷺ ليستديموا رئاستهم ومكاسبهم »(٥) .

والتوراة ، والأناجيل المعتَمدة لدى النصارى تخلو تماماً من البشارة بالنبي ﷺ صراحة ، ومن صفاته وصفات المؤمنين معه ، وقد أخبر القرآن الكريم بحصول البشارة من عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ صراحة ، قال تعالى - فيما يحكيه عنه - : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾(٦) ، وقال تعالى مخبراً عن صفة النبي ﷺ والمؤمنين في التوراة والإنجيل : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٥٩ . وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٢ . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٤٧٠ .
(٢) البغوي ، معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ٧٦ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٣٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٤٥ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٧٩ .
(٥) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٣٢ . وانظر : البغوي ، معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ٥٣ .
(٦) سورة الصف ، آية : ٦ .

ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزُّرَّاع ليغيظ بهم الكفار﴾ [1] .

وتفيد السيرة النبوية أن علماء أهل الكتاب في ذلك الوقت كانوا يعرفون أموراً دقيقة عن النبي ﷺ ، ومعنى ذلك أنهم احتفظوا بتلك النصوص حتى مبعث النبي ﷺ فلما بعث على غير ماكانوا يرغبون عمدوا إلى تحريفها وطمسها ، فلم يبق من البشارات إلا مايتلمس من معاني النصوص في العهدين القديم والجديد .

وتعميم الحكم بوقوع التحريف فيما بأيدي أهل الكتاب من كتب يدلّ على أنه طال مواضيع أخرى عدا صفة النبي ﷺ ، ودراسة التوراة والإنجيل تبين بعض تلك الموضوعات والتي كان من أبرزها :

١ - الألوهية :

لقد تدنت الألوهية عند اليهود إلى حد البشرية الضعيفة المضطربة في كثير من المواطن ، فالإله في أسفار التوراة يتعب ويستريح : « وفرغ الله في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل . فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل » [2] ، ويحزن ويتأسف ويخطئ : « فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسّف في قلبه » [3] ، ويندم على بعض التصرفات التي يقدم عليها : « فندم الرب عن الشرّ وقال للملاك المهلك : الشعبَ كفى ، الآن ردّ يدك » [4] ، ويطلب القرابين في أوقات محددة وإلى جانبها الشراب المسكر : « هذا هو الوقود الذي تقربون للرب خروفان حوليان صحيحان لكل يومٍ محرقةً للرب » وقال : « في القدس اسكب سكيب مُسْكر للرب » [5] . إضافة إلى صفات أخرى كاللعب والأكل ونحو ذلك من الصفات البشرية ، بل إنَّ من وضاعة بعضها مايترفع عنه العامة من الناس .

فلمّا جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم ، أظهر كل صفات الكمال والجلال لله تعالى ، وأبطل جميع مافي تلك الكتب فنسخ العمل بها وأخبر عما نالها من تحريف ، وردّ على بعض الصفات التي تفوّه بها اليهود ، فرداً على مقولتهم أن الله استراح في اليوم السابع قال سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا السمٰوات والأرض ومابينهما في سِتَّةِ أيام ومامسنا من لغوب ﴾ [6] ، وعندما نسبوا البخل لله تعالى قال مجيباً لهم : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلَّتْ أيديهم ولُعِنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان يُنْفِقُ

(١) سورة الفتح ، آية : ٢٩ .
(٢) العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح الثاني ، نص ٣ ، ص : ٥ .
(٣) العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح السادس ، نص ٦ ، ص : ١٠ - ١١ .
(٤) العهد القديم ، سفر صمويل الثاني ، الإصحاح الرابع والعشرون ، نص ١٦ ، ص : ٥٣٦ .
(٥) العهد القديم ، سفر العدد ، الإصحاح الثامن والعشرون ، نص ٣ ، ٧ ، ص : ٣٦٠ .
(٦) سورة ق ، آية : ٣٨ .

كيف يشاء ﴾ [1] ، كما زعموا أن الله فقير ، فقال سبحانه : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ [2] .

أما النصارى فتحرفت عقيدة الألوهية عندهم إلى الثالوث ، جاء في مقدمة قانون الإيمان بمجمع (إفسس) الأول عام ٤٣١م : « نعظمك يا أمّ النور الحقيقي ، ونمجدك أيتها العذراء المقدسة والدة الإله ، لأنك ولدت مخلص العالم ، أتى وخلص نفوسنا ، المجد لك ياسيدنا وملكنا المسيح ، فَخْر الرسل ، إكليل الشهداء ، تهليل الصديقين ، ثبات الكنائس ، غفران الخطايا ، نبشر بالثالوث المقدس ، لاهوت واحد نسجد له ونمجده . يارب ارحم . يارب ارحم . يارب بارك . آمين » [3] ، وتطفح نصوص الأناجيل بدعوى بنوّة عيسى لله تعالى عن ذلك .

ويأتي القرآن الكريم ليبدد آمال النصارى في الإيمان حين اعتقدوا الثالوث ، قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ [4] ، ورد عليهم بطريق غير مباشرة ، فساق حديثاً أخروياً بيْنه سبحانه وبيْن عيسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأميَ إلٰهين من دون الله قال سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق إن كنتُ قُلْتُه فقد علمته تعلم مافي نفسي ولاأعلم مافي نفسك إنك أنت علام الغيوب * ماقلت لهم إلا ماأمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفَّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء قدير ﴾ [5] .

٢ - الأنبياء عليهم الصلاة والسلام :

لايستغرب ممن تطاول على مقام الألوهية أن يتطاول على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولقد نال الأنبياء والرسل أذى كبيراً من أهل الكتاب واليهود بخاصة ، فألصقوا بهم خصالاً سيئة ، وصفات دنيئة . ومما أوردته كتبهم في هذا مايأتي :

أ) نوح عليه السلام ، نسبوا له شرب الخمر ، جاء في التوراة : « وابتدأ نوح يكون فلاحاً ، وغرس كرماً ، وشرب من الخمر ، فسكر وتعرّى داخل خبائه » [6] .

ب) سليمان عليه السلام آل به حب النساء إلى عبادة غير الله ، تقول التوراة : « وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلٰهه

(١) سورة المائدة ، آية : ٦٤ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٨١ .
(٣) أحمد حجازي ، أقانيم النصارى : ٦٠ .
(٤) سورة المائدة ، آية : ٧٣ .
(٥) سورة المائدة ، آية : ١١٦ - ١١٧ .
(٦) العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح التاسع ، نص ٢٠ - ٢١ ، ص : ١٥ .

كقلب داود أبيه فذهب سليمان وراء عشتورث إلاهة الصيدونيين رجس العمونيين . وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه »[1] .

جـ) ولوط عليه السلام تدّعي التوراة أنه شرب الخمر وضاجع ابنتيه دون أن يعلم : « وصعد لوط من زغر وسكن في الجبل وابنتاه معه . إذ خاف من المقام في زغر . وسكن في مغارة هو وابنتاه معه . فقالت الكبيرة للصغيرة : أبونا شيخ وإنسان ليس في الأرض للدخول علينا كسبيل كل الأرض . تعالي نسقي أبانا خمراً ونضجع معه ، ونبقي من أبينا نسلا . فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة وأتت الكبيرة وانضجعت مع أبيها ، ولم يعلم بانضجاعها ولا بقيامها . ولما كان بالغداة قالت الكبيرة للصغيرة هو ذا انضجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمراً أيضاً الليلة وأتي وانضجعي معه ونستبقي من أبينا نسلا . وسقين أيضاً في تلك الليلة أباهما خمراً ، فقامت الصغيرة وانضجعت مع أبيها »[2] .

د) ويعقوب عليه السلام تصوره التوراة راغباً في الزنا ، ويواقع كنّته - زوجة ابنه - ظاناً إياها إحدى الزواني : « وخبرت كنته (تمر) قولاً هو ذا حموك صعد إلى تمنثة لجز غنمه . فنزعت ثياب ترملها عنها واستترت بخمار وتنكرت وجلست في أحد العيون على طريق تمنثة ، أنْ رأت أنْ كبِر (شله) وهي لم تعط له زوجة . فنظرها يهوذه وظنها زانية لما سترت وجهها . فعدل إليها إلى الطريق وقال : آتي الآن وأدخل إليك ، إذ لم يعلم أن كنته هي ، فقالت : ماتعطيني إذ تدخل علي ؟ . فقال : أنا أرسل جديا ماعزاً من الغنم ، فقالت : ماتعطيني عربونا حتى إرسالك ؟ . فقال : ما العربون الذي أعطيك ؟ فقالت : خاتمك ومنطقتك وعصاك الذي بيدك ، فأعطاها ودخل عليها ، وحبلت منه »[3] .

أما الأنبياء في اعتقاد المسلمين فهم صفوة الله من خلقه ، عصمهم عن المعاصي ، وانتدبهم لأشرف عمل وأجلّ وظيفة ، وحقيقتهم وسلوكهم في القرآن أوضح حقيقة وأسمى سلوك ، قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾[4] .

---

(١) العهد القديم ، سفر الملوك الأوّل ، الإصحاح الحادي عشر ، نص ٤ - ٦ . ص : ٥٥٣ - ٥٥٤ .
(٢) التوراة السامرية ، سفر التكوين ، الإصحاح التاسع عشر ، نص ٣٠ - ٣٧ . ص : ٥٩ .
(٣) التوراة السامرية ، سفر التكوين ، الإصحاح الثامن والثلاثون ، نص ١٣ - ١٨ . ص : ٩١ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية : ٧٣ .

دواعي التحريف :

بالغ أهل الكتاب واليهود منهم بخاصة في الحرص على الدنيا والانغماس في المادة حتى سيطرت عليهم ، واصطبغت بها جميع أعمالهم ، بل وشريعتهم التي يدعون أنها شريعة أنبيائهم ، إلى الحد الذي تناسوا معه اليوم الآخر وأسقطوه من التوراة فلا تكاد تجد في أسفارها ذكراً للقيامة .

وإلى جانب هذه الصبغة كان العلم محصوراً في فئة منهم تتوارثه فيما بينها ولا تبثه في العامة من أتباعهم ، فاستغل هؤلاء مكانتهم الدينية للحصول على أكبر قدر من المكاسب المادية ، ومن أجل ذلك أخذوا يعبثون بأحكام الشريعة ويغيرونها وفق مصالحهم وأهوائهم ، قال الزمخشري : « قيل : كان عامتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم ويهدون إليهم الهدايا ويرشونهم الرشا على تحريف الكلم ، وتسهيلهم لهم ماصعب عليهم من الشرائع . وكان ملوكهم يدرّون عليهم الأموال ليكتموا أو يحرفوا »[1] .

وعندما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة وعرف اليهود بأنه النبي المرتقب ، أدركوا أنهم إن تابعوه على دينه زالت رياستهم ، وذهبت المكاسب والرشى التي كانوا يحصلون عليها ، فآثروا الكفر والدنيا على الإيمان بالله تعالى وتصديق النبي ﷺ ، وعمدوا إلى كتمان صفة النبي ﷺ والبشارات به حتى يقنعوا العامة منهم بصواب موقفهم ، ولايبقى مستند يلجئهم إلى الاعتراف بنبوّته ﷺ ، يقول البغوي عند تفسير قوله تعالى ﴿ ولاتشتروا بآياتي ثَمَناً قليلاً ﴾[2] : « وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مأكلة يصيبونها من سفلتهم وجهالهم ، يأخذون كل عام منهم شيئاً معلوماً من زروعهم ، فخافوا إن بيّنوا صفة محمد ﷺ وتابعوه أن تفوتهم تلك المأكلة ، فغيروا نعته وكتموا اسمه ، فاختاروا الدنيا على الآخرة »[3] .

---

(١) الزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٧٦ . وانظر : الألوسي ، روح المعاني ١ : ٣٨٩ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٤١ .
(٣) البغوي ، معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ٥٣ .

المبحث الثالث

المنهج الاستقرائي
لبيان موقف أهل الكتاب من الدعوة

تعرفنا الآيات الكريمة في سورة البقرة موقف أهل الكتاب من الدعوة إلى الله ، سواء كان من دعوة النبي ﷺ أم من دعوة الأنبياء قبله ، والمتمثل في الإصرار على الكفر والنزوع الدائب إليه .

ويجيء هذا الحكم العام على جماعة أهل الكتاب باستقراء بعض المواقف وعدد من الحالات لأهل الكتاب تجاه الدعوة ، وأبرزها مايلي :

أولاً : موقفهم من دعوة النبي ﷺ :

أوردت سورة البقرة بعض المواقف لأهل الكتاب واليهود بخاصة توضح موقفهم من دعوة النبي ﷺ ، ومن أبرزها ما يلي :

١ - التلبيس وكتمان العلم :

قال تعالى : ﴿ ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ [١] .

اللبْس واللبَس : اختلاط الأمر ، ولَبَس عليه الأمر لبساً إذا خلطه عليه حتى لا يعْرف جهته . والتبس عليه الأمر اختلط واشتبه ، « والتلبيس كالتدليس والتخليط ، شدد للمبالغة » [٢] . قال البقاعي : « واللبس إبداء الشيء في غير صورته » [٣] ، وتلبيس الحق بالباطل خلطهما بحيث لايتضح الحق ولاتظهر دلائله . أما الحق فهو : « ما يقرّ ويثبت حتى يضمحل مقابله » [٤] .

فلما جاء النبي ﷺ بدعوة الإسلام وقف منه يهود المدينة موقف المناهض المعارض . وتداعوا لاتخاذ حيل وتدابير في سبيل ذلك . وتذكر الآية الكريمة أمرين مما صنعوا وهما : التلبيس وكتمان الحق .

فالتلبيس يكون بإيراد الشبه على الدلائل لمن سمعها ، كما فعلوا في استفتاحهم على الأنصار

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٤٢ .
(٢) ابن منظور ، لسان العرب ٦ : ٢٠٤ مادة « لبس » . وانظر : ابن جزي ، التسهيل ١ : ٤٥ .
(٣) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ٣١٩ .
(٤) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ٣٢٠ .

قبل الإسلام[1]، قال ابن الجوزي : « وتخليطهم أنهم قالوا : إن الله عهد إلينا أن نؤمن بالنبي الأمي ، ولم يذكر أنه من العرب »[2] . وقيل : « قالت اليهود : محمد نبي مبعوث ، ولكن إلى غيرنا »[3] ، فإقرارهم هنا بنبوة النبي ﷺ حق ، والباطل استثناء أنفسهم من دعوته . وحكي أن المراد بالحق التوراة ، والباطل ما أدخلوا فيها من تحريف وتبديل في أمر النبي ﷺ ، وعليه فالمعنى كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لاتخلطوا ما عندكم من الحق في الكتاب بالباطل وهو التغيير والتبديل »[4] .

وكتمان العلم بإخفائه ومنع وصوله إلى من لم تبلغه الدلائل أصلاً[5] ، وينطبق هذا على مشركي العرب وعامة اليهود . والحق هنا مختصّ بأمر النبي ﷺ ؛ صفتِه أو الإسلام الذي جاء به ، قال ابن عطية : « ولم يشهد لهم تعالى بعلم . وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا . ويحتمل أن تكون شهادة عليهم بعلم حقٍ مخصوصٍ في أمر النبي ﷺ ، ولم يشهد لهم بالعلم على الإطلاق »[6] .

والتلبيس أشد خطراً من الكتمان ، إذ هو معتمد على شبهة دليل - وإن كانت باطلة - تعلق بالنفوس ، وتُتَناقل بين الناس ، فيكون ضررها أعظم وفتنتها أشد .

٢ - إظهار الاستغناء عن الدعوة :

قال تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا غُلْف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾[7] .

وغُلْفٌ جمع أغلف ، وهو الذي في غِلاف وغطاء[8] ، وقلب أغلف : كأنما أغشي غلافاً فهو لايعي ولا يفقه[9] . روى أبوسعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح .

فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق »[10] .

---

(١) انظر صفحة ٩٨ من هذه الرسالة .
(٢) ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٧٤ .
(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٧٣ .
(٤) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٣٤٢ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٧٣ . والبقاعي ، نظم الدرر ١ : ٣٢٠ .
(٥) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ٤٢ . و الألوسي ، روح المعاني ١ : ٣٩٠ .
(٦) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٧٣ . وانظر : الألوسي ، روح المعاني ١ : ٣٩١ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٨٨ .
(٨) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٣٢٤ .
(٩) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٩ : ٢٧١ مادة « غلف » . والزمخشري ، أساس البلاغة : ٣٢٧ . والبغوي ، معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ٨١ .
(١٠) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣ : ١٧ .

وقُرئ غُلُف بضم اللام [١]، جمع غلاف ، وهو : الصِّوان وما اشتمل على الشيء [٢] .

وتبدي الآية الكريمة هذه إحدى طرق اليهود التي سلكوها لإظهار إعراضهم عن الدعوة وعداوتهم لها ، ولقطع طمع النبي ﷺ والمؤمنين في إسلامهم ، فقالوا بأسلوب تهكمي قولاً ينبئ عن إصرارهم على الكفر ، ورفضهم النظر في دلائل القرآن الكريم ، وأمارات النبوّة التي أيّد الله بها نبيه ﷺ . وأبرز وجوه المعاني في قولهم « قلوبنا غلف » مايلي :

الوجه الأول : أي قلوبنا مغشاة بأغطية مانعة من وصول أثر دعوتك إليها ، فلاتفقه ما تدعو إليه [٣] .

الوجه الثاني : أي ليست قلوبنا في أغلاف ولا في أغطية ، بل قوية ، وخواطرنا منيرة ، ثم إنا بهذه الخواطر والأفهام تأملنا في دلائلك يامحمد فلم نجد منها شيئاً قوياً [٤] . ويَقْوى هذا الوجه إن حُمِل قولهم « قلوبنا غلف » على الاستفهام الإنكاري .

الوجه الثالث : أي قلوبنا أوعيه – من الوَعْي – لاتسمع حديثاً إلا وعته ، إلا حديثك فإنها لاتعيه ولاتعقله ، ولو كان خيراً لفهمته ووعته [٥] . وعلى هذا الوجه فهم ينسبون العيب لدعوة النبي ﷺ دون أنفسهم .

الوجه الرابع : أي قلوبهم أوعية للعلم والمعارف ، مملوءة بالحكمة ، فلا تحتاج إلى شرع محمد ﷺ [٦] . نقل هذا الوجه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وحاصله أنهم معرضون عن دعوة النبي ﷺ سواء كان ذلك بدعوى الاستغناء ، أوعدم الفهم ، وإن كانت دعاوى يعلمون كذبها بما تضمنته كتبهم من الحق .

وقد بيّن الله تعالى أن سبب نفورهم ليس لتلك الدعاوى التي ادعوها ، بل لأن قلوبهم تهوى الكفر ، وتأبى قبول دلائل الحق وإن كانت معروفة لديهم ، فكفروا بصنيعهم هذا واستحقوا اللعنة عليه ، وأشعر سبحانه النبي ﷺ والمؤمنين بعدم رغبتهم في الإيمان أصلاً ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً مايؤمنون ﴾ قال الرازي : « قيل معناه : لايؤمنون أصلاً لا قليلاً ولا كثيراً ، كما يقال : قليلاً مايفعل ، بمعنى لايفعل البتة » [٧] .

وحُمل أيضاً معنى قوله تعالى : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ على أن من آمن منهم قليل ، أو أنّ

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٣٢٤ .
(٢) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٩ : ٢٧١ مادة « غلف » .
(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٧٨ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٨٧ .
(٤) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٧٩ .
(٥) انظر : البغوي ، معالم التنزيل – بحاشية تفسير الخازن – ١ : ٨١ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٢٥ .
(٦) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٩٥ . والرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٨٨ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٢٥ .
(٧) الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٧٨ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٢٦ .

إيمانهم بما في أيديهم قليل وما كفروا به أكثر ، أو أن وقت إيمانهم حين كانوا يستفتحون على الذين كفروا قليل إذ كفروا لما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة [1] .

٣ - التكذيب بالقرآن الكريم والنبي ﷺ :

قال تعالى : ﴿ ولمَّا جاءهم كتابٌ من عند اللهِ مُصَدِّقٌ لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ★ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن يُنَزِّل اللهُ من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذابٌ مهين ★ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مُصَدِّقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ [2] .

فهذه الآيات تصور موقف اليهود الرافضين للدعوة من خلال تكذيبهم بالقرآن الكريم ، وبالنبي ﷺ ، فالقرآن الكريم مصدق بالتوراة الصحيحة المنزلة من الله تعالى ، وقد عرفوا ذلك التصديق ، والذي جاء به هو محمد ﷺ ، وقد عرفوا أنه النبي المبشر به في كتبهم ، لكنهم رضوا لأنفسهم الكفر ، معرضين عما اشتملت عليه كتبهم من الشهادة والتبشير بالنبي ﷺ ، بل وعن شهادة أنفسهم حين كانوا يستفتحون على الذين كفروا ، وعن دلائل القرآن الكريم المُثْبِتَة أنه منزل من الله ، وأن محمداً رسول الله ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ﴾ ، وهذا مُساقٌ على حدّ قوله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ [3] .

وبما أنهم أصحاب علم وأهل كتاب فإن الرفض المجرد لِدعوة النبي ﷺ شناعة عظيمة تؤخذ عليهم ، فتذرعوا بتمسكهم بالتوراة وإيمانهم بها . مظهرين بأنهم استبقوا أنفسهم على الحق ، وبذلوا أنفسهم في سبيله . مما يشعر بأنهم اعتقدوا أن الإيمان بالقرآن يلزم منه الكفر بالتوراة . فجاءت الآيات الكريمة مفنّدة مزاعمهم وماتذرعوا به واعتقدوه ، ومبيّنة أنهم باعوا أنفسهم واعتاضوا عنها بالكفر بدل الإيمان الذي جاء به النبي ﷺ ، وأنهم كافرون بالتوراة التي ادّعوا الإيمان بها ، ودللت على ذلك بما يلي :

أ) أن الكتب التي جاء بها الأنبياء والرسل منزلة من الله ، ومن آمن بأحدها لزمه أن يؤمن بجميعها ، ومن ثَمّ فإن من كفر بأحدها عدّ كافراً بها جميعاً [4] . وقد كفر أهل الكتاب بإعراضهم عن

---

(١) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٨٨ - ٣٨٩ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٢٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٨٩ - ٩١ .
(٣) سورة النمل ، آية : ١٤ .
(٤) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ٢ : ٤٩ .

القرآن والنبي ﷺ ، واستحقوا بذلك اللعنة ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ [١] .

وبذا ينتقض ادعاؤهم التمسك بالتوراة إيماناً بها ، ومحاذرة الوقوع في الكفر إن هم تركوها ، ولو كان الأمر كما قالوا لما حرفوا أحكامها وخالفوا شريعتها .

ب) دلّت التوراة على أن المعجزة تدل على صدق من جاء بها ، وأن من ثبت صدقه بادعاء النبوة حرم قتله ، ومن باشر قتل نبي أو سعى فيه فهو كافر [٢] . وقد قتل اليهود بعض الأنبياء ، وسعوا في قتل آخرين ، ورضي الأبناء بما فعل أسلافهم فأصبحوا كافرين بالتوراة قبل كفرهم بالقران الكريم ﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ [٣] ، قال البقاعي : « وفيه إيماء إلى حرصهم على قتل النبي ﷺ » [٤] .

وفي السيرة النبوية أنهم أرادوا قتل النبي ﷺ حينما ذهب إلى بني النضير يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر فعزموا على الغدر به ، قال ابن إسحاق : « فلما أتاهم النبي ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت . ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ » [٥] ، فجاء الوحي معلماً النبي ﷺ بنية اليهود الغدرَ به فنهض وعاد إلى المدينة ثم أجلاهم عنها [٦] .

ويوم خيبر أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية شاة مسمومة وأكثرت من السُّم في الذراع لعلمها أن النبي ﷺ كان يحبه ، فلاك منها مضغة فلم يسغها ، وقال : « إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم » وعند وفاته ﷺ قال لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهَري من ذلك السُّم » [٧] .

جـ) أن الدافع الحقيقي للإعراض عن الدعوة هو البغي والحسد ، فقد كانوا يأملون أن تبقى النبوة في بني إسرائيل ، فلما زالت عنهم غلب عليهم الحسد ، وقدموا الكفر على الإيمان لأجله ، قال تعالى : ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن يُنَزِّل الله من فضله على مَن يشاء من عباده ﴾ [٨] .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٨٩ .
(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٨٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٩١ .
(٤) البقاعي ، نظم الدرر ٢ : ٤٩ .
(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ١٩٠ .
(٦) انظر : المصدر السابق ج١ : ١٩١ .
(٧) المصدر السابق ج٢ : ٣٣٧ - ٣٣٨ ، والحديث رواه البخاري في كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، ح ٣٣٢٨ . انظر : فتح الباري ٨ : ١٣١ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ٩٠ .

٤ - الرغبة في متابعة المسلمين لهم :

قال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾ (١) .

في هذا الموطن يكشف القرآن الكريم مبلغ ما وصل إليه جماعة أهل الكتاب من تشدد في باطلهم وثبات على دينهم ، فلم يتوقفوا عند حدّ إظهار الاستغناء عن الدعوة أو عدم التصديق بالقرآن الكريم ، بل أظهروا عدم رضاهم الإسلام للنبي ﷺ والمؤمنين ، فكيف يرضونه لأنفسهم وأتباعهم ، وأرادوا من النبي ﷺ أن يوافقهم على دينهم ويقرهم عليه ، إذْ روي أنهم كانوا يسألون النبي ﷺ الهدنة ، ويطمعونه أنه إن أمهلهم اتبعوه ، وكان النبي ﷺ يطمع في إسلامهم ويحرص عليه (٢) .

فجاءت هذه الآية الكريمة لتعلم المسلمين بأمرهم ، وتكشف حقيقة نواياهم ، وأنهم ليسوا إلا مخادعين لايرجى إسلامهم حتى وإن هادنهم النبي ﷺ ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ .

وحتى لا يتأثر المسلمون بأفعال أهل الكتاب وتصرفاتهم هذه ، أمر الله نبيه ﷺ أن يؤكد للناس عامة أن دين الله الذي بعث به هو الحق، وماعداه باطل منسوخ : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ وأن يشفع التأكيد بالتحذير من اتباع أهل الكتاب أو ممالأتهم ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾ .

٥ - محاولة فتنة المسلمين عن دينهم :

قال تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ (٣) .

الآية : العلامة والحجة والبرهان (٤) ، والقبلة شعار كل دين ، وعلامة فارقة بين الأديان ، فالله تعالى اختار الكعبة قبلةً للمسلمين ، وقبلة اليهود بيت المقدس ، ويستقبل النصارى في صلواتهم المشرق (٥) ، والتوجه إلى قبلةٍ ما تديناً اتباعٌ للدين نفسه ، لذا فإن التعبير بعدم اتباع أهل

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٢٠ .
(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٠٧ . والبغوي ، معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ١٠١ . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٥٨٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٤٥ .
(٤) أنظر : ابن جزي ، التسهيل ١ : ٢٦ . والأصفهاني ، المفردات : ١٠٧ . والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ١٨٦ .
(٥) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٥ : ٥١ .

الكتاب قبلة المسلمين يفيد إعراضهم عن دعوة النبي ﷺ كلياً ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آيةٍ ماتبعوا قبلتك ﴾ .

وعندما صرفت قبلة المسلمين إلى الكعبة ، وكان النبي ﷺ قبل ذلك يصلى إلى بيت المقدس أراد اليهود فتنته عن دينه ، فجاءه نفر منهم وقالوا : « يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك » قال الراوي : « وإنما يريدون فتنته عن دينه » [1] .

فجاءت الآية الكريمة هذه ومثيلاتها لتحذر المسلمين من حبائل أهل الكتاب ، مبيّنة أن هؤلاء لايرغبون في الإسلام ، وجازمة بأن جميع الدلائل والحجج والبراهين لوقدمت لهم ما أجدت شيئاً ، لأن عدم اتباعهم ليس عن شبهة إذاً لأزالتها الحجة ، بل عناداً ومكابرة ، وليس لهذا الداء من علاج .

ثانياً : موقفهم من دعوة الأنبياء قبل النبي ﷺ :

إن موقف أهل الكتاب من دعوة النبي ﷺ يعكس الصورة التي كان عليها أسلافهم مع أنبيائهم في المعارضة والإيذاء والتكذيب وكذا القتل أيضاً . وتقدم سورة البقرة نماذج من تلك المواقف منها :

١ - المسارعة إلى الشرك وعبادة العجل :

لقد توالت نعماء الله على بني إسرائيل بمبعث موسى عليه السلام وتخليصهم من فرعون وجنوده ، وإطعامهم المنّ والسلوى ، وتفجير ينابيع الماء لهم من الحجر ، وحفت بهم تلك النعم بحيث ينبغي أن تجعلهم أبعد الناس عن العصيان أو الكفر .

ولكنهم رغم ذلك مالت قلوبهم إلى الشرك بالله سبحانه بعد خروجهم بيسيرٍ من مصر ، قال تعالى : ﴿ فأتوا على قوم يَعْكُفُون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة ﴾ [2] .

وما أن ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه حتى أغواهم السامري بالعجل فعبدوه ، قال تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ [3] . ويحكى أن

---

(١) البيهقي ، دلائل النبوة ٢ : ٥٧٥ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٣٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٥١ .

السامري كان غريباً فيهم ولما سمع كلامهم ذاك لموسى علم أنهم إنما يفتنون من هذه الجهة [١] ، وعند اقتحامهم البحر قبض حفنة ترابٍ من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام ، وألقي في روعه أنه لن يلقيها على شيء إلا كان كما يريد ، وكان بنوإسرائيل استعاروا من القبط حلياً كثيراً ليلة خروجهم ، فأخبرهم هارون عليه السلام بأن ذلك الحلي غنيمة لاتحل لهم وأمرهم بجمعه في حفرة حتى يرجع موسى عليه السلام فيقضي فيه ، فأتى السامري وألقى بتلك القبضة عليه فصار عجلاً له خوار ، فافتتن به بنوإسرائيل وعبدوه [٢] ، ولم يطق هارون عليه السلام ردهم عن عبادته ، ومازالوا عليه عاكفين حتى رجع موسى فاستتابهم ، قال تعالى : ﴿ وإذْ قال موسىٰ لِقَوْمِهِ يا قَومِ إنَّكُم ظَلَمْتُم أنْفُسَكُم باتِّخاذِكُم العِجْلَ فتُوبوا إلى بارِئكم فاقْتُلوا أنفُسَكم ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُم عِنْدَ بارئكم فَتابَ عَلَيكُم إنَّهُ هُو التَّوَّابُ الرَّحِيم ﴾ [٣] .

ولكنهم مافتئوا يميلون بعد ذلك إلى الكفر وينزعون إليه ، وقد أخبر سبحانه بحب فريق منهم العجل وتشرب نفوسهم له قال عز وجل : ﴿ وأشْرِبُوا في قُلُوبِهِم العِجْلَ بِكُفْرِهِم ﴾ [٤] ، قال الخازن : « قيل إن موسى أمر أن يبرد العجل ويذرى في النهر ، وأمرهم أن يشربوا منه فمن بقي في قلبه شيء من حب العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه » [٥] .

٢ - تكذيب فريق من الأنبياء وقتل آخرين :

قال تعالى : ﴿ ولَقَدْ آتَيْنا مُوسىٰ الكِتابَ وَقَفَّيْنا مِن بَعْدِهِ بالرُّسُلِ وآتَيْنا عِيسىٰ ابنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ وأيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ أفَكُلَّما جاءكم رَسُولٌ بما لا تَهْوىٰ أنْفُسكم اسْتَكْبَرْتُم فَفَرِيقاً كَذَّبْتُم وفَرِيقاً تَقْتُلون ﴾ [٦] .

والآية الكريمة هذه تثير قضية دعوة بني إسرائيل وموقفهم منها . فالله سبحانه أكرمهم بشريعته المنزلة على موسى عليه السلام في التوراة ، وأرسل لهم الرسل والأنبياء تترى بعضهم إثر بعض يدعونهم إلى الحق ويرشدونهم إلى الصواب ﴿ وَقَفَّيْنا مِن بَعْدِهِ بالرُّسُلِ ﴾ . ثم أرسل لهم عيسى عليه السلام مجدداً بعض أحكام التوراة ، ومخففاً بعضها ، ومعه البراهين الدالة على صحة نبوته كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، ومؤيداً بجبريل عليه السلام : ﴿ وأيَّدْناهُ

(١) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٩٤ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٨١ .
(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٩٣ - ٢٩٤ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٨١ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٥٤ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٩٣ .
(٥) الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل ١ : ٨٣ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٩٧ . وابن جزى ، التسهيل ١ : ٩٤ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٨٧ .

بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي قويناه من الأَيْد وهو القوة [1] .

ولكن أبت نفوس بني إسرائيل أن تقبل الحق وتنقاد له ، بل ناهضته وحاربته ، وتبرز الآية ذلك في أمرين هما :

أ) تقديم الهوى وطلب الباطل على الحق واتباعه ، وقد صدر هذا من كبرائهم وعلمائهم الذين أرادوا الرفعة في الدنيا ، وطلبوا ملذاتها ، وأحبوا الترؤس على عامتهم وأخذ أموالهم بغير حق [2] ، وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك ، وتدعوهم إلى شريعة الله الحقة ، فيأبون ذلك حباً في الدنيا وزهداً في الآخرة .

ب) معاداة الرسل ، وهو تابع لما قبله ، فلابد لهم من تكذيب الرسل حتى يحافظوا على تلك المكاسب الدنيوية ، قال الرازي : « كانوا إذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه ، وإن تهيأ لهم قتله قتلوه » [3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فيه إيماء إلى أنهم همّوا بقتل غالب الأنبياء ، فقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، ونجا منهم آخرون كعيسى عليه السلام . وبقيت هذه الصفة متوارثة بين أجيالهم حتى استمرؤوها واستهانوا بها ، ويذكر بعض المفسرين أنهم قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً قال : « ثم تقوم سوق بقْلهم آخر النهار » [4] . فانصرافهم إلى بيع البقول والخضروات - وكانوا أهل زرع - بعد قتل الأنبياء دليل على امتهانهم له ، واستهانتهم بشرع الله تعالى .

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٣٢٠ ، ٣٢١ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٨٥ .
(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٧٨ . والبغوي ، معالم التنزيل - بحاشية تفسير الخازن - ١ : ٨١ .
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٧٨ .
(٤) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٨٧ .

المبحث الرابع

المنهج الاستقرائي لبيان أخلاقيات بني إسرائيل

تحكي سورة البقرة أفعالاً وتصرفات لأهل الكتاب وبني إسرائيل بخاصة تكشف انحراف طباعهم وأخلاقهم السيئة التي تعاملوا بها مع أنبياء الله خاصة ، ومع من عداهم من الخلق عامة .

وتذكر بعض آياتها تلك الأخلاق صراحة كالبغي والحسد ونقض المواثيق ... ونحوها ، وتسوق آيات أخرى مواقف لبني إسرائيل تكشف عن أخلاق أخرى لهم أمثال التحايل على شريعة الله ، والمخادعة ، ودناءة الطباع ... وما إليها .

وفي مايلي عرض لما أمكن استقراؤه من أخلاق بني إسرائيل في هذه السورة الكريمة :

أولاً : دناءة الطبع :

كشف الله تعالى لبني إسرائيل دناءة طباعهم ، وجفاءهم وسوءَ أدبهم مع نبي الله موسى عليه السلام ، يقول سبحانه : ﴿ وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقِثّائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإنَّ لكم ما سألتم وضُرِبت عليهم الذِّلَّة والمسكنة وباؤوا بغضبٍ من الله ﴾ (١) .

وتبدّى جفاؤهم في تعبيرهم عن نعمة الله تعالى - المن والسلوى - بالصبر ، الذي يشعر بكراهتهم لها ، فالصبر حمل النفس على ما تكره (٢) .

ثم إن ماطلبوا أدنى وأقل شأناً من المن والسلوى الذي رزقهم الله إياه بلا كدّ ولانصب ، وكأنهم بذلك يتوقون إلى زمن عيشهم بمصر حيث أذلهم القبط واستعملوهم في الزراعة والسخرة .

فعاقبهم الله تعالى على سوء أخلاقهم ، ودناءة طباعهم ، وقلة شكرهم النعمة ، بأن حرمهم المن والسلوى ، وأنزلهم العمران ، ووكلهم إلى أنفسهم ، قال ابن عطية : « وقوله تعالى : ﴿ فإنَّ لكم ماسألتم ﴾ يقتضي أنه أوكلهم إلى أنفسهم » (٣) ، كما جعل لهم الفقر زيّاً لايفارقهم ، قال سبحانه : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ ، والمسكنة : خشوع الحاجة وذلها (٤) ، قال ابن عطية :

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٦١ .

(٢) انظر : الألوسي ، روح المعاني ١ : ٤٣٢ . والطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ج٢ ك١ : ٥٢٠ - ٥٢١ . وقال الطبري : « وأصل الصبر منع النفس محابها وكفها عن هواها » [جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ١١] . وفي اللغة : الصبر : الحبس ، ونصب الإنسان للقتل. [ابن منظور ، لسان العرب ٤ : ٤٣٨ مادة « صبر »] .

(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣١٩ .

(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ١٣٧ .

« قال الزجاج : وإن وجد يهودي غني فلا يخلو من زي الفقر ومهانته » [1] ، فلا تزال ترى نفوسهم فقيرة ، ولا ترى ملةً من الملل أحرص منهم على الدنيا .

ثانياً التحايل على الشريعة :

قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ [2] .

والاعتداء تجاوز الحدّ [3] ، وهؤلاء هم أصحاب القرية أيلة [4] الذين أخبر الله عنهم في قوله : ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لايسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ [5] ، وكانت شريعتهم تأمرهم بالتفرغ للعبادة يوم السبت وعدم الاشتغال بصيد الحيتان .

وأدرك الحوت بغريزته أن لاخطر في هذا اليوم ، فغلب عليه الأمن وتكاثر خروجه فيه حتى غطى وجه الماء ، أما في باقي الأيام فيتفرق ويختفي للخطر الذي يشعر به ، فلا يكاد أهل القرية يصطادون منه شيئاً . فزين الشيطان لبعضهم أن يحتال لصيد السمك في السبت ، فحفروا حياضاً وشرعوا لها جداول إلى البحر ، فتساقط الحيتان فيها يوم السبت ، فيأخذونها الأحد .

وهم مع فعلهم هذا كانوا يحذرون العقوبة ويخافونها ، فلما تأخرت عنهم اجترؤوا على المعصية ، وتكاثروا عليها ، ولم يسمعوا لقول الناهين من قومهم . فأصبحوا فرقاً ثلاثة : فرقة أنكرت ، وفرقة لم تعص ولم تنكر ، وفرقة باشرت المعصية ولم تنزجر . فحلّ عقاب الله تعالى . قال ابن عطية : « وكانت من بني إسرائيل فرقة نهت عن ذلك فنجت من العقوبة ، وكانت منهم فرقة لم تعص ولم تنه فقيل نجت مع الناهين ، وقيل هلكت مع العاصين » [6] ، ونقل هلاك الفئة الساكتة عن قتادة حيث قال : « ما نجا إلا الذين نَهَوا وهلك سائرهم » [7] ، وقال البقاعي : « مسخ الله منهم من باشر المعصية ومن سكت عن النهي » [8] .

ودرج بنوإسرائيل على التحايل حتى صار خلقاً لهم ، وقد أخبر النبي ﷺ عن صنيعهم هذا

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣١٩ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٦٥ .
(٣) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٣٤ .
(٤) أيلة قرية كانت قرب العقبة على شاطئ البحر الأحمر ولعلها إيلات حالياً .
(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٦٣ .
(٦) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٣٦ .
(٧) ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٩٥ .
(٨) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ٤٦٤ . وانظر هذه القصة : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٤٦٩ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٩٤ - ٩٥ . والخازن ١ : ٦٩ .

في أمر آخر فقال : « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها »(١) .

والمسخ واللعن عقوبتان عظيمتان استحقهما المحتال على شرع الله تعالى لما يعني ذلك من استخفاف بأمر الله ، وتضييع للمصالح والحكم التي قصدت لها شريعته ، ولمنافاته العبودية وهي الامتثال التام لله تعالى .

ثالثاً : نقض المواثيق :

جرت عادة بني إسرائيل على نقض المواثيق ، وترسخ ذلك في أخلاقهم وطباعهم ، وقد نبّه الله سبحانه إلى خلقهم هذا في مواطن كثيرة من كتابه العزيز ، ومما أوردته سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾(٢) .

والميثاق والموثق : العهد ، والوثيق : المحكم(٣) ، والميثاقُ الذي أخذ عليهم العملُ بالتوراة وإقامة أحكامها . ولم يقبلوا أخذها طواعية ، حتى رُفع الطور فوق عسكرهم ، فلما شاهدوه فوقهم سجدوا وأعطوا الميثاق على أخذ التوراة بجد واجتهاد وطاعة كاملة لما فيها من أوامر وأحكام .

ورغم مشاهدتهم هذه الآية العظيمة سارعوا إلى نقض الميثاق وعدم الوفاء به ، فتولوا عن التوراة بأن حرفوا كثيراً من نصوصها ، وتركوا العمل بجل أحكامها ، وجاهروا بالمعاصي(٤) .

ويدل على أن الناقضين للعهد هم المشاهدون رفع الطور قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا ﴾(٥) ، قال الطبري : « وأما قوله ﴿ قالوا سمعنا ﴾ فإنه خبر من الله – عن اليهود الذين أخذ ميثاقهم أن يعملوا بما في التوراة وأن يطيعوا الله فيما يسمعون منها – أنهم قالوا حين قيل لهم ذلك : سمعنا قولك وعصينا أمرك »(٦) .

رابعاً : التعنت والجدل :

يبدو هذا الخلق عند بني إسرائيل من موقفهم من قضية البقرة ، كما في قوله تعالى :

---

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ماذكر عن بني إسرائيل ، ح ٣٤٦٠ . انظر : فتح الباري ٦ : ٤٩٦ . والجميل : الشحم يذاب ثم يجمل أي يجمع . وجمله : أي أذابه واستخرج دهنه . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١١ : ١٢٧ ، مادة « جمل » .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٦٣ – ٦٤ .

(٣) انظر : الفيروزآبادي ، القاموس المحيط : ١١٩٧ (ط الرسالة) .

(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ١٥٦ – ١٥٧ . والرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٠٦ – ١٠٧ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٣٠ – ٣٣١ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٩٣ . والبغوي ، معالم التنزيل ١ : ٦٨ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٩٣ .

(٦) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٣٥٧ .

﴿ وإذْ قال موسىٰ لِقَوْمِهِ إنَّ اللهَ يَأمُرُكُم أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالوا أتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أعُوذُ باللهِ أنْ أكُونَ مِن الجاهِلِين ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوها وما كادُوا يَفْعَلُون ﴾ (١) .

يقال : كان رجل من بني إسرائيل موسراً ، وله ابن أخ معسر أو جماعة من الورثة فقراء ، فتعجلوا الميراث واستبطؤوا موته ، فقتلوه وألقوه في سبطٍ من أسباط بني إسرائيل ، وأخذوا يطالبون بدية القتيل . فجاء القاتل - وقيل المدَّعى عليهم - موسى عليه السلام ليقضي بينهم ، فأمرهم بذبح البقرة (٢) .

ولسوء خلقهم أساؤوا الظن بموسى عليه السلام - غافلين عن كونها معجزة ربانية - فنسبوا له الاستهزاء ، وما ينبغي ذلك لنبي ، فإنما قال ذلك عن أمر الله سبحانه .

وأتبعوا هذه السيئة بأخرى فأكثروا من التساؤل والمماحكة ، فظهر تعنتهم وقلة طواعيتهم ، وحبهم للجدل ، وعدم الرغبة في الامتثال ، ولو استعرضوا بقرة فذبحوها لفعلوا ما أمروا به ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم (٣) ، فجهدوا في البحث عن تلك البقرة ، ثم اشتروها بملء جلدها ذهباً (٤) .

ومما لا شك فيه أن الجدل والمراء بالباطل أمارة من أمارات الضلال ، يقول النبي ﷺ : « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » (٥) ، كما أنه يقسي القلب ، قال مالك بن أنس رحمه الله : « المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن » (٦) .

خامساً : قساوة القلب :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكم مِن بَعْدِ ذلك فهي كالحِجارَةِ أو أشَدُّ قَسْوَة ﴾ (٧) .

وقسا القلب إذا جفا وغلظ (٨) ، وقد اعتادت قلوب بني إسرائيل المعاصي فتطبّعت واسودت من كثرتها ، وأصبحت قاسية غليظة لاتلينها المواعظ ، ولا تتأثر بالزواجر . حتى معجزة إحياء القتيل التي شاهدوها لم تؤثر فيهم واستمروا على عنادهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « قال الذين قتلوه بعد أن سُمّي قاتله : والله ما قتلناه » (٩) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٦٧ - ٧١ .
(٢) انظر : الطبري ١ : ١٨٧ - ١٨٨ .
(٣) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٤٢ .
(٤) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٩٦ - ٩٧ .
(٥) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، باب ٤٤ ، ح ٣٢٥٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح . السنن ٥ : ٣٥٣ .
(٦) الغزالي ، إحياء علوم الدين ٣ : ١١٧ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٧٤ .
(٨) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٣٤ .
(٩) ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٠٢ . وانظر : الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل ١ : ٧٤ . والبقاعي ، نظم الدرر ١ : ٤٨٢ .

سادساً : المخادعة :

أراد النبي ﷺ أن يحافظ على المدينة والمسلمين فيها من حبائل اليهود وخطر المشركين حولهم ، فأمر ألا يدخل قصبة المدينة إلا مؤمن (١) . وإزاء ذلك سلك اليهود سبيل المخادعة والنفاق ليتستروا بذلك عند دخولهم المدينة فإذا لقوا المؤمنين أظهروا إيمانهم ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض عادوا إلى كفرهم وتلاوموا على ماصدر من بعضهم من أخطاء في ظنهم ، قال تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجُّوكم به عند ربكم ﴾ (٢) .

وغرضهم من المخادعة والنفاق أن يتمكنوا من الاطلاع على أحوال المسلمين وأسرارهم دون أن يحذر منهم أحد . وكذا تشكيكُ المسلمين في دينهم ، وجعلُ الذين لم يدخلوا في الإسلام يحجمون عنه ، قال تعالى : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمِنُوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وَجْهَ النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ (٣) . مع ما تنطوي عليه المخادعة من استهزاء وسخرية ، ولذا كشف الله تعالى حقيقتهم ليبقى المسلمين على حذر منهم .

سابعاً : البغي والحسد :

البَغْي مصدر بَغى يبغي وهو الطلب ، قال الأصمعي : « بَغَى الرجل حاجته يبغيها بُغاءَ وبُغْية وبُغاية إذا طلبها » (٤) ، والبَغْي : التعدّي ومجاوزة الحد ، قال الجوهري : « وكل مجاوزة في الحدّ وإفراط على المقدار الذي هو حدّ الشيء فهو بَغْي » (٥) ، ويراد به أيضاً الحسد وقصد الفساد ، ثم سمي الظلم بغياً لأن الحاسد يظلم المحسود رغبةً في زوال نعمة الله عنه إليه (٦) .

والحسد كما قال الجوهري : « أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك » (٧) .

وصدر البغي من أهل الكتاب حين أوتي النبي ﷺ الرسالة ، قال تعالى : ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن يُنَزِّلَ اللهُ من فضلِه على من يشاء من عباده ﴾ (٨) ، قال البقاعي : « بغياً : أي حسداً وظلماً » (٩) ، إذ طلبوا ماليس لهم ، فأفسدوا في الأرض ، وصدّوا

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٥٣ . وقصبة المدينة : وسطها .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٧٦ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٧٢ .
(٤) ابن منظور ، لسان العرب ١٤ : ٧٦ مادة « بغى » .
(٥) الجوهري ، الصحاح ٧ : ٢٢٨١ مادة « بغى » .
(٦) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٤ : ٧٩ مادة « بغى » .
(٧) الجوهري ، الصحاح ٢ : ٤٦٥ مادة « حسد » .
(٨) سورة البقرة ، آية : ٩٠ .
(٩) البقاعي ، نظم الدرر ٢ : ٢٤ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٨٤ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١١٤ .

مَن وراءهم عن الإسلام .

وكما حسدوا النبي ﷺ على النبوة ، حسدوا المومنين على دينهم ، وتمنوا زوال هذه النعمة عنهم ، قال تعالى : ﴿ ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّل عليكم من خيرٍ من ربكم ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لويردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ (٢) .

وإنما حسدوا النبي ﷺ والمؤمنين لما في قلوبهم من العداوة والبغضاء لهم (٣) ، مع خوفِ فوات رئاستِهم قومَهم ، ومكاسبِهم المادية التي كانت ترد إليهم ، وخبثِ نفوسهم وشحها بالخير للعباد ، حتى إنهم لما استفتحوا على الذين كفروا قبل النبي ﷺ كانوا يتوعدونهم بالقتل لا بالتعليم والإصلاح .

ثامناً : الحرص على الدنيا :

وصف القرآن الكريم أهل الكتاب بالحرص على الدنيا في قوله تعالى : ﴿ ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياةٍ ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يُعَمَّرُ ألف سَنَةٍ وما هو بِمُزَحْزِحِهِ من العذابِ أن يُعَمَّر واللهُ بصيرٌ بما يعملون ﴾ (٤) .

وجاءت ﴿ حياةٍ ﴾ منكرة لتشعر بحرصهم على حياة متطاولة (٥) .

وإنما قبح الحرص على الدنيا منهم لأنهم أهل كتاب يعلمون أن الثواب والعقاب عند الله في الآخرة ، بل فاق حرصُهم حرصَ المشركين الذين لايرجون بعثاً ولا حياة ولا نشوراً (٦) ، لأنهم أفسدوا آخرتهم وعلموا أنهم يصيرون بأعمالهم إلى العذاب ، ومن علم بأنه يصير إلى شرّ كان أشدّ الناس بعداً عنه وأكثرهم كرهاً له .

ثم إن حب الدنيا استقر في نفوسهم ، وطغى حب المادة عليهم ، فشروها بدينهم قال سبحانه : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ (٧) واحتالوا على شرع الله ، وكفروا بدينه ، ونقضوا المواثيق ، كل ذلك حرصاً على الدنيا وكراهية الموت ، قال عزوجل : ﴿ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ (٨) .

(١) سورة البقرة ، آية : ١٠٥ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٠٩ .
(٣) انظر قول حيي بن أخطب صفحة ٩٢ – ٩٣ من هذه الرسالة .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٩٦ .
(٦،٥) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٣٤ . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٥٢١ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٨٦ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ٩٥ .

تاسعاً : الشقاق :

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة جامعة يعرفون بها الحق ويهتدون إليه لئلا يبقى لهم مدخلاً إلى المحاجة أو التسويف وذلك في قوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (١) . ولعلم الله بما هو كائن منهم ؛ أشعر رسوله ﷺ بإعراضهم قبل أن يصدر منهم ردّ فقال : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ (٢) .

قال الرازي : « إن تركوا الإيمان بما آمنتم به فقد التزموا المناقضة ، والعاقل لا يلتزم المناقضة البتة ، فحيث التزموها علمنا أنه ليس غرضهم طلب الدين ، والانقياد للحق ، وإنما غرضهم المنازعة وإظهار العداوة » (٣) .

وأصل الشّق : الصّدْع والتفريق بحيث يكون كل شِقّ في جانب ، والمشاقّة والشّقاق : الخلاف والعداوة (٤) .

والشقاق مخالفة عظيمة ، وخلق سيء تندرج فيه أخلاق أخرى سيئة من مثل العناد والمكايدة والمحاربة ،كلها تجتمع في هذا الخلق الذميم الذي وصف الله تعالى به أهل الكتاب بكل مافيه من معاني ودلالات معبرة عن موقفهم من النبي ﷺ ودعوة الإسلام .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٣٧ .
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ٤ : ٨٤ .
(٤) انظر : الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ١١٦٠ مادة « شقق » (ط الرسالة) . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٤٣ .

المبحث الخامس

المنهج الاستدلالي لمواجهة نقائض أهل الكتاب

استغل أهل الكتاب ما آتاهم الله تعالى من كتب، وما ورثوه من علم، ليعارضوا به دعوة الإسلام التي جاء بها النبي ﷺ، خلافاً لعلمهم، ونبذاً لعهودهم ومواثيقهم. فأثاروا دعاوى لا يعرفها العامة منهم ولا المشروكون من أهل جزيرة العرب إلا النزر اليسير.

وما تلك الدعاوى إلا نقائض أرادوا بها نقض عرى الإسلام، والتأثير على المسلمين بالتشكيك، أو التلبيس، أو قلب الحقائق. فواجه القرآن الكريم نقائضهم، وردّها عليهم، مع إبانة مقاصدهم وأغراضهم وواقع حالهم.

ومن أبرز تلك النقائض التي تصدى لها القرآن الكريم في سورة البقرة ما يأتي:

أولاً: خروجهم من النار وخلافة المسلمين لهم فيها:

قال تعالى: ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودةً قل أتّخذتم عند الله عهداً فلن يُخْلِفَ اللهُ عهدَه أم تقولون على الله ما لا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [1].

روي في سبب نزول هذه الآيات عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال لليهود: « من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم النبي ﷺ: اخسؤوا فيها والله لانخلفكم فيها أبداً » [2]، زاد عكرمة مولى ابن عباس في حديثه: « فأنزل الله جلّ ثناؤه: ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ » [3].

واليهود بقولهم هذا يقصدون إعلام السامع أنهم وحدهم أهل الحق، وما عداهم من الأمم وبخاصة المسلمين على باطل. وما دخولهم النار إلا لعتب الله عليهم في عبادتهم العجل فيعذبهم أياماً معدودة ثم إذا طهروا خرجوا منها [4].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٨٠ – ٨٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب الطب، باب ما يذكر في سمّ النبي ﷺ، ح ٥٧٧٧. انظر: فتح الباري ١٠: ٢٤٤ – ٢٤٥. والبيهقي في دلائل النبوة ٤: ٢٥٦.

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢: ٢٧٦.

(٤) انظر: الرازي، التفسير الكبير ٣: ١٤٢. وابن عطية، المحرر الوجيز ١: ٣٦٨. وفيهما أقوال أخرى غير ما ذكر.

وللرد عليهم وتفنيد مقصدهم أقام القرآن الكريم الأدلة التي تكذبهم وتميّز أصحاب النار والمستحقّين للخلود فيها عن غيرهم ، ومن تلك الأدلة :

١ - أن مقولتهم هذه تألٍ على الله تعالى ، فمثل هذا خاص به وخاضع لمشيئته ، ولاينبغي الجزم به إلا ببرهان وحجة ، فأين هي ؟ ﴿ قل أتّخذتم عند اللهِ عهداً فلن يُخْلِفَ اللهُ عهده ﴾ ولو كان عندهم عهد لعذرهم الله فيما قالوا ، ولأنفذ لهم ما وعد ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « أدّخرتم عند الله عهداً ؟ يقول : أقلتم لا إله إلا الله ، لم تشركوا ولم تكفروا ؟ فإن كنتم قلتموها فارجوا بها ، وإن كنتم لم تقولوها فلم تقولون على الله ما لا تعلمون »[١] .

وليس المراد مطالبتهم بالحجة ليحضروها ، فليست ثمّ ولا يقدرون عليها ، بل إظهار كذبهم ، قال البقاعي : « ومعنى الإنكار في الاستفهام أنه ليس واحد من الأمرين واقعاً ، لا اتخذتم عهداً ، ولا قلتم ذلك جهلاً ، بل قلتموه وأنتم تعلمون خلافه »[٢] .

٢ - أن مناط دخول النار أو النجاة منها الإيمان والكفر . والآيات الكريمة لم تعبأ بحرفيّة قولهم في عدد الأيام التي يعذبونها و خروجهم من النار بعدها ، بل شرعت في بيان صفات أهل النار أولاً ، ثم ذكرت صفات أهل الجنة تمييزاً لهم ، فصفة أهل النار ﴿ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ﴾ وهو وصف عام يشمل كل من كفر بالله تعالى من أهل الكتاب وغيرهم ، فمن قارف المعاصي وحرص عليها حتى سدت عليه مسالك التوبة فانقاد إلى الشرك ومات على ذلك فهو من أهل النار خالداً فيها ، ومن كان أوّل أمره كفر بالله تعالى فمن باب أولى ، قال البقاعي : « أحاطت به خطيئته بحيث لم يكن شيء من أحواله خارجاً عن الخطيئة بل كانت غامرة لكل ما سواها من أعماله ، ولا يليق ذلك إلا للكفر الهادم لأساس الأعمال »[٣] .

وأهل الكتاب حين غيّروا أحكام الله تعالى ، وقتلوا بعض رسله ، وكذبوا كثيراً منهم ، ولم يؤمنوا بالنبي ﷺ مع تيقنهم بأنه النبي الذي يرتقبون ، وعلموا بصدقه وصحة نبوته ، حين فعلوا ذلك تلبّسوا بالكفر ، وتمثلت فيهم صفات أهل النار الخالدين فيها .

أما الذين تابعوا النبي ﷺ ، واطمأنت قلوبهم بالإيمان فانقادوا لأوامره وتجنبوا نواهيه وأحسنوا العمل ، فليسوا أهل النار ، بل هم أهل الجنة إن شاء الله ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾[٤] .

---

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٧٩ .
(٢) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ٤٩٦ .
(٣) المصدر السابق ١ : ٤٩٧ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٣٣ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٨٢ .

٣ - كراهيتهم الموت ، فالإنسان يكره أن يدع العمران إلى الخراب ، والحياة الدنيا بأكدارها إلى عذاب الآخرة ، وقد علم بنو إسرائيل أنهم سيؤولون إلى ذلك بكفرهم بالنبي ﷺ ، وعدم قبولهم الإسلام دينا ، فكرهوا الموت لأجل ذلك .

وقد تحداهم القران الكريم أن يتمنوا الموت ، وجزم بعدم إقدامهم عليه فقال سبحانه : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ★ ولن يتمنوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ [١] .

يقول أبوحيان الأندلسي : « والمقصود من ذلك : التحدي ، وإظهار كذبهم ، وذلك أن من أيقن أنه من أهل الجنة اختار أن ينتقل إليها ، وأن يخلص من المقام في دار الأكدار ، وأن يصل إلى دار القرار » [٢] . ولكن لظلمهم وكفرهم يكرهون الموت ولا يتمنونه أبداً ، بل يحرصون على ضدّه وهي الحياة المتطاولة آماداً ، إذ هي غاية ما يطلبون وأقصى ما يتمنون ﴿ ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ﴾ [٣] .

وبهذا ثبت أن لا حظّ لهم في الآخرة غير النار ، يدخلونها خالدين فيها بما كسبت أيديهم ، وذلك نقيض دعواهم ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ .

ثانياً : دعوى اختصاصهم بدخول الجنة :

قال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيُّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ★ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [٤] .

وهذه نقيضة أخرى من نقائض أهل الكتاب ، ففي هذا المقام أظهروا دعوى اختصاصهم بالجنة قدحاً في غيرهم ، وحرصاً على إدخال الشك في نفوس المسلمين ، بعد أن فُهم ذلك تلويحاً من الدعوى الأولى ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ ، وتفصيل الدعوى هنا : « قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً . وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً »[٥] ، قال البغوي : « قيل : نزلت في وفد نجران وكانوا نصارى ، اجتمعوا مع اليهود في مجلس رسول الله ﷺ

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٩٤ - ٩٥ .
(٢) أبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٣١١ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٩٦ . وانظر صفحة ١٢٢ من هذه الرسالة .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١١١ - ١١٢ .
(٥) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٥٠٧ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٤٩ . والألوسي ، روح المعاني ١: ٥٦٥ .

فكذب بعضهم بعضاً »[1] .

ولإبطال دعوى اختصاصهم برحمة الله تعالى وإثباتاً للحق ، قدّمت الآيات الكريمة في سورة البقرة الدلائل على ذلك ، فكان منها :

١ - أن الأماني ليست سبيلاً لدخول الجنة ، لذا أشير إليها على سبيل الاستبعاد ﴿ تلك أمانيُّهم ﴾ ، وهي هنا تمنّ على الله بغير حق ولا حجة ولا برهان ، وشهوة من شهوات ودّوا لوا تحققت لهم : أن لا ينزل على المسلمين من خير من ربهم ، وأن يردوهم كفاراً ... ونحو ذلك[2] .

ومقابل إبطال الأماني ونفي أن يكون لها شأن ، بيّن سبحانه أن الإيمان والعمل الصالح بعد رحمة الله تعالى هو السبيل الوحيد لدخول الجنة فقال جل وعلا : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، والإيمان الذي هو أشرف ما أبطن المرء إذا صدقه الوجه الذي هو أشرف ما ظهر من أعضاء الإنسان وأعظمها حرمة ، يبلغ المرء بتوفيق الله درجة الإحسان ، ويستحق الثواب ، ويأمن العقاب ، ولا يحزن على مافاته من الدنيا .

وإبطال الأماني ليس مخصوصاً بأهل الكتاب ، بل عام في كل من فعل ذلك ، فلما تفاخر المسلمون وأهل الكتاب كل بدينه ردّ الله عليهم بقوله : ﴿ ليس بأمانيّكم ولا أمانيِّ أهلِ الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً ★ ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾[3] . فالنجاة في الآخرة ودخول الجنة معقود بعد رحمة الله بالإيمان وعمل الصالحات ، والهلاك سببه سوء العمل والكفر بالله تعالى . ولا شيء وراء ذلك .

٢ - أن اختصاصهم بالجنة دون غيرهم دعوى لا دليل عليها ، فما زعمه أهل الكتاب أمرٌ غيبي يفتقر في صحته إلى دليل قاطع ، وليثبت الله كذبهم وينقض دعواهم ؛ أمر بمطالبتهم بالحجة ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ ، وكل قول لا دليل عليه ثابتاً لايعتدّ به . يقول القرطبي : « وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ إلى إحضار حجة على دعواهم ما ادّعوا من ذلك فإنه بمعنى تكذيب من الله لهم في دعواهم وقيلهم . لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبداً »[4] .

---

(١) البغوي ، معالم التنزيل ١ : ٩٦ .
(٢) انظر: البقاعي ، نظم الدرر ٢ : ١١٢ .
(٣) سورة النساء ، آية : ١٢٣ - ١٢٤ .
(٤) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٥١٠ .

ثالثاً : حصر الهداية في دين أهل الكتاب :

قال تعالى : ﴿ وَقَالوا كُونُوا هُوداً أو نَصارىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنِيفاً وما كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ ★ قُولُوا آمَنَّا بالله وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إلى إبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْباطِ وما أُوتي مُوسىٰ وعيسىٰ وما أُوتي النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون ★ فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ماآمَنْتُمْ بِهِ فَقَد اهْتَدَوا وإنْ تَوَلَّوا فإنَّما هُمْ في شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُم اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾ (١) .

ورد في سبب نزول الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عبدالله بن صوريا قال لرسول الله ﷺ : « ما الهدى إلا مانحن عليه ، فاتبعنا تهتد . وقالت النصارى مثل ذلك . فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ (٢) .

وهذه النقيضة نظير قولهم : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَنْ كان هُوداً أو نَصارى ﴾ (٣) ، أراد بها أهل الكتاب أن يستتبعوا المسلمين بقولهم : كونوا مثلنا تهتدوا . ولما كان الأصل في الأمر أن يتبعوا هم المسلمين في إيمانهم بالله تعالى وتصديقهم بالنبي ﷺ أقيمت الأدلة لبيان فساد قولهم وسوء طويتهم ، منها :

١ - الاستدلال عليهم بدين إبراهيم عليه السلام :

يقرّ كل من اليهود والنصارى بأن دين إبراهيم عليه السلام حق وهدى ، وإقرارهم هذا دلّ على فساد ما ذهبوا إليه من حصر الهداية في اليهودية أو النصرانية ، فكلتا الديانتين اللتين يتمسكون بها محرفة لا تتفق مع ديانة إبراهيم عليه السلام ، فقد كان إبراهيم : ﴿ حَنِيفاً وما كان مِن المُشْرِكِينَ ﴾ (٤) ، وفي آية أخرى : ﴿ حَنِيفاً مُسْلِماً وَما كانَ مِن المُشْرِكِين ﴾ (٥) ، فبرأه الله تعالى منهم، وبيّن عماد ملته عليه السلام :

أ) الحنيفية ، والحنيف في الدين : الذي مال عن الأديان المكروهة إلى الحق » (٦) ، وقيل : الحنيف : المستقيم ، وسمي معوج القدمين أحنف تفاؤلاً (٧) ، وقال ابن عطية : « ويجيء الحنيف في الدين : المستقيم على جميع طاعات الله عز وجل » (٨) .

ب) البراءة من الشرك الذي وقع فيه اليهود بقولهم : عزير ابن الله . والنصارى بقولهم :

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٥ - ١٣٧ .
(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٢٠١ . وانظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٥٤٩ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١١١ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٣٥ .
(٥) سورة آل عمران ، آية : ٦٧ .
(٦) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٥٠١ .
(٧) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ١٠٢ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٥٠ .
(٨) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٥٠١ .

المسيح ابن الله ، وعبادتهم الثالوث ، والعرب بعبادتهم الأوثان .

فإبراهيم عليه السلام كان قائلا بالتوحيد داعياً إليه ، فمن كان ملابساً لما كان عليه فهو على هدى ، وما عداه فهو باطل .

وبما أن النبي يدعو إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده فدينه دين إبراهيم عليه السلام ، والمسلمون هم أهل ملته ، وبذا يلزم أهل الكتاب أن يكونوا تبعاً للمسلمين في ملتهم عكس دعوتهم ومايصبون إليه .

٢ - الاستدلال عليهم بأن الأخذ بالحق المتفق عليه مقدم على الباطل المتنازع فيه :

سبق آنفاً أن أهل الكتاب مقرّون بأن إبراهيم عليه السلام كان على هدى ، وعبثاً أرادوا نسبته إلى دينهم ، فلما توجهوا بهذه الدعوة للمسلمين أجيبوا : بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، أو بل الهدى ملة إبراهيم [١] ، يقول الطبري : « احتج الله لنبيه محمد ﷺ أبلغ حجة وأوجزها وأكملها ، وعلمها محمداً نبيه ﷺ فقال : يا محمد ، قل للقائلين من اليهود والنصارى لأصحابك ﴿ كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم التي يجمع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه واجتباه وأمر به ، فإن دينه كان الحنيفية المسلمة ، وندع سائر الملل التي نختلف فيها » [٢].

٣ - الاستدلال عليهم بأن الهدى ينافي التفريق بين ما أنزل على الرسل :

فأصول الديانة السماوية واحدة ، والأنبياء عليه السلام مجتمعون على دين الإسلام ، ولا ضير في اختلاف بعض الأحكام من شريعة لأخرى .

واليهودية أو النصرانية التي يعتقدها أهل الكتاب آنئذ وإلى يومنا هذا تقتضي التفريق بين ماأنزل على الرسل ، فاليهود يكفرون بالإنجيل والقرآن ، والنصارى يكفرون بالقرآن ، وهذا نقيض ما تقتضيه ملة إبراهيم عليه السلام التي أمر بها المسلمون ﴿ قُولُوا آمَنَّا بالله وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وما أُوتي مُوسَىٰ وعيسَىٰ وما أُوتي النَّبِيُّونَ مِن ربِّهِم لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون ﴾ .

ورداً على مقولتهم تلك ، دعاهم القرآن الكريم إلى أن يؤمنوا إيماناً مماثلاً لإيمان المسلمين ، وعبر بأداة الشك إشارة إلى أن إيمانهم - لما لهم من الغلظة والجلافة - في غاية البعد [٣] ﴿ فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ماآمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ﴾ .

---

(١) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٥٠١ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٥٠ . والبقاعي ، نظم الدرر ٢ : ١٨٤ .
(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ١٠٢ .
(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ٢ : ١٩١ . وللمفسرين في معنى الآية أقوال أخرى انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٤ : ٨٣ - ٨٤ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٥٠١ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٥٠ . والبغوي ، معالم التنزيل ١ : ١١٥ .

الفصل الثالث

استخدام المنهج العقلي
في دعوة المنافقين

تمهيد

النفاق مصطلح إسلامي لم يعرف عند العرب قبل مجيء الإسلام ، وأشبه الأقوال أنه مأخوذ من النافقاء والنُّفَقَة : وهي جِحَرَة اليربوع ، يكتمها ويظهر غيرها ، فإذا أتي من الجهة المظهرة ضرب النافقاء برأسه وخرج[1] ، والمنافق في الدين يشترك مع اليربوع في الإظهار والستر .

والنفاق الذي يُتحدَّث عنه هنا هو النفاق الاعتقادي المخرج من الملة ، ومن تعريفاته اصطلاحاً قول الشريف الجرجاني : « النفاق : إظهار الإيمان باللسان ، وكتمان الكفر بالقلب »[2] ، كما عرفه الراغب الأصفهاني بأنه : « الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب »[3] .

وعُرف المنافق بعدُ في المجتمع الإسلامي بـ(الزنديق) يقول ابن جزى في المنافقين : « يظهرون الإسلام ، ويسرّون الكفر ، ويسمى الآن من كان كذلك زنديقاً »[4] .

وجعل الله سبحانه المنافقين شراً من الكافرين فقال : ﴿ إنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾[5] ، وذلك لأن كفر المنافق ملتبس ، وضرره أعظم لخفاء أمره واغترار الناس به ، أما الكافر الأصلي فظاهرٌ كفره ، وسهلٌ الاحتراز منه .

ولم يكن بين المسلمين في مكة المكرمة منافق لأن دولة المشركين بها قائمة آنذاك ، وهم بها أقوياء ، والمسلمون ضعفاء معذبون ، فلم يكن ثمة حاجة إلى مداهنة المسلمين . فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، وعزّ بها الإسلام ، وقوي المسلمون ؛ نجم النفاق في قلوب رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسا على جاهليته ، فقهرهم الإسلام بظهوره ، واجتماع قومهم عليه ، فأقرّوا به ظاهراً ، واتّخذوه جُنّة من القتل ، ونافقوا في السرّ ، وكان هواهم مع اليهود لتكذيبهم النبيَّ ﷺ وجحودهم رسالته .

ورأس المنافقين عبدالله بن أبَيّ بن سلول العوفي الخزرجي ، لم يكن في المدينة أحد يختلف على شرفه وسيادته لأهلها ، بل لم يجتمع الحيّان من الأوس والخزرج على غيره ، وقد كانوا يعدون العدّة لتتويجه . فلما قدم النبي ﷺ المدينة بالإسلام انصرف قومه عنه إلى الإسلام ، فضغن

---

(١) انظر : الفيروزآباذي ، القاموس المحيط : ١١٩٦ مادة « نفق » (ط . الرسالة)
(٢) الجرجاني ، التعريفات : ٢٤٥ . وانظر : الفيروزآباذي ، القاموس المحيط : ١١٩٦ مادة « نفق » (ط . الرسالة)
(٣) الأصفهاني ، المفردات : ٥٠٢ .
(٤) ابن جزى ، التسهيل ١ : ٦٤ . وانظر : ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ١٢ .
(٥) سورة النساء ، آية : ١٤٥ .

ونافق ، يروي ابن هشام أن النبي خرج يوماً يعود سعد بن عبادة ، فمرّ بابن أبَيّ وهو جالس في ظل بستان فنزل وسلّم عليه ، وقرأ القرآن ، ودعا إلى الإسلام ، وذكّر بالآخرة ، فقال ابن أبَيّ : « ياهذا إنه لا أحسن من حديثك إن كان حقّاً ، فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تغُتّه [1] به ، ولا تأته في مجلسه بما يكره » فانصرف النبي ﷺ والغضب بادٍ على وجهه حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال سعد : « والله يارسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً ، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه ! قال : أجل . ثم أخبره بما قال ابن أبَيّ . فقال سعد : يارسول الله ؛ ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوّجه ، فوالله إنه ليرى أنك قد سلبته ملكه » [2] .

كما نافق قوم من أحبار اليهود منهم سعد بن حنيف ، ورافع بن حرملة ، ورِفاعة بن زيد بن التابوت ، وهو الذي ورد فيه أن ريحاً هبت والنبي ﷺ قافل بالمسلمين من غزوة بني المصطلق ، فاشتدت حتى خشي منها المسلمون فقال النبي ﷺ : « لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفر » ، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة مات في ذلك اليوم [3] .

والمنافقون شريحة يصعب التعامل معها ، فلا بد من توجيه الدعوة لهم لعدم إيمانهم حقيقة ، ولكن تقمصُهم الإسلام يجعلهم في الظاهر مسلمين ، فلا تسوغ معاملتهم معاملة الكفار في الدعوة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه لابد للدعوة من نقاء الصف وتماسكه ، ولا يتم ذلك إلا بالتخلص من عناصر التثبيط والتفريق وهم المنافقون ، لذا كانت طريقة التعامل معهم في القرآن الكريم مختلفة عن غيرهم من فئات المدعوين . فعمد القرآن الكريم إلى فضحهم والتعريف بهم ليمتازوا عن غيرهم . يقول مجاهد في قوله تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ : « ميّزهم الله يوم أحد : المنافق عن المؤمن » [4] . وكان عبدالله ابن أبَيّ بن سلول انخزل بثلث الجيش والنبي ﷺ متّجه إلى أحد [5] .

وإن تحدُّث الآيات الكريمة في سورة البقرة وغيرها من سور القرآن وبخاصة « سورة المنافقون » عن سلوك المنافقين وواقعهم ؛ من الطرق الرئيسة - والله أعلم - للتمييز وإنقاء الصف ، وتحديد الطريقة الدعوية المناسبة لهم .

وفي المباحث التالية تفصيل لشيء من ذلك إن شاء الله .

---

(١) الغتّ في الكلام : التبكيت . انظر : الفيروزآباذي ، القاموس المحيط ج١ : ٢٠٠ (ط. الرسالة) والمعنى : لا تثقل عليه ولا تكدره به .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٥٨٧ - ٥٨٨ .
(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٥٢٨ . والحديث رواه الإمام أحمد ولم يسم فيه رفاعة ، انظر : المسند ٣ : ٣١٥ .
(٤) البيهقي ، دلائل النبوة ٣ : ٢٢٣ ، والآية في سورة آل عمران برقم ١٧٩ .
(٥) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٣ : ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ .

المبحث الأول

المنهج الاستقرائي لبيان سلوك المنافقين

يتمثل السلوك العام للمنافقين تجاه الدعوة وأهلها بالتثبيط الداخلي ، والتآمر مع أعدائها من الخارج . ويبدو هذا التصور من خلال المواقف والأخلاق التي صرحت بها الآيات الكريمة عنهم ، ومن سلوكهم الذي تحدثت عنه سورة البقرة ما يأتي :

أولاً : المخادعة :

الخَدْع : إظهار خلاف ما تخفيه . وخدعه : أراد به المكروه وختله من حيث لا يعلم . ويطلق الخداع ويراد به : الحيلة ، والروغان ، والمكر ، والتواري ، والفساد (١) .

وعرّفه الأصفهاني بأنه : « إنزال الغير عما هو بصدده بأمرٍ يبديه على خلاف ما يخفيه » (٢) .

وعند البقاعي : « والخداع إظهار خيرٍ يتوصل به إلى إبطان شرٍ يؤول إليه ذلك الخير المظهر » (٣) .

ونُعِت المنافقون بالخداع في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ★ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ (٤) .

فهذه الآية وما بعدها تتحدث عن المنافقين (٥) ، وتبتدئ قصتهم بفضح موقفهم من أساس الدعوة وهو الإيمان بالله تعالى ، وقد روي في سبب نزول الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه « كان عبدالله بن أُبَيّ ومعتب بن قشير والجدّ بن قيس إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، ونشهد إن صاحبكم صادق ، فإذا خلوا لم يكونوا كذلك » (٦) .

وللعلماء في قوله تعالى : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ أقاويل متعددة منها :

١ - أن صورة صنعهم مع الله حين يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون صورة لصنع الخادعين ، وصورة صنع الله معهم حين أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في عداد شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار صورة صنع الخادع ، وكذلك صورة صنع المسلمين معهم حيث

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٨ : ٦٢ - ٦٥ مادة « خدع » .
(٢) الأصفهاني ، المفردات : ١٤٣ .
(٣) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٠٧ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٨ - ٩ .
(٥) انظر : ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ١١ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٩٢ .
(٦) ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٩ .

امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا عليهم أحكامهم [١] .

٢ - أن يكون قوله تعالى : ﴿ يُخادِعُونَ اللهَ ﴾ ترجمة عن اعتقادهم وظنهم أن الله ممن يجوز خداعه تعالى عن ذلك [٢] .

٣ - أن يكون المراد : يخادعون رسول الله ﷺ ، فأضيف الأمر إلى الله تجوزاً ، لتعلق نبيه به ، ولأنهم مدعوون برسالته [٣] ، وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين يُبايِعُونك إنَّما يُبايِعُون الله ﴾ [٤] . وقوله سبحانه : ﴿ مَنْ يُطع الرسولَ فقد أطاعَ اللهَ ﴾ [٥] .

٤ - أن ذكرَ الله تعالى ليس لتعليق الخدع به ، بل لمجرد التوطئة كقولهم : أعجبني زيد وكرمه ، فيكون المعنى : يخادعون الذين آمنوا بالله . ويفيد هذا الوجه التنبيه على قوة اختصاص المؤمنين بالله تعالى ، وقربهم منه حتى عمد المنافقون إلى خداعهم به [٦] .

٥ - من مدلولات الخادع في اللغة العربية : الفاسد ، وعليه فتأويل المخادعة : أي يفسدون مايظهرون من الإيمان بما يضمرون من الكفر [٧] .

وأيّاً كان تأويل الآية فإن الأقوال متفقة على أن مقصودهم من الخداع إخفاء ما انطوت عليه قلوبهم من الكفر والتستر بالإسلام لغايات في نفوسهم ، فبه يحقنون دماءهم ، ويحوزون أموالهم ، ويسلمون من المحاربة ، ويستفيدون من المغانم ، هذا جانب ، وجانب آخر يتمثل في تحيّلهم للاطلاع على أسرار المؤمنين ، ومعرفة ما يجري بينهم ليذيعوها إلى منابذيهم وبخاصة اليهود .

لكن الله تعالى الذي تكفل بإعلاء دينه ونصر نبيه والمؤمنين ؛ فضح أمرالمنافقين ، وأظهر خباياهم ، فحذر المؤمنين من سلوكهم هذا ، وأخبر هؤلاء المنافقين أن ضرر مخادعتهم تلك لاحقهم ، ومكرها محيق بهم فقال : ﴿ وما يَخْدَعون إلا أنفسهم ﴾ ، والنفس ذات الشيء وحقيقته ، « والمراد بالأنفس هنا ذواتهم ، والمعنى بمخادعتهم ذواتهم : أن الخداع لاصق بهم لايعدوهم إلى غيرهم ، ولايتخطاهم إلى من سواهم » [٨] لازدياد همِّهم في الدنيا بانتصار الدعوة ، واطلاع النبي ﷺ على أسرارهم . وحصولهم في العذاب يوم القيامة .

---

(١) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧١ .
(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٠٦ . والزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧٢ . وابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ١١ .
(٣) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٦٨ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٥٩ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٩ .
(٤) سورة الفتح ، آية : ١٠ .
(٥) سورة النساء ، آية : ٨٠ .
(٦) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧٢ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٩ .
(٧) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٩ . وابن منظور ، لسان العرب ٨ : ٦٥ مادة « خدع » .
(٨) الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧٥ .

ثانياً : الكذب :

الكذب : نقيض الصدق ، وهو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به [1] ، وهو إحدى أمارات المنافق ، يقول النبي ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » [2] .

ولعراقة المنافقين في الكذب شهد الله تعالى عليهم به فقال : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ [3] ، وتجد كثيراً من الآيات المتحدثة عنهم تصفهم بالكذب ، قال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ [4] ، وقال سبحانه : ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ [5] .

ولولا أن الكذب متأصل في المنافق لما اتخذ النفاق سبيلاً ، فلا بدّ له من الكذب الدائم ، والافتراء المركب ، مع عرضه للناس بكل جرأة وصفاقة ليظهر بمظهر الصادق فيما يخبر به . يقول الحسن البصري رحمه الله : « كان يقال : إن النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذي بني عليه النفاق الكذب » [6] .

والمراد بكذبهم في قوله تعالى : ﴿ ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ قولهم : آمنا بالله وباليوم الآخر [7] .

وقرئ ﴿ يَكْذِبون ﴾ بتخفيف الذال ، وتفيد الإخبار بكذبهم فيما قالوا [8] ، كما قرئ ﴿ يكذّبون ﴾ بتشديد الذال ، وتعنى تكذيبهم الرسولَ ﷺ فيما جاء به ، وهذا أشنع الكذب ، وقيل : من كذّب بمعنى المبالغة في الكذب [9] ، للدلالة على عراقتهم فيه .

والمنافق في كل أحواله كاذب مكذّب :

١ - فهو كاذب فيما ينسب لنفسه من إيمان وتصديق ، كما في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخرِ وما هم بمؤمنين ﴾ [10] .

---

(١) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧٨ . والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٥ . والنيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٧٣ .
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢ : ٣٥٧ .
(٣) سورة المنافقون ، آية : ١ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٠ .
(٥) سورة التوبة ، آية : ٧٧ .
(٦) الغزالي ، إحياء علوم الدين ٣ : ١٣٤ .
(٧) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧٨ . والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٥ . والنيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٧٣ .
(٨) انظر : ابن عطية : المحرر الوجيز ١ : ١٦٥ - ١٦٦ .
(٩) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧٨ - ١٧٩ . والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٥ . والبقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٠٩ .
(١٠) سورة البقرة ، آية : ٨ .

٢ - وكاذب فيما يحلف من أيمان ، قال تعالى : ﴿ يَحْلِفون بالله إنَّهم لَمِنكُم وماهم مِنكم ولكنَّهم قومٌ يَفْرَقون ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ ألم تَرَ إلى الذين تَوَلَّوا قوماً غَضِبَ اللهُ عَلَيهِم ماهُم مِنكم ولامِنْهُم وَيَحْلِفُونَ على الكَذِبِ وَهُم يَعْلَمون ﴾ (٢) ، قال مقاتل والسدي : « نزلت في عبدالله بن نبتل المنافق ، كان يجالس النبي ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا رسول الله ﷺ في حُجْرة من حُجَرِه إذ قال : يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبّار ، وينظر بعيني شيطان . فدخل عبدالله بن نبتل - وكان أزرق - فقال له رسول الله ﷺ : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ذلك . فقال له رسول الله ﷺ : فعلت . فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما شتموه » فنزلت هذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيءٍ ألا إنَّهم هم الكاذِبُون ﴾ (٣) .

٣ - ومكذّب لرسول الله ﷺ ، وبآيات الله ، ولولا تكذيبه لآمن وصدّق .

ولعظم كذبهم ، وسماجته ، وقُبحه ، رتّب الله تعالى العذاب الأليم عليه فقال : ﴿ ولَهُم عَذابٌ أليمٌ بِما كانوا يَكْذِبون ﴾ (٤) .

ثالثاً : الإفساد في الأرض :

الفساد ضد الصلاح ، وهو « خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعاً به » (٥) ، وقال البقاعي : « والفساد انتقاض صورة الشيء » (٦) .

والفساد والإفساد من سلوكيات المنافقين البارزة ، وارتباطه بالمخادعة والكذب وثيق . ومن الآيات الكريمة التي نبهت عليه قوله تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لَهُم لا تُفْسِدُوا في الأرضِ قالوا إنَّما نَحْنُ مُصْلِحُون ★ ألا إنَّهُم هُم المُفْسِدون ولكِن لا يَشْعُرون ﴾ (٧) .

فالمنافق فاسد في سلوكه الذاتي ، إذ يعتقد - لفَرَقِه - أن من الحكمة والصواب إنشاء علاقة حسنة مع المسلمين ، ويوثق في ذات الوقت علاقته بالكفار ، مما يتطلب منه أن يَظْهَر لهؤلاء بوجه ومظهر غير الذي يأتي به الطرف الآخر ، ويرى في ذلك إصلاحاً لأمره ، وإبقاءً على نفسه ، فإن كانت الدولة للمسلمين أمنهم بما أظهر من إسلام ، وإن كانت للكافرين أمنهم بمصافاته لهم .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ٥٦ .
(٢) سورة المجادلة ، آية : ١٤ .
(٣) الواحدي ، أسباب النزول : ٤٧٦ ، والآيات من سورة المجادلة ١٤ - ١٨ . وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٧ : ٣٠٤ .
(٤) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٦٦ . والنيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٧٣ .
(٥) الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧٩ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٦٩ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٠٢ . والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٦ .
(٦) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١١٠ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١١ - ١٢ ، والجمهور على أنهما نزلتا في المنافقين . انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣١ .

وما صنيع المنافقين هذا إلا عين الفساد ، فلاهم مع هؤلاء ولا مع هؤلاء « فقد أفسدوا طرفي الإيمان والكفر ، ولذلك قيل : مايصلح المنافق ، لأنه لاحبيب مصافٍ ، ولاعدوٌ مباين ، فلا يعتقد منه على شيء »(١) ، وتأمل قوله تعالى : ﴿ ما هُم مِنْكم ولا منهم ويَحْلِفون على الكَذِبِ وهم يَعْلمون ﴾(٢) .

والمنافق مفسد في الأرض بكفره ، وعدم التزامه بشريعة الله تعالى التي وضعها لعباده ليعملوا بها ، « فإذا تمسك الخلق بها زال العدوان ، ولزم كل أحد شأنه ، فحقنت الدماء ، وسكنت الفتن ، وكان فيه صلاح الأرض وصلاح أهلها . أما إذا تركوا التمسك بالشرائع ، وأقدم كل أحد على ما يهواه لزم الهرج والمرج والاضطراب »(٣) فهلك العباد ، وقطعت الأرحام . قال تعالى : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد ﴾(٤) ، وقال سبحانه : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾(٥) .

ومفسدٌ في الأرض لما في سلوكه بمصافاة الكافرين من إيهام ضعفِ المسلمين ، وفَلّ عزمهم ، ومن ثَمّ طمع الناس فيهم وجرأتهم عليهم(٦) .

ومفسدٌ كذلك بما يصنع في السرّ من إفشاء أسرارالمؤمنين ، وكشف عوراتهم لأعدائهم من اليهود والمشركين ، مع إلقاء الشبه ، وتفريق الناس عن متابعة النبي ﷺ واعتناق الإسلام(٧) .

وبعد ذلك يلجأ المنافقون للخداع والكذب ، فيتنصلون من جميع أفعالهم تلك ، ويجيبون من دعاهم إلى الفضيلة وترك الرذائل بما يفيد قصر حالهم على الإصلاح ، وأن صفة المصلحين خالصة لهم ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ ويجحدون كل ما نسب إليهم من الإفساد ، ويوهمون المسلمين أن مداخلتهم للكفار إنما هي للإصلاح بينهم وبين المسلمين(٨) .

وربما اعتقدوا أن فعلهم في الموالاة والمدارة والمذهب الذي اعتقدوه صواب محض ، وما عليه النبي ﷺ وأصحابه هو الفساد ، فقالوا ذلك ترجمة عن اعتقادهم(٩) .

فردّ الله تعالى عليهم مكذباً لهم ، ونافياً عنهم الانتظام في سلك المصلحين ، وقاصراً إياهم على الإفساد : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون ﴾ « أي الكاملوا الفساد ، البالغون من العراقة

(١) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١١١ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٦٩ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٢ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٦٧ .
(٢) سورة المجادلة ، آية : ١٤ .
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٦ . وانظر : النيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٧٤ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٠٥ .
(٥) سورة محمد ، آية : ٢٢ .
(٦) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٦ . والنيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٧٤ .
(٧) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٢ . والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٦ .
(٨) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٦٧ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٢ .
(٩) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٢ . والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٦ .

فيه ما يجعل إفساد غيرهم بالنسبة إلى إفسادهم عدماً لما في ذلك من خراب ذات البين ، وأخذ المؤمن من المأمن »[1] ، وقد ظن المنافقون أن إظهار الصلاح والإسلام يخفي إفسادهم في السرّ ، ولم يشعروا أن الله سبحانه أظهر نبيه على أفعالهم[2] .

كما أن مرض قلوبهم ، وتخلقهم بالفساد ، وإدمانهم على الإفساد ، قلب الحقائق في أعينهم فأمسوا يرون الفساد صلاحاً[3] ، فلا عجب إن لم يشعروا بفساد أنفسهم ، قال تعالى : ﴿ أفمن زُيِّنَ له سوءُ عملِه فرآه حَسَناً فإن الله يُضِلُّ مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء ﴾[4] .

رابعاً : الاستهزاء :

الهُزْء : السخرية والاستخفاف ، واستهزأ به : سخر[5] ، قال أبوحامد : « ومعنى السخرية : الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه »[6] .

وعرّف الرازي الاستهزاء هنا فقال : « وحدّه : أنه عبارة عن إظهار موافقة ، مع إبطان ما يجري مجرى السوء على طريق السخرية »[7] .

والاستهزاء أحد الأمارات التي يعرف بها المنافقون ، وذلك أنه إذا كان في مجلس للمسلمين وسمع أو رأى ما لا يعجبه انفعلت نفسه ، وانفلتت منه بعض الألفاظ والتصرفات الدالة على السخرية والرفض، ثم ما يلبث أن يخفيها ويظهر موافقته للمؤمنين .

ومن الآيات الكريمة الكاشفة لسلوك المنافقين هذا قوله تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ★ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾[8] .

وهذه الآية ومثيلاتها في القرآن الكريم جاءت لبيان تعامل المنافقين مع المؤمنين القائم على التكذيب والاستهزاء ، فكبراء المنافقين وأصاغرهم إذا قابلوا مؤمنا أو حضروا جماعة المسلمين تظاهروا بالإيمان – خوفاً أو كيداً – ليبدوا وكأنهم منهم ، ولكن لأن دعواهم تلك لم تكن عن رغبة صادقة أو باعث داخلي فقد جاءت ضعيفة مهزوزة ، ونفوسهم المريضة لم تساعدهم علي تأكيدها

(١) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١١١ .
(٢) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٠٤ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٣ .
(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٠٤ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٣ . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٢٤٩ .
(٤) سورة فاطر ، آية : ٨ .
(٥) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١ : ١٨٣ . والزمخشري ، الكشاف ١ : ١٨٦ .
(٦) الغزالي ، إحياء علوم الدين ٣ : ١٣١ .
(٧) الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٩ . وانظر : البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١١٥ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ١٤ – ١٥ .

وتقويتها ، إضافة إلى شعورهم بأن مثل ذلك لايروج على المؤمنين (١) .

وما أن يفترق عنهم المنافقون حتى يلحقوا بأكابرهم - أيّاً كانوا : من الكفار أو اليهود أو شيوخ المنافقين - ويصدُقوهم القول بما في نفوسهم من الثبات على الكفر ، ومعاداة النبي ﷺ وأصحابه ﴿ إنا معكم ﴾ وما تلك الموافقة التي شوهدوا عليها إلا من باب السخرية والاستهزاء ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ ومن استهزأ بشيء فهو مكذّب به ورادٌّ له .

وبلغ بهم الأمر أن تجرّؤوا على مقام النبوّة ، واستهزؤوا بذات النبي ﷺ ، قال تعالى : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ (٢) ، ومرادهم بذلك أن النبي ﷺ يسمع كل ما يقال له ويقبل به . قيل : إنها نزلت في رجل من المنافقين يقال له (نَبْتل بن الحارث) وكان ينمّ بحديث رسول الله ﷺ إلى المنافقين ، فقيل له : لا تفعل . فقال : « إنما محمد أذن ، من حدثه شيئاً صدّقه ، نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا » (٣) . فأجيبوا بأن النبي ﷺ مستمع خير لا مستمع شرّ ، وتصديقة للمؤمنين لا للكافرين (٤) .

كما سخروا من البشارات التي أخبر بها ﷺ ، قال قتادة : « بينما رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين إذ قالوا : أيرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها ! هيهات هيهات له ذلك . فأطلع الله نبيه على ذلك فقال نبي الله ﷺ : احبسوا عليّ الركب . فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا . فقالوا : يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب . فأنزل الله : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ★ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ (٥) .

ولعلهم قصدوا من السخرية بالبشارات الترقّي إلى السخرية بكل ما جاء به النبي ﷺ حتى القرآن ، وتشعر الرواية الأخرى لنزول آية التوبة هذه أنهم لم يتجرّؤوا على الاستهزاء بالقرآن فسخروا من حملته ، قال زيد بن أسلم ومحمد بن كعب : « قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك : مارأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء - يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه - فقال له عوف بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرنّ رسول الله ﷺ . فذهب عوف

(١) انظر : الزمخشري ، ١ : ١٨٥ . والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٩ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ٦٢ .
(٣) الواحدي ، أسباب النزول : ٢٨٦ - ٢٨٧ . وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ : ١٩٢ .
(٤) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ : ١٩٣ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٦ : ٥٤٩ - ٥٥٠ .
(٥) الواحدي ، أسباب النزول : ٢٨٨ . وانظر : ابن العربي ، أحكام القرآن ٢ : ٩٧٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ : ١٩٧ . والآيتان في سورة التوبة برقم ٦٥ - ٦٦ .

ليخبره فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته فقال : يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، ونتحدث بحديث الركب نقطع به عنا الطريق »[1] .

ولما يترتب على الاستهزاء من إضرار بالدعوة ، وأذية للنبي ﷺ والمؤمنين فقد تولى الله تعالى عقاب المستهزئين بنفسه ، ولم يحوج المؤمنين – مع أنهم المستهزأ بهم – لمعارضة الاستهزاء، فقال : ﴿ الله يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ ، وتمثل عقابهم هنا في أمرين هما :

١ – الاستهزاء بهم ، فالله تعالى يعاقبهم ويجازيهم بالعذاب لقاء استهزائهم بالمؤمنين ، وسُمي جزاء الاستهزاء باسمه للمشاكلة، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجَزاءُ سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مِثْلُها ﴾[2] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ اعْتَدىٰ عَلَيكُم فاعْتَدوا عَلَيهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدىٰ عَلَيكم ﴾[3] ، مع ما قد يلحقه الله بهم من الهوان والحقارة في الدنيا . فيعود بذلك ضرر الاستهزاء على المنافقين في الدارين .

٢ – إغراقهم في الضلالة ، قال عزّ وجل : ﴿ وَيَمُدّهم في طُغْيانِهِم يَعْمَهُون ﴾ من المدد « وهو مزيد متصل في الشيء من جنسه »[4] ، والطغيان ، الغلوّ وتجاوز الحدّ في الضلال والكفر والفساد .

فينزل الله من آياته ألطافه وبركاته على المؤمنين ما يشرح صدورهم ، ويسوء المنافقين ومن وافقهم فيزدادوا ضلالة ، ويمهلهم ويملي لهم ليزدادوا آثاماً ، ويسلبهم الصواب فيبقون حيارى مترددين لايدرون أين يتوجهون ، قال القرطبي : « ومعنى الآية : يمدهم بطول العمر حتى يزيدوا في الطغيان فيزيد في عذابهم »[5] .

---

(١) الواحدي ، أسباب النزول : ٢٨٨ .
(٢) سورة الشورى ، آية : ٤٠ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٩٤ . وانظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٨٦ ، وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٧٦ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٠٧ وقال : « هذا قول الجمهور من العلماء » . وابن منظور ، لسان العرب ١ : ١٨٣ مادة « هزأ » وقال : « وهذا هو الوجه المختار عند أهل اللغة » .
(٤) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١١٥ . وانظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٨٩ .
(٥) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٠٩ .

المبحث الثاني

المنهج الاستدلالي لمعرفة واقع المنافقين

النفاق انحراف نفسي ، وخلل في الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها ، ولايظهر أو يعرف إلا بتعرض المنافق لمواقف ينجم فيها نفاقه ، وتفضح ما انطوت عليه سريرته ، وتصدر منه سلوكيات تكشفه ، أو دلائل عرضية تدلل عليه .

والآيات الكريمة في سورة البقرة تشخّص واقع المنافقين بثلاثة أمور هي : مرض القلوب ، والسفه ، والحيرة والتردد . وفيما يلي تفصيل لكل واحد منها ، مع ذكر الدلالات عليه :

أولاً : مرض القلوب :

يقول الفيروزاباذي : « المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها واعتدالها »[١] ، وعند البقاعي : « المرض ضعف في القوى يوجب خللاً في الأفعال »[٢] .

فالطبيعي أن يكون المرء صحيحاً سليماً صافي القلب نقي الفطرة ، والمرض ينشأ بعد ذلك لسبب من الأسباب ، ولا يكون هذا السبب إلا انحرافاً عن الجادة وبعداً عن الصواب .

والمنافقون أكثر من وصفوا بمرض القلوب في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾[٣] ، وقال سبحانه : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ﴾[٤] ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾[٥] ... ونحوها من الآيات النازلة في المنافقين .

والله تعالى خلق كل عضو في الإنسان لفعل خاص به ، فإذا مرض تعذر عليه أداء فعله الذي خلق له حتى لايصدر منه أصلاً ، أو يصدر مع نوع اضطراب وضعف[٦] ، والوظيفة الرئيسة للقلب معرفة الله تعالى وعبادته ، فإذا مرض ضعف عن عمله هذا فعجز عن أداء جله إن لم يكن كله ، ومن ثَمّ يغرق في الكفر والضلال والعياذ بالله .

---

(١) الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ٨٤٣ مادة « مرض » (ط . الرسالة)
(٢) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٠٩ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٠ .
(٤) سورة الأنفال ، آية : ٤٩ .
(٥) سورة الأحزاب ، آية : ١٢ .
(٦) انظر : الغزالي ، إحياء علوم الدين ٣ : ٦٢ .

ومرض القلوب تعبير مستعار للفساد الذي في عقائد هؤلاء المنافقين [١] من زيغ وشك وارتياب ، قال تعالى : ﴿ وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ [٢] ، أو حسد وغلّ وهوى ، ومحصّلة ذلك الإعراض عن الله تعالى والكفر به .

ومن الأدلة على مرض قلوب المنافقين ما يأتي :

١ - الاستدلال على مرض قلوبهم بمخادعتهم الله :

قال تعالى : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ★ في قلوبهم مرض ﴾ [٣] ، وسواء كان قصدهم مخادعة الله سبحانه أو نبيّه ﷺ فإن ذلك دليل على أنهم لم يعرفوا الله تعالى ، ولو عرفوه لما اجترؤوا على المخادعة [٤] ، ولعلموا أن الخداع لايجوز عليه . كما أنه مؤيّد وناصر لرسوله ﷺ ، وحافظ له منهم ، وهو الذي يعلم السرّ وأخفى ولا يعزب عن علمه مثقال حبة في الأرض ولا في السماء .

إلا أن قلوبهم لمّا مرضت غفلت عن قدر الله تعالى ، وجهلت مكانة رسوله ﷺ منه ، فأغرت تلك القلوب أصحابها بالمخادعة ، وألقت بهم في أتون الكفر والفساد . يقول الجرجاني : « ففي ﴿ لايشعرون ﴾ إشعار بانحطاطهم عن مرتبة البهائم ، حيث لايدركون أجلّ المعلومات » [٥] .

ودوام المرض أمات في قلوب المنافقين إدراك الخير ، فتطبّعوا على الشرّ والكفر ، وفقدوا خاصية الفقه بالحقائق الربانية ، قال سبحانه : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون ﴾ [٦] ، وطُبع على قلوبهم فحجب عنهم علم ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم : ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون ﴾ [٧] .

٢ - الاستدلال على مرض قلوبهم بتماديهم في الضلال :

القرآن الكريم ينير القلوب ، ويشفي الصدور ، ويهدي إلى سواء الصراط ، هذا هو حال المؤمنين معه ، أما الذين في قلوبهم مرض فلا يزدادون بتنزل القرآن إلا مرضاً ، وبظهور الدعوة وقوتها إلا ضلالاً وغماً . يقول ابن عطية - في قوله تعالى ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ - : « وهذه الزيادة

(١) انظر : ابن عطية ، المحرر والوجيز ١ : ١٦٤ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٨ : ١٩٧ . والبقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٠٩ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ٤٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٩ - ١٠ .
(٤) انظر : ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ١١ .
(٥) حاشية الجرجاني على الكشاف للزمخشري ١ : ١٧٥ .
(٦) سورة المنافقون ، آية : ٧ .
(٧) سورة التوبة ، آية : ٩٣ .

هي بما ينزل من الوحي ، ويظهر من البراهين ، فهي على هؤلاء المنافقين عمى ، وكلما كذبوا زاد المرض »[1] ، وقال الزمخشري : « كلما أنزل الله على رسوله الوحي فسمعوه كفروا به ، فازدادوا كفراً إلى كفرهم »[2] .

ولم تشتد عداوة المنافقين أول قدوم النبي ﷺ إلى المدينة ، فقد كانوا يأملون أن ينطفئ نور الدعوة على أيدي غيرهم ، وعندما خرج المسلمون لبدر ظنوا أنها نهاية المسلمين ، فلما كتب الله تعالى لنبيه ﷺ والمؤمنين النصر ، خابت آمالهم ، وأدرك كبيرهم عبدالله بن أبيّ بن سلول أن هذا الدين قد توجه ، وأن أمر النبي سيظهر ، فمال إلى الموادعة ظاهراً ، وأكنّ العداء في قلبه .

وكان الجدير بهم أن يتخلصوا من فساد معتقدهم ، ويصلحوا أمر دينهم ، لكنهم عوضاً عن ذلك ازدادوا فساداً وعداءً للنبي ﷺ وأصحابه ، وسلكوا شتى السبل الخفيه في محاربتهم ، فوالَوا يهود ، وأغروا بهم المشركين ، واجتهدوا في بث جذور الفتنة والتثبيط بين المسلمين أنفسهم ، لكن الله سلّم المؤمنين من أذاهم ، وأعلم نبيه بدخائل نفوسهم .

ثانياً : السفه :

أصل السفه : الخفّة ، وقيل الجهل[3] ، قال الأصفهاني : « واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل »[4] ، يقال : سَفِه فلان رأيه إذا جهله ، والسفيه الجاهل ، ضعيف العقل ، خفيف الحلم[6] .

وجاء نعت المنافقين بالسفه في قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾[6] .

والآية هنا تحكي موقفاً من مواقف الدعوة مع المنافقين ، فالمؤمنون يعرفون حقيقة المنافقين، ويدركون أنهم متظاهرون بالإسلام وليسوا بمسلمين ، فتوجه إليهم نفر من فضلاء الصحابة أمثال معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضوان الله عليهم ودعوهم إلى تحقيق الإيمان ، والإخلاص فيه ، وتصديق أقوالهم بأفعالهم ، ومجافاة النفاق ومظاهره وأسبابه . وهم إن فعلوا ذلك يقتدون بالعقلاء من قومهم الأوس والخزرج[7] .

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٦٥ .
(٢) الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧٧ .
(٣) انظر : ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٤١ . وابن منظور ، لسان العرب ١٣ : ٤٩٧ مادة « سفه » .
(٤) الأصفهاني ، المفردات : ٢٣٤ .
(٥) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٣ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٣ .
(٧) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٣ . وللعلماء في الآية أقوال أخرى ، انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٧ .

وكما هي عادة المنافقين ، أضمروا ردّ الدعوة في نفوسهم ولم يواجهوا بها المسلمين ، حتى إذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : « أنؤمن كما آمن سفيه بني فلان ، وسفيه بني فلان » ، فكان جزاؤهم أن أطلع الله نبيه ﷺ على قولهم ، وقلبه عليهم مقرراً أن السفه ورقة الحلوم وفساد البصائر إنما هو في حيزهم ، وصفة لازمة لهم ، وأخبر أنهم لايعلمون أنهم السفهاء للران الذي على قلوبهم [1] ، ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ .

والأدلة المحققة لسفه المنافقين هنا هي :

١ - أن المنافقين حين رفضوا الإيمان ، ونسبوا السفاهة للمؤمنين لم يرتكزوا في رفضهم على أمرٍ ذي تعلق بمعرفة الحق أو فقه الدلائل والبراهين الدالة عليه ، بل جعلوا سبب الرفض ما كانوا فيه من الرياسة واليسار بينما كان أكثر المؤمنين فقراء ، وجاء قولهم : ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ من باب التحقير لشأنهم [2] .

وترتيب أمر على آخر لا صلة له به جهالةٌ وضعفُ عقل ، وهذه حال السفيه ، فتبين أن السفهاء هم المنافقون أنفسهم .

وتجدر الإشارة إلى أن ديدن أهل الباطل إذا ما ضعفوا عن المحاجة لجؤوا إلى وصم أهل الحق بالسفاهة ونسبتهم إليها ، فقوم نوح عليه السلام قالوا له - فيما يذكر القرآن عنهم - : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ [3] . والملأ من قوم هود عليه السلام قالوا له - فيما يحكي القرآن عنهم - : ﴿ إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ [4] .

٢ - أن الأدلة والبراهين القرآنية التي أجراها الله سبحانه على يد نبيّه ﷺ قامت على أن الإسلام حق ، والنبوة صدق ، فمن أعرض عن النظر في تلك الدلائل والتدبر فيها ثم نسب المتمسك بها إلى السفه فهو السفيه [5] .

٣ - أن المنافقين بتركهم الإيمان وإيذائهم النبي ﷺ والمؤمنين يناصبونهم العداء ، ولاشك بأن السفيه من ناصب الله عزّ وجل العداء وجعله له خصماً [6] .

٤ - أن ثبات المنافقين على دينهم ومعتقدهم مع أنّ بطلانه أظهر من الشمس، ليس فيه لبس، عين السفاهة [7] .

---

(١) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٦٩ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٠٥ .
(٢) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٨٣ . والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٨ .
(٣) سورة الشعراء ، آية : ١١١ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ٦٦ .
(٥) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٦٨ .
(٦) انظر : المصدر السابق ٢ : ٦٨ . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٢٥١ .
(٧) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١١٣ .

ثالثاً : الحيرة والتردد :

أخبر الله تعالى عن حيرة المنافقين وترددهم في قوله : ﴿ ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ (١) ، والعمه لايكون إلا في الرأي ، وهو : التحير والتردد ، وقيل التردد في الضلالة ، ورجل عَمِه : أي يتردد متحيراً لا يهتدي لطريقه ومذهبه ، وقال ثعلب : « هو أن لا يعرف الحجّة » (٢) . وعبّر في آية أخرى عن حيرتهم وترددهم بالتذبذب فقال : ﴿ مذبذبين بَين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ (٣) .

وضرب لحالهم هذه مثلاً فقال : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون ★ صمّ بكم عمي فهم لايرجعون ﴾ (٤) .

فحال المنافق يشبه حال من أضاء النار ليستنير بها ، حتى إذا بلغت أوجها وشدتها فأشرق نورها وظهر فيما حولها خبتْ وانطفأت فجأة ، وأحاطت به ظلمة شديدة داكنة لايبصر من خلالها شيئاً ، وأخذ يتخبط فيها متحيراً في أمره كالأصم الأبكم الأعمى لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم ، ولايدري أين يتوجه ، ولا ماذا يفعل (٥) .

كما ضرب لهم النبي ﷺ مثلاً فقال : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة » (٦) ، قال النووي : « العائرة : المترددة الحائرة لاتدري لأيهما تتبع » (٧) .

ومما استدل به على حيرة المنافقين وترددهم مايأتي :

١ – التناقض :

وأبرز معالم التناقض عند المنافقين هو التناقض بين القول والاعتقاد ، كما في دعوى الإيمان ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ (٨) ، وقال سبحانه : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ (٩).

فالاعتقاد الذي تكنه قلوب المنافقين هو الكفر بالله تعالى ، ودعوى الإيمان قول تردده ألسنتهم ، وقد كذّبهم الله تعالى في الأولى ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ ، وكذّبوا أنفسهم في الثانية أمام

(١) سورة البقرة ، آية : ١٥ .
(٢) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٣ : ٥١٩ .
(٣) سورة النساء ، آية : ١٤٣ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٧ – ١٨ .
(٥) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٩٩ . وانظر صفحة ٢٧٠ من هذه الرسالة .
(٦) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين ، ح ١٧ (٢٧٨٤) ، الصحيح ٤ : ٢١٤٦ .
(٧) النووي على مسلم ١٧ : ١٢٨ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ٨ .
(٩) سورة البقرة ، آية : ١٤ .

كبرائهم ﴿ إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ .

٢ - اختلاط الأمور وانقلاب الموازين عندهم :

والمراد بالاختلاف وانقلاب الموازين أن يصبح الصواب خطأ والخطأ صواباً ، والحق باطلاً والباطل حقاً ، وهكذا دواليك ، ويتجلى هذا الأمر عند المنافقين فيما يأتي :

أ) عدم التمييز بن الإصلاح والإفساد ، قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ★ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون ﴾ [١] ، والشعور الذي هو « أول الإحساس بالعلم » [٢] مفقود عندهم فأصبحوا لا يميزون بين الإصلاح والإفساد ، بل انقلبت الموازين فرأو الإفساد إصلاحاً.

كما انقلبت عندهم كذلك حين عدّوا المؤمنين سفهاء ، وجهلوا أن السفاهة حال من أعرض عن دين الله ، قال سبحانه : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون ﴾ [٣] .

ب) عدم الشعور بعودة ضرر النفاق عليهم ، مع أنه في ظهوره كالمحسوس ، يدرك بأدنى إنعام نظر ، يقول ابن المنير الاسكندراني في تفسير الشعور : « إنه لما كانت مفسدة النفاق عائدة على المنافق عوداً بيّناً نعى عليهم جهلهم بالمحسوس فنفى شعورهم » [٤] .

٣ - التوجس والحذر :

ويستفاد من قوله تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ [٥] .

فالمنافقون يعيشون في قلق وذعر دائمين خشية أن تنزل عليهم المصائب وتقع عليهم العقوبات إذا علم النبي ﷺ بما يكيدون له وللمؤمنين في السرّ [٦] .

وخوفهم من العقاب كخشية من يسير في مطر ورعد وبرق ، يحاذر من نزول الصواعق عليه ، ويبتغي المهرب من كل وجه ، فلا يقدر على المشي إلا بقدر ما يضيء له البرق .

(١) سورة البقرة ، آية : ١١ - ١٢ .
(٢) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٠٨ . وللعلماء أقوال أخرى ، انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧٥ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ٦٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٣ .
(٤) ابن المنير ، الإنصاف - بحاشية الكشاف - ١ : ١٧٥ - ١٧٦ .
(٥) سورة البقرة ، آية ١٩ .
(٦) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٤٦ .

وجاء التعبير عن ذلك التوجس على نحو أوضح في قوله تعالى : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ (١) .

فالمنافقون إنما تملكهم الخوف والقلق من جراء أفعالهم العدائية ضد النبي ﷺ والمسلمين ، فعُدم الأمن عندهم ، وفقدوا الثقة بمن حولهم .

والخائف لشدة توجسه تقوى عنده حاسة السمع حتى إنه ليظن أن كل ما يسمع صيحة مسلطة عليه ، تنادي بتتبعه أو القبض عليه ، كاللص يحسبه ظله شخصاً يتعقبه .

---

(١) سورة المنافقون ، آية : ٤ .

المبحث الثالث

المنهج الاستقرائي لتحديد تعامل المسلمين مع المنافقين

للتعامل مع فئة المنافقين شقان هما : **التعامل الدعوي** ، ويأتي انطلاقاً من واجب الدعاة في توجيه الدعوة لجميع الفئات أياً كان موقفها من الدعوة عداءً أم موادعة . **والتعامل الاجتماعي** ، ويتعلق بالنظام المتبع مع هذه الفئة باعتبارها تظهر الانتماء إلى الإسلام . وفيما يأتي عرض لكل واحد منهما :

أولاً : التعامل الدعوي :

المنافقون في واقع أمرهم فئة خارجة عن الإسلام ، فلابدّ من دعوتها إليه ، لكن تظاهرها بالانتماء إلى الإسلام يضاعف الأعباء والجهود على الدعاة ، ولذلك أخذت دعوة المنافقين إلى الإسلام صبغة خاصة نظراً لتفرد حالتهم عن المدعوين من المشركين وأهل الكتاب .

والمنهج الاستقرائي في آيات سورة البقرة يقدم أبرز عناصرها وهي :

١ - إثبات عدم إيمان المنافقين :

كثيراً ما عني القرآن الكريم بنفي الإيمان عن المنافقين ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ (١) ، وجاء النفي مبالغاً فيه للتأكيد على إخراج المنافقين من أن يكونوا « طائفة من طوائف المؤمنين لما عُلم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان ، وإذا شُهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة فقد انطوى تحت الشهادة بذلك نفي ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البتّ والقطع » (٢) ، وحَكم الله عليهم بالكفر في آيات أخرى كقوله سبحانه : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ (٣) ، ونَقل نفيهم الإيمان عن أنفسهم أمام أكابرهم فقال : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ (٤) .

(١) سورة البقرة ، آية : ٨ .
(٢) الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٦٩ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ٨٤ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٤ .

ونظراً لأن وجود الإيمان أوعدمه من مكنونات القلوب وخفايا الصدور ؛ فإن المنهج القرآني اعتمد على كشف ما تكنّه قلوب المنافقين ، مدللاً عليه بأعمالهم الظاهرة ، ليعرف الناس يقينا أن هذه الفئة خارجة عن نطاق الإيمان .

ومما استُدل به على كفرهم : السلوك العام لهذه الفئة ، فالمؤمنون ذوو خلق حسن ، ولايخرجون في سلوكهم عن المنهج الشرعي ، أما هؤلاء فانصرافهم إلى المخادعة ، والكذب ، والإفساد في الأرض ، والاستهزاء بالحق وأهله ... ونحو ذلك مما ساقته سورة البقرة من سلوكٍ يضاد الإيمان ، ويخالف المنهج الشرعي الذي يُنْتَظر من كل مسلم الالتزام به [1] .

وفي القرآن الكريم حديث عن سلوكيات أخرى للمنافقين منها :

أ) موالاة الكافرين ، قال تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما ★ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ [2] .

ب) الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، قال عزّ وجل : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ [3] .

جـ) التكاسل في الفرائض ، والمراءاة في الأعمال ، قال جلّ وعلا : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ [4] .

د) يتربصون بالمؤمنين الدوائر ، قال تعالى : ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ [5] ، وقال سبحانه : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾ [6] .

هـ) السعي في الفتنة ، قال تعالى : ﴿ ولو دُخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ﴾ [7] .

وسلوك المنافقين هذا يبرهن على كفرهم بالله تعالى ، وتكذيبهم لنبيه ﷺ ، ومن أغراض

---

(١) انظر صفحة ١٣٣ - ١٤٠ من هذه الرسالة .
(٢) سورة النساء ، آية : ١٣٨ - ١٣٩ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ٦٧ .
(٤) سورة النساء ، آية : ١٤٢ .
(٥) سورة التوبة ، آية : ٥٢ .
(٦) سورة التوبة ، آية : ٩٨ .
(٧) سورة الأحزاب ، آية : ١٤ .

تلك البرهنة إيجاد المسوغ لمبادأتهم بالدعوة إلى إنشاء الإيمان وتحقيقه والإخلاص فيه ، فإذا ما تمّ ذلك سهُل الانتقال معهم إلى التربية والإعداد .

أما بقاؤهم على دعوى الانتساب إلى الإسلام دون تفنيد لها ؛ يجعل أساس بناء الدعوة هزيلاً سرعان ما ينهار ويتفكك ، وذلك ما لا تهدف إليه الدعوة ، ولا يرغب فيه الدعاة ، قال تعالى : ﴿ أفمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أمّن أسّس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم والله لايهدي القوم الظالمين ﴾ (١) .

وقد تبيّن من خلال سيرة المنافقين أنهم يعودون في السرّ إلى انتمائهم الحقيقي ألا وهو الكفر ومعاداة النبي ﷺ وأصحابه ، وكذا إن حلت بالمجتمع الإسلامي مصيبة وظنوا نهاية المسلمين معها نجم شيء من نفاقهم ، فرحاً بتلك النازلة كما في قوله تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾ (٢) ، أو غمزاً وطعناً في النبي ﷺ وصحابته ، ففي غزوة الأحزاب حين اشتد الحصار على المسلمين قال أحد المنافقين معتب بن قُشير : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لايأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط » (٣) .

إذاً فالمرحلة الأولى من مراحل دعوة المنافقين هي : تجريد الحقيقة ، وإزالة القناع الذي يتقمصونه ، ثم الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى المقرون بالصدق والإخلاص .

٢ - الدعوة إلى ترك الإفساد والكف عن محاربة المسلمين :

وتأتي هنا المرحلة الثانية لدعوة المنافقين ، فتطهير النفوس من أدران الرذائل ومسببات الإفساد يجعلها ذات قابلية لسماع الدعوة وفهمها . والاهتداءُ بعد ذلك توفيق من الله سبحانه .

والدعوة إلى التطهير ومجانبة الإفساد جاء في قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ (٤) .

ورأس الإفساد : الإعراضُ عن الدعوة ، لأنه يعطل العمل بشريعة الإسلام التي جاء بها النبي ﷺ ، ويشكل عقبة أمام تقدم الدعوة ، ويضاف إلى ذلك رغبة المنافقين إفسادَ ذات بين المسلمين ، وإفشاء أسرارهم إلى أعدائهم ، والائتمار ضدهم . وكل ذلك إفساد في الأرض ، وصدّ كبير عن الدعوة .

(١) سورة التوبة ، آية : ١٠٩ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ٥٠ .
(٣) ابن كثير ، السيرة النبوية ٣ : ٢٠١ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١١ .

ومكث مثل هذا في القلب يحول دون سماع الحق ، ويشغل عن أهله ، فإذا ماطُهِرت منه القلوب ونقتْ ، أمكن إيصال الدعوة بيسر ووضوح .

٣ - الدعوة إلى تحقيق الإيمان مع تقديم القدوة المناسبة لهم :

خاطب الله تعالى المنافقين الذين لم تقنعهم الحجج داعياً إياهم إلى الإيمان تحقيقاً وعملاً ، لامجرد قول باللسان ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وإذا قيل لهم **آمنوا كما آمن الناس** قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون ﴾ (١) .

فدعاهم إلى الإيمان في قوله ﴿ آمنوا ﴾ ولم يكتف بمجرد الدعوة بل قدم لهم الأنموذج الصالح الصادق في إيمانه ﴿ كما آمن الناس ﴾ ، وهؤلاء الناس أصحاب شرف ومكانة ، ومن المجتمع ذاته الذي ينتمي إليه المنافقون أمثال سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، وأبولبابة رضوان الله عليهم (٢) . هذا إن كان المخاطبون من منافقي الأوس والخزرج . وإن كانوا من منافقي اليهود فالقدوة الصالحة لهم عبدالله بن سلام ، ومخيريق ... وغيرهما من مسلمة بني إسرائيل (٣) .

والمراد : صدّقوا بمحمد ﷺ وشرعه مثل ما صدّق أصحابكم وإخوانكم هؤلاء ، أو ليكن إيمانكم ثابتاً كما أن إيمان هؤلاء ثابت (٤) .

وتأتي أهمية القدوة العملية في قدرتها على تهدئة النفوس ، وتخطي العقبات النفسية ، وتسهيل ما يقدم عليه المدعو من ترك دينٍ توارثه إلى دينٍ جديدٍ دُعي إليه . إضافة إلى سدّ منافذ الاعتذار عن اتباع الحق أوالتنصل منه .

٤ - التحذير من مغبة النفاق والتخويف من العقاب :

الجموح الدائب إلى النفاق جعل المنافقين شديدي البعد عن الصواب ، وورّثهم صفات وأخلاقاً لم يعودوا معها يدركون الحق ، فهم لايشعرون ، ولا يعلمون ، ولايفقهون ، وقلوبهم مريضة مطبوع عليها لتماديهم في الطغيان .

ولشدة عَمَهِهم وحيرتهم عقدوا صفقة خاسرة أضاعوا فيها الربح ورأس المال حين تخلوا عن الهدى ، وجعلوه ثمناً استعاضوا عنه بالضلالة (٥) ، قال تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣ .
(٢) انظر : ابن الجوزي ، ١ : ٣٣ .
(٣) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٦٩ .
(٤) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٦٨ . والنيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٧٥ .
(٥) انظر : ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٤٢ .

بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ (١) .

فالمآل الذي أدى إليه نفاقهم هو ذلك الخسران ، لأنهم لجّوا في هواهم ، وكلفوا أنفسهم ضد مافطرها الله عليه ، مع ما نصب من الأدلة ، حتى أخذوا الضلالة التي هي أقبح الأشياء بالهدى الذي هو خير الأشياء (٢) .

وبما أن الجهود المبذولة لإقناع المنافقين بتحقيق الإيمان ، والعدول عن الإفساد ومحاربة الدعوة ، لم تُجْد شيئاً يذكر ، فقد يكون من المجدي ليتنبهوا من ذلك العَمَه وتلك الخسارة ، التخويف من مغبة النفاق ، والتهديد بالعقاب ، في الدنيا كما في قوله تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾ (٣) ، فكلما انتصر النبي ﷺ وعزّ الإسلام ازدادوا حسداً وغلاً وبغضاً ، وازدادت قلوبهم ضعفاً من الجبن والخور (٤) ، وقال القرطبي : « أي وكلهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا ، فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين » (٥) . وهذا إلى جانب الزيادة في إضلالهم : ﴿ ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ (٦) .

وفي الآخرة تهددهم الله تعالى بالعذاب الأليم ، واللعن ، والخلود في النار ، قال سبحانه : ﴿ ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ (٧) ، وقال : ﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم ﴾ (٨) ، وقال تعالى : ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾ (٩) .

ثانياً : التعامل الاجتماعي (١٠) :

تعامل النبي ﷺ مع المنافقين بطريقة خاصة تتلاءم وحالهم ، مراعياً كثيراً من الاعتبارات والمصالح الشرعية ، فقد كان حريصاً على إظهار المجتمع الإسلامي بمظهر المتّحد المتماسك ، ولم يشأ أن يصدر منه تجاه المنافقين وبخاصة كبراؤهم ما يشعر بشرخ أو تفككٍ في كيان المسلمين ، لذا فقد صبر ﷺ على عبدالله بن أبيّ بن سلول ، جامله في بني قينقاع فوهبهم له (١١) ، ولم يعاقبه في

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٦ .
(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٢٧ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٠ .
(٤) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٧٧ .
(٥) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٩٧ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٥ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١٠ .
(٨) سورة التوبة ، آية : ٦٣ .
(٩) سورة التوبة ، آية : ٦٨ .
(١٠) ليس في سورة البقرة حديث مفصل عن التعامل الاجتماعي مع المنافقين ، والذي يستفاد من الآيات الكريمه : ضرورة الحذر منهم ، وعدم موالاتهم . ولأن هذا العنصر مكمل للمبحث ومهم في مضمونه رأيت من الأوفق التعرض له بشئ من التفصيل ، والله المستعان .
(١١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ج٢ : ٤٨ .

قضية الإفك مع أنه تولى كبره[1] ، ولم يقتله حين قال في غزوة بني المصطلق : « والله ما أعدّنا وجلابيب قريش - يعني المهاجرين - إلا كما قال الأول : سمّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل »[2] .

ولم يكن ذلك تألفاً من النبي ﷺ له ، فقد بلغ من الكفر مبلغاً لاترجى له الهداية بعده ، بل حرصاً على مصلحة المجتمع الإسلامي التي أدركها النبي ﷺ بنظرته الثاقبة ، تجلّت في قوله ﷺ لعمر بن الخطاب : « لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »[3] .

وكان من نتائج هذه السياسة أن موقف قومه تبدّل من الحدب عليه والدفاع عنه إلى الأخذ على يديه ، ولما بلغ شأنهم هذا للنبي ﷺ قال لعمر رضي الله عنه : « كيف ترى يا عمر ! أما والله لوقتلته يوم قلت لي لأرْعِدَتْ له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته »[4] .

ولاكتمال مظهر التماسك في المجتمع المسلم أجرى النبي ﷺ على هؤلاء المنافقين أحكام الإسلام استصحاباً لظاهر الحال ، فكفّ عنهم بما أظهروا من الشهادة ، مع إخبار الله تعالى له بكفرهم في أكثر من آية من القرآن الكريم[5] .

وما زال التعامل مع هذه الفئة يتدرج حتى أخذ صبغة القسوة والغلظة بعد اللطف والإغضاء :

١ - فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بمجاهدتهم والغلظة عليهم في قوله : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾[6] .

٢ - وأمر المؤمنين بمقاطعتهم والحذر منهم فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتّخِذوا بِطانَة من دونكم لايألونكم خَبالاً ودّوا ماعَنِتّم قد بَدَت البَغْضاء من أفواههم وما تُخْفي صُدُورُهم أكبر قد بَيَّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ★ ها أنتم أولاء تُحِبُّونهم ولا يُحِبُّونكم وتؤمنون بالكتاب كُلّه وإذا لَقُوكم قالوا آمنا وإذا خَلَوا عضّوا عليكم الأنامل من الغَيْظِ قُل مُوتوا بِغَيظِكم إنَّ الله عليم بذات الصدور ﴾[7].

٣ - ولم يعد النبي ﷺ يقبل أعذارهم ولا المؤمنون ، قال تعالى : ﴿ يَعْتَذِرون إليكم إذا رَجَعْتُم إليهم قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم قد نبّأنا الله من أخْبارِكُم وسَيَرىٰ الله عملكم ورسولُه ثم تردُّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبِّئكم بما كنتم تعملون ﴾[8] .

---

(١) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ج٢ : ٣٠٠ .
(٢) المصدر السابق ج٢ : ٢٩١ .
(٣) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، باب ٦٣ ، ح ٣٣١٥ . انظر : السنن ٥ : ٣٩٠ .
(٤) ابن كثير ، السيرة النبوية ٣ : ٣٠١ .
(٥) انظر : ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ١١ - ١٢ . وابن قدامه ، المغني ١٠ : ٧٨ .
(٦) سورة التوبة ، آية : ٧٣ .
(٧) سورة آل عمران ، آية : ١١٨ - ١١٩ .
(٨) سورة التوبة ، آية : ١٩٤ .

٤ - وعَزَل المخلفين منهم عن ديوان الغزاة فمنعوا من الخروج إلى الغزوات مع المسلمين ، قال عزّ وجل : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ (١) .

٥ - وهددوا بالقتال والإبعاد عن المدينة ، قال سبحانه : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ (٢) .

٦ - ونهى سبحانه عن الصلاة على موتاهم فأخرج الموتى بذلك من ديوان المسلمين ، ويبدوا أن المنافقين شعروا بمثل هذا الإجراء فكانوا يتخوفون منه كثيراً ، حتى إن عبدالله بن أبَيّ بن سلول خشي العار على ولده وعشيرته إن لم يصلّ عليه النبي ﷺ فقال له لما جاء يعوده في مرض موته : « امنن عليّ فكفني في قميصك وصلّ عليّ » (٣) ، ففعل النبي ﷺ ، مخالفاً رأي عمر رضي الله عنه ، إلا أن التوجيه الرباني جاء عقب ذلك بيسير ناهياً عن الصلاة على موتاهم في قوله تعالى : ﴿ ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ (٤) .

ويلخص ابن حجر رحمه الله تعامل النبي ﷺ مع المنافقين بقوله : « وإنما لم يأخذ النبي ﷺ بقول عمر إجراءً له على ظاهر حكم الإسلام ... واستصحاباً لظاهر الحكم ، ولما فيه من إكرام ولده الذي تحققت صلاحيته ، ومصلحة الإستئلاف لقومه ودفع المفسدة .

وكان النبي ﷺ في أول الأمر يصبر على أذى المشركين ويعفو ويصفح ، ثم أمر بقتال المشركين فاستمر صفحه وعفوه عمّن يظهر الإسلام ولو كان باطنه على خلاف ذلك لمصلحة الاستئلاف وعدم التنفير عنه ، فلما حصل الفتح ودخل المشركون في الإسلام وقل أهل الكفر وذلّوا ، أمر بمجاهدة المنافقين وحملهم على حكم الحق » (٥) .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ٨٣ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية : ٦٠ - ٦١ .
(٣) انظر : ابن حجر ، فتح الباري ٨ : ٣٣٤ .
(٤) سورة التوبة ، آية : ٨٤ .
(٥) ابن حجر ، فتح الباري ٨ : ٣٣٦ . وانظر في هذا الموضوع : حسن عبدالغني ، المنافقون وشعب النفاق : ٢٤٧ - ٢٦٤ . و د.عبدالرحمن حبنكة ، الأخلاق الإسلامية وأسسها ١ : ٥٦٢ - ٥٦٩ .

خاتمة المبحث

إن الانحراف النفسي ، والواقع المظلم الذي يعيشه المنافقون ، يحدّان من فرص الهداية في أوساطهم ، فما أندر ما يرتدع الزنديق عن غيه ، أو يعود إلى صوابه ، فترى الواحد منهم لايزداد بالموعظة إلا كبراً ، وبالنصيحة إلا طغياناً وتمادياً في الإثم ، قال تعالى : ﴿ وإذا تولّى سعى في الأرض لِيُفسِدَ فيها ويُهلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لايُحِبُّ الفساد ★ وإذا قيل له اتَّقِ اللهَ أخَذَتْهُ العِزَّة بالإثم فحَسْبُهُ جَهَنَّم ولَبِئسَ المِهاد ﴾ (١) .

وعَدَد من نافق وحادّ الله ورسوله ﷺ ليس بقليل ، و رغم المعايشة الدعوية الطويلة لهؤلاء إلا أن من اهتدى وأناب منهم قليل ، بل لم أقف إلا على اثنين ممن كان على عهد النبي ﷺ هما :

١ - مَخْشِيّ بن حُمَيِّر الأشجعي (٢) ، حليف بني سلمه ، سار مع النبي ﷺ إلى تبوك ، وكان مع النفر المنافقين الذين قالوا : « أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ! والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال » إرجافاً وترهيباً للمسلمين ، فدعا بهم النبي ﷺ فأتوه يعتذرون ويقولون : « إنما كنا نخوض ونلعب » فأنزل الله فيهم : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ★ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ (٣) .

فيروى أنه قال : « يارسول الله قعد بي اسمي واسم أبي ، وكأني الذي عفي عنه » ثم تاب وحسنت توبته ، وتسمّى عبدالله بن عبدالرحمن ، ودعا الله أن يقتل شهيداً ولايعرف مكانه ، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر (٤) .

٢ - الجلاس بن سويد بن الصامت ، كان زوجاً لأم عمير بن سعد رضي الله عنه ، وكان رسول الله ﷺ سمّى قوماً ممن اتهمهم بالنفاق وقال « إنهم رجس » فقال الجلاس -وعمير يسمعه- : والله ماهؤلاء الذي سمّى محمد إلا كبراؤنا وسادتنا ، ولئن كان ما يقول حقّاً لنحن شرٌّ من حمرنا هذه . فقال عمير : والله إنه لحق ، وإنك لشرّ من حمارك . ثم أخبر النبي ﷺ بما قال . فأنكر ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم عذاباً أليماً

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٠٥ - ٢٠٦ .
(٢) كذا عند ابن ماكولا ، انظر : الإكمال ٧ : ٢٢٨ ، وعند ابن هشام : مُخَشّن بن حُمَيِّر ، انظر : السيرة النبوية ج٢ : ٥٢٤ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ٦٥ - ٦٦ .
(٤) انظر قصته : ابن ماكولا ، الإكمال ٧ : ٢٢٨ . وابن الأثير ، أسد الغابة ٤ : ٣٣٨ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٦ : ٥٥٦ .

في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من وليّ ولا نصير ﴾ [1] .

فيذكر أنه قال : إن الله قد ترك لي باب التوبة . ثم تاب وحسنت توبته ، ولم ينزع عن خير كان يصنعه لعمير ، فذلك مما عرفت به توبته [2] .

وندرة استجابة المنافقين والزنادقة لاتعني ترك دعوتهم ، أو الأخذ على أيديهم ، فالنبي ﷺ لم يدع شيئاً من ذلك في سني حياته ، وحسب المؤمن أن يقتدي بالنبي ﷺ ، وأن يتمثل قول الصلحاء من بني إسرائيل - فيما يحكيه القرآن عنهم - : ﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ [3] .

(١) سورة التوبة ، آية : ٧٣ .
(٢) انظر قصته : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٦ : ٥٦٩ ، ٥٧٢ . وابن حجر ، الإصابة ١ : ٢٤١ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٦٤ .

الفصل الرابع

استخدام المنهج العقلي
في دعوة المسلمين

تمهيد

امتازت الدعوة في العهد المدني عنها في العهد المكي بمخاطبة أهل الكتاب اليهود ثم النصارى ، والمنافقين . وبالتشريعات التفصيلية التي اقتضت حكمة الله تعالى تنزيلها في المدينة المنورة ، حيث قامت دولة الإسلام ، وتجددت وقائع وأحداث تطلبت أحكاماً تفصل فيها .

وسورة البقرة مدنية باتفاق العلماء[1] ، لذا فهي تمثل مرحلة العهد المدني ، لذا خاطبت أهل الكتاب ، وتعرضت للمنافقين ، وبعد أن فرغت الآيات الكريمة منهم وجهت الخطاب إلى المسلمين دعوة وتربية وتعليماً ، لتحقق فيهم المجتمع المسلم كما أمر الله تعالى .

فأفراد المجتمع المسلم بحاجة دائمة للدعوة ، إما تذكيراً كما قال تعالى : ﴿ وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[2] ، أو حملاً على الالتزام كما يفهم من قول النبي ﷺ « عَجِبَ اللهُ من قوم يدخلون الجنة في السلاسل »[3] ، أو تأنيباً وتوبيخاً وفق ما تقتضيه الحال .

ويدخل في هذا الباب الإعداد لتحمل أعباء الدعوة ونشر الإسلام ، مع مراعاة أن ذلك الإعداد مخصوص بالمؤمنين الصادقين ، أما المتظاهرون بالإسلام فحظهم التقريع والإهمال كما هو الحال مع المنافقين[4] ، لأنهم أعداءٌ للإسلام فكيف يعدّون لحمله ونشره ؟! .

و المباحث الآتية تتحدث عن أبرز عناصر دعوة المسلمين من خلال الآيات الكريمة في سورة البقرة .

---

(١) انظر صفحة ١٦ من هذه الرسالة .

(٢) سورة الذاريات ، آية : ٥٥ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد ، باب الأسارى في السلاسل ، ح ٣٠١٠ . الجامع الصحيح ٢ : ٣٦١ .

(٤) انظر صفحة ١٥٣ – ١٥٤ من هذه الرسالة .

المبحث الأول

المنهج الاستقرائي
لمعرفة الولاء والبراء عند المسلمين

الولاء والبراء مبدأ نابع من عمق الدين الإسلامي ، والآيات الكريمة في سورة البقرة تقدمه على النحو الذي يجب أن يتسم به المسلم في سلوكه مع ربه ، ومع المسلمين ، ومع غيرهم من الناس . وإن من الأوفق بيان المقصود الشرعي له قبل الخوض في تفصيلاته .

أولاً : تعريف الولاء والبراء :

مصطلح الولاء والبراء مركب من شقين : الولاء ، والبراء ، ولكل واحد منهما معنى شرعي يدل عليه ، ولذا لابد من تعريف كل واحد منهما على حدة ، وذلك في الآتي :

١ ـ تعريف الولاء :

يقول ابن فارس : « الواو واللام والياء أصل صحيح يدُلُّ على قرْب »[1] ، والوليّ اسم من أسماء الله تعالى ، قال ابن منظور : « هو الناصر ، وقيل المتولي لأمور العالم والخلائق ، القائم بها »[2] .

والولاية والموالاة لها معانٍ متعددة ، منها : المحبّة ، والنصرة ، والمحاباة ، والإعانة ، والحِلْف . وكلها من الوَلْي وهو القرب[3] ، وتأتي بمعنى العَزْل والتمييز[4] ، ومنه قول الشاعر :

وكنا خليطى في الجِمال فأصبحت		جمالي تُوالى وُلَّها من جمالكا

وفيه معنى حسنٌ ، فالمؤمنون في موالاتهم لبعضهم يصبحون كالفرة البيضاء ممتازة عما حولها ، ولا يشوبها شائبة .

والموالاة ضدّ المعاداة ، والوليّ ضد العدو ، و ﴿ الله وليّ الذين آمنوا ﴾[5] أي « وليهم في

(١) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٦ : ١٤١ .
(٢) ابن منظور ، لسان العرب ١٥ : ٤٠٦ .
(٣) انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٦ : ١٤١ . وابن منظور ، لسان العرب ١٥ : ٤٠٩ .
(٤) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١٥ : ٤٠٩ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٥٧ .

حجاجهم وهدايتهم وإقامة البرهان لهم ، ووليهم أيضاً في نصرهم على عدوّهم وإظهار دينهم على دين مخالفيهم ، وقيل : وليهم ، أي يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم »[1] .

ومجموع المدلولات اللغوية توضح المقصد من الولاء الشرعي الذي يتحدد - والله أعلم - بالعناصر التالية :

أ) الولاء لله تعالى بمحبته ، وتجريد الوحدانية والعبادة له .

ب) الولاء للنبي ﷺ بمحبته ، وطاعته ، واتباع ما جاء به .

ج) الولاء للمؤمنين بمحبتهم ، ومؤازرتهم ، ونصرتهم ، وستر عوراتهم .

٢ ـ تعريف البراء :

البراء ، مصدر بَرَأ ، وله معنيان : الأول الخلق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾[2] ، ومن أسماء الله تعالى (البارئ) . والآخر التباعد عن الشيء ومزايلته ، جاء في التنزيل : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ﴾[3] .

وبرئ إذا تخلّص من العيوب ، وإذا أعذر وأنذر ، قال تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾[4] ، ومنه البُرْء ، وهو السلامة من السقم[5] .

والمدلول الشرعي للبراء مستمد من المعنى الآخر ، فالغرض الشرعي منه : التباعد عن أهل الباطل ، ومفاصلتهم في الدين .

والمفهوم الشرعي لكل من الولاء والبراء يوضح تعلقهما بالإيمان ابتداءً ، وكلمة « لاإله إلا الله » توحي لمن تدبرها بالولاء والبراء في أسمى درجاته . ولا يكون التزام المسلم بهذا الكلمة تاماً إلا إذا تحقق فيه الولاء والبراء .

كما أنه السبيل الأقوى لإظهار الإسلام ، وتميز المسلمين عن غيرهم من أهل الأديان الأخرى : المشركين ، وأهل الكتاب ، والمنافقين ، والملاحدة ... وكل من حاد الله ورسوله .

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ١٥ : ٤١١ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٥٤ .
(٣) سورة الزخرف ، آية : ٢٦ .
(٤) سورة التوبة ، آية : ١ .
(٥) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١ : ٣١ - ٣٣ . وابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ١ : ٢٣٦ .

ثانياً : منهج سورة البقرة في الولاء والبراء :

عنيت الآيات الكريمة في سورة البقرة بمبدأ الولاء والبراء ، واستقراؤها يبين أهم معالم المنهج الذي سارت عليه لترسيخ هذا المبدأ لدى المسلمين ، وبخاصة في القواعد الرئيسة للدعوة وهي :

١ ـ الولاء والبراء في الاعتقاد والعبادة :

في صلب الإيمان ومبتدأه قامت الآيات الكريمة على **تجريد الوحدانية لله تعالى** ، وذلك أن الدعوة واجهت قوماً أشركوا مع الله تعالى آلهة أخرى ، فكان لزاماً تصحيح هذه الخطيئة بإثبات الوحدانية لله تعالى ، وتقرير هذه القاعدة لتكون المرتكز السليم في التوجه إلى الله سبحانه ، وتلقي شريعته ، قال تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ (١) ، فهذا تقرير للتوحيد ، لأنه المقصود بالذات ، وعنه تنشأ جميع العبادات ، والمعنى : أن إله جميع الخلق واحد لا ثاني له ولا مثل ، لا كما زعم عبدة الأصنام من العرب ومن شاكلهم أن لكل قوم إلهاً غير إله غيرهم (٢) .

كما أن فيها وفي أخواتها من الآيات الكريمة كقوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ (٣) تجريداً للوحدانية من تثليث النصارى ، وتجسيم اليهود ، وضلالات الوثنية والمذاهب المادية . وتحقيقاً للولاء الخالص لله تعالى والبراء مما عداه ومن ثَمّ **تجريد العبادة** له سبحانه ، وبهذا تصبح الوحدانية « هي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي ، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها ، فعن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة ، فلايكون إنسان عبداً إلا لله ، ولا يتجه بالعبادة إلا لله ، ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله وما يأمره الله به من الطاعات ، ومن هذا التصور تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحده، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد ، ويجيء تشريع البشر مستمداً من شريعة الله » (٤) .

إذاً فالولاء لله تعالى بالتوحيد والعبادة ، والبراءة مما عداه متلازمان ، ولايتصور وجود أحدهما دون الآخر ، ويلحظ هذا التلازم في كثير من الآيات منها قوله سبحانه : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ★ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ (٥) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٦٣ .
(٢) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٨٠ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .
(٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ١ : ٢٨٦ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٠ ـ ٢١ .

٢ ـ الولاء والبراء في اتباع النبي ﷺ :

لايتحقق الولاء والبراء في الاعتقاد والعبادة إلا باتباع النبي ﷺ لأنه المبلغ عن ربّه عزّوجل ، مما يقتضي وجوب اتباعه ﷺ ، وللقرآن الكريم موقف شديد وصريح ممن أراد المراوغة أو التنصل من الاتباع ، فما كان ليقبل من المشركين اعتذارهم عن المتابعة بسيرهم على دين آبائهم ، قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ (١) ، ولم يقبل من أهل الكتاب اعتذارهم بدعوى التمسك بما لديهم من كتاب ، قال سبحانه : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢) ، فكيف تتحقق العبادة الخالصة بالاستمرار على تعاليم توراة وإنجيل محرفين ، أو باتباع إلفٍ ضال ، أو عادة آباء قصرت أفهامهم وضلت بصائرهم وماكانوا على رشد وصواب .

ولأن المشركين وأهل الكتاب مفاخرون بإبراهيم عليه السلام ، حريصون على الانتساب إلى دينه ، فإن القرآن الكريم ساق عليهم الحجة من خلاله ، فالنبي ﷺ دعوة الخليل عليه السلام ، قال تعالى - فيما يحكيه عنه -: ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٣) ، والإسلام الذي جاء به هو دين إبراهيم ووصيته إلى بنيه من بعده ، قال سبحانه : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ★ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ★ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتنّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٤) .

وإن الالتزام الصحيح بهذا المنهج يضمن تميز الأمة المسلمة من حيث القوة والتحاب والتآزر ، ومايترتب على ذلك من انتشار الإسلام وتطبيق شريعة الله تعالى في أرجاء المعمورة .

ثالثا : مقتضيات الولاء والبراء :

يتضح مما تقدم أن الولاء والبراء وثيق الصلة بالإيمان أصلاً ، ومن ثمّ فإن له مقتضيات لابد من توفرها في ذات المسلم وسلوكه .

وفيما يأتي عرض لأهم تلك المقتضيات التي تحدثت عنها السورة الكريمة :

(١) سورة البقرة ، آية : ١٧٠.
(٢) سورة البقرة ، آية : ٩١.
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٢٩.
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٣٠ - ١٣٢.

١ ـ مقتضيات الولاء :

تتحدد مقتضيات الولاء في سورة البقرة بالأمور التالية :

أ) محبة الله تعالى :

للمحبة دور كبير في تحديد السلوك الإنساني ، والمحبة الصادقة لا تتأتى إلا بالمعرفة والاقتناع ، فإن كانت كذلك لم تُبْقِ متسعاً لمداراة الضدّ أو محاباته وبخاصة فيما يمس روح تلك المحبة وأساسها .

ومحبة المؤمنين لله تعالى تفوق محبة النفس والمال والولد .. وكل محبة أخرى ، قال تعالى: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ (١) .

فمحبة المؤمن لله تعالى تجيء عوضاً وبديلاً عن محبة أولئك للأنداد ، وهي الأصنام بالنسبة للمشركين (٢) ، وكل ماعبد غير الله تعالى فهو منها سواء كان بشراً ، أم دابة أم جماداً أم مذهباً . وإنما كانت محبة المؤمنين لله أشد لأنها خالصة له ، ولا يعدلون عنه إلى غيره ، خلاف المشركين الذين يماثلون في المحبوبية فيدعون الله تارة ، ويميلون إلى الأصنام تارة أخرى (٣) .

ومن محبة الله تعالى محبةُ رسوله ﷺ والاستمساكُ بدينه ، ووجودها علامة رسوخ الإيمان يقول النبي ﷺ : « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » (٤) .

كما أنها الجامع بين قلوب المؤمنين ، والسمة المشتركة بينهم ، تدفعهم إلى التحاب في الله ، والتمسك بدينه ، مؤثرينه على كل مصلحة أو علاقة أو صلة .

فهذا كعب بن مالك رضي الله عنه آثر حبّ الله تعالى – رغم هجر المسلمين له بأمر النبي ﷺ لتخلفه عن تبوك – على الجاه والعزّ والمال الموعود به من ملك غسان ، فأحرق الكتاب ولم يلتفت إلى مافيه (٥) . . يقول ابن حجر : « ودلّ صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ، ومحبته لله ولرسوله ، وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك ، وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره ، ولا سيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لايكرهه

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٦٥ .

(٢) انظر : الألوسي ، روح المعاني ٢ : ٥١ .

(٣) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٧٠ .

(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ، ح ١٦ . انظر : فتح الباري ١ : ٦٠ .

(٥) روى البخاري القصة بطولها . انظر : فتح الباري ٨ : ١١٤ – ١١٦ .

على فراق دينه ، لكن لما احتمل عنده أنه لايأمن من الافتتان حسم المادة ، وأحرق الكتاب ، ومنع الجواب . هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة ولا سيما بعد الاستدعاء والحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال ، ولا سيما الذي استدعاه قريبه ونسيبه ، ومع ذلك فغلب عليه دينه ، وقوي عنده يقينه ، ورجح مافيه من النكد والتعذيب على مادعي إليه من الراحة والنعيم حباً في الله ورسوله »[1] .

وزَيْدُ بن الدَثِنَّة البياضي رضي الله عنه كان القتل عنده أهون من أن يؤذى النبي ﷺ بشوكة فضلاً عن أن يقتل ، فقد روى ابن هشام أن المشركين أسروه وخبيباً في بئر معونة ، فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، فلما خرجوا به للتنعيم ، وصُبِر للقتل قال له أبوسفيان : « أنشدك الله يازيد ، أتحب أنّ محمداً عندنا في مكانك نضربُ عُنُقه ، وأنك في أهلك ؟ قال : والله ما أحبّ أنّ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذية وأني جالس في أهلي . فقال أبوسفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كحب أصحاب محمد محمداً »[2] .

ب) التآلف والترابط :

التآلف والترابط أحد المبادئ المحققة للولاء ، والتي حرص الإسلام على غرسها في نفوس أبنائه لتكون شعاراً للمجتمع المسلم ، وسمة بارزة من سماته . ففرض من أجل ذلك أموراً وحبذ أخرى .

فكان مما شُرع لها **التآخي في الله** ، وهو من أقوى السبل للترابط ، وأجلى مظهر للولاء ، ولقد كان أول ما ابتدأ به النبي ﷺ عند مقدمه المدينة المنورة . وقد جاء التنبية على الأخوة في موضعين من سورة البقرة هما :

الأول في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من **أخيه** شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾[3] .

ولا شك بأن القتل والقصاص مسببات للفرقة والبغضاء ، إلا أن القرآن الكريم أراد حصر العمل بجزائه ، والخروج بالمسلمين من هذا الموطن ، فسارع إلى إيقاظ العقول وتنبيه الأذهان إلى القاعدة الرئيسة بينهم وهي الأخوة في الله ﴿ فمن عفي له من أخيه شيء ﴾ فللقتل عقوبة لاينبغي تجاوزها ، وتبقى الأخوة سائدة بين الأحياء من المسلمين .

(١) ابن حجر ، فتح الباري ٨ : ١٢١ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ج٢ : ١٧٢ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٧٨ .

والثاني في قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ [(١)] .

فاليتامى ضعاف قاصرون ، فقدوا آباءهم وهم صغار لاحول لهم ولاقوة ، والقائمون على رعايتهم كبار عقلاء ذوو قوة ودراية ، فنبه الله تعالى إلى الأخوة التي تجمع بينهم ﴿ فإخوانكم ﴾ وتدفع بالوصي القائم على مال اليتيم إلى الإحسان إليه وإصلاح ماله ، وعدم استغلال تلك الفوارق في ظلم اليتيم أو التعدّي على ماله ، مع ماورد في التحذير من ذلك في قوله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ [(٢)] .

وإصلاح ذات البين ، قال تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ﴾ [(٣)] ، أي لاتكثروا الحلف بالله تعالى لتكونوا بارّين متّقين ، ويعتمد عليكم الناس فتصلحوا بينهم [(٤)] ، فكثرة الحلف مدعاة للحنث . أو « لاتجعلوا الحلف بالله مانعاً لكم من عمل البرّ والتقوى والإصلاح بين الناس ، فإذا حلفتم ألا تفعلوا فكفروا عن أيمانكم وأتوا الخير » [(٥)] .

والأمر به أظهرُ في قوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ [(٦)] ، وقوله سبحانه : ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ [(٧)] .

وحرم أموراً تنافي الولاء ، وتنقض الألفة والترابط ، **كسفك الدماء** ، **والتهجير من الديار** ، **ومظاهرة الكفار على المسلمين** ، فهي محرمة في الإسلام [(٨)] كما حرّمت على أهل الكتاب من قبل ، قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ [(٩)] ، قال قتادة : « لا يقتل بعضكم بعضاً بغير حقّ ،

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٢٠ .
(٢) سورة النساء ، آية : ١٠ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٢٤ .
(٤) انظر : الألوسي ، روح المعاني ٢ : ١٩٢ .
(٥) سيد قطب ، في ظلال القرآن ١ : ٢٤٣ . وللمفسرين أقوال أخرى في هذه الآية ، انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٣٨ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٥٣ – ٢٥٤ . والبقاعي ، نظم الدرر ٣ : ٢٨٤ – ٢٨٥ .
(٦) سورة الأنفال ، آية : ١ .
(٧) سورة الحجرات ، آية : ١٠ .
(٨) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٥ .
(٩) سورة البقرة ، آية : ٨٤ – ٨٥ .

﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ فتسفك يابن آدم دماء أهل ملتك ودعوتك »[1] .

ومقتضى حرمة التهجير ومظاهرة الكفار على المسلمين ؛ وجوب مؤازرةُ المسلم لأخيه ونصرتُه ، وقد وصف الله تعالى المؤمنين بذلك ، وجعله أحد أسباب الفلاح فقال : ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[2] .

كما حرّم **أكل الأموال بالباطل** ، قال عزّ وجل : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾[3] ، وذكر المال دون سائر المتاع لأنه - والله أعلم - قوام الحياة ، وأهم الحوائج ، بل لاتجلب إلا به ، والتعدي على الأموال من أشد مسببات الفرقة والبغضاء .

قال ابن عطية : « الخطاب لأمة محمد ﷺ ، والمعنى : لايأكل بعضكم مال بعض ... ويدخل في هذه القمار والخداع والغصوب وجحد الحقائق »[4] ، كما يدخل فيها الربا ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين ★ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون ﴾[5] ، وكذا الرشوة تقدّم للحصول بالباطل على أكثر منها ، قال ابن عطية في قوله تعالى : ﴿ وتدلوا بها إلى الحكام ﴾ « وقيل معنى الآية : ترشوا بها على أكل أكثر منها ... وهذا القول يترجح لأن الحكام مظنة الرِّشا ، إلا من عُصِم وهو الأقل »[6] .

ويدخل في هذا الباب أيضاً كل التوجيهات الشرعية التي من شأنها أن تشدّ آصرة الولاء ، وتقوّي الألفة والترابط بين المسلمين .

١ ـ مقتضيات البراء :

البراء - كما تقدم في المفهوم الشرعي - موقف ديني يقفه المسلم الوفيّ لدينه مع الكفار المعادين له ، أو العصاة المجاوزين للحدود . ونتيجة لهذا الموقف والتزاماً بالتوجيهات الشرعية ؛ يتّبع المسلم خطوات تعلن ذلك البراء وتطبّقه ، وهي في الحقيقة مقتضيات للالتزام الشرعي ، ومن أهم ماجاء منها في سورة البقرة :

---

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٣٠١ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٥٧ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٨٨ .
(٤) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ١٣١ - ١٣٢ . وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٣٣٨ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٧٨ - ٢٧٩ .
(٦) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ١٣٣ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٥ : ١١٨ .

أ) المفاصلة في الدين :

بدهي أن تقع المفاصلة في الدين بين المسلمين وغيرهم ، لأن المسلم يوالي الله ورسوله وإخوانه المسلمين ، أما الكافر فيوالي الطاغوت ، ويحارب الله ورسوله . فالبراءة منهم حتماً لازماً ، قال تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ (١) .

فولاء المنافق للذين كفروا ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون ﴾ (٢) ، وهدفه تمزيق شمل المسلمين بالمخادعة والكذب والإفساد في الأرض ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ﴾ (٣) .

فكانت مفاصلتهم بفضح أعمالهم تلك ، والحكم عليهم بالكفر ، وترتيب العقاب على ما أكنته قلوبهم وارتكبته جوارحهم - وإن عوملوا في الجملة كالمسلمين ظاهراً - قال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ (٤) .

ومفاصلة أهل الكتاب جاءت من خلال الحكم عليهم بالكفر في قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ (٥) ، وإعلانِ عداوة الله تعالى لهم بسبب كفرهم : ﴿ من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال فإن الله عدوّ للكافرين ﴾ (٦) ، وتحذيرِ المؤمنين من اتباع أهوائهم أو التشبه بهم : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾ (٧) .

مع مراعاة الجمع بين البراءة منهم ودعوتهم إلى الإسلام ومطالبتهم باتباع النبي ﷺ : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ★ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ﴾ (٨) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٥٧ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٠٥ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٠ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٦١ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٩٨ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١٢٠ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ١٣٥ - ١٣٦ .

وعدم إكراههم على الإسلام [1] لايسقط مطالبتهم به ، ولا يدفع عنهم العقاب في الآخرة ، لأنهم كتموا العلم وجحدوا الحق بعدما عرفوه ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ★ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التوّاب الرحيم ★ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ★ خالدين فيها لايخفف عنه العذاب ولاهم ينظرون ﴾ [2] .

أما المشركون فبراءة الله تعالى ورسوله منهم صريحة في سورة التوبة ، قال تعالى : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسولُه فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ [3] .

ب) المجافاة والمجانبة ما أمكن :

تأتي المجافاة ومجانبة الكفار والعصاة والاستغناء عن التعامل معهم قدر الإمكان نتيجة طبيعية للمفاصلة الدينية ، والعداوة التقليدية بين الحق والباطل ، والمؤمن يدرك أن معاملتهم وصحبتهم لاخير فيها ، وأنهم كالخمرة ضررها أكبر من نفعها .

وحديث الآيات الكريمة عن بعض مظاهر المجانبة بين المسلمين والكفار دليل على أهميتها ، وإشعار بضرورة التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل ، ومما جاء الحديث عنه :

١ - منع المشركين من دخول المساجد أو تمكينهم منها أو التخلية بينهم وبينها فضلاً عن أن يستولوا عليه ويلوا أمرها ويمنعوا المسلمين منها [4] ، قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي

---

(١) اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ [البقرة : ٢٥٦] على عدة أقوال مجملها :
١ - أنها منسوخة بالأمر بالقتال ، قاله ابن زيد .
٢ - أنها محكمة ، وخاصة بأهل الكتاب ، لايجبرون على الإسلام بل يخيرون بينه وبين أداء الجزية ، وهذا مذهب قتادة والضحاك ابن مزاحم .
٣ - أنها عامة في كل من أعطى الجزية عدا قريش ، قال ابن عطية : « ومذهب مالك أن الجزية تقبل من كل كافر سوى قريش ، أيّ نوع كان ، فتجيء الآية خاصة فيمن أعطى الجزية من الناس كلهم ، لايقف ذلك على أهل الكتاب » .
٤ - أنها نزلت في قوم من الأنصار تهوّد بعض أبنائهم أو تنصروا ، وأراد أهلوهم إكراههم على الإسلام فنزلت : «لا إكراه في الدين» .
انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٧١ - ٢٧٢ . والواحدي ، أسباب النزول : ١١٥ - ١١٦ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٣٨٩ - ٣٩١ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٠٥ - ٣٠٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٢٨٠ - ٢٨١ . وانظر صفحة ٢٠ من هذه الرسالة ، حاشية رقم (٢) .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٥٩ - ١٦١ .

(٣) سورة التوبة ، آية : ٣ .

(٤) انظر : النسفي ، تفسير النسفي ١ : ٧٠ .

ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ (١) ، وسواء نزلت الآية في النصارى الذين ساعدوا في خراب بيت المقدس أو قريش الذين صدّوا النبي ﷺ عن المسجد الحرام ، فلا فرق بينهم في عظم الإثم ، وفي وجوب إبعادهم عن المساجد والثلاثة منها بخاصة . ومن رأى أنْ ليس في الآية أمر بالمنع بل تطرقّ إليه (٢) ، فقد جاء المنع صريحاً في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلايقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ (٣) .

٢ - تحريم المصاهرة بين المسلمين والمشركين ، قال تعالى : ﴿ ولاتَنْكِحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تُنْكِحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (٤) فالمصاهرة فيها نوع ولاء ، والمشركون والمشركات يكفرون بالله تعالى « فحقهم ألا يوالوا ولا يصاهروا » (٥) ، ونكاح الكتابيات وإن كان حلالاً إلا أنه مستثقل مذموم ، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما علم بزواج حذيفة بن اليمان رضي الله عنه من كتابية أراد التفريق بينهما وقال : « لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن » (٦) .

٣ - الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان ، وقد امتدح الله تعالى المؤمنين بالهجرة والجهاد في سبيله فقال : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ (٧) ، وآخذ من ترك الهجرة مع قدرته عليها قوله سبحانه : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ﴾ (٨) ، وتبرأ النبي ﷺ ممن أقام بين ظهراني المشركين فقال : « ألا إني بريء من كل مسلم مع مشرك » ، ولفظ الطبراني : « أنا بريء من كل مسلم أقام مع المشركين » (٩) .

(١) سورة البقرة ، آية : ١١٤ .
(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٥٥ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ٢٨ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٢١ .
(٥) النسفي ، تفسير النسفي ١ : ١١١ .
(٦) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٢٤٧ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٦٨ . وقد أسهبا في ذكر حكم الزواج من المشركات والكتابيات والمجوسيات ، وأوجه التفسير في الآية الكريمة .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٢١٨ .
(٨) سورة النساء ، آية : ٩٧ - ٩٩ .
(٩) رواه أبوداود في كتاب الجهاد ، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود ، ح ٢٦٤٥ ، السنن ٣ : ١٠٤ - ١٠٥ . والترمذي في كتاب السير ، باب ماجاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين ، ح ١٦٠٤ ، السنن ٤ : ١٣٢ - ١٣٣ . والبيهقي في كتاب القسامة ، =

ويضاف إلى ما ورد في سورة البقرة ، أوامر شرعية أخرى مؤداها مجافاة الكفار والاستغناء عنهم قدر الإمكان ، فقد أمر الله تعالى بإخراج المنافقين المتخلفين من ديوان الغزاة ، ونهى عن الصلاة على موتاهم [١] ، كما أمر النبي ﷺ بإخراج غير المسلمين من جزيرة العرب فقال : « أخرجو المشركين من جزيرة العرب » [٢] ، وقال : « لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً » [٣] .

والانتفاع بما عند الكفار لايتناقض ومبدأ المجافاة[٤] ، فهو جائز إذا كانت فيه فائدة للمسلمين ، دون غضّ من الإسلام أو النيل منه ، وقد استأجر النبي ﷺ دليلاً يهدي للطريق يوم الهجرة [٥] .

ج) الجهاد في سبيل الله :

جهاد غير المسلمين - والقتال بخاصة - براءة عملية ، وضرورة دنيوية ، لأنه السبيل الوحيد للتمكين في الأرض ، وإزالة العقبات من وجه انتشار الدعوة الإسلامية .

ومن الآيات الحاثة عليه والآمرة به في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين ﴾ [٦] ، وقوله سبحانه : ﴿ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ [٧] ، وقوله عزّوجل : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون﴾ [٨] .

ولايعتقد أحدٌ أن أهل الباطل سيدعونه إن هو ترك القتال ، فإنهم أحرص على قتاله وردّه عن دينه ، قال تعالى : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ [٩] .

= باب ماجاء في وجوب الكفارة في أنواع القتل الخطأ ، السنن ٨ : ١٣٠ . والطبراني في المعجم الكبير ٤ : ١٣٤ . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٥ : ٢٥٣ وقال : « رواه الطبراني ورجاله ثقات » .

(١) انظر صفحة ١٥٤ من هذه الرسالة .

(٢) رواه البخاري في كتاب الجزية والموادعة ، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب ، ح ٣١٦٨ ، انظر : فتح الباري ٦ : ٢٧٠ - ٢٧١ . ومسلم في كتاب الوصية ، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه ، ح ٢٠ (١٧٣٦) ، الصحيح ٣ : ١٢٥٧ - ١٢٥٨ .

(٣) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، ح ٦٣ (١٧٦٧) ، الصحيح ٣ : ١٣٨٨ .

(٤) انظر مفصلاً : محمد القحطاني ، الولاء والبراء : ٣٦٤ - ٣٧٢ .

(٥) هو عبدالله بن أريقط ، انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٤٨٥ .

(٦) سورة البقرة ، آية : ١٩٠ .

(٧) سورة البقرة ، آية : ١٩٣ .

(٨) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .

(٩) سورة البقرة ، آية : ٢١٧ .

خاتمة المبحث

إن التأرجح في المواقف ، والتذبذب في الانتماء ، والتردد في الآراء ، يفقد الثقة ، ويهزّ الشخصية ، ويذهب الحقيقة أو يضعفها على أقل تقدير .

والتطبيق الواعي المدرك للولاء والبراء يقي المسلم تلك المضار ، بل ويثمر له- بإذن الله - الثمرات التي يرنو إليها .

فيحفظ عليه دينه من الشوائب أو العوالق التي تتسلل إلى النفوس عن طريق التساهل أو المحاباة أو الإغضاء في أمور شرعية لايحق للمسلم أن يتهاون فيها .

كما يضمن سلامة المسيرة الدعوية التي كلف بها المسلم -حسب طاقته- نظراً لنفاذ بصيرته ، ووضوح مواقفه ، ومهابته في النفوس ، فمن اعتمد على الله تعالى ازدادت قوته في دينه ، وزالت مهابة الناس من قلبه . على أن يجمع بين هذا وبين الحكمة في الدعوة كما أمر الله تعالى : ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (١) .

ومن تردد في الالتزام به ، وتساهل مع الكفار والعصاة حتى صاحبهم وربما أحبهم ، أو سار على نهجهم ، والتمس لنفسه الأعذار ؛ من فعل ذلك فليدرك أن العاقبة شديدة ، وأن الآخرة يوم البراء الأكبر ، قال تعالى : ﴿ إذ تبرّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ★ وقال الذين اتَّبَعوا لو أن لنا كرّة فنتبرّأ منهم كما تبرّؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النحل ، آية : ١٢٥ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٦٦ - ١٦٧ .

المبحث الثاني

المنهج الاستدلالي
في قضايا الأحكام والتمسك بها

الحكم الشرعي هو : « خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين طلباً أو تخييراً أو وضعاً »[١]، وكما تقدم فإن العهد المدني امتاز بالتشريعات التفصيلية في العبادات والمعاملات والحدود ، لتقرير الشريعة ، وتوضيح أهدافها ومراميها ، إضافة إلى مخاطبة أهل الكتاب والمنافقين .

وبما أن سورة البقرة مدنية ، فقد اشتملت على كثير من القواعد والأحكام الشرعية التي يجب على المسلم التسليم بها والانقياد لها ، وينبغي لكل داعية أن يتبصر فيها بالقدر الذي يعينه على أداء وظيفته .

ومما تحدثت عنه : أحكام الحج ، كفدية المحصِر والمتمتع ، والنهي عن الرفث والفسوق والجدال ، والإفاضة من عرفات ، والوقوف عند المشعر الحرام[٢] . وأحكام الزواج والطلاق ، كنكاح المشركات ، وإنكاح المشركين ، والمحيض ، والإيلاء ، والطلاق : عدة المطلقة وعدد التطليقات ، والإعضال ، والرضاع ، وعدة المتوفى عنها ، والخطبة أثناء العدة ، ومهر المطلقة[٣] ، ونحو ذلك من الأحكام التي تزخر بها هذه السورة الكريمة .

وهذه نماذج من الآيات الكريمة المعنية بالأحكام :

١ - استقبال الكعبة في الصلاة ، قال تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[٤] .

٢ - القصاص ، قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾[٥] .

٣ - الصيام ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخَر وعلى

(١) عبدالوهاب خلاف ، علم أصول الفقه : ١٠٠ . وانظر : الرازي ، المحصول ١ : ١ : ١٠٧ . والجرجاني ، التعريفات : ٩٢ .
(٢) انظر سورة البقرة ، الآيات : ١٩٦ - ٢٠٠ .
(٣) انظر : سورة البقرة ، الآيات : ٢٢٢ - ٢٣٧ و ٢٤٠ - ٢٤١ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٤٤ إضافة إلى الآيتين : ١٤٨ - ١٤٩ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٧٨ .

الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون * شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ [1] .

٤ - الربا ، قال تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مثل الربا وأحل الله البيعَ وحرّم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون ﴾ [2] ، وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الرِّبا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من اللهِ ورسولِه وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون ﴾ [3] .

وهذه الأحكام إما أن تكون أمراً أو نهياً أو ندباً أو إباحة ، والمسلم مطالب بالالتزام بها وتطبيقها كما أمر الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [4] ، ولا يتعارض هذا مع معرفة سبب الحكم أو علته ، فقد جاءت أحكامٌ شرعية معللةٌ ومدللٌ عليها ، وما ذلك الاستدلال إلا للإعانة على توضيح الحكم وبيان المقصد منه ، وإقناع المدعو بضرورة الأخذ به والتزامه .

وفيما يأتي طائفة من القواعد والأحكام الشرعية التي ورد عليها استدلال من سورة البقرة :

أولاً : مشروعية طلب الرزق :

جرت السنة في هذا الكون على ربط الأسباب بالمسببات . فالله تعالى خلق الرزق ، وجعل الاكتساب سبباً لحصوله . وأبان للإنسان هذا الترابط في عدد من الآيات الكريمة ، منها : أن جعل سبحانه ضَرْبَ الحجر سببا للسقيا ، حين قال : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولاتعثوا في الأرض مفسدين ﴾ [5] ، وهزَّ الجذع سبباً لتساقط الثَّمَر ، قال سبحانه : ﴿ وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ [6] .

(١) سورة البقرة ، آية : ١٨٣ - ١٨٥ ، وفي آية (١٨٧) تشريعات تفصيلية تتعلق بالصائم كحل معاشرة النساء ليلة الصيام ، ووقت الإمساك والإفطار ، وحكم معاشرة النساء حين الاعتكاف .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٧٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٧٨ - ٢٧٩ .
(٤) سورة الأحزاب ، آية : ٣٦ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٦٠ .
(٦) سورة مريم ، آية : ٢٥ .

ولاشك بأن الاكتساب من الضرورات التي للإنسان حظّ عاجل فيها ، وباعث من نفسه يستدعيه إلى طلب مايحتاج إليه ، وربما حمله على ذلك قهراً . لذا ندبت الشريعة إلى الاكتساب وحثت عليه ، قال تعالى : ﴿ فإذا قُضيَت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (1) . ويقول النبي ﷺ : « ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله دواود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » (2) ، وتأكيداً على ذلك لم يجعل للقادر على الاكتساب حظاً في الزكاة ، قال ﷺ : « ... ولاحظ فيها لغني ولالقوي مكتسب » (3) .

و في بعض آيات سورة البقرة استدلالات على مشروعية طلب الرزق منها :

١ - الاستدلال بتوفر الرزق ، قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم ﴾ (4) ، قال ابن عطية : « وهذه الآية تعطي أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق ، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا فقد أخذ بطرف من جعل لله نداً » (5) .

ومن الآيات الأخرى الدالة على توفر الرزق قوله جلّ وعلا : ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ (6) . فرزق الإنسان متوافر حيث أهبط ، وحاجته إليه قائمة ، فلابد إذاً من السعي لاكتسابه .

٢ - الاستدلال بقدرة الإنسان على الاكتساب ، فالله تعالى حين خلق الإنسان ، أعطاه العلم الذي يصلح به أمر معاشه ، قال تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (7) ، كما وهبه القدرة على الكسب ، فقوله سبحانه : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ (8) فيه إشارات إلى الاكتساب ، لأن الأكل من ثمار الجنة يستلزم السعي والاقتراب والتناول ، وهذه هي الأسباب الطبيعية للاكتساب .

---

(1) سورة الجمعة ، آية : ١٠ .
(2) رواه البخاري في كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ، ح ٢٠٧٢ . انظر : فتح الباري ٤ : ٣٠٣ .
(3) رواه أبوداود في كتاب الزكاة ، باب من يعطى من الصدقة وحدّ الغنى ، ح ١٦٣٣ ، السنن ٢ : ٢٨٥ . وأبوعبيد في كتابه الأموال ، ح ١٧٢٧ ، ص ٥٤٦ .
(4) سورة البقرة ، آية : ٢٢ .
(5) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٠٠ - ٢٠١ . وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٣٠ .
(6) سورة البقرة ، آية : ١٦٤ .
(7) سورة البقرة ، آية : ٣١ .
(8) سورة البقرة ، آية : ٣٥ .

كما يشير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ [١] ، إلى أن وسيلة اجتماع الأموال الاكتسابُ ، ولابد من توفر النصاب حتى تجب الزكاة .

وعليه فإن كسب الرزق الحلال مشروع في الإسلام ومحبذٌ فيه ، ومن فوائده « الشُّغْل بالأمر المباح عن البطالة واللهو وكسر النفس بذلك ، والتعفف عن ذلة السؤال والحاجة إلى الغير » [٢] ، لذا يرى بعض العلماء أن الناس آثمون إن هم اجتمعوا على ترك العمل ، يقول الشاطبي : « فجَعَل - أي الشرعُ - الاحتراف والتكسب على الجملة مطلوباً طلب الندب لا طلب الوجوب ... مع أنا لوفرضنا أَخْذَ الناس له كأخذ المندوب بحيث يسعهم جميعاً الترك لأثموا ، لأن العالم لايقوم إلا بالتدبير والاكتساب » [٣] .

ثانياً : مشروعية سدّ الذرائع :

ذرع في اللغة « أصل واحد يدل على امتداد وتحرك إلى قُدُم » [٤] . والذريعة الناقة يتستر بها الرامي ليرمي الصيد [٥] .

وعرف القرطبي الذريعة شرعاً بأنها : « أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع » [٦] . قال الشاطبي : « وهو أصل مقطوع به على الجملة ، قد اعتبره السلف ، فلا بدّ من اعتباره » [٧] .

والذريعة بالمدلول اللغوي ليست شرطاً لأن تكون وسيلة لمحرم بل يمكن أن تكون وسيلة إلى فعل حلال أو مباح ، إلا أن تعريف القرطبي وغيره من الفقهاء يشعر بغلبة هذا الاصطلاح على ما أفضى إلى محرم ، وهو ما نص عليه ابن تيمية حين قال : « والذريعة ماكان وسيلة وطريقاً إلى الشيء ، لكنها صارت في عرف الفقهاء عبارة عما أفضت إلى فعل محرم » [٨] .

ومعنى سد الذرائع - كما قال القرافي - « حسم مادة وسائل الفساد دفعاً لها » [٩] .

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٦٧ .

(٢) ابن حجر ، فتح الباري ٤ : ٣٠٤ .

(٣) الشاطبي ، الموافقات ٢ : ١٨٠ - ١٨١ . وعلق الشيخ عبدالله دراز عليه في الحاشية بأنه - ليستقيم هذا الحكم - لابد أن يقال : « إن هذا من المندوب بالجزء ، الواجب كفاية بالكل ... فيصح التأثيم بترك الكل مع كونه مندوباً بالجزء » .

(٤) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٢ : ٣٥٠ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٥٨ . وانظر : الشاطبي ، الموافقات ٢ : ٣٠٩ .

(٧) الشاطبي ، الموافقات ٢ : ٣٠٩ . وانظر : القرافي ، الفروق ٣ : ٢٧٤ - ٢٧٥ ، وقد قسم الذرائع إلى ثلاثة أقسام ، الأول : ما أجمع الناس على عدم سده كزراعة العنب ، لم يمنع منها خشية اتخاذه خمراً ، والثاني : ما أجمعوا على سدّه ، وهو موضوع الحديث في هذا المبحث ، والثالث : ما اختلف فيه العلماء ، كالنظر إلى المرأة الأجنبية من حيث إنه ذريعة إلى الزنى ، فمالك يجيز النظر بغير شهوة ، وغيره يمنعه .

(٨) ابن تيمية ، الفتاوى الكبرى ٣ : ٢٥٦ .

(٩) القرافي ، الفروق ٢ : ٣٢ .

والدليل عليه من سورة البقرة أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مخاطبة النبي ﷺ بـ« راعنا » سدًا لذريعة السبّ الذي يقصده اليهود . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذابٌ أليم ﴾[1] ، فكلمة ﴿ راعنا ﴾ متداولة عند العرب بمعنى : أرعني سمعك[2]، و قال النسفي : « كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا ألقي إليه شيء من العلم راعنا يارسول الله ، أي راقبنا وانتظرنا حتى نفهمه ونحفظه »[3] ، وكانت في كلام اليهود سُبّة ، فكانوا يأتون النبي ﷺ ويقولون : يامحمد راعنا ، ويضحكون . فنُهي المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها وهو ﴿ انظرنا ﴾ سدًا لذريعة السبّ[4] .

ودلّ على هذا الأصل أوامر وأحكام شرعية أخرى ، كالمنع من سبّ الأصنام عند من يعلم أنه يسبّ الله ، قال تعالى : ﴿ ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾[5] ، وحدّ الحدودُ سداً للذريعة إلى الجرائم[6] ، وأمْر النبي ﷺ المأمومين أن يصلوا جلوساً إذا صلى الإمام جالساً « سدًا لذريعة التشبه بفارس والروم في قيامهم على ملوكهم وهم قعود »[7] ، وأمْرُ عمر رضي الله عنه بقطع الشجرة التي كانت البيعة تحتها ، وإخفاءِ قبر النبي دانيال ، سداً لذريعة الشرك[8] .

ثالثاً : تحريم التحيُّل على الأحكام :

الاحتيال على الأحكام الشرعية محرم في ذاته فضلاً عن أنه طريقٌ إلى المحرمات ، ومناقضٌ لقاعدة سدّ الذرائع التي من شأنها تجنب الممنوع بكل ممكن ، ومعطّلٌ للأحكام الشرعية التي شرعت لصالح العباد ، وإعمالٌ للهوى بحيث تصير الأحكام كالآلة المعدة لاقتناص أغراض المحتال . يقول الشاطبي - بعد أن تحدث عن واجباتٍ ومحرماتٍ مرتبةٍ على أسباب - : « فإذا تسبب المكلف في إسقاط ذلك الوجوب عن نفسه ، أو في إباحة ذلك المحرم عليه بوجه من وجوه التسبب حتى يصير ذلك الواجب غير واجب في الظاهر ، أو المحرم حلالاً في الظاهر أيضاً ، فهذا التسبّب يسمى حيلة وتحيلاً »[9] ، ثم قال : « الحِيَل في الدين بالمعنى المذكور غير مشروعة في الجملة ، والدليل على

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٠٤ .
(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٤٦٦ .
(٣) النسفي ، تفسير النسفي ١ : ٦٧ .
(٤) انظر : الواحدي ، أسباب النزول : ٦٩ . والنسفي ، تفسير النسفي ١ : ٦٧ . والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٤٦٦ . وابن القيم ، إغاثة اللهفان ١ : ٥٤٣ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٠٨ . وانظر : القرافي ، الفروق ٣ : ٢٧٤ .
(٦) انظر : ابن القيم ، إغاثة اللهفان ١ : ٥٤٩ .
(٧) المصدر السابق ١ : ٥٤٤ .
(٨) انظر : المصدر السابق ١ : ٥٤٣ - ٥٤٧ .
(٩) الشاطبي ، الموافقات ٢ : ٣٧٩ .

ذلك ما لا ينحصر من الكتاب والسنة ، لكن في خصوصات يفهم من مجموعها منعها والنهي عنها بالقطع »(١) .

ومن الأدلة عليه من سورة البقرة ما يلي :

١ - أن التحايل فيه مخادعة من لايجوز عليه الخدع ، قال تعالى - متحدثًا عن المنافقين الذين أقاموا شريعتهم على التحايل والمخادعة - : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾(٢) .

٢ - أن الضرر يعود لا محالة على المحتال ، فضرر مخادعة المنافقين - كما تنص الآية الكريمة آنفاً عائدٌ عليهم - : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم ﴾ ، حيث فضح الله أسرارهم ، وأفقدهم الأمن ، وبث في قلوبهم الرعب ، وتوعدهم بالعذاب في الآخرة .

واليهود الذين احتالوا للصيد في السبت عجل الله لهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة ، قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين * فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾(٣) .

٣ - أن المحتال يعامل بنقيض قصده ، قال ابن القيم : « ولاريب أن من تدبر القرآن والسنة ومقاصد الشرع جزم بتحريم الحيل وبطلانها ، فإن القرآن دل على أن المقاصد والنيات معتبرة في التصرفات والعادات »(٤) .

ومن تلك الأحكام التي عومل فيها المحتال بنقيض قصده :

أ) قوله تعالى في آية الرجعة : ﴿ ولا تمسكوهن ضِراراً لتعتدو ﴾(٥) ، قال ابن القيم : « وذلك نص في أن الرجعة إنما تثبت لمن قصد الصلاح دون الضِّرار ، فإذا قصد الضِّرار لم يملكه الله الرجعة »(٦) . وصورة المضارة أن يطلقها حتى تشارف انقضاء العدة ثم يرتجعها ، ثم يطلقها حتى تشارف انقضاء العدة ، وهكذا لايرتجعها لغرض له فيها سوى الإضرار بها(٧) .

ب) قوله تعالى في آية الفرائض : ﴿ مِن بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَى بها أو دَيْن غير مُضارّ ﴾(٨) ، فالوصية إن كان فيها إضرار كأن يوصي بأكثر من الثلث ، أو يوصي لوارث بقصد حرمان بعض

(١) المصدر السابق ٢ : ٣٨٠ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٩ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٦٥ - ٦٦ .
(٤) ابن القيم ، إغاثة اللهفان ١ : ٥٥٨ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٣١ .
(٦) ابن القيم ، إغاثة اللهفان ١ : ٥٥٩ .
(٧) انظر : الشاطبي ، الموافقات ٢ : ٣٨١ .
(٨) سورة النساء ، آية : ١٢ .

الورثة ، حَرُمَتْ ، وللوارث إبطالها[1] .

رابعاً : وجوب الإمامة وتخيُّر الصالحين لها[2] :

الإمامة فرض ، وعَقْدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع[3] ، وحقيقة هذا الوجوب راجعة إلى أنها وُضِعت لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، لذا أمر الله سبحانه بطاعة ولي الأمر فقال : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾[4] .

ويدل على وجوب الإمامة وتخيُّر الصالحين لها من سورة البقرة ما يأتي :

١ - أن الله تعالى جعل للناس أئمة ، وانتقاهم خِيرةَ خلقه ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومنهم إبراهيم الخليل عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾[5] .

والإمام : القدوة[6] ، قال القرطبي : « استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل ، مع القوة على القيام بذلك »[7] ، ومن هنا كانت العدالة أبرز شروط من تنعقد له الإمامة ، يقول الماوردي : « وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة ، أحدها : العدالة على شروطها الجامعة »[8] .

٢ - أن الله تعالى أسقط الظالمين منها ، فلم يعطهم عهده ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾[9] .

والمراد بالعهد الإمامة ، به قال مجاهد والسدي[10] ، ورجحه الرازي لأمرين :

أحدهما : أن قوله تعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ جواب لقوله ﴿ ومن ذريتي ﴾ وهو

---

(١) انظر : الشاطبي ، الموافقات ٢ : ٣٨٢ .

(٢) انظر : د. عبدالكريم زيدان ، أصول الدعوة : ١٩٥ - ١٩٦ .

(٣) انظر : الماوردي ، الأحكام السلطانية : ٥ . وابن الأزرق ، بدائع السلك في طبائع الملك : ٧٠ .

(٤) سورة النساء ، آية : ٥٩ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٢٤ .

(٦) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٧٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٠٧ .

(٧) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٠٨ .

(٨) الماوردي ، الأحكام السلطانية : ٦ . ويرى ابن الأزرق أن العدالة إذا تعذرت سقط اعتبارها ، قال : « وعلى هذا اعتمد الغزالي وعزالدين - يعني ابن عبدالسلام - ، وغيرهما من المحققين » قال : « وحاصله أن عدالة السلطان من مكملات أوصافه ، وإخلال المحافظة عليها بحكمة نصْبه يسقط اعتبارها كما في العلم أيضاً شأن كل تكملة هي كذلك مع ماهي مكملة له » [بدائع السلك في طبائع الملك : ٧٤] .

(٩) سورة البقرة ، آية : ١٢٤ .

(١٠) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٧٧ . والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٢٠ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٠٧ . والبقاعي ، نظم الدرر ٢ : ١٥١ . وأوردوا للعهد معاني أخرى كالدين والرحمة وغيرها .

طلبٌ للإمامة ، قال : « فوجب أن يكون المراد بهذا العهد الإمامة »[1] .

الثاني : أن العهد يستعمل في القرآن بمعنى الأمر ، كقوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابني آدم ألا تعبدوا الشيطان ﴾[2] ، والإمام قائم على أمر الله ، فلا يجوز أن يؤتمن ظالم عليه ، ولا أن يكون بمحل من تؤخذ منهم أوامرالله سبحانه أو تقبل منهم[3] .

فهذا خبر من الله تعالى عن أن الظالم لا يستحق أن يكون إماماً يقتدى به[4] ، لأنه يفوّت مقصداً رئيساً من مقاصد الإمامة وهو إقامة العدل ، قال سفيان بن عيينة : « لايكون الظالم إماماً قط، وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة والإمام إنما هو لكف الظلمة »[5] .

كما أن الظلم من أبواب الفسق المانعة من انعقاد الإمامة له ، قال الماوردي : « وأما الجرح في عدالته ، وهو الفسق ، فهو على ضربين ، أحدهما : ماتابع فيه الشهوة ، والثاني : ما تابع فيه الشبهة .

فأما الأول منهما فمتعلق بأفعال الجوارح ، وهو ارتكابه للمحظورات ، وإقدامه على المنكرات ، تحكيماً للشهوة ، وانقياداً للهوى ، فهذا فسق يمنع من انعقاد الإمامة ومن استدامتها ، فإذا طرأ على من انعقدت إمامته خرج منها »[6] .

وحكى الرازي عن جمهور الفقهاء والمتكلمين أن الفاسق حال فسقه لا تنعقد له الإمامة ، قال: « واحتج الجمهور على أن الفاسق لايصح أن تنعقد له الإمامة ، بهذه الآية »[7] .

خامساً : وجوب تبليغ الحق :

بدهي أن تمتاز بالعلم والمعرفة فئة من المجتمع تتوافر لديها صفات وقدرات تؤهلها لذلك . وحتى لا يحجب ذلك الحق والعلم ، ولئلا يكون وسيلة إلى الإضلال ، اهتمت الشريعة الإسلامية ببث العلم ، وأوجبت تبليغ الحق عند الحاجة إليه ، وحال خشية فواته . ومن أدلة ذلك في سورة البقرة ما يأتي :

---

(١) الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ٤٢ .
(٢) سورة يس ، آية : ٦٠ .
(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ٤٢ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٠٨ .
(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٢٠ .
(٥) الزمخشري ، الكشاف ١ : ٣٠٩ .
(٦) الماوردي ، الأحكام السلطانية : ١٩ . ونقل القرطبي عن كثير من العلماء أن الصبر على الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ، لما في الخروج على الإمام من مفاسد تفوق جور السلطان وفسقه [انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٠٩] وقال ابن الأزرق : « إن الصبر عليه إذا جار من عزائم الدين ، ووصايا الأئمة الناصحين ، لقوله ﷺ : إذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة » [بدائع السلك في طبائع الملك : ٧٩] .
(٧) الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ٤٢ .

١ - أن كاتم العلم ملعون ومستحقٌ للوعيد :

قال تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ (١) .

والكتمان « ترك إظهار الشيء مع الحاجة إليه ، وحصول الداعي إليه » (٢) .

وهذه الآية وإن قُصِد بها بنوإسرائيل الذين حرفوا التوراة وكتموا صفة النبي ﷺ ، إلا أنها جاءت بوصف عام يتناول « كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثّه » (٣) . لذا استدل بها بعض العلماء على وجوب تبليغ الحق وبيان العلم على الجملة (٤) ، وقال ابن الجوزي : « وهذه الآية توجب إظهار علوم الدين منصوصة كانت أم مستنبطة » (٥) .

وأما الوعيد الشديد لكاتم الحق فجاء في مثل قوله تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ (٦) . ومن السنة قول النبي ﷺ : « من سئل عن علم ثم كتمه أُلْجِمَ يوم القيامة بلجام من نار » (٧) .

فمجمل هذه النصوص الشرعية موجب لإظهار علوم الدين ، وزاجر عن الكتمان . و هذا الإظهار على الكفاية ، فإن كان هناك من يُبَلِّغ اكْتُفي به ، وإن تعيَّن عليه لزمه (٨) ، قال ابن العربي : « العالم إذا قصد الكتمان عصى ، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أن معه غيره » (٩) .

أما ماكتمه أبوهريرة رضي الله عنه وخاف على نفسه الفتنة أو القتل إن بثه « إنما هو مما يتعلق بأمر الفتن ، والنص على أعيان المرتدين والمنافقين ، ونحو هذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى » (١٠) .

٢ - أن كتمان الحق وسيلة إلى الكفر :

من أسباب الهداية - بعد توفيق الله تعالى - معرفة الحق على وجهه ، ونقيضه كتمان الحق أو

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٥٩ .
(٢) الرازي ، التفسير الكبير ٤ : ١٦٣ .
(٣) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٣ . والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٢٥١ .
(٤) انظر : ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ٤٨ .
(٥) ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٦٥ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٧٤ .
(٧) رواه الترمذي في كتاب العلم ، باب ما جاء في كتمان العلم ، ح ٢٦٤٩ وقال : حديث حسن . السنن ٥ : ٢٩ .
(٨) انظر : ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ٤٩ . والرازي ، التفسير الكبير ٤ : ١٦٣ .
(٩) ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ٤٩ .
(١٠) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٨٦ .

تحريفه أو تلبيسه بالباطل فإنها سُبُلٌ إلى الضلال والغواية .

لذا يلحظ في الآيات الكريمة في سورة البقرة المعنية بدعوة أهل الكتاب وبني إسرائيل بخاصة أنها استفتحت بالتذكير بنعم الله تعالى والدعوة إلى التصديق بالنبي ﷺ والتحذير من الكفر وأسبابه ، قال تعالى : ﴿ يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ [١] . قال البقاعي : « فلما نهاهم عن الكفر بالآيات نهاهم عن الحامل عليه » [٢] .

وتحدد الآيات الكريمة هنا الحامل على الكفر بأمور ثلاثة هي :

أ) التحريف ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ ، حيث كان لأحبارهم مأكلة ورِشاً يأخذونها من عامتهم ، أو كانت ملوكهم تعطيهم الرِّشا ليغيروا لهم بعض أحكام التوراة ، فآثروها على الإسلام واتباع النبي ﷺ [٣] .

ب) تلبيس الحق بالباطل وذلك في قوله سبحانه : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ ، ولبسهما خلطهما ببعض بحيث يصعب على العامة التمييز بينهما [٤] .

جـ) كتمان الحق ، حيث قال سبحانه : ﴿ وتكتموا الحق ﴾ ، ويكون الكتمان بإخفائه كلية عمن لم يسمع به [٥] .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٤٠ - ٤٢ .
(٢) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ٣١٨ .
(٣) انظر صفحة ١٠٧ من هذه الرسالة .
(٤) انظر صفحة ١٠٨ من هذه الرسالة .
(٥) انظر صفحة ١٠٩ من هذه الرسالة .

المبحث الثالث

المنهج الاستدلالي في ترسيخ القيم والأخلاق

القيم والأخلاق عنوان المجتمع المسلم ، ووجهه المشرق ، وسفيره إلى الأمم الأخرى ، والمعين - بعد الله - على القيام بتبليغ الدعوة ونشرها ، لذا فلا عجب أن تهتم بها الشريعة الإسلامية ، وتتوالى نصوصها أمراً بها وتدليلاً عليها .

ومن أبرز القيم والأخلاق التي عنيت الآيات الكريمة في سورة البقرة بترسيخها ، أو الدعوة إليها ، ما يأتي :

أولاً : التأدّب مع الله تعالى :

الأدب مع الله تعالى مطلوب من المسلم في جميع أحواله وتصرفاته ، فهو عماد الصلة بين العبد وربه . وفي هذه السورة دلالات متعددة على هذا الخلق منها :

١ - حسن مخاطبة الملائكة لله تعالى ، حيث قال سبحانه - فيما يحكيه عنهم - : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ [١] .

ويبدو الأدبُ وحسنُ الخطاب من ابتدائهم بالثناء على الله ﴿ سبحانك ﴾ وردّهم العلم الكامل لله تعالى ، وإرجاع ما عندهم من علم إلى علمه سبحانه ، ففي الآية : « ثناء عليه تعالى بما أفاض عليهم ، مع غاية التواضع ، ومراعاة الأدب ، وترك الدعوى » [٢] .

٢ - مبادرة إبراهيم عليه السلام بالاستجابة له سبحانه ، قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ [٣] .

فهذا النص الكريم يظهر جانباً من أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه عزّوجل في سرعة الانقياد والخضوع له ، فما أن جاءته الدعوة حتى بادر بالاستجابة « لم يتلكأ ، ولم يرْتَبْ ، ولم ينحرف ، واستجاب فور تلقي الأمر » [٤] .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٣٢ .
(٢) الألوسي ، روح المعاني ١ : ٣٦١ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٣٠- ١٣١ .
(٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ١ : ١١٦ .

والمراد بالدعوة إلى الإسلام « الانقياد لأوامر الله تعالى ، والمسارعة إلى تلقيها بالقبول ، وترك الإعراض بالقلب واللسان »[1] .

٣ - مسارعة آدم عليه السلام إلى التوبة ، قال تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾[2] .

« والتوبة من الله تعالى الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق ، والتوبة من العبد الرجوع عن المعصية ، والندم على الذنب ، مع تركه فيما يستأنف »[3] .

وذلك أن الله تعالى حين أسكن آدم وزوجه الجنة ؛ نهاهما عن الأكل من شجرةٍ فيها ، فأزلهما الشيطان ، فأكلا منها ، وخالفا أمر الله سبحانه ، فلما شعر آدم عليه السلام بذنبه بادر إلى التوبة واستغفر ربه منها[4] ، فكان إقراره بالذنب أدباً مع الله سبحانه ، وإذعاناً لقيام الحجة عليه[5] .

قال ابن قتيبة : « كأن الله أوحى إليه أن يستغفره ويستقبله بكلام من عنده ، ففعل ذلك آدم ، ﴿ فتاب عليه ﴾ »[6] .

وبهذا الخُلُق أصبح إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الله ، قال تعالى : ﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا ﴾ وقال سبحانه : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾[7] ، كما أصبح أبوبكر رضي الله عنه أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ .

ومن الأدب مع الله تعالى ؛ الأدب مع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، فقد نهى الله من الإكثار في سؤال النبي ﷺ ، وبخاصة ما لا خير فيه ، حيث قال : ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾[8] ، فهذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين الذي سألوا النبي ﷺ عن أمور لا خير لهم في البحث عنها أو تعلمها ، كما صنع بنوإسرائيل مع موسى عليه السلام من قبل ، فكرهه الله لهم وعاتبهم على فعله[9] .

(١) الرازي ، التفسير الكبير ٤ : ٧٢ ، وللمفسرين أقوال أخرى غير ما ذكر .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٣٧ .
(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٦١ .
(٤) انظر ماقيل في تفسير الكلمات : ابن عطية المحرر الوجيز ١ : ٢٦١ . والرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٩ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٦٩ .
(٥) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ١ : ٢٩٥ .
(٦) ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٤٦ .
(٧) سورة النساء ، آية : ١٢٥ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ١٠٨ .
(٩) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٤٩٥ ورجّح هذا الوجه . والبقاعي ، نظم الدرر ٢ : ١٠٣ . والرازي ، التفسير الكبير ٣ : ٢٣٥ ورجّح توجيه الخطاب لليهود . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٢٩ .

وجاء الأمر الصريح بالتأدب مع النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ★ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ★ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ★ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ﴾ (١) .

وإساءة الأدب مع الله تعالى ومع أنبيائه عليهم السلام جالبة لسخط الله وعقابه ، فبنو إسرائيل حين تطاولوا على مقام الألوهية أخذتهم الصاعقة ، قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصاعقةُ وأنتم تنظرون ﴾ (٢) ، ولما نسبوا موسى عليه السلام إلى الهُزْء بقولهم - فيما يحكيه القرآن عنهم - ﴿ أتتخذُنا هزواً ﴾ (٣) ، فشدد الله عليهم حتى أغرمهم وكاد أن يعجزهم .

إذاً فالأدب مع الله تعالى يورث محبته ، ويجلب التوفيق والقبول . أما إساءة الأدب فتجلب غضبه وسخطه ، وتورث المعاصي ، وإظلام البصيرة والعياذ بالله .

ثانياً : الاستقامة وتجنب خطوات الشيطان :

الاستقامة سمة بارزة من السمات التي حثت عليها الشريعة الإسلامية وأمرت بها ، حتى إن الأنبياء عليهم السلام - وهم أكثر الناس استقامة - خوطبوا بها ، قال تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام : ﴿ قال قد أجيبَت دَعوَتُكُما فاستقِيما ولا تَتَّبِعانِّ سَبيل الذين لا يعلمون ﴾ (٤) ، وقال مخاطباً النبي ﷺ : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ﴾ (٥) ،

والشيطان عدوٌّ للإنسان ، يدعوه إلى الكفر والفسوق ، ويزين له الانحراف ، واقتراف المعاصي والموبقات ، لذا كان لا بدّ لتوجيه المسلمين إلى الاستقامة ؛ تحذيرهم من الشيطان وخطواته ، بالنص على عداوته كما في قول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين ﴾ (٦) ، أو استدلالاً عليها كما في الآتي :

١ - إغواء آدم وحواء عليهما السلام ، قال عزّوجل : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك

---

(١) سورة الحجرات ، آية : ٢ - ٥ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٥٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٦٧ .
(٤) سورة يونس ، آية : ٨٩ .
(٥) سورة الشورى ، آية : ١٥ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٠٨ .

الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ (١) .

فإبليس حين أبعد وطرد ، ساءه أن يرى آدم وزوجه ينعمان في الجنة ، فعزم على إغوائهما ، ولجأ إلى الكذب والمكر والخداع ، فمنّاهما بالخلود إذا أكلا من الشجرة ، وأسماها شجرة الخلد ، كما أخبر سبحانه عن ذلك بقوله : ﴿ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ (٢) ، وقوله جلّ وعلا : ﴿ قال يا آدم هل أدلُّك على شجرة الخُلْدِ وملكٍ لا يبلىٰ ﴾ (٣) ، وتمت مشيئة الله فأكل آدم من الشجرة ، لتقع العداوة بين إبليس وبني آدم إلى أن يأتي أمر الله .

٢ - أمر بني آدم بالمعاصي وتعليمهم السحر ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (٤) .

وذلك أنه يدخل إلى النفوس من خلال حظوظها ، فالإنسان يحب معاشرة النساء فيزين له الفاحشة ، ويحب المال ويكره الفقر ، فيسول له الشيطان أنه إن أخرج الزكاة افتقر ليمنعها ، قال مقاتل : « كل مافي القرآن من ذكر الفحشاء فإنه الزنى إلا قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ فإنه منع الزكاة » (٥) .

ولمزيد من السعي في إضلال بني آدم أمال الشيطان قلوب أناس لتعلُّم السحر والكهانة قال تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكنّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ (٦) .

فهذه الآيات وأمثالها استدلالات قرآنية لكشف أوجه العداوة المتأصلة في إبليس وذريته تجاه آدم وذريته ، وبيان طرقه في إغواء بني آدم التي صرح بها للرب جلّ وعلا : ﴿ قال فبما أغويتني لأقْعُدَنَّ لهم صِراطَك المُسْتَقِيم * ثم لآتِيَنَّهم مِن بينِ أيدِيهِم ومن خَلفِهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثَرَهم شاكرين ﴾ (٧) . وليدرك المسلم جانباً من حكمة الله تعالى حين نهى عن اتباع الشيطان ، وأمر بالاستقامة على أمره .

(١) سورة البقرة ، آية : ٣٥ - ٣٦ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٢٠ - ٢١ .
(٣) سورة طه ، آية : ١٢٠ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٦٨ - ١٦٩ .
(٥) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٢١٠ ، والآية في سورة البقرة ، رقم ٢٦٨ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٠٢ .
(٧) سورة الأعراف ، آية : ١٦ - ١٧ .

ثالثاً : تصديق الأقوال بالأفعال :

تطابق الأقوال والأفعال واحد من الأخلاق الهامة ، والسلوكيات الضرورية لكل مسلم ، والداعية بخاصة ، لأنه محطٌ للأنظار ، وقدوةٌ للمدعو . والأفعال تصدق الأقوال وتترجمها إلى واقع عملي مشاهد ، يسهل إدراكه والاقتناع به .

ومن هنا اهتم القرآن الكريم - في ثنايا نصوصه الكريمة - بالحث على هذا الخلق وترسيخه، ومن الدلائل عليه في سورة البقرة ما يأتي :

١ - مخالفة القول للعمل إهمال للعقل وانحراف عن الفطرة ، قال تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ (١) .

والخطاب هنا في غاية التقريع والتوبيخ لعلماء أهل الكتاب الذين أغفلوا عقولهم حين أمروا الناس بالخير وأرشدوهم إليه ، وتركوا أنفسهم ، فعمل كهذا حطٌ من قدر العقل ، وإزراء به ، إذ « المقصود من أمر الغير بالبر النصيحة والشفقة ، وليس من العقل أن يشفق الإنسان على غيره وينسى نفسه » (٢) ، قال ابن عباس رضي الله عنه : « كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم باتباع التوراة ، وكانوا يخالفونها في جحدهم منها صفة محمد ﷺ » (٣) .

كما أن الدعوة إلى البرّ الذي هو « اسم جامع لأعمال الخير » (٤) ومخالفته ، آفة توقع الشك في نفوس المدعوين ، وتبلبل قلوبهم وأفكارهم ، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً ، ويرون عملاً قبيحاً ، فتزول الثقة ، ولا يبقى لكلام الداعية صدىً في نفوسهم ، يقول سيد قطب : « إن الكلمة لتنبعث ميّتة ، وتصل هامدة ، مهما كانت طنّانة رنّانة متحمسة ، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها ، ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حيّة لما يقول ، وتجسيماً واقعياً لما ينطق ، عندئذٍ يؤمن الناس ، ويثق الناس » (٥) .

والآية هذه وإن خوطب بها أهل الكتاب ، لكنها تتناول كل من اتصف بذلك ، بل إن القرآن الكريم خاطب المؤمنين بقريب منها في قوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ★ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ (٦) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٤٤ .
(٢) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ٣٦٥ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ٤٦ .
(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٧٥ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٣٦٥ . وهناك أقوال أخرى انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٨ .
(٤) الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ٤٥ . والقرطبي ١ : ٣٦٨ .
(٥) سيد قطب ، في ظلال القرآن ١ : ٦٨ .
(٦) سورة الصف ، آية : ٢ - ٣ .

٢ - صدق الإيمان يتطلب تحقيقه عملياً ، قال تعالى : ﴿ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرّقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (١) .

والخطاب في هذه الآية الكريمة يتوجه إلى المؤمنين الذين ظن بعضهم أن التوجّه إلى الكعبة غايةُ البرّ ، كما يتوجه إلى أهل الكتاب الذين طعنوا على المسلمين في تغيير القبلة فقالوا كما أخبر القرآن الكريم عنهم : ﴿ ما وَلّاهم عن قِبلَتِهِمُ التي كانوا عليها ﴾ (٢) ، فنبهت إلى أن تحقق البرّ لايتأتى من استقبال القبلة وحده ، بل لابد من خصال أخرى معه هي : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكُتُب ، الأنبياء ، وإخراج الزكاة ، وصلة الرحم ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين ، وفك الرقاب ، وإقام الصلاة ، والوفاء بالعهد ، والصبر في الشدائد (٣) .

فمن تمثلت فيهم هذه الخصال فهم الذين علت هممهم ، وعظمت أخلاقهم ، وصدقوا في دعوى الإيمان ، يقول الطبري : « فمن فعل هذه الأشياء فهم الذين صدقوا الله في إيمانهم وحققوا قولهم بأفعالهم ، لا من ولّى وجهه قبل المشرق والمغرب وهو يخالف الله في أمره ، وينقض عهده وميثاقه ، ويكتم الناس بيان ما أمره الله ببيانه ، ويكذّب رسله » (٤) .

رابعاً : الثبات على الحق :

ينبع هذا الخلق من ترسخ الإيمان في النفوس ، فطريق الدعوة مليء بالابتلاءات والمحن والعوائق الهادفة إلى زعزعة الإيمان في نفوس أصحابه ، قال تعالى : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبيّن لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ﴾ (٥) .

ومن الأدلة الداعية إلى هذا الخلق في سورة البقرة ما يأتي :

١ - قوله تعالى : ﴿ ولَنَبْلُوَنّكم بشيء من الخَوفِ والجُوعِ ونَقصٍ مِن الأموال والأنفس

(١) سورة البقرة ، آية : ١٧٧ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٢ .
(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٤١ .
(٤) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ١٠ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٠٩ .

والثمرات وبشّر الصابرين ﴾ [1] .

فهذا إخبار من الله تعالى لأتباع النبي ﷺ أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور ، ليعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه [2] ، وإنما تقدم إخبارهم بذلك ليوطنوا أنفسهم على الصبر على هذه الابتلاءات إذا وردت ، فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع ، وأسهل عليهم بعد الورود [3] .

والكفار إذا رأوا المؤمنين ثابتين على دينهم رغم ما يقع لهم من خوف وجوع وفقر وقتل ؛ يدركون أن هؤلاء إنما اختاروا هذا الدين لقطعهم بصحته ، فيدعوهم ذلك إلى مزيد من التأمل في دلائله .

كما أن من شأن الابتلاء التمحيص ، وتمييز الصادق في إيمانه عن الكاذب ، فإن المؤمن يصبر عند البلاء ويثبت على دينه ويتشبث به ، أما المنافق فسرَعان ما يخذل الدين وينقلب على أهله .

٢ - قوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذي آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ [4] .

فالابتلاء والاختبار مثلُ أنبياء اللهِ وصفوةِ خلقه ، وهم - أي الرسل عليهم السلام - في غاية الثبات والصبر عند نزول البلاء ، فإذا بلغ بهم الجهد ، وتساءلوا عن النصر ، كان ذلك الغاية القصوى في الشدّة ، عند ذلك يتنزل النصر إجابة لطلبهم ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ [5] ، فكأنه قيل : وأنتم يامعشر المؤمنين اقتدوا برسل الله تعالى ، وتحملوا الأذى والمشقة في طلب الحق والثبات عليه ، فإن نصر الله آت [6] ، ومدّخرٌ لمن يستحقونه « ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية ، الذين يثبتون على البأساء والضراء ، والذين يصمدون للزلزلة ، الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة ، الذين يستيقنون ألا نصرَ إلا نصرُ الله ، وعندما يشاء الله وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها فهم يتطلعون فحسب إلى نصر الله » [7] .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٥٥ .
(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٢١٩ .
(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٥ : ١٤٩ - ١٥٠ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢١٤ .
(٥) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٦ : ٢٠ .
(٦) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ٣ : ٢٠٧ . والرازي ، التفسير الكبير ٦ : ٢٠ . وأبوحيان ، البحر المحيط ٢ : ١٤٠ .
(٧) سيد قطب ، في ظلال القرآن ١ : ٢١٩ .

خامساً : الإحسان في النفقة :

حث الله تعالى على السخاء والبذل في سبيله ، فأمر بالإنفاق فرضاً وتطوعاً في عدد من آيات سورة البقرة منها قوله سبحانه : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ (١) ، وقوله جلّ وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفِقُوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يومٌ لابيعٌ فيه ولا خُلّة ولا شَفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ (٢) ، وقوله عزّوجل : ﴿ الذين يُنفِقون أموالهم بالليل والنّهار سِرّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٣) .

وبذل المال لمن يستحقه يجعل المجتمع أسرة يسودها التعاون والتكافل والتوادّ والتراحم ، فتقوى الروابط الاجتماعية ، وتتوثق عرى الأخوة .

كما أن الزكاة ذاتها تزكي نفس الباذل وتطهّرها ، وتذكره بنعمة الله تعالى عليه ، وتواسي الآخذ وتسدّ خلته ، وتستر عورته ، فيستحق المعطي على ذلك الأجر الجزيل والثواب العظيم .

وحتى يثبت ذلك الأجر ويستقر في صحيفة الباذل ؛ نبّهت الآيات الكريمة إلى ضرورة الإحسان في النفقة ، وإخراجها على وجهها المشروع ، ومن الأدلة على ذلك في سورة البقرة مايلي :

١ - ترتيب الأجر على الصدقة التي لا يتبعها منّ ولا أذى ، قال تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لايُتْبِعُون ما أنفقوا منّا ولا أذىً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٤) .

٢ - تفضيل ردّ السائل بالحسنى على الصدقة التي يتبعها أذى ، قال تعالى : ﴿ قول معروفٌ ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذىً والله غنيّ حليم ﴾ (٥) .

٣ - إبطال ثواب الصدقة التي يَتْبَعُها مَنٌّ أو أذى ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ (٦) .

والمَنُّ « إظهار الاصطناع إلى الآخذ ، والأذى شكايته منه بسبب ما أعطاه » (٧) ، وهما يعكسان نفسية راغبة في الاستعلاء على الآخذ وإذلاله ، وكسر قلبه ، مع لفت أنظار الناس إليه ،

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٤٥ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٧٤ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٦٢ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٦٣ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٦٤ .
(٧) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٤٦ .

ومن ثَمّ يكون ذلك الإنفاق أذى للواهب والآخذ ، « أذىً للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء ، ورغبة في رؤية أخيه ذليلاً له كسيراً لديه ، وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله ، وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام ، ومن ردّ فعل بالحقد والانتقام »[1] .

لذا فضّل الله تعالى القولَ الجميل ، والدعاءَ للسائل ، وستَرَ حاجته وخَلّتِه ؛ على الصدقة التي يتبعها منّ وأذى[2] ، لأن ضررهما وإثمهما أكبر من ثواب الصدقة ، فيذهب الثواب ، وتبقى الملامة والعقاب .

٤ - إخراج الزكاة من أوسط المال ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد ﴾[3] .

والخبيث : الرديءُ ، غيرُ الجيد ، أي لا تَعْمَدوا أو تقصدوا إلى الرديء فتخرجوه عن المال الجيد .

ونزلت هذه الآية في أناس من الأنصار أدخلوا حشفاً في زكاة تمرهم ، فعاب الله عليهم ذلك ونهاهم عنه ، فلما أوجب سبحانه زكاة المال أمر بإخراج الجيّد عن الجيّد ، وأن لا يستبدل به الرديء ، فلو أنها كانت مقاضاة أو مواهَبةً لما قبلوا ذلك إلا عن كراهة وغضّ بصر ، أو حطّ من قيمته ، فلا يليق بهم إذْ لم يرضوه لأنفسهم أن يرضوه لله سبحانه[4] .

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ١ : ٣٠٧ .
(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٢٠ و ٥٢١ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٦٧ .
(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٦٧ - ٥٦٨ ، وروى عن علي أبي طالب أن هذه الآية في الزكاة المفروضة [٥ : ٥٦١] ، وذهب إلى جواز إخراج الرديء في صدقة التطوع لكثرته وعموم نفعه ، مع كراهته لذلك [٥ : ٥٦٨ - ٥٦٩] .

الباب الثاني

وسائل الدعـوة بالمنهج العقلي
من خلال سورة البقرة

الفصل الأول

الاستدلال بالغيب

تمهيد

تعريف الغيب :

الغيب في اللغة : الاستتار [1] سواء كان مادياً أم معنوياً ، وعليه تنقاس جُلّ المعاني ، فابن منظور يقول : « والغيب أيضاً ما غاب عن العيون ، إن كان محصلاً في القلب » [2] ، ويقول ابن عطية : « والغيب في اللغة ما غاب عنك من أمر » [3] ، وقال الراغب الأصفهاني : « واستعمل - أي الغيب - في كل غائبة عن الحاسة ، وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب » [4] .

وفي الاصطلاح عرفه ابن العربي بأنه : « ما غاب عن الحواس مما لا يوصل إليه إلا بالخبر دون النظر » [5] . كما عرّفه الراغب الأصفهاني بأنه : « ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام ، وبدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد » [6] .

وتعدد أقوال العلماء في المراد بالغيب في قوله تعالى : ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ [7] كما في الآتي :

١ - الله عزّوجل ، أو من الإيمانِ بالغيب الإيمانُ بالله [8] .

٢ - القضاء والقدر [9] .

٣ - القرآن الكريم ومافيه من الغيوب [10] .

٤ - ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدي إليه العقول من أشراط الساعة ، وعذاب القبر ،

---

(١) انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٤ : ٤٠٣ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ١ : ٦٥٤ .

(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٤٦ .

(٤) الراغب الأصفهاني ، المفردات : ٣١٦ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٢٧ .

(٥) ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ٨ .

(٦) الراغب الأصفهاني ، المفردات : ٣٦٧ .

(٧) سورة البقرة ، آية : ٣ .

(٨) انظر : ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ١٤ : ٥١ ، ووفق بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ [الأعراف : ٧] حيث نفى سبحانه عن نفسه هنا أن يكون غائباً بأن « اسم الغيب والغائب من الأمور الإضافية ، يراد به ما غاب عنا فلم ندركه ، ويراد به ما غاب عنا فلم يدركنا ، وذلك لأن الواحد منا إذا غاب عن الآخر مَغيباً مطلقاً لم يدرك هذا هذا ولا هذا هذا ، والله سبحانه شهيد على العباد رقيب عليهم ، مهيمن عليهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فليس هو غائباً ، وإنما لمّا لم يره العباد كان غيباً ، ولهذا يدخل في الغيب الذي يؤمن به ، وليس هو بغائب » [مجموع الفتاوى ١٤ : ٥٢ . وانظر تفسير القرطبي ١ : ١٦٤] . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٤٥ . وابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ٨ وضعّفه . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٦٣ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٤ .

(٩) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٤٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٦٣ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٥ . والراغب الأصفهاني ، المفردات : ٣٦٧ .

(١٠) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٤٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٦٣ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٤ . والراغب الأصفهاني ، المفردات : ٣٦٧ .

والحشر ، والنشر ، والصراط ، والميزان ، والجنة ، والنار ... ونحو ذلك [1] .

٥ - الغيب هنا صفة للمؤمنين ، ومعناه : أنهم يؤمنون بالله حال الغيب كما يؤمنون به حال الحضور ، لا كالمنافقين الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون [2] .

ومبنى هذه الأقوال كلها كما تقدم على الاستتار ، لذا قال ابن عطية : « وهذه الأقوال لاتتعارض ، بل يقع الغيب على جميعها » [3] .

الدلالة العقلية للغيب :

الغيب من حيث العلم به - كما تظهر التعاريف الآنفة - لايكون عقلياً البتّة ، بل لايُعرف إلا عن طريق الوحي وإخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فهو من علم الله الذي اختص به ، قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يُظهِر على غيبه أحداً ٭ إلا من ارتضى من رسول فإنه يَسْلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ [4] .

ولكنه في ذاته وبعد وروده والعلم به دليلٌ عقلي قويّ على صحة النبوّة ، وصدق النبي ﷺ ، ومن براهين ذلك ما يأتي :

١ - إسلام عمير بن وهب الجمحي رضي الله عنه :

مبدأ إسلام عمير رضي الله عنه كان بعد غزوة بدر ، وذلك أنه عاهد سراً صفوان بن أمية في الحجر عند الكعبة على قتل النبي ﷺ ، ثم قدم المدينة المنورة ، ودخل المسجد متقلداً سيفه ، فلما حضر بين يدي النبي ﷺ سأله ﷺ عن سبب قدومه فتعلل بفداء أسير له عند المسلمين ، وأبى أن يبوح بسرّه ، فقال له النبي ﷺ : « فماذا شرطت لصفوان بن أمية في الحجر . ففزع عمير وقال : ماذا شرطت له ؟ قال تحملت بقتلي على أن يعول بنيك ويقضي دينك ، والله تعالى حائل بينك وبين ذلك . قال عمير : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . كنا يارسول الله نكذبك بالوحي وبما يأتيك من السماء ، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر كما قال رسول الله ﷺ

.

---

(١) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٤٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٦٣ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٥ . والنسفي، تفسير النسفي ١ : ١٣ . وابن منظور ، لسان العرب ١ : ٦٥٤ . والألوسي ، رح المعاني ١ : ١٨٩ .

(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٢٧ . والنسفي ، تفسير النسفي ١ : ١٣ .

(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٤٦ .

(٤) سورة الجن ، آية : ٢٦ - ٢٧ .

لم يطلع عليه أحد غيري وغيره ، فأخبرك الله عزّوجل به فآمنت بالله ورسوله ، والحمد لله الذي ساقني هذا المساق » [١] .

٢ – إسلام قُباث بن أشْيم الكناني :

شهد قباث بدراً مع المشركين ، فلما رأى انهزامهم قال في نفسه : « ما رأيت مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء » لما يرى من قلة المسلمين وكثرة المشركين . حتى إذا كان بعد الخندق وقع في نفسه أن يقدم المدينة ويجالس النبي ﷺ وينظر في الإسلام ، فلما أقبل على النبي ﷺ ، قال له النبي ﷺ : « يا قباث بن أشيم ، أنت القائل يوم بدر : ما رأيت مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء ؟ فقال قباث : أشهد أنك رسول الله ، وإن هذا لأمرٌ ما خرج مني إلى أحدٍ قطّ ، وما تَدَمْدَمْتُ به إلا شيئاً حدّثت به نفسي ، ولولا أنك نبي ما أطلعك الله عليه » ثم أسلم [٢] .

٣ – ما كتمه اليهود من علمهم وأخبار سلفهم :

العلم عند اليهود محصور في فئة منهم ، لذا فإن علوم التوراة وغيرها من الكتب المقدسة عند اليهود مغيبة عن العامة منهم فضلاً عن غيرهم ، فلما سمعوا بعضها من النبي ﷺ فزعوا وتلاوموا واتهموا منافقيهم بإعلانها .

روى الطبري في معنى قوله تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴾ [٣] قال : « قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم فقال : يا إخوان القردة ، ويا إخوان الخنازير ، ويا عبدة الطاغوت . فقالوا من أخبر هذا محمداً » [٤] .

ويتبيّن من هذه المواطن وأمثالها أن دلالة الغيب قائمة على الربط والاستنتاج ، وهما عمليتان عقليتان يتوصل من خلالهما إلى نتيجة معينة ، ففي قصة عمير وقُباث رضي الله عنهما تم الربط بين الإسرار والإخبار واستنتاج الحقيقة وهي نبوّة محمد ﷺ ، ووافق الاستنتاج نور في البصيرة وهداية من الله تعالى فبادرا إلى الإسلام .

وأما اليهود فلم يشاؤوا الاعتراف بالحقيقة مع علمهم بها ، وأخذوا يفتشون عن مصدرٍ آخر غير الوحي « من أخبر هذا محمداً » ، فأجابهم الله تعالى : ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرّون

---

(١) البيهقي ، دلائل النبوة ٣ : ١٤٧ – ١٤٨ .
(٢) انظر : البيهقي ، دلائل النبوة ٣ : ١٥٠ .
(١) سورة البقرة ، آية : ٧٦ .
(٤) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٥٢ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٢٩ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٣ – ٤ .

وما يعلنون ﴾ (١) . ومما يدل على معرفتهم بالحقيقة أن كعب بن أسد عرض على قومه بني قريظة يوم حاصرهم النبي ﷺ ثلاث خلال أولاها : « نتابع هذا الرجل ونصدّقه فوالله لقد تبيّن لكم أنه نبيّ مرسل ، وأنّه للّذي تجدونه في كتابكم » (٢) * .

(١) سورة البقرة ، آية : ٧٧ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ج٢ : ٢٣٥ .
* لمعرفة أنواع الغيب وآثاره الفردية والاجتماعية انظر : د . زاهر الألمعي ، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن ٢٥٨ - ٢٦٩ .

المبحث الأول

قصص الأنبياء والأقوام السابقين

القصص القرآني هو ذكر أخبار الأنبياء المتقدمين وغيرهم[١] ممن جرت لهم حوادث ووقائع أخبر عنها النبي ﷺ بما أوحى الله إليه .

وليس القصد من القصص القرآني السرد التاريخي ، بل الإفادة منه في عملية الدعوة إلى الله ، مع فوائد أخرى استنبطها العلماء ، منها[٢] :

١ - إثبات نبوة محمد ﷺ ، لأنه أخبر عنها من غير تعلم ، قال تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[٣] .

٢ - إثبات الوحدانية لله تعالى ، قال ابن جزى : « ألا ترى أنه لما ذكر إهلاك الأمم الكافرة قال : ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يَدعون مِن دون اللهِ مَن شيء لمَّا جاء أمر رَبِّك وما زادوهم غير تَتْبيب ﴾[٤] » .

٣ - تعريف النبي ﷺ بطبائع المدعوين وأخلاقهم ، بذكر مالاقى الأنبياء من أقوامهم ، وفي ذلك تسلية له ﷺ ، وتوطئة تشعره بوقوع العداوة والمكابرة منهم ، قال تعالى : ﴿ ولقد كُذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا حتّى أتاهم نصرُنا ولا مُبدّل لكلمات الله ولقد جاءك من نَبأ المرسلين ﴾[٥] ، وقال سبحانه : ﴿ وكلاً نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[٦] .

٤ - التنبيه إلى الاتعاظ والاعتبار بما حل بالأمم السابقة من عقاب لمّا كذبت وعتت عن أمر ربها ، قال سبحانه : ﴿ وكذلك أخْذُ ربِّك إذا أخَذَ القرى وهي ظالمة إنّ أخْذَه أليم شديد ★ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾[٧] .

(١) انظر : ابن جزى ، التسهيل ١ : ١٠ .

(٢) انظر : ابن جزى ، التسهيل ١ : ١٠ . والرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٣٢ - ١٣٣ . وأبوحيان ، البحر المحيط ٢ : ٢٥١ . والبقاعي ، نظم الدرر ٣ : ٣٨٧ . وابن عاشور ، التحرير والتنوير ج١ : ك٢ : ٤٤٨ . ومحمد قطب ، دراسات قرآنية : ٩٩ - ١١١ . ومناع القطان ، مباحث في علوم القرآن : ٣٠٧ .

(٣) سورة هود ، آية : ٤٩ .

(٤) سورة هود ، آية : ١٠١ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ٣٤ .

(٦) سورة هود ، آية : ١٢٠ .

(٧) سورة هود ، آية : ١٠٢ - ١٠٣ .

٥ - محاجّة أهل الكتاب فيما كتموه من علم ، فالقرآن الكريم علّم المؤمنين ما يعلمه علماء بني إسرائيل ويخفونه عن العامة ، قال تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلَمَه عُلماء بني إسرائيل﴾ [١] ، قال الطاهر بن عاشور : « فجاء القرآن في هذه المجادلات معلماً أيضاً للمسلمين وملحقاً لهم بعلماء بني إسرائيل ، حتى تكون الدرجة العليا لهم ، لأنهم يضمون هذا العلم إلى علومهم اللسانية ونباهتهم الفكرية ، فتصبح عامة المسلمين مساوية في العلم لخاصة الإسرائيليين » [٢] .

وأما طريقة القرآن الكريم في عرض القصص ، فإنه يورد أحياناً القصة كاملة بكل مجرياتها كما في قصة البقرة [٣] وقصة طالوت عليه السلام [٤] ، وقصة يوسف عليه السلام . وتارة يذكر بعضاً من القصة بالقدر الذي يحقق الهدف من ذكرها كما في قصة خلق آدم عليه السلام [٥] . وتارة يشير إلى القصة إشارة عاجلة في موطن ما ، ويوردها مفصلة أو موجزة في موطن آخر كما في قوله تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ★ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظةً للمتقين ﴾ [٦] ، جاءت مفصلة في سورة الأعراف [٧] .

ومن القصص الذي ساقته سورة البقرة مايأتي :

أولاً : قصة بني إسرائيل مع فرعون ، التعذيب والخروج [٨] :

أشارت الآيات الكريمة في سورة البقرة إشارة سريعة إلى قصة نجاة بني إسرائيل من تعذيب فرعون وهلاكه ، قال تعالى : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ★وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ [٩] ، وذكرت بشيء من التفصيل في سورة القصص ومواطن أخرى من القرآن [١٠] .

---

(١) سورة الشعراء ، آية : ١٩٧ .
(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ١ : ٢ : ٤٤٨ .
(٣) انظر : سورة البقرة ، آية : ٦٧ - ٧٣ .
(٤) انظر : سورة البقرة ، آية : ٢٤٦ - ٢٥١ .
(٥) انظر : سورة البقرة ، آية : ٣٠ - ٣٨ .
(٦) انظر : سورة البقرة ، آية : ٦٥ - ٦٦ . وانظر مفصلا طريقة عرض القرآن للقصص : عفيف طبارة ، اليهود في القرآن : ٢٥٦ .
(٧) الآيات في سورة الأعراف برقم ١٦٣ - ١٦٦ وانظر ص ١٤٤ من هذه الرسالة .
(٨) انظر : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ١ : ٣٨٥ - ٤١٤ . وابن كثير ، البداية والنهاية ١ : ٢٥٥ - ٢٥٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٣٨٣ - ٣٨٥ و ١ : ٣٩٠ و ١٥ : ٣٠٥ .
(٩) سورة البقرة ، آية : ٤٩ - ٥٠ .
(١٠) انظر : سورة يونس ، آية : ٨٣ - ٩٢ . وسورة القصص ، آية : ٤ و ٤٠ .

وسرد القصة : أن بني إسرائيل مكثوا زمناً بعد يوسف عليه السلام تحت أيدي الفراعنة ، فامتهنوهم ، واستعملوهم في الصناعات الشاقة والمبتذلة ، واتخذوا منهم الخدم ، ومن عجز عن العمل فرضوا عليه الجزية .

ويروى أن إبراهيم عليه السلام بشّر بخروج نبي من بني إسرائيل يكون هلاك ملك مصر على يديه ، فتحدث بنوإسرائيل بذلك لما تقارب زمان موسى عليه السلام ، وتناقلها القبط حتى بلغت فرعون (الوليد بن مصعب) . وقيل إن المنجمين قالوا لفرعون : إنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل أظلك زمانه الذي يولد فيه ، يسلبك ملكك ، ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك من أرضك ، ويبدل دينك . فأمر فرعون بذبح كل غلام يولد لبني إسرائيل ، وإسقاط الحبالى . فكان هذا هو القتل الأول ، حذراً من وجود موسى عليه الصلاة والسلام .

وتدلّ الآيات الكريمة أن الذبح وقع مرة أخرى في غلمان بني إسرائيل بعد مبعث موسى عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليُفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون * قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثُها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذِينا من قبل أن تأتيَنا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يُهْلِك عدوّكم ويَسْتَخلِفَكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ فلما جاءهم بالحقِّ من عِندِنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيُوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ (٢) .

فظاهر الآيات يدلّ على أنه هذا القتل وقع بعد المبعث ، بل بعد يوم الزينة ونصر الله تعالى لموسى ، عَمَد إليه فرعونُ وآلُه ليمنعوا الناس من الإيمان ، وخشية أن يعتضد بنوإسرائيل بأبنائهم ، ولكن الله تعالى شغلهم عن ذلك بأنواع من العذاب (٣) ، قال تعالى : ﴿ ولقد آخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذّكرون ﴾ (٤) .

فلما آذن الله تعالى بخلاص بني إسرائيل ، وهلاك فرعون ، أمَرَ موسى عليه السلام أن يخرج بقومه ، قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متّبعون * فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * إنَّ هؤلاء لشِرْذِمَة قليلون * وإنَّهم لنا لغائظون * وإنا لجميعٌ حاذرون * فأخرجناهم من جنّات وعُيون * وكنوزٍ ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٢٧ – ١٢٩ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٢٥ .
(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٥ : ٣٠٥ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٣٠ .

تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ★ قال كلا إنَّ معيَ ربي سيهدين ★ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ★ وأزلفنا ثم الآخرين ★ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ★ ثم أغرقنا الآخرين ★ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ (١) .

يروى أنه لما بلغ فرعون نبأ خروجهم قال : لا تخرجو خلفهم حتى تصيح الديكة ، فلم يصح تلك الليلة ديك ، وقيل : ألقى الله تعالى الموت فيهم ، فأصبحوا مشغولين بدفن موتاهم ، ثم خرجوا في جمع كثيف يتقفون أثر بني إسرائيل ، وكان هؤلاء شارفوا على البحر ، فلمّا اقترب جمع فرعون أمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه وكنّاه أبا خالد ، فانفلق اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق ، وبين الأطواد قناطر يتراءون منها حتى خرجوا .

واقتحم فرعون وقومه البحر حتى إذا دخل آخرهم وكاد يخرج أولهم ؛ التطم البحر عليهم فأغرقوا .

ثانياً : قصة رفع الطور (٢) :

ورد ذكر هذه الحادثة في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ★ ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنهم واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا مافيه لعلكم تتقون ﴾ (٤) .

ومعالم هذه القصة كما روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وغيره : أن موسى عليه الصلاة والسلام جاء من عند الله بالألواح التي فيها التوراة وأمرهم بقبولها والأخذ بها بجد وعزم ، فقالوا : انشرها علينا ، فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلنا . فقال : بل اقبلوها بما فيها . فراجعوه مراراً ، فأمر الله تعالى برفع الطور فوقهم .

وقيل : لمّا جاء موسى بالألواح قال لهم : خذوها والتزموها . فقالوا : لا إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك . فصعقوا . ثم أحيوا ، فقال لهم : خذوها . فقالوا : لا . فأمر الله تعالى برفع الطور فوق رؤوسهم ، حتى صار كأنه ظلة ، ثم أمروا بأخذ التوراة بالميثاق ، فأخذوها . وأمروا بالسجود ،

(١) سورة الشعراء ، آية : ٥٢ - ٦٧ .
(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٣١ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٤٣٦ - ٤٣٧ . وابن كثير ، البداية والنهاية ١ : ٢٧٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٦٣ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٧١ .

فسجدوا ، وجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم . فرحمهم الله تعالى . قال ابن كثير : « فصارت سنة لليهود إلى اليوم ، يقولون : لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب »(١) .

ثالثاً : قصة المسخ(٢) :

نوّهت بهذه القصة آيتان من سورة البقرة هما قوله تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ★ فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ (٣) ، وجاءت بتفصيل أكثر في قوله تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يَعْدُون في السبت إذ تأتيهم حيتانُهم يوم سبتهم شُرّعاً ويوم لا يَسْبِتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ★ وإذ قالت أمة منهم لم تَعِظُون قوماً اللهُ مُهْلِكُهم أو معذِّبُهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتّقون ★ فلما نسوا ماذُكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيسٍ بما كانوا يفسقون ★ فلما عَتَوا عمّا نُهُوا قلنا لهم كونوا قِرَدة خاسئين ﴾ (٤) .

ومبدأ هذه القصة أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام بيوم الجمعة كما أمر بها سائر الأنبياء ، فأمر بها موسى بني إسرائيل ، فأبوا - جرياً على طبائعهم - واختاروا السبت ، فأوحى الله سبحانه إلى موسى أن دعهم وما اختاروا ، ثم امتحنهم فأمرهم بترك العمل فيه ، وعدم اصطياد السمك ، وزاد في امتحانهم فألهم حيتان البحر الشعور بالأمن في ذلك اليوم ، فكانت تتكاثر ذلك اليوم حتى تتراءى للناس ، فإذا انقضى السبت صارت صيداً كسائر الأيام .

فمكثوا على ذلك دهراً ، حتى وسوس الشيطان لرجالٍ من أهل أيلة - اسم القرية المذكورة في الآية - في زمان داود عليه السلام أن الله تعالى إنما نهاكم عن أخذها يوم السبت ، ولم تنهوا عن أخذها في غيره . فاحتالوا لأخذها ، قيل : عمد رجل إلى حوتٍ فربطه بحبل وضرب له بالساحل وتداً ، فإذا انقضى السبت أخذه ، فسمع قوم بفعله فصنعوا مثل ما صنع . وقيل : بل حفروا حياضاً بساحل البحر ، فيقبل الموج بالحيتان يوم السبت حتى يلقيها فيها ، فإذا جزر لم تطق الخروج من

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ١ : ٢٧٤ .
(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ١٦٨ - ١٧٣ . والرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٠٩ - ١١٠ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٣٤ - ٣٣٨ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٤٤٠ - ٤٤٣ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٩٤ - ٩٥. والخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل ١ : ٦٨ - ٦٩ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٦٥ - ٦٦ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٦٣ - ١٦٦ .

الحياض . وهم مع ذلك يحاذرون العقوبة ، فلما أبطأت عليهم صادو السمك علانية ، وباعوه في الأسواق .

وصار أهل القرية ثلاثة أصناف : صنف أمسك عن الصيد ، ونهى عن المعصية . وصنف أمسك ولم يَنْهَ . وصنف وقع في المعصية فصاد وانتهك حرمة الله ، ولم يقبل النصيحة . فحلّت به العقوبة .

قيل : إن الناهين هجروا العاصين وقسموا القرية بينهم بجدار ، فكان يخرج هؤلاء من باب ، وهؤلاء من باب ، فخرج الصالحون ذات يوم من بابهم ، ولم يخرج أولئك ، فلما أبطؤوا عليهم تسوروا الجدار ، فإذا هم قد مسخوا . وقيل : بل دخلوا بيوتهم ليلاً ، فأصبح الناهون خارجين إلى مساجدهم وأنديتهم ، وبيوت العصاة مغلقةً أبوابها لم يخرج منها أحد ، فنظر الناهون فيها فإذا هم قد مسخوا . قال قتادة : « صار الشبان قردة ، والشيوخ خنازير ، وما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم »[١] ، ومكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتناسلوا .

رابعاً : قصة البقرة وقتيل بني إسرائيل [٢] :

قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تَذْبَحوا بقرة قالوا أتتخذُنا هُزُواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ★ قالوا ادع لنا ربك يُبَيِّن لنا ما هي قال إنَّه يقول إنها بقرة لافارضٌ ولا بِكرٌ عَوَانٌ بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ★ قالوا ادع لنا ربَّك يُبَيِّن لنا ما لونُها قال إنَّه يقول إنَّها بقرة صفراء فاقعٌ لونها تَسُرُّ الناظرين ★ قالوا ادع لنا ربك يُبَيِّن لنا ما هيَ إنَّ البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون ★ قال إنَّه يقول إنَّها بقرة لاذلولٌ تُثِير الأرضَ ولا تَسْقي الحرثَ مُسَلَّمَةٌ لاشِيَةَ فيها قالوا الآن جئت بالحقِّ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾[٣] .

ولم ترد هذه القصة إلا في هذا الموضع من القرآن ، وبيان سببها ما روي أن رجلاً من بني إسرائيل كان شيخاً كبيراً كثير المال ، ولا وارث له إلا بنو أخيه ، وقيل ابن أخ واحد له ، فتعجل الميراث واستبطأ موت عمه فقتله وألقاه في مجمع طرق ، فأصبح الناسُ قد اختصموا فيه وتنادوا إلى السلاح ، فحذرهم أولي النُّهَى من ذلك وأمروهم أن يتحاكموا إلى موسى عليه السلام .

(١) ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٩٥ . واختلفت الأقوال فيمن هلك ، فروى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الناجين هم الناهون فقط [تفسير الطبري ٢ : ١٧٠] ، وتقدم ذكر طرف من هذه الأقول صفحة ١١٨ من هذه الرسالة .

(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ١٨٦ - ٢٢٢ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٢٠ - ١٢٤ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٣٩ - ٣٥٢ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٩٦ - ١٠٢ . وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ١ : ١٠٩ - ١١٠ . وابن كثير ، البداية والنهاية ١ : ٢٧٤ - ٢٧٥ . والنسفي ، تفسير النسفي ١ : ٥٣ - ٥٦ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٦٧ - ٧٣ .

وقيل : كان لهذا الشيخ الموسر ابنة ، وابن أخ له فقير ، فخطبها ، فأبى أن يزوجه ، فآلى أن يقتل عمه ويتزوج ابنته ويرث ماله ويأكل ديته ، فطلب من عمه أن يذهب معه إلى تجارٍ في سبط من أسباط بني إسرائيل فأجابه ، فخرجوا ليلاً ، حتى إذا بلغا السبط قتله الفتى ورجع ، فلما أصبح جاء يطلب عمه كأنه لايعرف من أمره شيئاً ، ثم توجه إلى ذلك السبط فرآهم قد اجتمعوا عليه ، فاتهمهم بقتله وطالبهم بديته ، فاختصموا وترافعوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام ، فأمرهم أن يذبحوا بقرة .

ولم تكن بقرةً موصوفة بعينها حين قال : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ ، ولكن جرياً على طبائعهم السيئة في التعنت وكراهية الالتزام بأحكام ربهم وأقوال أنبيائهم ، أخذوا يجادلون فيها ، فشدد الله تعالى عليهم ، وألزمهم ذبح بقرة عزيزٍ وجودها :

- ﴿ لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ والفارض : الهرمة التي لا تلد . والبكر الصغيرة التي لم تلد ، وقيل : التي لم تلد إلا ولداً واحداً [1] . والعوان : التي بينهما ، قال الطبري : « النصف التي ولدت بطناً بعد بطن » [2] .

- ﴿ صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين ﴾ أي ناصعٌ صافٍ ، يعجب الناظرين سمتها ومنظرها كله [3] .

- ﴿ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها ﴾ أي لم يُذللها العمل فتثير الأرض أو تسقي الزرع ، مسلمة منه ، وقال ابن كثير : « هي الصحيحة التي لا عيب فيها » [4] ، وليس فيها لون يخالط لونها أو يخالفه [5] .

فطلبها بنوإسرائيل ، فوجدوها - فيما روي - عند رجل بارّ بوالديه ، فأرادوه على بيعها فأبى، فما زالوا به حتى شروها منه بملء جلدها ذهباً ، وقيل بأكثر من ذلك . ثم ذبحوا البقرة وضربوا القتيل ببعضها فأحياه الله تعالى ، قال ابن كثير : « فقام وهو يشخب أوداجه ، فسأله نبي الله : من قتلك ؟ قال : قتلني ابن أخي . ثم عاد ميّتاً كما كان » [6] ، * .

(١) انظر : ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٥٢ - ٥٣ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٤٢ .
(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ١٩٣ .
(٣) انظر : ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٥٣ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٤٤ .
(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ١ : ٢٧٥ . وذُكِر وجه آخر هو أنها كانت تحرث ولا تسقي ، ولكن ضعفه الماوردي فقال : « وليس هذا الوجه بشيء ، بل نفى عنها جميع ذلك » [النكت والعيون ١ : ١٢٣ .
(٥) انظر : ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٥٤ . والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ١٨٦ .
(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ١ : ٢٧٥ .

★ وقصة البقرة في التوراة الحالية بعيدة عن الحقيقة المذكورة في القرآن الكريم ، ونصها : « إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك واقعاً في الحقل لا يعلم من قتله . يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل . فالمدينة القربى من =

خامساً : قصة بناء الكعبة [1] :

قال تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيمُ القَواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربَّنا تقبّل منّا إنّك أنت السَّمِيع العليم ★ ربَّنا واجعلنا مُسْلِمَين لك ومن ذُرِّيتنا أمّة مسلمة لك وأرِنا مناسكنا وتُب علينا إنّك أنت التوّاب الرَّحيم ★ ربَّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتِك ويعلِّمُهمُ الكتابَ والحِكْمَةَ ويزكّيهِم إنّك أنت العزيز الحكيم ﴾ [2] .

القواعد جمع قاعدة وهي الأساس ، والآيات الكريمة في مواطن أخرى من القرآن تبيّن معرفة إبراهيم عليه السلام بالبيت ، كما في قوله تعالى حاكياً عنه : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ [3] . وتذكر بعض الروايات أن آدم عليه السلام نزل به من الجنّة .

فجائز أن يكون آدم عليه السلام هبط به من الجنة ثم انهدم ، حتى أمر الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام برفعه فرفعاه . وجائز أن يكون المكان معيّناً معلوماً وقواعده من وضع الله تعالى ، وأول من رفعه هو إبراهيم عليه السلام، يقول ابن كثير : « لم تبن مكة إلا بعد إبراهيم عليه السلام وإسكانه هاجر وإسماعيل عليهما السلام فيها ، وإعمار البيت » [4] ، ويستأنس لهذا بما روى ابن هشام عن قريش لمّا عزمت على بناء الكعبة ، قال : « حتّى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة آخذٌ بعضها بعضاً . قال ابن إسحاق: فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلاً من قريش ممن كان يهدِمها أدخل عَتَلة بين حجرين منها ليقلع بها أحد الحجرين ، فلما تحرك الحجر تنقّضت مكة بأسرها ، فانتهوا عن ذلك الأساس » [5] .

وأما قصة البناء فيروي الطبري عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : « جاء - يعني إبراهيم - فوجد إسماعيل يصلح نبلاً له من وراء زمزم ، فقال إبراهيم : إن ربك قد أمرني أن أبني

= القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجرّ بالنير . وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى وادٍ دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي . ثم يتقدّم الكهنة بنو لاوي . لأنه إياهم اختار الربّ إلـهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة . ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي . ويصرّحون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر . اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يارب ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل . فيغفر لهم الدمَ . فتنزع الدم البريء من وسطك إذا عملت الصالح في عيني الرب » [العهد القديم ، سفر التثنية ٢١ نص ١ - ٩ ، ص : ٣١١ - ٣١٢ . وانظر : التوراة السامرية ، سفر تثنية الاشتراع ، نص ١ - ٩ ، ص : ٣٢٠] .

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٥٧ - ٧٢ ، وتاريخ الرسل والملوك ١ : ٢٥١ - ٢٦٠ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٨٦ - ٤٩٠ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٤٤ - ١٤٥ . وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ١ : ٦٠ - ٦١ . وابن كثير ، البداية والنهاية ١ : ١٥٣ - ١٥٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٢٧ - ١٢٩ .

(٣) سورة إبراهيم ، آية : ٣٧ .

(٤) ابن كثير البداية والنهاية ١ : ١٥٣ .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ج٢ : ١٩٥ - ١٩٦ .

له بيتاً . فقال له إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك . فقال إبراهيم : قد أمرك أن تعينني عليه . قال : إذاً أفعل . قال : فقام معه فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة قام على حجر ، وهو مقام إبراهيم ، فجعل يناوله ويقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ »[1] .

سادساً : قصة أهل قرية داوردان [2] :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [3] .

ذكر بعض المؤرخين أنهم أصحاب قريةٍ يقال لها داوردان قِبَل واسط ، ونبيّهم حزقيل ، وقيل شمعون . وفي قصتهم وسبب خروجهم روايتان هما :

١ - أنهم خرجوا هرباً من طاعون وقع بقريتهم ، فهرب عامة أهلها ونزلوا ناحية منها ، وبقي أناس ، فهلك معظمهم ، ولزمت الأمراض الآخرين ، ونجا الخارجون من القرية فلم يمت منهم أحد ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا . فقال الذين بقوا ومرضوا : أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا ، لو صنعنا كما صنعوا بقينا ، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم ، فوقع بعد عام ، فهربوا جميعاً ، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً حتى نزلوا في ذلك الوادي ، فناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه أن موتوا ، فماتوا . حتى إذا بليت أجسادهم مرّ بهم نبي يقال له حزقيل ، فلما رآهم وقف عليهم وجعل يتفكر في أمرهم متعجباً ، فأوحى الله إليه : إن أردتَ أحييتهم وجعلتُ ذلك آية لك . فقال : نعم . فأحياهم الله بدعائه ، ثم رجعوا إلى قريتهم وكانت أمارات موتهم ظاهرة عليهم إلى أن ماتوا بعد ذلك بآجالهم .

٢ - أنهم كرهوا القتال وفرّوا منه ، فقد روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمر عسكره بالقتال ، فخافوا وقالوا له : إن الأرض التي نذهب إليها فيها الوباء ، فنحن لانذهب إليها حتى يزول ذلك الوباء . فأماتهم الله تعالى بأسرهم ، وبقوا ثمانية أيام حتى انتفخوا ، وبلغ بني إسرائيل موتهم فخرجوا لدفنهم ، فعجزوا من كثرتهم ، فحظروا عليهم حظائر ، فأحياهم الله بعد الثمانية ، وبقي فيهم شيء من النتن .

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٦٨ ، وتاريخ الرسل والملوك ١ : ٢٥٩ - ٢٦٠ .
(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٢٦٦ - ٢٧٩ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٦٠ - ٢٦١ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٣٤٤ - ٣٤٧ . والرازي ، التفسير الكبير ٦ : ١٦٢ - ١٦٥ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٢٣٠ - ٢٣١ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٨٨ - ٢٨٩ . وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ١ : ١١٨ . وابن كثير ، البداية والنهاية ٢ : ٣ - ٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٤٣ .

وقيل : إن حزقيل النبي عليه السلام ندب قومه للجهاد ، فكرهوا وجبنوا ، فأرسل الله عليهم الموت ، فلما كثر فيهم خرجوا من ديارهم فراراً منه ، فلما رأى حزقيل ذلك قال : اللهم إله يعقوب وإله موسى ؛ ترى معصية عبادك فأرهم آيةً في أنفسهم تدلّ على نفاذ قدرتك ، وأنهم لا يخرجون عن قبضتك ، فأرسل الله عليهم الموت . ثم إنه عليه السلام ضاق صدره بسبب موتهم ، فدعا مرة أخرى فأحياهم الله تعالى .

وعدد من العلماء يرى أن هذه القصة جاءت مقدمة بين يدي أمر الله تعالى أمةَ محمد ﷺ بالجهاد ، يقول أبوحيان : « وأتت هذه القصة بين يدي الأمر بالقتال تشجيعاً للمؤمنين ، وحثاً على الجهاد والتعرض للشهادة ، وإعلاماً أن لا مفرّ مما قضى الله تعالى ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ »(١) .

سابعاً : قصة طالوت وجالوت (٢) :

قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كُتِب عليكم القتالُ ألا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتلَ في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ★ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّىٰ يكون له الملك علينا ونحن أحقُّ بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ★ وقال لهم نبيهم إنَّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ★ فلما فصل طالوت بالجنودِ قال إن الله مبتليكم بنَهَرٍ فمَن شرِب منه فليس منّي ومَن لم يَطْعَمه فإنَّه منّي إلا مَن اغترَف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ★ ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثَبِّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ★ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ (٣) .

---

(١) أبوحيان ، البحر المحيط ٢ : ٢٥١ ، والآية في سورة التوبة ، آية : ٥١ . وانظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٢٧٨ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٣٤٥ . والبقاعي ، نظم الدرر ٣ : ٣٨٦ - ٣٨٧ . والنسفي ، تفسير النسفي ١ : ١٢٣ .

(٢) انظر : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ١ : ٤٦٧ - ٤٧٥ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٦٢ - ٢٦٧ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٣ : ٣٥١ - ٣٧٦ . وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ١ : ١٢١ - ١٢٤ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٢٤٣ - ٢٥٨ . وابن كثير ، البداية والنهاية ٢ : ٧ - ٩ . والبقاعي ، نظم الدرر ٣ : ٤٠٧ - ٤٤٣ . والنسفي ، تفسير النسفي ١ : ١٢٤ - ١٢٦ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٤٦ - ٢٥١ .

وتبدأ هذه القصة بطغيان العمالقةِ وملكِهم جالوت ، وتسلطِهم على بني إسرائيل ، حيث أذلوهم ، وضربوا عليهم الجزية ، وأخذوا منهم التوراة ، وكادوا يهلكونهم ، بل هلك سبط النبوة فلم يبق إلا امرأة حبلى ، فوضعت حملها غلاماً أسمته (شمعون) وقيل (شمويل) ، وهو اسم النبي المذكور في هذه الآيات الكريمة .

ومكث بنو إسرائيل زمناً يدعون الله أن يهيئ لهم سبباً يتخلصون به من العمالقة وظلمهم ، فلما تنبأ هذا النبي سعوا إليه ، وسألوه أن ينصب لهم ملكاً يقاتلون معه جالوت وقومه ، فقال : ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ ، ولم يكن طالوت من سبط المُلْك في بني إسرائيل ، فطعنوا في إمارته ، وانتقصوا من قدره ﴿ أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك مِنه ولم يؤت سعة من المال ﴾ ، وطالبو النبي بالآيات على أنه هو الملك ، فقال : ﴿ إنّ آية ملكِه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آلُ موسى وآلُ هارون تحمله الملائكة ﴾ ، وقيل في (البقية) : هي عصا موسى ، وبعض ألواح من التوراة - أو ما انكسر منها - وثياب موسى ، وعمامة هارون . قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه : « جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت »[1] .

ثم أمِروا بالقتال ، فخرجوا مع طالوت في ثمانين ألفاً ، ثم إنه امتحنهم بنهر مرّ عليه فنهاهم عن الشرب منهم إلا غرفة باليد ، فعصى كثيرٌ منهم وشرب ، ثم تهيّب فريق منهم جالوت وجنوده ، فمازالوا ينكصون ويتولون عن لقاء العدوّ حتى لم يبق معه إلا عدةُ أصحاب بدرٍ مع النبي ﷺ ثلاثمائة وتسعة عشر مؤمناً ، فثبّتهم الله تعالى ، وأنزل نصره عليهم ، وهزم العمالقة ، وقتل داود جالوت ، وصار له الملك بعد ذلك[2] .

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ١ : ٤٦٩ .

(٢) اعتمد كثير من المؤرخين والمفسرين على الروايات الإسرائيلية في ذكر الخلاف بين داود وطالوت ، وأن طالوت داخله الحسد من داود وأراد قتله . ولا أجدها مستساغة ، بل فيها تضاد مع اصطفاء الله تعالى له كما في الآية الكريمة ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ ، علماً بأن رواية التوراة متناقضة في نفسها ، ففي سفر القضاة تسمي طالوت : (جدعون) وأنه قاتل المديانيين العمالقة [الكتاب المقدس : ٤٤٣ - ٤٤٤] ، وفي سفر صموئيل تسميه (شاول) وأنه قاتل العمونيين والفلسطينيين [الكتاب المقدس : ٤٥٢ - ٤٨١] .

المبحث الثاني

أحوال يوم القيامة

اليوم الآخر من علم الله تعالى الغيبي ، الذي لا يُطلع عليه إلا بإذنه ، ولا يُعرف إلا بإخباره سبحانه ، فهو من حيث العلم به توقيفي ، وتأتي دلائله العقلية لإثبات صدق النبي ﷺ وصحة رسالته لما يعرف الكثير عن أحوال يوم القيامة بما أوحى الله تعالى إليه ، إضافة إلى التطابق بين ما أخبر به وبين ماعند أهل الكتاب من أخبار يوم القيامة ولم تُحَرَّف بعد .

ومما أوردته سورة البقرة عن يوم القيامة وأحوال الناس فيه مايأتي :

أولاً : الحشر :

ذُكِر الحشر عقب الحديث عن الحج ومشاعره في قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ (١) لما في الحج - والله أعلم - من النسك المذكّر بالحشر يوم القيامة .

أما حال الناس في المحشر ، والكيفيات التي يحشرون عليها فأوردته نصوص شرعية أخرى ، منها **حشر الناس حفاةً عراةً غُرلاً** ، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غُرلاً . قلت : يارسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : يا عائشة ، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض » (٢) .

ودُنوّ الشمس من رؤوس الخلائق ، يقول النبي ﷺ : « تُدْنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل . قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العَرَق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حِقْويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً » (٣) .

وخُصّ الكفار بحشرهم يوم القيامة عُمياً ، قال تعالى : ﴿ ومن يهدِ الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُماً ﴾ (٤) ، وقال

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٠٣ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، ح ٥٦ (٢٨٥٩) . الصحيح ٤ : ٢١٩٤ .
وغُرلاً : أي غير مختتنين . انظر : الفيروزابادي ، القاموس المحيط : ١٣٤١ مادة (غرل) .

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، ح ٦٢ (٢٨٦٤) . الصحيح ٤ : ٢١٩٦ .

(٤) سورة الإسراء ، آية : ٩٧ .

سبحانه : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (١) ، روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنهم عُميٌ عما يسرّهم ، بكم عن التكلم بحجّة ، صمّ عما ينفعهم (٢) ، وبهذا تكون حواسهم باقية كما هي . وقيل : يحشرون على هذه الصفة التي أخبر الله تعالى بها زيادة في عذابهم ، ثم يعيد الله لهم الأبصار فيعاينوا النار (٣) كما قال تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ (٤) .

ثانياً : الحســـــاب :

جاء تضمين الحساب والقضاء يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم اللهُ في ظُلَلٍ من الغمام والملائكةُ وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾ (٥) ، وفيها إخبار من الله تعالى بأنه يأتي يومَ القيامة في ظلل من الغمام والملائكةُ في الموقف عند الحساب حين تشقق السماء ، حيث لا مَلِك إلا هو ، ولا سلطان إلا سلطانه ، ولا شيء يمتنع عنه ، فيقضي بين العباد قسطاً وعدلاً (٦) . ومثله قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقَّق السماء بالغمام ونُزِّل الملائكة تنزيلاً ﴾ (٧) ، وقوله سبحانه : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ (٨) .

كما تُضُمِّن في قوله عزّ وجلّ : ﴿ واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (٩) ، وهي آخر آية نزلت من القرآن (١٠) ، قال ابن عطية : « وجمهور العلماء على أن هذا اليوم المحذّر منه هو يوم القيامة والحساب والتوفيه » (١١) .

وأما مظاهر الحساب يوم القيامة ، وأحوال الناس عنده ، فتناولته آيات أخرى من السورة ، ومن ذلك :

١ - **انقطاع الأنساب والعلائق** ، قال تعالى :﴿ واتقوا يوماً لاتجزي نفسٌ عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون ﴾ (١٢) .

---

(١) سورة طه ، آية : ١٢٤ .
(٢) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠ : ٣٣٣ .
(٣) انظر : المصدر السابق . وفي الآية تأويلات أخرى .
(٤) سورة الكهف ، آية : ٥٣ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢١٠ .
(٦) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤ : ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ .
(٧) سورة الفرقان ، آية : ٢٥ .
(٨) سورة الفجر ، آية : ٢٢ .
(٩) سورة البقرة ، آية : ٢٨١ .
(١٠) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٣٤ . والبقاعي ، نظم الدرر ٤ : ١٤٣ .
(١١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٩٩ .
(١٢) سورة البقرة ، آية : ٤٨ .

قيل في سبب نزولها أن اليهود كانت تزعم أن آباءها من الأنبياء تشفع لهم يوم القيامة ، فآيسهم الله بهذه الآية مما أطمعوا فيه أنفسهم من النجاة من عذاب الله مع تكذيبهم بماعرفوا من الحق [1] .

ومثلها من سورة البقرة قوله سبحانه : ﴿ واتقوا يوماً لاتجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولاهم ينصرون ﴾ [2] .

فالناس لما يعاينون من عذاب يوم القيامة وهوله ينشغلون بأنفسهم ، ويذهلون عن أهليهم ، فلا تقضي نفس عن نفس حقّاً لزمها ، ولا تؤخذ نفس بذنب أخرى ، ولا تدفع عنها شيئاً [3] ، بل تنقطع الأنساب ، ويتعادى الأخلاء إلا المتقين . والآيات في هذا متوافرة منها :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لايجزي والدٌ عن ولدِه ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً إنَّ وَعْدَ اللهِ حقّ ﴾ [4] .

وقوله عزّوجل : ﴿ فإذا نُفِخَ في الصُّور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ [5] .

وقوله جلّ وعلا : ﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه ★ وأمّه وأبيه ★ وصاحبته وبَنِيه ★ لكلّ امرئ منهم يومئذٍ شأن يُغْنِيه ﴾ [6] .

٢ – انتفاء الشفاعة عن المشركين ، وعدم قبول الفدية منهم ، وهو المراد بقوله تعالى في آيات سورة البقرة : ﴿ ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ﴾ وقوله في الآية الأخرى : ﴿ ولا يقبل منها عدل ولاتنفعها شفاعة ﴾ ، وذلك أن الشفاعة معلقة بأمرين : رضاه عن المشفوع ، وإذنه للشافع ، كما قال تعالى : ﴿ يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ [7] . وهما منتفيان في حق المشرك .

وأما الشفاعة لأهل التوحيد فثابتة بنصوص الكتاب والسنة ، وأعظمها شفاعة النبي ﷺ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجّل كل نبيّ دعوته

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٣٣ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٣٨١ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٧٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٢٣ .
(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٣٢ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٧٧ .
(٤) سورة لقمان ، آية : ٣٣ .
(٥) سورة المؤمنون ، آية : ١٠١ .
(٦) سورة عبس ، آية : ٣٤ – ٣٧ .
(٧) انظر : ابن غنام ، العقد الثمين : ٢٠٦ ، ٢٠٨ . والآية في سورة طه ، رقم : ١٠٩ .

وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً »[1] .

٣ - **قضاء الحقوق من الحسنات** ، وإليه وردت الإشارة في قوله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم **لا بيع فيه** ولا خُلّة ولا شفاعة ﴾[2] . كما أن عدم قبول الفداء من الكافر مشعر بذلك ، قال تعالى : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾[3] ، والعَدْل : الفداء[4] .

فقضاء الحقوق يوم القيامة إنما يقع في الحسنات ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضي ما عليه أخِذ من خطاياهم فطرِحت عليه ثم طرِح في النار »[5] .

ثالثا : النار عذابها وحال الكفار فيها :

١ - أسماء النار :

النار عذاب الله تعالى أعدها لمن شاء من خلقه ممن كذّب وتولى، وأعرض عن آيات ربه ، قال تعالى : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[6] .
ولها في آيات سورة البقرة اسمان هما :

أ) **الجحيم** ، قال تعالى : ﴿ ولا تُسألُ عن أصحاب الجحيم ﴾[7] ، والجحيم : النار الشديدة التأجُّج ، وكلّ نار بعضُها فوق بعض ، وأصله ما اشتدّ لَهَبُه من النار ، والجاحم : المكان الشديد الحرّ. وتجحّمت النار : عَظُمَت وتأجّجت . وكل نارٍ عَظِيمةٍ في مَهْواةٍ فهي جحيم[8] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب اختباء النبي ﷺ دعوة لأمته ، ح ٣٣٨ (١٩٩) . الصحيح ١ : ١٨٩ . وانظر حديث الشفاعة الطويل عند مسلم في صحيحه ١ : ١٨٤ ١٨٦ برقم ٣٢٧ (١٩٤) .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٤٨ .
(٤) انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٧٧ .
(٥) رواه مسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، ح ٥٩ (٢٥٨١) . الصحيح ٤ : ١٩٩٧ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٨١ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١١٩ .
(٨) انظر : الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ١٤٠٣ . وابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ١ : ٤٢٩ . وابن منظور ، لسان العرب ١٢ : ٨٤ - ٨٥ .

ب) **جَهَنَّم** ، قال تعالى : ﴿ فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ (١) ، وجهنم وجِهِنّام : البعيدة القعر ، وبه سُمّيت النار (٢) . جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وَجْبَة ، فقال النبي ﷺ : تدرون ما هذا ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار ، الآن حتى انتهىٰ إلى قعرها » (٣) .

وأسماؤها الأخرى الواردة في القرآن الكريم هي : **لظىٰ** ، قال تعالى : ﴿ كلا إنها لظىٰ ﴾ (٤) ، **وسقر** ، قال سبحانه : ﴿ سأصليه سقر ﴾ (٥) ، **والهاوية** ، قال عزّ وجلّ : ﴿ وأما من خفّت موازينه فأمه هاوية ﴾ (٦) ، **والحُطمة** ، قال جلّ شأنه : ﴿ كلا لينبذنّ في الحطمة ﴾ (٧) .

٢ - عذاب النار :

وُصِف عذاب النار في سورة البقرة بعدة أوصاف منها : ﴿ عذاب عظيم ﴾ (٨) ، و ﴿ عذاب أليم ﴾ (٩) ، و ﴿ أشدّ العذاب ﴾ (١٠) ، و ﴿ عذاب مهين ﴾ (١١) .

وتتبيّن هذه الصفات من النصوص الكريمة الأخرى المتحدّثة عن أصناف عذاب النار ، يقول الله تعالى : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين ﴾ (١٢) ، فالوقود : ما يلقى في النار لإضرامها ، وأما الحجارة فقيل هي الأصنام التي كانت تعبد في الدنيا من دون الله ، كما قال سبحانه : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ (١٣) ، وفيه بيان لشدة النار وقوتها إذ هي محرقة للحجارة (١٤) . وقيل هي حجارة الكبريت الأسود ، وهي أشدّ الأحجار حراً إذا حَمِيت ، فيكون أهل النار معذبين بالنار وبهذه الحجارة (١٥) . وذهب بعض العلماء إلى أن هذه النار التي توقد

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٠٦ .
(٢) انظر : الفيروزابادي ، القاموس المحيط ١٤٠٩ . وابن منظور ، لسان العرب ١٢ : ١١٢ .
(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب في شدة حرّ نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذّبين ، ح ٣١ (٢٨٤٤) . الصحيح ٤ : ٢١٨٤ - ٢١٨٥ .
(٤) سورة المعارج ، آية : ١٥ .
(٥) سورة المدثر ، آية : ٢٧ .
(٦) سورة القارعة ، آية : ٩ .
(٧) سورة الهمزة ، آية : ٤ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ٧ ، ١١٤ .
(٩) سورة البقرة ، آية : ١٠ ، ١٠٤ ، ١٧٤ ، ١٧٨ .
(١٠) سورة البقرة ، آية : ٨٥ .
(١١) سورة البقرة ، آية : ٩٠ .
(١٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤ .
(١٣) سورة الأنبياء ، آية : ٩٨ .
(١٤) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٥١ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٣٥ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٥٣ .
(١٥) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٠٥ . وابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٤٣ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢٣٥ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٥٣ .

بالحجارة هي نار الكافرين خاصة (١) .

و قوله تعالى : ﴿ أعدّت ﴾ يعني هُيّئت ورصدت ، قال البقاعي : « أي هيئت وأكملت قبل زمن استعمالها » (٢) ، جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال : « أوقد على النار ألف عام حتى احمرّت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضّت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودّت ، فهي سوداء مظلمة » (٣) .

وهذا جانب من عظمة العذاب وشدته ، أما العذاب الأليم والمُهين فيتبدّى من مثل قوله سبحانه : ﴿ إن شجرة الزقّوم طعام الأثيم * كالمُهل يغلي في البُطون * كغلي الحميم * خذوه فاعْتِلُوه إلى سَواء الجحيم * ثم صُبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذُق إنّك أنت العزيز الكريم ﴾ (٤) .

ويزيد من ألم العذاب وشدّته أنّهم دائمون فيه ، لا يمتنعون عنه وقتاً من الأوقات ، قال تعالى : ﴿ خالدين فيها لا يُخَفّفُ عنهم العذابُ ولا هم ينظرون ﴾ (٥) .

٣ - أحوال أهل النار :

إذا كان يوم القيامة تكشّفت الغِشاوة عن أبصار الكفار والمجرمين ، وعلموا أن وعد الله حقّ ، وأدركوا صدق الدعاة إلى الله تعالى في الدنيا ، قال عزّ وجل : ﴿ ونُفِخَ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم يَنْسِلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمـٰن وصدق المرسلون ﴾ (٦) ، وقال سبحانه : ﴿ لقد كنت في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليوم حديد ﴾ (٧) . فإذا دخلوا النار وعاينوا العذاب عند ذلك تتابعهم أحوالٌ ، مثّلتْ آيات سورة البقرة حالتين منها هما :

أ) براءة بعضهم من بعض ، قال تعالى : ﴿ إذ تَبرّأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذابَ وتقطّعَتْ بِهم الأسباب ﴾ (٨) ، فالمتبوع لا يستطيع وقاية نفسه شيئاً من العذاب ، فكيف يدفع عن

(١) انظر : ابن فرح ، التذكرة ٢ : ١٢٣ .
(٢) البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٨٨ .
(٣) رواه الترمذي في كتاب صفة جهنم ، باب (٨) ، ح ٢٥٩٠ . السنن ٤ : ٦١٢ .
(٤) سورة الدخان ، آية : ٤٣ - ٤٩ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٦١ .
(٦) سورة يس ، آية : ٥١ - ٥٢ .
(٧) سورة ق ، آية : ٢٢ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ١٦٦ .

غيره ، عندها يفرّ بعضهم من بعض ، ويكفرون ببعض ، قال سبحانه : ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعضٍ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ (١) ، ويتخاصمون في النار ، قال تبارك وتعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ★ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ★ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ★ وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ★ فحقّ علينا قول ربنا إنا لذائقون ★ فأغويناكم إنا كنا غاوين ★ فإنهم يومئذٍ في العذاب مشتركون ﴾ (٢) .

ب) الحسرة على ما قدّموا من أعمال ، حين خالفوا أمر الله تعالى ، واتّبعوا الغُواة وأهل الضلال ، قال سبحانه : ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ (٣) ، وذلك حين تُوْدِي بهم أعمالهم في النار ، ويفتشون عن شافع فلا يجدون ، ويلتمسون نصيراً فلا يعانون ، فلشدّة تلك الحسرة وعظمها سُمّي يوم القيامة - والله أعلم - بها في قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ (٤) .

رابعاً : الجنة ونعيمها :

أصل كلمة الجنّة تعني السَّتْر ، وتطلق في اللغة على الحديقة ذات النخل والشجر ، وقال الرازي : « الجنة البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه » (٥) ، وسُمّيتْ بذلك لأنها تستر مَن بداخلها (٦) .

وهي دار النعيم ، وثواب الله تعالى للمحسنين ، قال تبارك وتعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ (٧) ، أعدّ الله لهم فيها ما لا يخطر ببالهم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « قال الله عزّ وجل : أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر » (٨) ، ولكن أخبر في كتابه العزيز ببعضٍ منه ، وذلك - والله أعلم - لتهفوا نفوس الصالحين إليها ، ويتسابقون في عمل ما يقربهم منها ، مع أنه لا تشابه بين ما في الدنيا وما في الجنة إلا بالأسماء والصور (٩) ، ومما أخبر به قوله سبحانه :

---

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٢٥ .
(٢) سورة الصافات ، آية : ٢٧ - ٣٣ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٦٧ .
(٤) سورة مريم ، آية : ٣٩ .
(٥) الرازي ، التفسير الكبير ١ : ١٢٨ .
(٦) انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ١ : ٤٢١ . والفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ١٥٣٣ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٠٧ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٨٢ .
(٨) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، ح ٢ (٢٨٢٤) . الصحيح ٤ : ٢١٧٤ .
(٩) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٩٣ .

﴿ وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رُزِقوا منها مِن ثمرةٍ رِزقاً قالوا هذا الذي رُزِقنا من قبلُ وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواجٌ مطهّرة وهم فيها خالدون ﴾ (1) .

فالنعميم المذكور في هذه الآية الكريمة كما يأتي :

١ - أنهار الجنة :

يعني قوله تبارك وتعالى : ﴿ تجري من تحتها الأنهرا ﴾ أنها تجري من تحت شجرها (2) ، وعند البقاعي : « أي تجري من تحت غرفها » (3) ، قال الماوردي : « قيل : إن أنهار الجنة تجري من غير أخدود » (4) .

وأنهار الجنة أربعة ، ذُكِرت في قوله تعالى : ﴿ مثل الجنة التي وُعِد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيّر طَعْمُه وأنهارٌ من خمرٍ لذّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفّى ﴾ (5) ، تتفجّر من الفردوس الأعلى تحت العرش ، كما جاء عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنّة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجّر أنهار الجنة » (6) ، وفي حديث ابن حبان أنها تفجّر من جبال مسك ، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « أنهار الجنة تفجّر من تحت تلالٍ أو من تحت جبالِ مسكٍ » (7) .

٢ - ثمــار الجنة :

قال تعالى : ﴿ كلّما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رِزْقاً قالوا هذا الذي رُزِقنا من قبل وأُتوا به متشابهاً ﴾ (8) .

---

(1) سورة البقرة ، آية : 25 .
(2) انظر : الماوردي ، النكت والعيون 1 : 78 . وابن الجوزي ، زاد المسير 1 : 52 . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم 1 : 54 .
(3) البقاعي ، نظم الدرر 1 : 192 .
(4) الماوردي ، النكت والعيون 1 : 78 .
(5) سورة محمد ، آية : 15 .
(6) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء ، وهو رب العرش العظيم ، ح 7423 . انظر : فتح الباري 13 : 404 .
(7) رواه ابن حبان في باب وصف الجنة وأهلها ، ذكر الموضع الذي يخرج منه أنهار الجنة ، ح 7365 . انظر : الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان 9 : 249 .
(8) سورة البقرة ، آية : 25 .

فالثَّمَر : حمْلُ الشَّجر [1] ، وكثير من الآيات الكريمة المتحدِّثة عن رزق أهل الجنة تذكر الثمار والفاكهة مجملة كما في قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴾ [2] ، وقوله سبحانه : ﴿ إن المتّقين في ظِلال وعيون * وفواكهَ مما يشتهون ﴾ [3] .

إلا أن بعض الفاكهة ذُكر شجرها أو ذكرتْ بأسمائها منها : التمر والرمّان ، قال تعالى : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمّان ﴾ [4] . والعنب ، قال تعالى : ﴿ إن للمتقين مفازاً * حدائق وأعناباً ﴾ [5] .

وقول أهل الجنة : ﴿ هذا الذي رزقنا من قبل ﴾ فيه تأويلات عدة ، منها [6] :

أ) أن هذا الذي رزقناه من ثمار الجنة مثل الذي رزقناه من ثمار الدنيا .

ب) أن ثمار الجنة إذا جُنِيتْ خَلَف مكانها مثلها ، فإذا رأوا ما خَلَف الجنْي اشتبه عليهم ، فقالوا : هذا الذي رزقنا من قبل .

جـ) أن الولدان يطوفون على أهل الجنّة بالفواكه فيأكلونها ، ثم يؤتون بمثلها فيقول أهل الجنة : هذا الذي أتيتمونا به آنفًا . فتقول لهم الولدان : كلوا فاللون واحد والطعم مختلف .

وأما قوله تعالى : ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ فذهب عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وغيره إلى أنه تشابه في اللون والمنظر دون الطعم [7] . وقال قتادة : « معناه : خياراً ، لا رَذْل فيه . كقوله تعالى : ﴿ كتاباً متشابها ﴾ » [8] . وقيل : التشابه في الأسماء دون الألوان والطعوم [9] .

٣ – نســاء الجنة :

قال تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواجٌ مطهّرة ﴾ وقال أيضاً : ﴿ كذلك وزوّجناهم بحور عين ﴾ [10] . فالله تعالى يعلم موقع النساء من الرجال ، ومحبتهم لهنّ ، وميلهم إليهنّ ، فجعلهنّ – والله أعلم – من النعم العظيمة التي امتنّ بها على أهل الجنة ، وخلقهنّ في غاية الجمال ، وأكثر من وصفهنّ في آياته

(١) انظر : الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ٤٥٨ .
(٢) سورة ص ، آية : ٥١ .
(٣) سورة المرسلات ، آية : ٤١ – ٤٢ .
(٤) سورة الرحمٰن ، آية : ٦٨ .
(٥) سورة النبأ ، آية : ٣١ – ٣٢ .
(٦) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٩ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٠٩ – ٢١٠ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٥٢ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٥٥ .
(٧) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٩ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٠٩ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٥٣ . والبقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٩٣ .
(٨) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢١٠ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٩ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٥٣ . والآية في سورة الزمر برقم ٢٣ .
(٩) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٩ وقال : « وهذا قول ابن زيد والأشجعي وليس بشيء » .
(١٠) سورة الدخان ، آية : ٥٤ .

الكريمة ، قال سبحانه : ﴿ وحور عين ★ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ (١) ، وقال عزّ وجل : ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ (٢) . والحَوَر : أن يشتدّ بياضُ بياضِ العين ، ويشتدّ سوادُ سوادِها ، وتستدير حلقتها ، وترقّ جفونها ، ويبيضّ ما حواليها (٣) ، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أول زمرة تلج الجنةَ ؛ صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لايبصقون فيها ولا يمخطون ولايتغوّطون ، آنيتهم فيها الذّهب ، وأمشاطهم من الذهب والفضّة ، ومجامرهم من الألُوَّة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحدٍ منهم زوجتان ، يُرى مخّ سوقهما من وراء اللحم من الحُسْن » (٤) .

ومن أبرز ما جاء في صفات نساء الجنة ما يأتي :

أ) **طاهرات** ، قال تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهّرة ﴾ (٥) ، فهن طاهرات في أبدانهن وأخلاقهن ، ففي الخَلْق : لا يحِضْن ، ولا يلِدْن ، ولا يذهبْن إلى غائط ولا بول . وفي الخُلُق : لاغَيرة لديهن ولا حسد (٦) .

ب) **أبكار ، قاصرات الطرف على أزواجهن** ، قال تعالى : ﴿ إنّا أنشأناهنّ إنشاءً ★ فجعلناهن أبكاراً ﴾ (٧) ، وقال سبحانه : ﴿ فيهنّ قاصرات الطرف لم يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ ﴾ (٨) . يقال طمثها : إذا افتضّها ، إشارة إلى دم البكارة ، كما يراد به المسّ ، والدَّنَس ، والفساد (٩) . والمعنى : لم يصبهنّ بالجماع قبل أزواجهنّ هؤلاء أحد (١٠) .

جـ) **متحببات إلى أزواجهن** ، قال تعالى : ﴿ عُرُبًا أترابًا ﴾ (١١) ، وعُرُب جمع عَرُوب ، وهي المرأة المتحببةُ إلى زوجها ، العاشقةُ له ، المظهرةُ ذلك له ، قال القرطبي : « واشتقاقه من أعرب إذا بيّن ، فالعروب تبيّن محبتها لزوجها بشِكْلٍ ، وغُنْج ، وحُسْنِ كلام » (١٢) .

---

(١) سورة الواقعة ، آية : ٢٢ - ٢٣ .
(٢) سورة الرحمٰن ، آية : ٧٢ .
(٣) انظر : الفيروزاباذي ، القاموس : ٤٨٦ .
(٤) رواه الترمذي في كتاب صفة الجنة ، باب ماجاء في صفة أهل الجنة ، ح ٢٥٣٧ وقال : « هذا حديث صحيح ، والألُوَّة : هو العُود » . السنن ٤ : ٥٨٥ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٥ .
(٦) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٩ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٥٣ .
(٧) سورة الواقعة ، آية : ٣٥ - ٣٦ .
(٨) سورة الرحمٰن ، آية : ٥٦ .
(٩) انظر : الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ٢٢٠ .
(١٠) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٧ : ١٨١ .
(١١) سورة الواقعة ، آية : ٣٧ .
(١٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٧ : ٢١١ . وانظر : الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ١٤٥ .

د) **مستويات الأعمار**، وذلك قوله تعالى: ﴿ أترابًا ﴾، والتِّـرْبُ: اللِّدَة، والسنّ، ومن ولد معك [1]، ويقال للنساء أتراب إذا كنّ في سِن واحدة، وللرجال أقران [2].

فإذا كان يوم القيامة، ووقع البعث والحشر والفصل بين الخلائق، حينئذٍ يُصدِّق الذين كفروا بوعيد الله تعالى لهم بالخسران ﴿ إنَّ الله لا يَسْتَحِي أن يَضْرِب مَثَلاً ما بَعُوضَةً فما فوقها فأمّا الذين آمنوا فيَعْلَمون أنَّه الحقّ من ربِّهم وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد اللهُ بهذا مَثَلاً يُضِلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضِلّ به إلا الفاسقِين ★ الذين يَنْقُضون عَهْدَ الله من بعدِ مِيْثاقِه ويَقْطَعون ما أمر اللهُ به أن يُوصَل ويُفْسِدُون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ [3]، وإحباط أعمالهم حيث قال: ﴿ ومن يَرْتَدِدْ منكم عن دِيْنِه فَيَمُتْ وهُو كافِرٌ فأولئك حَبِطَتْ أعمالُهم في الدُّنيا والآخرة وأولئك أصحابُ النّارِ هُم فِيها خالدون ﴾ [4]، وسوء العاقبة، قال سبحانه: ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتابِ وتكفرون ببعض فما جَزاء من يفعل ذلك منكم إلا خِزْيٌ في الحياةِ الدُّنيا ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشدّ العذابِ وما اللهُ بغافلٍ عمّا تعملون ﴾ [5].

ويتحقق وعد الله تعالى للمؤمنين بالأمن يوم الخوف، قال تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [6]، وإعلاء مقامهم في الآخرة، قال سبحانه: ﴿ زُيِّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [7]، فالذين آمنوا أعرضوا عن الدنيا، وأنفقوا ما حصل لهم في طاعة ربهم، وبذلوه ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالجنة، واستقروا في الدرجات العلى، فكانوا فوق الكافرين الذين سلكوا في سقر، وخُلِّدوا في الدركات.

(١) انظر: الفيروزابادي، القاموس المحيط: ٧٨.
(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٧: ٢١١.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧.
(٤) سورة البقرة، آية: ٢١٧.
(٥) سورة البقرة، آية: ٨٥.
(٦) سورة البقرة، آية: ٦٢.
(٧) سورة البقرة، آية: ٢١٢.

المبحث الثالث

كشف أسرار النفوس

السرّ : ما يُكتم ، والنفوس البشرية مجبولة على حفظ أسرارها ، وحجبها عن الآخرين ، وبخاصة إن كان خصماً . والذين أنكروا الدعوة ، وجابهوا النبي ﷺ والمؤمنين معه نصّبوا أنفسهم خصماء للحق ، فحاربوه بما استطاعوا سراً وعلانية .

ويمكن تحديد أسرار النفوس بأمور منها : علمٌ حُجِب لئلا يكون عليه حجة ، أو اعتقادٌ في القلوب أظهِر خلافه ، أو عملٌ في الخفاء لإلحاق الضرر بالخصم ، أو أمرٌ همّت به النفس وتلجلج في الصدر ولم يفصح عنه اللسان .

وبما أن السرَّ غيب ، والغيب لايعلمه إلا الله تعالى ، فقد ذَكَّر سبحانه بقدرته على كشف أسرار النفوس ، حيث كشف مِن قبلُ القاتلَ في بني إسرائيل وقال : ﴿ والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون ﴾ [(١)] ، ونبّه إلى اطّلاعه عليها فقال : ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون ﴾ [(٢)] ، وقال أيضاً : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ [(٣)] . بل وكشف كثيراً منها وفقاً لما تقتضيه مصلحة الدعوة ، فكان من فوائد ذلك - والله أعلم - ما يأتي :

١ - إثبات صدق النبي ﷺ بما لا يدع مجالاً للمرء الذي يسمعه إلا أن يعترف في قرارة نفسه بصدقه ونبوته ، فإن وُفّق للهدى آمن ، وإلا كابر وكذّب . وذلك أن ما يخبر به النبي ﷺ يأتي مطابقاً لما وقع سراً أو جال في النفس . وأما ما يصنعه الكهنة والسحرة فضرب من الكذب وإن وافق بعضه الصواب ، ولو تدبّر المرء في ما يقولون بعقل وروية لأدرك زيفه وبطلانه ، لأن الغيب عنهم محجوب ، ومعتمدهم واهٍ ، والله تعالى يقول : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ [(٤)] .

٢ - قدرة الداعية على التعامل مع المدعوين عن بصيرة ودراية ، وسلوك الطريق الأمثل لتجنب ما أمكن من العقبات التي تعترض الدعوة .

وفيما يأتي طائفة من الأسرار التي كشفت عنها الآيات الكريمة في سورة البقرة .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٧٢ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٧٧ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٣ .
(٤) سورة طه ، آية : ٦٩ .

أولاً : أسرار نفوس المنافقين :

تقدَّم الحديث عن سلوك المنافقين المتمثل في الكذب والمخادعة والإفساد في الأرض والاستهزاء بالمؤمنين ، إضافة إلى ما هم فيه من السفه ، ومرض القلوب ، والحيرة والتردد [1] . وكما يلاحظ فإنها تختص ببواطن المنافقين ، وخفايا نفوسهم ، حيث اعتمدوا الإسرار في الكيد للإسلام والمسلمين ، وموافقتهم في الظاهر خوفاً وتقية .

ويمكن تلخيص ما أضمرته قلوبهم ، وأكنته صدورهم بـ(العداء الكامل للدعوة)، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشْهِدُ الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخِصام ﴾ [2] .

ذهب الحسن البصري وقتادة السدوسي وغيرهما إلى أن هذه الآية نزلت في المنافقين عامة الذين تخالف سرائرهم علانيتهم ، وتظهر ألسنتهم ما ليس في قلوبهم [3] . وروي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن أناساً من المنافقين تكلموا في أصحاب النبي ﷺ الذين أصيبوا بالرجيع ، قالوا : « ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا ، لاهم قعدوا في بيوتهم ، ولاهم أدّوا رسالة صاحبهم » فأنزل الله تعالى هذه الآية في حقهم [4] .

وبكل حال فإن هذه الصفة عامة في المنافقين ، إذ كان الواحد منهم يأتي النبيَّ ﷺ فيتودد له، ويظهر المحبة والموافقة في الدين ، مستشهداً بالله تعالى على مافي قلبه ، ظاناً خفاء أمره . فشاء الله تعالى أن يكذّب قوله ، ويكشف باطنه ليحذر منه المسلمون فقال : ﴿ وهو ألدُّ الخصام ﴾ ، والألدّ : « الشديد الخصومة ، الصعب الشكيمة ، الذي يلوي الحجج في كل جانب » [5] ، إذاً فليس في قلوب المنافقين إلا الاعوجاج ، ومعصية الله تعالى ، ومحاربة المسلمين ، والجدال بالباطل .

وكما أخرج الله تعالى أضغانهم في هذا الموطن ، أكذبهم في مواطن أخرى ، فقال : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ★ اتّخذوا أيمانهم جُنّة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون ﴾ [6] .

---

(١) انظر صفحة ١٣٣ - ١٤٧ من هذه الرسالة .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٠٤ .
(٣) انظر: الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤ : ٢٣١ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٢١ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢١٩ .
(٤) انظر: الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤ : ٢٣٠ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ١٨٦ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢١٩ - ٢٢٠ . وذكروا قولاً آخر وهو أنها نزلت في الأخنس بن شريق ، ونظراً لما في هذا القول من خلاف وتضاد لم أذكره في صلب الموضوع .
(٥) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ١٨٨ . وانظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤ : ٢٣٦ . والماوردي ، النكت والعيون ١: ٢٢١ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ١٦ .
(٦) سورة المنافقون ، آية : ١ - ٢ .

ثانياً : أسرار نفوس المشركين :

يختلف المشركون في هذا الأمر عن غيرهم من المدعوين ، وذلك أن مناهضتهم للدعوة صريحة وواضحة ، وليسوا بأهل كتاب حتى يخفوا شيئاً مما عندهم .

إلا أنّ هنالك أمراً يعلمونه بالضرورة من أنفسهم وأحوالهم تجاه الآلهة التي يعبدونها وهو (عجز الآلهة) ، لكن غشاوة الهوى وتقليد الآباء غطّى عقولهم ، وطمس بصائرهم ، فذهلوا عنه وتناسوه .

ولذا جاءت الآيات الكريمة كاشفة عن تلك الحقيقة للمؤمنين ليحاجّوا بها أهل الشرك ، وللمشركين ليراجعوا أنفسهم ، ويدعوا الهوى ، ويعملوا بمقتضى العقل المستنير بهدي الله ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ (١) . فالمشركون يعلمون بالضرورة أن الله خلقهم والذين من قبلهم ، وخلق الكون ، وبث الرزق ، ومن ثَمَّ فإنهم يعلمون بالضرورة افتقارهم إليه سبحانه . لكن الغواية ساقتهم للشرك حتى اعتقدوا في الأصنام ما هو لله تعالى وحده من القدرة على جلب النفع ، ودفع الضرّ .

ورغم ترسّخ هذا الاعتقاد ، فإن المعرفة الغائبة بعجز الآلهة أعمق وأرسخ ، وإنما تظهرإذا وقع ما يبدد تلك الغشاوة ، ويفتق ذلك الغطاء عن عقولهم كما صنع إبراهيم الخليل عليه السلام ، قال تعالى - فيما يحكيه عنه - : ﴿ وتالله لأكيدنَّ أصنامكم بعد أن تولّوا مُدْبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتىً يذكُرُهم يقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به على أعْيُنِ الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرُهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنّكم أنتم الظالمون * ثم نُكِسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم * أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ (٢) ، وكذا إن وقعوا في كربٍ أو شدّة ، قال تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ماتشركون ﴾ (٣) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢١ - ٢٢ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٥٧ - ٦٧ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٤٠ - ٤١ .

فالآيات الكريمة في سورة البقرة قصدت - والله أعلم - إلى إيقاظ عقول المشركين وتذكيرهم بهذه الحقيقة ، والمعنى : أنكم يا معشر قريش على قدر من التمييز بين الصحيح والفاسد، والمعرفة بدقائق الأمور ، والإصابة في التدبير بمنزلة لا تدفعون عنه ، وأنتم تعلمون بالضرورة أن الله تعالى لا يماثل ، وتعلمون ما بينه وبين معبوداتكم من بون شاسع ، وتعلمون أنها لاتقدر على مايقدر عليه . لذا فإن من أشركها مع الله تعالى يكابر عقله ، ويهدر ما أنعم الله عليه من معرفة وتمييز [1] .

ثالثاً : أسرار نفوس أهل الكتاب :

امتاز أهل الكتاب عن غيرهم قبل البعثة النبوية بالعلم الديني ، لما أنزل الله على أنبيائهم من كتب ، مع ما داخلها من شوائب التحريف .

وعندما ظهر الإسلام ، واستقر النبي ﷺ في المدينة المنورة ؛ أحجم اليهود عن الإسلام ، وآثروا المهادنة ظاهراً ، فكتب لهم النبي ﷺ عهداً . ولمّا جاءه وفد نصارى نجران صالحوه على الجزية ، وأبوا الدخول في الإسلام اتباعاً لأهوائهم [2] ، كما هو حالهم وديدنهم مع الأنبياء قبله ، قال تعالى في حقهم : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ [3] . واتّخذوا من ذلك الإجراء الظاهري - وبخاصة اليهود - وقاية وغطاءً لما أضمروه واعتزموا فعله في أنفسهم مِن معاداة الدعوة ومحاربة أهلها . فنبّه الله سبحانه على ما في قلوبهم ، وكشف سرائرهم وضغائنهم ، ليكون المؤمنون في سائر الأزمان على بيّنة من أمرهم .

وكان من أبرز ما كشفته الآيات الكريمة في سورة البقرة ما يأتي :

١ - تواصيهم بكتمان الحق :

أخبر الله تعالى أن أهل الكتاب دأبوا على تحريف كتبهم بدافع من أهوائهم ، للتخلص من أحكام لم تَرُقْ لأنفسهم ، وإخفاء معالم النصوص التي تبشر بالنبي ﷺ وتلزمهم باتباعه [4] .

ولشدة حرصهم على ذلك كانوا يتواصون به في خلواتهم ، ويتلاوَمون على ما ظهر مِن أسرارهم ظنّاً أنها تفلّتت من بعضهم ، قال تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم

---

(١) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٣٧ - ٢٣٨ . والنيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٩٨ .
(٢) انظر موادعة اليهود : ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٥٠١ - ٥٠٤ . وانظر خبر نصارى نجران : المصدر السابق ج١ : ٥٧٣ - ٥٧٦ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٨٧ .
(٤) انظر صفحة ١٠٧ من هذه الرسالة .

إلى بعض قالوا أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴾ [١] .

فقد كان من تواصي اليهود ألا يقرّوا بتاتاً بنبوّة محمد ﷺ ، وأن يتجسسوا على المسلمين ليعرفوا أخبارهم ، كما تواصوا بإخفاء أخبار بني إسرائيل وما حلّ عليهم من عذاب لئلا يحتج المسلمون عليهم بها [٢] ، قال ابن عطية : « فيه كشفُ سرائرهم . وورد في التفسير أن النبي ﷺ قال : « لا يدخلنّ علينا قصبة المدينة إلا مؤمن » ، فقال كعب بن الأشرف ووهب بن يهودا وأشباههما : اذهبوا وتجسسوا أخبار من آمن بمحمد ، وقولوا لهم آمنا وإذا رجعتم اكفروا » [٣] ، وقال ابن زيد : « كانوا - يعني اليهود - إذا سئلوا عن شيء قالوا : في التوراة كذا وكذا . فكرهت الأحبار ذلك ونهوا في الخلوة عنه » [٤] ، فجاء قول الله تعالى : ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ [٥] ، مذكّراً إياهم بما يعلمون من اطلاعه سبحانه على جميع أحوالهم ، ومشعراً بخذلانه لهم ، وتأييده ونصره للنبي ﷺ .

٢ - كفرهم بالتوراة :

تعذّر اليهود عن اتباع النبي ﷺ بأنهم مؤمنون متمسكون بكتابهم ، قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾ [٦] ، وهم في الوقت ذاته يتواصون - كما تقدم - بحجب كلّ ما يُحْتجّ به عليهم من التوراة .

فشاء الله تعالى أن يظهر كذبهم ، ويبيّن كفرهم بالتوراة ذاتها التي زعموا التمسك بها فعدد عليهم مانقضوا من العهود المأخوذة عليهم فيها ، وما صنعوا من تحايل على أحكامها ، والأخذ ببعضها دون بعض ، إلى أن نبذوها وراء ظهورهم حينما وجدوها تحتم عليهم اتباع النبي ﷺ ، قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ [٧] .

وعند الطبري أن رسول الله ﷺ لما جاءهم بالقرآن الكريم عارضوه بالتوراة وخاصموه بها ، فاتفقت التوراة والقرآن في الدلالة على صدق النبي ﷺ والبشارة به ، فنبذوها وآثروا السحر الذي

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٧٦ .
(٢) انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ١٠٠ .
(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٣٦٠ .
(٤) المصدر السابق ١ : ٣٦١ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٧٧ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٩١ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١٠١ .

تلته الشياطين في ملك سليمان عليه السلام ، وكتبه آصف[1] . وذلك قوله تعالى : ﴿ واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾[2] .

٣ - كراهتهم الخيرَ للمسلمين :

بعد أن أخبر الله سبحانه بما جرى بين أهل الكتاب من تواصٍ بالكتمان ، وكشف حالهم مع التوراة ، أظهر سبحانه حقيقة موقفهم من المسلمين ، فقال سبحانه : ﴿ ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[3] ، وقال سبحانه : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتّى يأتي الله بأمره إنّ الله على كلّ شيء قدير ﴾[4] .

ويلحظ أن الآيتين الكريمتين جاءتا بصيغة الجمع للإشعار بأن الحقد على الإسلام وكراهة الخير للمسلمين موقفُ جماعة أهل الكتاب كافة تجاه المسلمين عامة ، وصدرت ترجمته الفعلية على أيدي أفراد منهم أمثال حُيي بن أخطب ، وأبوياسر بن أخطب ، وكعب بن الأشرف في زمن النبي ﷺ ، ثم من حمل أحقادهم بعدُ طيلة القرون السالفة وحتى زماننا . وما يظهرونه من مهادنة ومواددة وتلطّف لايُذْهِب غايةً في أنفسهم ودّوا لو قدِروا عليها ، وهي أن يترك المسلمون دينهم ويكونوا لهم تبعاً ، قال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتّى تتّبع ملتهم ﴾[5] .

فالودّ : محبة الشيء وتمنّي كونه[6] ، والمراد بالخير ، قيل : النبوّة ، وقيل : القرآن الكريم ، قال ابن جزى : « والعموم أولى »[7] ، وعليه فالمعنى : ما يحب أهل الكتاب أن ينزّل الله خيراً على

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٤٠٤ - ٤٠٥ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٤١ قال : « وقيل : يجوز أنه يعني به القرآن . قال الشعبي : هو بين أيديهم يقرؤونه ، ولكن نبذوا العمل به . وقال سفيان بن عيينة : أدرجوه في الحرير والديباج وحلّوه بالذهب والفضة ، ولم يحرّموا حرامه ، فذلك النّبذ » ويلحظ أنّ هذه الصفات تنطبق على المقصرين من المسلمين ، ولا علاقة لها بأهل الكتاب الذين تتحدث عنهم الآية في هذا الموطن . والله أعلم .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ١٠٥ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ١٠٩ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٢٠ .

(٦) انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٦ : ٧٥ . والراغب الأصفهاني ، المفردات : ٥١٦ .

(٧) ابن جزى ، التسهيل ١ : ٩٩ .

المسلمين [1] .

وفي قوله تعالى : ﴿ حسداً من عند أنفسهم ﴾ إشارة إلى تعمّق الحسد في نفوسهم ، « وأكّد ذلك بكلمة (عند) الدالة على الاستقرار ليزداد بيان تمكنه » [2] ، قال الطبري عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ﴾ الآية ، قال : « وفي هذه الآية دلالة بيّنة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين ، والاستماع إلى أقوالهم ، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم ، بإطلاعه جلّ ثناؤه على ما يستبطنه أهل الكتاب والمشركون من الضِّغن والحسد ، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ماهم مستبطنون » [3] .

رابعاً : أسرار نفوس المسلمين :

تهذيب الأنفس ، وتمرينها على الطاعة ، وكبح الرغبات المُتَفلّتة ؛ من أهم عناصر التربية ، ومطلب رئيس للدعوة الإسلامية .

والآيات الكريمة المتحدثة عمّا يجول في نفوس المسلمين تُعْنى - والله أعلم - بهذا الجانب ، إذ تَعرِض للمشكلة ، وتُقدّم حلّها بأسلوب يتوافق مع الطبيعة البشرية ، مراعية الدوافع الفطرية الكامنة ، دون أن تكلّف المرء ما لا يطيق ، قال تعالى : ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلا وُسْعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [4] .

ومن الآيات المتحدثة عن هذا الأمر ما يأتي :

١ - قوله تعالى : ﴿ أحلّ لكم ليلةَ الصيام الرَّفثُ إلى نسائكم هُنّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتّى يتبيّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر ثم أتمُّوا الصيامَ إلى الليل ﴾ [5] .

والاختيان : من (خَوَنَ) وهو التّنقُّص ، يقال : خانه يخونه خوناً ، وذلك نقصان الوفاء [6] ،

---

(١) انظر : ابن جزى ، التسهيل ١ : ٩٩ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٦١ .
(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ج١ : ك٢ : ٦٧٠ .
(٣) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٤٧٠ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٨٦ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٨٧ .
(٦) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٢ : ٢٣١ .

قال الألوسي : « الاختيان : تحرّك شهوة الإنسان لتحري الخيانة ، أو الخيانة البليغة » (١) .

وكان مُحرَّماً على المسلمين أوّلَ ما شُرع الصيام الأكلُ والجماعُ إذا نام أحدهم من الليل (٢) ، فوقعوا في حرج ومشقّة حتّى حدثتهم أنفسهم بالأكل والجماع بعد النوم . وربما وقع بعضهم في ذلك سرّا كما يُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله أنه سَمَر ذات ليلة مع رسول الله ﷺ ثم عاد إلى منزله وأراد امرأته ، فقالت : قد نمتُ . فظنها تعتلّ ، فوقع عليها . وصنع كعب بن مالك مثل ذلك . فغدا عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : أعتذر إلى الله وإليك ، فإن نفسي زيّنتْ لي مواقعة أهلي ، فهل تجد لي من رخصة ؟ فقال له : لم تكن بذلك حقيقاً يا عمر . فلمّا بلغ منزله أرسل إليه النبي ﷺ فأنبأه بعذره (٣) . كما رُوي عن رجل من الأنصار (٤) أنه نام بعد المغرب ولم يأكل ، فلمّا انتصف النهار غُشِي عليه من شدّة الجوع (٥) .

فرفق الله تعالى بهذه الأمة وأجرى الحكم فيها على وفق ما تستقر به أمانتها ، وتندفع خيانتها، حيث ردّهم إلى اليسر ، وخفف عنهم ، قال سبحانه : ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتَّى يتبيَّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر ثم أتمُّوا الصيام إلى الليل ﴾ (٦) ، فبعد أن كشف سبحانه عن خبيئة مشاعرهم ، كشف لهم عن رحمته بالاستجابة لهواتف فطرتهم ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم ﴾ ، وهذه الخيانة لأنفسهم التي يحدثهم عنها تتمثل في الهواتف الحبيسة ، والرغبات المتأججة في النفوس ، أو تتمثل في الفعل ذاته ، وفي كلتا الحالتين لقد تاب عليهم وعفا عنهم مذ ظهر ضعفهم ، فأباح لهم ما كانوا يختانون فيه أنفسهم (٧) .

٢ - قوله تعالى : ﴿ كُتب عليكم القتال وهو كرْهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم

---

(١) الألوسي ، روح المعاني ٢ : ٩٨ . وانظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٣٨ . والراغب الأصفهاني : ١٦٣ .

(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٥ : ١٠٣ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٩٠ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٠٥ . وابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ٨٩ .

(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٤٩٦ - ٤٩٧ . وابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ٨٩ - ٩٠ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٣١٥ وكلاهما عزى الرواية للطبري .

(٤) ذكر ابن حجر اختلاف الرواة في اسم هذا الصحابي ، ثم قال : « والجمع بين هذه الروايات أنه : أبوقيس صِرْمة بن أبي أنس قيس بن مالك بن عدي بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار » [فتح الباري ٤ : ١٣٠] .

(٥) انظر الحديث عند الإمام البخاري في كتاب الصوم ، باب قول الله جلّ ذكره : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ الآية ، ح ١٩١٥ . انظر : فتح الباري ٤ : ١٢٩ .

(٦) سورة البقرة ، آية : ١٨٧ .

(٧) انظر : سيد قطب ، في ظلال القرآن ١ : ١٧٥ .

وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [1] .

الكُرْه : « ما حمل الرجلُ عليه نفسه من غير إكراه أحدٍ إياه عليه » [2] . وكراهة القتال لاتنافي الإيمان ، لأنها طبيعية في النفس البشرية ، إذ فيه خطر على الروح ، ومؤونة على المال ، ومشقة على البدن [3] . والإسلام لا يصادم الفطرة البشرية ، ولا ينكرها ، وحين يُقَرِّر فرائضَ فيها مشقّة يعالجُها من جانب آخر يهوّن تلك المشقة ، ويسيغ مرارتها .

وفي هذه الآية يذكّر الله سبحانه بأن إدراك البشر محدود ، وعلمهم ناقص ، وأنه هو العليمُ بخلقه ، المُحيط بهم ، المطلع على العواقب المستورة ، وأنّ من وراء القتال الذي يكرهون خيراً ، ومن وراء الدّعة التي يحبون شراً . والخير الذي في القتال : العِزّة والمنعة والغنيمة ، أو الشهادة والجنة . وأمّا الدَّعَة وترك القتال فتجلب الذُّلّ والفقر ، مع ما فيها من التقصير في تحمُّل الدعوة وتبليغها ، بل لا يأمن المسلمون إن ظهر عليهم عدوّهم أن يُغلَبوا على دينهم فيرتدّوا . يقول سيد قطب : « هكذا يواجه الإسلام الفطرة ، لامنكراً عليها ما يطوف بها من المشاعر ، ولا مريداً لها على الأمر الصعب بمجرد التكليف ، ولكن مربياً لها على الطاعة ، ومفسحاً لها في الرجاء لتبذل الذي هو أدنى في سبيل الذي هو خير ، ولترتفع على ذاتها متطوّعة لا مجبرة » [4] .

وفي قوله تعالى : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ما يفيد الأمر بالمبادرة إلى الامتثال ، لأنه سبحانه لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شرّ [5] .

والمقصود بخطاب هذه الآية قيل : الصحابة رضوان الله عليهم . ورجّح الطبري وابن العربي توجيه الخطاب لجميع الأمة ، قال الطبري : « هو على كل واحد حتى يقوم به من في قيامه الكفاية ، فيسقط فرض ذلك حينئذٍ عن باقي المسلمين ، كالصلاة على الجنائز ، وغسلهم الموتى ، ودفنهم ، وعلى هذا عامة المسلمين » [6] . وقال ابن العربي : « مكتوب - أي القتال - على جميع الخلق ، لكن يختلف الحال فيه ، فإن كان الإسلام ظاهراً فهو فرضٌ على الكفاية ، وإن كان العدوّ ظاهراً كان القتال فرضاً على الأعيان حتى يكشف الله ما بهم . وهذا هو الصحيح » [7] .

٣ - قوله تعالى : ﴿ ولا جُناح عليكم فيما عرّضتم به من خِطبة النِّساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهنّ ولكن لا تواعدوهنّ سرّاً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزِموا عُقْدة

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .
(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤ : ٢٩٧ .
(٣) انظر : الألوسي ، روح المعاني ٢ : ١٦١ .
(٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ١ : ٢٢٣ .
(٥) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٢٧ . والألوسي ، روح المعاني ٢ : ١٦١ .
(٦) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤ : ٢٩٦ .
(٧) ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ١٤٦ .

النكاح حتّى يبلغَ الكتابُ أجلَه واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أنّ الله غفورٌ حليم ﴾ (١) .

التّعريض : « القول المفهِم لمقصود الشيء وليس بنصٍ فيه » (٢) ، وقال ابن الجوزي : « الإيماء والتلويح من غير كشف » (٣) . وهو في باب الخطبة أن يذكر للمرأة جمالها وحسنها وميل الرجل لأمثالها ، ورغبته في الزواج ، ويهدي إليها ... ونحو ذلك .

والإكنان : الإخفاء والسّتْر (٤) .

والله تعالى يعلم أن الرغبة في الزواج إذا حصلت في النفس لا تكاد تخلوا من العزم والتمنّي ، وهو ميل فطري يصعب دفعه ، فرفع سبحانه ذلك الحرج ، ولم يحاسب الإنسان عليه مالم يصرّح بالخطبة للمرأة التي يرغبها في عدّتها ، وفي ذلك تهذيب للميول الفطرية وضبطٌ لها .

إذاً فالمحظور « هو المواعدة على الزواج سراً قبل انقضاء العدة ، ففي هذا مجانبة أدبِ النّفس ومخالسةُ ذكرى الزوج ، وقلّة استحياءٍ من الله الذي جعل العدّة فاصلاً بين عهدين في الحياة » (٥) .

وللعلماء في معنى قوله تعالى : ﴿ سِرّا ﴾ أقوالٌ منها :

أ) الزنى ، قال به جابر بن زيد ، والحسن البصري ، وإبراهيم النخعي ، وسليمان التيمي وغيرهم (٦) .

ب) أخذ العهد والميثاق على المرأة ألا تنكح أحداً غيره ، وإليه ذهب عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والشعبي ، والسدّي (٧) .

جـ) النكاح والوطء في العدّة ، أي : لا تنكحوهن في عدّتهن سراً ، حتّى إذا حلّت أظهرتم ذلك ودخلتم بهنّ (٨) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٣٥ .
(٢) ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ٢١٢ .
(٣) ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٧٦ . وانظر : الجرجاني ، التعريفات : ٦٢ .
(٤) انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٥ : ١٢٣ . والرازي ، التفسير الكبير ٦ : ١٣١ . والراغب الأصفهاني : ٤٤٢ .
(٥) سيد قطب ، في ظلال القرآن ١ : ٢٥٦ .
(٦) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ١٠٥ – ١٠٧ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ١٩٠ – ١٩١ . وابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ٢١٤ .
(٧) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ١٠٧ – ١٠٨ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٧٨ .
(٨) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ١٠٩ – ١١٠ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ١٩١ . وابن الجوزي ، زاد المسير ٢٧٨ .

ورجّح ابن عطية أنه (أخذ العهد) ، فبعد أن أورد ترجيح الطبري لقول من قال أنه الزنى ، قال : « وفي ذلك عندي نظر ، وذلك أن السرّ في اللغة يقع على الوطء حلاله وحرامه ، والآية تعطي النهي عن أن يواعد الرجل المعتدة أن يطأها بعد العدّة بوجه التزوّج . وأما المواعدة في الزنى فمحرّم على المسلم مع معتدّة وغيرها »(١) .

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٣٠٧ - ٣٠٨ ، ووافقه ابن العربي انظر : أحكام القرآن ١ : ٢١٥ .

الفصل الثاني

الحــــوار

تمهيد

الحوار إطار عام تندرج تحته جميع المناقشات والمجادلات الواردة في الآيات الكريمة ، والتي من شأنها إظهار الحق وتثبيته ، ونصرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكشف الباطل وبيان فساده .

وهذا هو عين الجدل المحمود الذي دعت إليه الآيات الكريمة [1] كما في قوله تعالى : ﴿ أدعُ إلى سَبِيل رَبِّك بالحِكْمة والمَوعِظَةِ الحَسَنة وجادِلهُم بالتي هي أحْسَن ﴾ [2] ، والذي سلكه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد كان من أصبرهم وأعرضهم صدراً نوح عليه السلام حتى ضاق قومه به ذرعاً ، قال تعالى : ﴿ قالوا يانوحُ قد جادلتنا فأكثرتَ جِدالنا فأتنا بما تَعِدُنا إن كُنتَ من الصَّادِقين ﴾ [3] ، ومن أقواهم حُجَّة إبراهيم الخليل عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِه نَرْفعُ دَرَجاتٍ مَن نشاء إنّ ربّكَ حكيم عليم ﴾ [4] .

ومن أبرز مميزات الحوار والجدل القرآني ما يأتي :

١ - الإلزام والإفحام بأقرب الطرق وأشدها إلزاماً [5] ، قال تعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا مِيثاقَكم لاتَسْفِكُونَ دِماءكم ولا تُخْرِجُونَ أنفُسكم من دِيارِكُم ثُمّ أقْرَرْتُم وأنْتُم تَشْهَدُون ﴿ ثُمّ أنْتُم هٰؤلاء تَقتُلون أنفُسكم وتُخرِجُون فَريقاً مِنكم مِن دِيارهم تَظاهَرُون عليهم بالإثْم والعُدْوان وإنْ يأتوكم أسارى تُفادُوهم وهو مُحَرّمٌ عليكم إخراجُهم أفَتُؤمِنون ببعضِ الكِتابِ وتَكْفُرون ببعض ﴾ [6] ، فالله سبحانه كشف لنبيّه ﷺ بطلان مزاعمهم في الإيمان والتمسّك بالتوراة من أنفسهم حين استقرأ سلوكهم تجاه التوراة في بعض أحكامها ، ثم بادرهم بسؤال يظهر فساد مذهبهم في التفريق بين الكُتُب المنزلة من الله سبحانه ، ويلزمهم الحُجّة في ذلك فقال : ﴿ أفَتُؤمِنون ببعضِ الكِتابِ وتكْفُرون ببعض ﴾ .

٢ - الوضوح في الحوار والمخاطبة ، فمناقشات القرآن يفهمها عامة الناس ، ويجد فيها الخاصة بغيتهم ، بخلاف الطرق المنطقية التي قد تُشْكِل على أهل الدراية بها فضلاً عن العموم ،

(١) انظر : الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ١ : ٢٣٣ ، ٢٣٥ . والجويني ، الكافية في الجدل : ٢٢ - ٢٣ .
(٢) سورة النحل ، آية : ١٢٥ .
(٣) سورة هود ، آية : ٣٢ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ٨٣ .
(٥) انظر : أبوزهرة ، تاريخ الجدل : ٧٢ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٨٤ - ٨٥ .

يقول السيوطي : « اشتمل القرآن الكريم على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به . ولكن أورده على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين ، لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قاله : ﴿ وما أرسلنا مِن رَسول إلا بِلِسان قَومِه لِيُبَيِّنَ لهم ﴾ (١) .

والثاني : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحُجَّة بالجليل من الكلام ، فإن من استطاع أن يُفهِم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون ، لم يَنْحَطّ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ، ولم يكن ملغِزاً ، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة ، ليفهم العامة من جليه مايقنعهم وتلزمهم الحجة ، وتفهم الخواصّ من أنبائها ما يربى على ما أدركه الخطباء » (٢) .

ويضاف إليه ما في طرق أهل المنطق من ضعف وقصور ، يقول ابن تيميّة : « وما زال نظار المسلمين يعيبون طريق أهل المنطق ، ويبينون ما فيها من العِيّ واللكنة ، وقصور العقل ، وعجز المنطق ، ويبينون أنها إلى إفساد المنطق العقلي واللساني أقرب منها إلى تقويم ذلك . ولا يرضون أن يسلكوها في نَظَرِهم ومُناظراتهم ، لا مع من يوالونه ، ولا مع من يعادونه » (٣) .

ويُعنى هذا الفصل من الرسالة بذكر أمثلة الحوار والمجادلات المستخدمة تجاه المدعوين من المشركين وأهل الكتاب وأنواعها قدر المستطاع .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٤ .
(٢) السيوطي ، الإتقان ٢ : ١٧٢ .
(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٩ : ١٨٤ .

المبحث الأول

المعـــارضـــة

المعارضة إحدى الطرق المعتدّ بها في باب النظر والجدل ، يقول الخطيب البغدادي: « القلب على الخصم والمعارضة والنقض كلّ ذلك صحيح في النظر »[1] . وقال الجويني : « إنّ الله تعالى قد أنزل في كتابه مادلّ على صحة المعارضة في غير موضع مثل قوله تعالى : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ فدُعاهم إلى المعارضة في نحوٍ من هذه الآية دلّ على أنها صحيحة في إفساد مايُدَّعى دلالة .

ولأن المعارضة لو لم تكن صحيحة في إفساد مايُدَّعى من الأدلة ؛ لم تقم المعجزة دلالة على صحة الرسالة ، لأن أحد أركان المعجزة الصحيحة : أن يتعذر معها المعارضة ، حتى إذا لم يتعذّر عُلم أنها مَخْرقة غير دلالة »[2] .

تعريف المعارضة :

المُعارَضَة في اللغة : المقابلة على سبيل الممانعة[3] ، وفي القاموس : « عارَضَه : جانَبَه وعَدَل عنه ، وسار حِياله ، وأخذ في عَرُوض الطريق . وعارض الكتاب : قابَلَه . وعارض الجنازة : أتاها معترضاً في بعض الطريق ، ولم يتبعها من منزله . وعارض فلاناً بمثل صنيعه : أتى إليه مِثْلَ ما أتى . ومنه المُعارَضة ، كأنّ عَرْضَ فِعْله كعَرْضِ فِعْله »[4] .

وفي الاصطلاح أورد له العلماء تعاريف متعددة ، منها :

١ - قال الجرجاني : « هي إقامة الدليل على خلاف ما أقام الدليل عليه الخصم » قال : « ودليل المعارِض إذا كان عين دليل الخصم سُمّي قَلباً »[5] .

٢ - وقال الجُوَيني : « وفي عُرف الفقهاء : ممانعة الخصم بدعوى المساوي . أو مساواة الخصم في معنى الدلالة »[6] .

---

(١) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٥٦ .
(٢) الجويني ، الكافية في الجدل : ٤١٩ - ٤٢٠ .
(٣) انظر : الجرجاني ، التعريفات : ٢١٩ . والجويني ، الكافية في الجدل ٦٩ .
(٤) الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ٨٣٤ .
(٥) الجرجاني ، التعريفات : ٢١٩ .
(٦) الجويني ، الكافية في الجدل : ٦٩ .

٣ - وقال الشوكاني : « هي إلزام المستدلّ الجمع بين شيئين متساويين والتسوية بينهما في الحكم إثباتاً أو نفياً » [١] .

٤ - وقيل : « إلزام الخصم أن يقول قولاً قال بنظيره » [٢] .

و لا مانع من صحة هذه التعاريف كلها ، حيث إنّ كلاً منها يتحدّث عن صورة من صور المعارضة التي سيأتي ذكر بعضها قريباً .

أحكام المعارضة :

أورد الجُويني للمُعارَضَة حكمين من أحكامها ، أحدُهما : وجوب المساواة بين المتعارِضَين ، حتّى إذا كان أحدهما لفظاً مفسّراً والآخر مجملاً لم يتعارضا ، وهكذا في المعاني [٣] ، والآخر : أن من ادّعى علماً بمقالةٍ ضرورةً أو دِلالةً ، يَعلم الخصمُ أن الأمر بخلاف ما يدَّعيه ؛ جاز لخصمه أن يعارضه فيدّعي العلم فيه بخلاف دعواه ، وعكسها ، حتى إذا لم يجد فصلاً عاد إلى الطريق المرسوم في الجدل والنظر [٤] .

صوَر المعارضة :

من أبرز صور المعارضة التي ساقها الجُويني ما يأتي :

١ - المعارضة لإسقاط السؤال ، لا مطالبةً للحجّة بالتفرقة [٥] .

٢ - المُعَارَضة لإسقاط السؤال بإيجاب التسوية في مسألة واحدة على النقيض [٦] .

٣ - المعارضة لإقامة الدليل [٧] .

٤ - المعارضة اللازمة بما يجري مجرى الضرورة (معارضة النظير بالنظير) [٨] .

٥ - أن يعارض تعجباً بالخصم من علّة الدليل بتعجب على عكسه [٩] .

---

(١) الشوكاني ، إرشاد الفحول : ٢٣٢ . وانظر : الجويني ، الكافية في الجدل : ٤١٨ .
(٢) الجويني ، الكافية في الجدل : ٤١٨ . وانظر : الشوكاني ، إرشاد الفحول :٢٣٢ .
(٣) انظر : الجويني ، الكافية في الجدل : ٤٢٨ .
(٤) انظر : المصدر السابق : ٤٢٩ .
(٥) انظر : المصدر السابق : ٤٢٢ .
(٦) انظر : المصدر السابق : ٤٢٣ .
(٧) انظر : المصدر السابق : ٤٢٤ .
(٨) انظر : المصدر السابق : ٤٢٦ .
(٩) انظر : المصدر السابق : ٤٢٩ .

٦ – المعارضة بذكر ما ينفي قوله فيما استدلّ به أحد الخصمين (١) .

٧ – معارضة السؤال بسؤال مثله لإسقاطه (٢) .

٨ – المعارضة بتقويم ما يورده الخصم (٣) .

٩ – المعارضة بالكشف عن استحالة ما يقوله في الشريعة أو العقول (٤) .

أمثلة المعارضة من سورة البقرة :

باستقراء الآيات الكريمة في سورة البقرة ، أمكن تَلَمُّس بعض الأمثلة التي ينطبق عليها اصطلاح المعارضة وهي :

أولاً : قوله تعالى : « وقالوا لن تمسنا النّارُ إلا أياماً معدودة قل أتّخذتم عند الله عَهْداً فلن يُخْلِف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون ★ بلى من كسب سيّئة وأحاطت به خطيئتُه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ★ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون ﴾ (٥) .

سبب نزول الآية :

زعم اليهود أنهم يمكثون في النار أياماً ، كنّى القرآن عن قلّتها بالمعدودة ، فكلُّ معدودٍ منقضٍ، والزمان إذا كثر لايعدّ بالأيام بل بالشهور والسنين (٦) ، وبعض الروايات يحددها بسبع من أيام الآخرة كما في رواية عبدالله بن عباس رضي الله عنهما (٧) ، وبعضها الآخر بأربعين ، قال ابن زيد : « حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال لهم : أنشدكم بالله وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى يوم طور سيناء : من أهل النار الذين أنزلهم الله في التوراة ؟ وقالوا : إن ربّهم غضب عليهم غضبة ، فنمكث في النار أربعين ليلة ، ثم نخرج فتخلفوننا فيها . فقال رسول الله ﷺ كذبتم ، لانخلفكم فيها أبداً . فنزل القرآن تصديقاً لقول النبي ﷺ وتكذيباً لهم : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار ﴾ » (٨) .

---

(١) انظر : الجويني ، الكافية في الجدل : ٤٢٩ .
(٢) انظر : المصدر السابق : ٤٣٠ .
(٣) انظر : المصدر السابق : ٤٣٥ .
(٤) انظر : المصدر السابق : ٤٣٨ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٨٠ – ٨٢ .
(٦) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ١ : ٤٩٤ . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٤٧٩ .
(٧) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٧٧ – ٢٧٨ .
(٨) المصدر السابق ٢ : ٢٧٧ .

صورة المعارضة :

اعتمد اليهود في قولهم هذا على دعوى الإيمان ، كما يظهر ذلك من الروايات الواردة في أسباب النزول حيث قالوا : « إن الله يدخلنا النار فنمكث فيها أربعين ليلة ، حتّى إذا أكلت النار خطايانا نادى منادٍ أخرجوا كل مختون من ولد بني إسرائيل »(١) ، وفي رواية أخرى : « لن ندخل النار إلا تحلة القسم ، عدد الأيام التي عبدنا فيها العجل »(٢) .

فدعوى خروجهم من النار وعدم خلودهم فيها قائمة على دعوى سابقة بأنهم مؤمنون متمسكون بكتابهم ، والمؤمن لا يُخَلَّد في النار .

فعارض القرآن الكريم دعواهم هذه بذكر ما ينافي قولهم حيث قال تعالى : ﴿ بلى من كسب سيّئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٣) ، والسيّئة تتناول جميع المعاصي(٤) ، لكنّ المراد بها هنا (الشرك) ، لأنّ الله تعالى وصف السيّئة بالإحاطة ، وهي الشمول وعموم الظاهر والباطن(٥) ، والكافر بالله عاصٍ بقلبه ولسانه وجوارحه ، فليس شيء من أحواله خارج عن الخطيئة ، واستمرّ على ذلك حتّى مات .

إذاً فهذه صفة الخالدين في النار ، وهي تنطبق على اليهود الذين حكّموا أهواءهم فكذبوا الأنبياء ، وقتلوا بعضهم ، وكفروا بمحمد ﷺ ، ومن ثَمّ فهم المُخَلَّدون في النار لا غيرَهم . يقول عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : « أي من عمل مثل أعمالكم ، وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط كفره بماله من حسنة ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(٦) .

وأما الناجون من النار ، المخلدون في الجنّة فهم المؤمنون ، قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾(٧) ، « أي من آمن بما كفرتم به ، وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنة خالدين فيها . يخبرهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له أبداً »(٨) .

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٧٥ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٨١ .
(٤) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٤٤ .
(٥) الألوسي ، روح المعاني ١ : ٤٨٢ . وانظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٨١ .
(٦) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٨٠ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٨٢ .
(٨) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٨٧ .

ونظير هذه المعارضة ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنّة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ [1] . وفيها ثلاث معارضات :

الأولى : معارضة بالكشف عن استحالة مايقوله الخصم في الشريعة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ تلك أمانيهم ﴾ فالأماني ليست سبيلاً لدخول الجنة ، بل الإيمان والعمل ، قال سبحانه : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولايجدْ له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة ولا يُظلمون نقيراً ﴾ [2].

والثانية : معارضة لإقامة الدليل في قوله تعالى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

والثالثة : المعارضة بذكر ما ينافي قوله ، قال سبحانه : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، فالذي يدخل الجنة من أسلم وجهه لله ، فتذلّل له بالطاعة ، وأذعن لأمره ، وأخلص الدين له . وخصّ الوجه بالذّكر لأنه أشرف أعضاء الإنسان ، وفيه يظهر العِزّ والذُّلّ [3] .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزِل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتِي موسى وعيسى وما أوتي النبيُّون من ربِّهم لانُفَرِّق بين أحدٍ مِنهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنّما هم في شقاق فسيكفيكهم اللهُ وهو السميع العليم ﴾ [4] .

سبب نزول الآية :

يُروى أنّ اليهود والنصارى اجتمعوا عند النبي ﷺ فتنازعوا ، وادّعى كل فريق أنّ دينهم أفضل الأديان ، ودعَوا المسلمين إلى اتّباعهم [5] ، كما رُوي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما

(١) سورة البقرة ، آية : ١١١ – ١١٢ .
(٢) سورة النساء ، آية : ١٢٣ .
(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٥١١ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٧٥ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٣٥ – ١٣٧ .
(٥) انظر : الواحدي ، أسباب النزول : ٧٦ .

قال : « قال عبدالله بن صُوْرِيا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتّبعنا يا محمّد تَهْتَد . وقالت النّصارى مثلَ ذلك . فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى ﴾ (١) .

صورة المعارضة :

تضمنت هذه الآيات الكريمة ثلاثاً من صور المعارضة هن :

الأولى والثانية : تقويم ما يورده الخصم ، والكشف عن استحالة ما يقول في الشريعة أوالعقل، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

وبيانهما أن كلّ فريقٍ من أهل الكتاب حصر الهداية في دينه، فقالت اليهود للمسلمين : كونوا هوداً تهتدوا ، وقالت النصارى : كونوا نصارى تهتدوا . فردّ عليهم القرآن الكريم : ﴿ قل بل ملة إبراهيم ﴾ أي الحقّ والصواب أن نتّبع ملة إبراهيم عليه السلام التي يُجْمِع جميعنا على الشهادة لها بأنها دين الله الذي ارتضاه وأمر به ، وندع سائر الأديان والملل والمختلف فيها ، ولشدة اختلافها وتناقضها يستحيل الاجتماع عليها (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ بل ملة إبراهيم ﴾ فيه كناية عن التَلَبُّس بها وعدم الانفكاك عنها (٣) .

الثالثة : المعارضة بذكر ما ينافي قول الخصم ، وذلك حين نفى الله سبحانه الشرك عن إبراهيم عليه السلام ﴿ حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ، والحنيف : المستقيم من كل شيء ، قال الطبري : « الحَنَفُ عندي : هو الاستقامة ، واتّباعه على ملّته » (٤) . ونفيُ الشِّرْك عنه تعريضٌ بأهل الكتاب ومشركي العرب الذين يدّعون اتّباعهم لإبراهيم عليه السلام ويؤدّون شرائع من دينه كالختان والحجّ ، فأشرك اليهود لمّا قالوا : عزير ابن الله . وأشرك النصارى حين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . كما أشرك العرب بعبادتهم للأصنام وقولهم : الملائكة بنات الله (٥) .

ثم عقّب على هذا التعريض بالشروع في بيان وتفصيل ملّة إبراهيم النقيّة الصافية التي دعاهم النبي ﷺ الى اتّباعها : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزِل إلينا وما أنزِل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتِي موسى وعيسى وما أوتي النبيُّون من ربِّهم لانُفَرِّق بين أحدٍ مِنهم ﴾ ، فأمر المسلمين أن يقولوا هذا على سبيل المعارضة لقول أهل الكتاب ﴿ كونوا هوداً أو نصارى

---

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ١٠٢ .
(٢) انظر : المصدر السابق . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٦١٩ .
(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ٢ : ١٨٤ .
(٤) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ١٠٧ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٥٠١ . والخازن ، لباب التأويل ١ : ١١٥ .
(٥) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٥٠١ . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٦٢٠ .

تهتدوا ﴾ ، وقدّم الإيمان لأنه أساس الأعمال ، والطريق الموصل إلى التصديق بالقرآن الكريم ، وبالكتب المنزلة على الأنبياء ، دون تفريق بينها لأنها جميعاً منزلة من ربّ واحد . وبهذا تحصل فضيلة سائر الأديان لأهل هذه الملّة لما فيها من الإنصاف وسلامة الطوية .

وتنتهي المعارضة بحصر الهداية في ملة إبراهيم عليه السلام التي يدعو إليها النبي ﷺ ، ويدين الله بها ، على خلاف دعوى أهل الكتاب حَصْرَ الهدايةِ في دينهم ، قال تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما هم في شقاق ﴾ ، وفيه إشعار بأنهم في جدالهم هذا ليسوا طالبي حقّ ولا هُدى ، فالدّعوة واضحة ، والإنصاف ظاهر ، والحقّ بيّن ، وهم يعلمونه ولكنهم في شقاق .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ سيقول السُّفَهاء من الناسِ ما ولاّهم عن قِبلتِهِمُ التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم * وكذلك جَعَلْناكُم أمّةً وسطاً لتكونوا شُهداء على الناسِ ويَكون الرسولُ عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتَّبِعُ الرسولَ ممَّن ينقلبُ على عَقِبَيْه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى اللهُ وما كان اللهُ لِيُضيع إيمانكم إنّ اللهَ بالناسِ لرؤوفٌ رحيم ﴾ [١] .

سبب نزول الآية :

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ صلّى نحو بيت المقدس ستّة عشر أو سبعة عشر شهراً . وكان رسول الله ﷺ يُحبّ أن يوجّه إلى الكعبة ، فأنزل الله ﴿ قد نرى تقلّب وجهك في السماء ﴾ [٢] ، فتوجّه نحو الكعبة . وقال السفهاء من الناس وهم اليهود ﴿ ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ » [٣] .

وممن قال ذلك من اليهود : رِفاعة بن قيس ، وكعب بن الأشرف ، وقِرْدَم ، والربيع وكِنانة بن أبي الحُقَيق [٤] . وقال السُّدّي : « قالها اليهود والمنافقون استهزاءً ، وذلك أنهم قالوا : اشتاق الرجل

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٤٢ - ١٤٣ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٤ .
(٣) رواه البخاري في كتاب الصلاة ، باب قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [سورة البقرة : ١٢٥] ، ح ٣٩٩ . انظر : فتح الباري ١ : ٥٠٢ . وانظر : الواحدي ، أسباب النزول : ٧٦ - ٧٧ .
(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ١٣٢ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٦٤ . وابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٥٥٠ .

إلى وطنه »[1] .

صورة المعارضة :

في هذه الآيات الكريمة صورتان متلازمتان للمعارضة ، إحداهما : المعارضة لإسقاط السؤال لامطالبةً للحجّة بالتَّفرقة ، والأخرى : معارضة تعجّبٍ بالخصم عن العلة بتعجُّبٍ عكسه .

فالقائلون ذلك سَألوا باستنكارٍ وتعجُّبٍ : ﴿ ماولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ أي : أيُّ شيء صرفهم عن قبلتهم الأولى إلى بيت المقدس ، مع أن الجهات كُلُّها متساوية في الصِّفات ؟! يسألون عن ذلك بطريقة توحي بالتشكيكِ وقصدِ الفتنة[2] .

« فأجابهم الله تعالى بما بنى عليه أفعاله من كونه مالكاً غير مملَّك أو غير مأمور ، لايدخل تحت رسم أحد ، ولايُسأل عمّا يفعل ، لأنه يَسأل عن فعله مَن هو تحت حدٍ ورسم ، فكأنه تعالى قال : إذا كنتُ ملك الشرق والغرب ، أتصرف في مُلكي ، فما موضع المساءلة : لم نقلتُ عبيدي ؟! »[3] ، قال الخطيب : « وهذا هو الجواب النظري ، ردّه بأصله ، وموجب قاعدة أمره ، فسقط السّؤال ، ولم يلزمه أن يبيّن لم فعل ذلك »[4] .

ثم انتقل بعد ذلك إلى بيان علة تحويل القبلة فقال سبحانه : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ ، والمعنى : « أمرتك أن تصلي لبيت المقدس ليصلّوا معك على ما أَلِفوه من الصلاة إلى بيت المقدس ، ثم نقلتُك إلى الكعبة لتَعلم أنت وتَخْبر من صلّى معك إلى بيت المقدس تبعاً لك وطاعة لأمرك وقبولاً منك ، فإنّه ينتقل معك لِما التزمه من الطاعة . ومَن صلّى إلى بيت المقدس لكونه شريعة له لا لطاعتك فإنه لا يتحوَّل ، بل يقيم على قبلته ، فتعلم أنه منقلبٌ على عَقِبيه ، وليس بمطيع لك ولا تابع »[5]. قال عبدالملك بن جُرَيْج : « بلغني أن ناساً ممن كان أسلم رجعوا عن الإسلام »[6] .

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ١ . وانظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ١٥٧ . والرازي ، التفسير الكبير ٤ : ٩١ .
(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٤ : ٩٥ . والألوسي ، روح المعاني ٢ : ٤ .
(٣) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٥٥ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق ٢ : ٥٥ - ٥٦ .
(٦) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٨ . وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٥٧ .

المبحث الثاني

المناقضة

تتطلب المُناقَضَة من المناظر التدقيقَ وإمعان النظر في دعوى الخصم وما يورده من أدلة للبرهنة عليها ، فإن فُهمت الدعوى ، وعُرف نقيضها ؛ أمكن ردها من نفسها بإظهار تناقضها ، أو إيراد قضية أخرى مناظِرةٌ تثبت خطأها أو كذبها .

وفيما يأتي نُبْذَةٌ عن المناقضة وما يتعلق بها .

تعريف المناقضة :

المُناقَضَة في اللغة : من (النَّقْض) ، وهو في البناء والعَهْد والحبْل : النَّكثُ ، ضدُّ الإبرام . والمناقضة في القول : أن يتكلم بما يتناقض معناه ، أي : يتخالف[1] . وقال الجرجاني : « المناقضة لغةً : إبطال أحد القولين بالآخر »[2] .

وفي الاصطلاح :

١ - وعرّف الجرجاني المناقضة بأنها : « منع مقدمة معيّنة من مقدّمات الدليل »[3] .

٢ - وقال الجُويني : « وحدّ النَّقْض : انتفاء الحكم عما ادُّعِي من العلة . وقيل : وجود العلة مع فَقْدِ ما ادُّعي من حكمها . وقيل : إبراء العِلّة حيث لا حُكم »[4] .

٣ - وقال الشوكاني : « تخلُّف الحكم مع وجود العلّة ولو في صورة واحدة »[5] .

٤ - وقال السيوطي : « هي تعليق أمر على مستحيل ، إشارة إلى استحالة وقوعه »[6] .

٥ - وقال الميداني : « إبطال دليل المعلّل بتخلُّف مدلوله عنه ، أو باستلزامه المحال »[7] .

(١) انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٥ : ٤٧١ . والفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ٨٤٦ .
(٢) الجرجاني ، التعريفات : ٢٣٢ .
(٣) المصدر السابق.
(٤) الجويني ، الكافية في الجدل : ٦٩ .
(٥) الشوكاني ، إرشاد الفحول : ٢٢٤ .
(٦) السيوطي ، الإتقان : ١٧٤ . وهو بعيد جداً في موضوعه عن التعريفات الأخرى وبخاصة تعريفات الجرجاني والجويني . بل أجدُه يدخل في بابِ التهديد والوعيد وليس في باب الجدل والحوار ، فقد مثل له السيوطي بقوله تعالى : ﴿ ولا يدخلون الجنّة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخِيَاط ﴾ [الأعراف : ٤٠] ، والله أعلم .
(٧) الميداني ، ضوابط المعرفة : ٤٥٥ . ولا ارتباط بين قوله « استلزامه المحال » بتعريف السيوطي ، ويظهر ذلك من شرحه للتعريف حيث قال : « وصورته أن يقال مثلاً : هذا الدليل تخلف عن مدلوله وكل دليل كان كذلك فهو فاسد . أو يقول : هذا الدليل مستلزم المحال ، وكل دليل كذلك فهو فاسد » [ضوابط المعرفة : ٤٤٢] .

شروط المناقضة :

من شروط المناقضة كما قال الجرجاني : ألا تكون المقدمة من الأوليّات ، ولا من المُسَلَّمات، وأما إذا كانت من التجريبيات ، والحَدْسِيات ، والمتواترات ، فيجوز منعها لأنه ليس بحجّة على الغير [1] .

كما اشتُرِط فيها اقترانها بشاهد ، وهو ما يدل على صحة النقض ، ويبيّن فساد دليل المعلل ، باستثناء حالة واحدة هي أن يكون النقض بديهيا ، وحينئذ تقوم بداهته مقام الشاهد [2] .

أمثلة المناقضة من سورة البقرة :

أبرز ما أمكن التوصل إليه في أمثلة المناقضة من سورة البقرة ما يأتي :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحقّ مصدّقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين ★ ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثم اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ★ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشْرِبوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [3] .

صورة المناقضة :

تقدّم أن اليهود من أهل الكتاب جعلوا دينهم وكتابهم ذريعة للتنصّل من اتباع النبي ﷺ ، وهم هنا يصرِّحون بذلك فيما حكاه القرآن عنهم : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ . فردّ عليهم بما ينقض مقالتهم هنا بما يأتي :

١ - قتل الأنبياء ، قال البقاعي : « كشَفَ سِتر مقالتهم بأبين نَقْضٍ فقال : ﴿ فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين ﴾ » [4] ، فدعوى الإيمان بما أنزل الله على أنبيائهم من كُتُبٍ منتقضةٌ بأقوالهم وأفعالهم ، ذلك أنها تحرّم مطلق القتل بغير حقّ ، فكيف بِقَتْل الأنبياء ، والمعنى : لو كان إيمانكم حقّاً لما أقدم أسلافكم على قتل أنبياء الله تعالى ، ولما رضيتم أنتم بذلك ، ولا رأيتم أنهم على حقّ .

(١) انظر : الجرجاني ، التعريفات : ٢٣٢ .
(٢) انظر : الميداني ، ضوابط المعرفة : ٤٤٢ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٩١ - ٩٣ .
(٤) البقاعي ، نظم الدرر ٢ : ٤٩ .

وفيه إلزام للحاضرين متلقي الخطاب لفعل الأسلاف لموافقتهم عليه ، ومن ثَمّ شُمُولِهم بالحكم في الكفر ، إضافة إلى ما فيه من إيماء برغبتهم في قتل النبي ﷺ (١) .

وقال الرازي : « هذه الآية دالّة على على أن المجادلة في الدين من حِرف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،وأن إيراد المناقضة على الخصم جائز » (٢) .

٢ - عبادة العجل ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثم اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ (٣) . فالإيمان بالله تعالى يقتضي التوحيد وعدم الشرك ، ولم يُعهد إلى اليهود في التوارة المنزّلة على موسى عليه السلام بشيء ما عُهِد إليهم في التوحيد ، وهو في صحف التوراة التي بأيدهم حين تنزُّل الخطاب لمّا يصله التحريف ، ولكنهم أقدموا على ذلك بحضرة هارون عليه السلام ، وموسى عليه السلام ذاهب لميعاد ربه (٤) .

وأعيد ذكر عبادتهم للعجل في قوله تعالى : ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ (٥) ، لأن التكرار في هذا وأمثالة يعني التأكيد ، وإيجاب الحجّة على الخصم (٦) .

٣ - نقض المواثيق ، قال سبحانه : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشْرِبوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (٧) . فلما جاءهم موسى عليه السلام بالتوراة تلكؤوا في أخذها ، فرُفع فوقهم الطور ، وألزموا على أخذها ، فكان الطور فوقهم آية عظيمة تقتضي الثبات على الإيمان ، وبياناً بليغاً في التحذير من العناد والعصيان ، ولكنهم سرعان ما قالوا - فيما حكى القرآن عنهم - : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ ، فضلُّوا ونقضوا إيمانهم بعد أخْذِ الميثاق عليهم .

والأعمال هذه من تكذيبٍ ، وقتلٍ ، وشركٍ ، لا يمكن أن تصدر من متلبس بالإيمان ، بل ماأتّصف بالإيمان من هذه صفته : ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (٨) .

---

(١) انظر صفحة ١١٥ - ١١٦ من هذه الرسالة .

(٢) الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٨٦ . وقوله « المجادلة من حرف الأنبياء » أجده غير موفّق ، فحرفة الأنبياء الدعوة ، ويستعينون بالجدل إذا اقتضى الأمر .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٩٢ .

(٤) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ٢ : ٥٠ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٦٣ .

(٦) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٨٧ .

(٧) سورة البقرة ، آية : ٩٣ .

(٨) انظر : أبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٣٠٧ . والبقاعي ، نظم الدرر ٢ : ٤٩ . وابن عاشور ، التحرير والتنوير ج١ ك٢ : ٦٠٩ .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ قل أتحاجوننا في الله وهو ربُّنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ (١) .

صورة المناقضة :

زعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم أولى بالله تعالى ، لأسبقيّة رسالتهم وقِدَم كتابهم . فأمر الله تعالى المؤمنين أن يردّوا عليهم بما ينقض حجّتهم تلك : ﴿ قل أتحاجوننا في الله ﴾ أي : أتجاذبوننا الحجّة على دعواكم هذه ، ولا وجْه لاختصاصكم بالله :

١ - لأن الربَّ واحد ، والناس جميعاً مشتركون في العبودية له ، وكلٌّ مجازى بعمله ، فأيُّ تأثيرٍ لقِدَم الكتاب والدِّين (٢) .

٢ - ولأن مناط القرب والبعد من الله تعالى الإخلاص في العمل ، ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ ، أما أنتم فلم تخلصوا ، بل كذّبتم الرسل ، وقتلتم الأنبياء ، وحرفتم كتبكم ، وكفرتم بالنبي ﷺ . إذاً فنحن أولى بالله منكم إذ أخلصنا ولم تخلصوا (٣) .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ (٤) .

سبب النزول :

اختلف المفسرون في نزول هذه الآية على أقوال :

١ - فذهب عبدالله بن عباس رضي الله عنهما إلى أنها نزلت في اليهود ، قال : « دعا رسولُ الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغَّبهم فيه ، وحذَّرهم من عقاب الله ونقمته ، فقال رافع ابن خارجة ومالك بن عوف : بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فإنهم كانوا أعلم وخيراً منا . فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله ﴾ الآية » (٥) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٩ .
(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ١٢١ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٥٠٦ . والبقاعي ، نظم الدرر ٢ : ١٩٦ .
(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٨٨ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٥٠٦ .
(٤) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٣٠٥ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٥ : ٦ . والألوسي ، روح المعاني ٢ : ٦١ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٧٠ . وانظر : ابن الحنبلي ، استخراج الجدل من القرآن الكريم : ١١٤ .

٢ - وقيل نزلت في مشركي العرب وكفّار قريش (١) .

٣ - ورجّح الطبري أن يكون الخطاب لعموم الناس فقال : « وأشبه عندي بالصواب وأولى بتأويل الآية : أن تكون الهاء والميم في قوله ﴿ لهم ﴾ من ذِكْر الناس ، وأن يكون ذلك رجوعاً من الخطاب إلى الخبر الغائب ، لأن ذلك عقيب قوله : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض ﴾ » (٢) .

صورة المناقضة :

تُبيِّن الآية الكريمة أن هؤلاء المدعوّين - يهوداً كانوا أم مشركين - أعرضوا عن دعوة النبي ﷺ اقتداءً بآبائهم ، واتباعاً لما كانوا عليه بحجّة أنهم أعلم .

فجاءت الآية الكريمة هذه بنقض هذه الحُجَّة وبيان بطلانها ، وذلك أن الدِّين من أمر الله تعالى ، والعقل البشري لا يتوصَّل إليه من تلقائه ، ولا يهتدي إلى الصواب فيه إلا باتّباع رسل الله سبحانه . وما كان آباؤهم أتْباعَ رسلٍ ، فليسوا إذاً على هدىً في دينهم أو صواب .

وأراد سبحانه أن يقرِّرهم على التزامهم هذا على سبيل التوبيخ والإنكار فقال : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي : « أيتَّبعونهم ولو كانوا لايعقلون شيئاً من أمر الدين ولايهتدون للصواب » (٣) ، لإقامة الحُجَّة عليهم ، إذ إنّ غاية الفساد في الالتزام أن يقولوا : نتّبع آباءنا ولوكانوا لا يعقلون (٤) .

---

(١) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٦٣ . والرازي ، التفسير الكبير ٥ : ٦ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٧٣ . والألوسي ، روح المعاني ٢ : ٦١ . وفسر الماوردي الآية بما يفيد نزولها في المشركين حيث قال : « ﴿ اتبعوا ما أنزل الله ﴾ في تحليل ما حرّموه من الأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام » [النكت والعيون ١ : ١٨٣ - ١٨٤] وهي من أفعال مشركي العرب .
(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٣٠٥ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٥ : ٦ .
(٣) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ٣٢٨ . والألوسي ، روح المعاني ٢ : ٦١ .
(٤) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٦٣ .

المبحث الثالث

المَـــنْـــع

المنع واحد من طرق الجدل والمناظرة ، ويسمَّى أيضاً : ممانعة ، ومطالبة [1] ، وعدّه بعضهم أساس المناظرة ، وأرفع سؤال عن العلل [2] . ومن تعريفاته في الاصطلاح :

١ - تعريف الجرجاني : « امتناع السائل عن قبول ما أوجبه المعلّل من غير دليل » [3] .

٢ - تعريف الميداني : « طلب الدليل على ما يحتاج إلى استدلال ، وطلب التنبيه على ما يحتاج إلى تنبيه » [4] .

٣ - وقال الجويني : « المنع : إظهار دعوى المخالفة » [5] .

أنواع المنع :

ينقسم المنع إلى قسمين [6] :

١ - منع مجرّد عن السند .

٢ - منع مقترن بالسند .

والسند هو : « ما يذكره المانع معتقداً أنه يستلزم نقيض الدعوى التي يوجّه إليها المنع » [7] . وهو ثلاثة أنواع :

أ) سندُ لِمِّي (جوازي) مأخوذ من (لِمَ) الدالة على الاستفهام ، وهو : ما يوجِّهه السائل المعترض بالمنع ، وليس فيه تصريح بما ينافي دعوى المعلّل ، وإنما يشتمل على طرح احتمال بجواز ما ينافيها [8] .

---

(١) انظر : الجويني ، الكافية في الجدل : ٦٧ .
(٢) انظر : الشوكاني ، إرشاد الفحول : ٢٣٠ .
(٣) الجرجاني ، التعريفات : ٢٣١ .
(٤) الميداني ، ضوابط المعرفة : ٤١٩ .
(٥) الجويني ، الكافية في الجدل : ٦٨ .
(٦) انظر : الميداني ، ضوابط المعرفة : ٤١٩ .
(٧) المصدر السابق .
(٨) انظر : المصدر السابق : ٤٢٠ .

ب) وسند قطعي ، وهو : ما يذكره السائل مع المنع مبيناً فيه أن منعه يستند إلى جزمه بما ينافي دعوى المعلل [1] .

ج) وسند حَلّي ، يذكره السائل مع المنع لافتاً فيه نظر المعلِّل إلى منشأ غلطه في دعواه [2] .

صور المنع :

أبرز ما أمكن التوصل إليه من صور المنع ما يلي [3] :

١ - المنع من أصل التعليل .

٢ - المطالبة بتعيين التعليل .

٣ - المطالبة بتحقيق وجود ما ادّعاه المعلِّل علة .

٤ - منع الحكم في الأصل والمطالبة بإثبات ما عيّنه .

أمثلة المنع من آيات سورة البقرة :

من أمثلة المنع في سورة البقرة ما يأتي :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ [4] .

صورة المنع :

اشتملت الآيتان الكريمتان على قضيتي دعوى ومنعين :

فالقضية الأولى : قول المؤمنين للمنافقين : ﴿ لا تفسدوا في الأرض ﴾ ، حيث نسبوهم إلى الإفساد لِما ظهر من الدلائل على ذلك مِن كفرٍ بالله ، وممالأة الكفار ، وغدرٍ بالمسلمين [5] . فردّ المنافقون بالمنع ، وهو :

المنع الأول : فلم يُسَلّموا بانطباق الوصف عليهم [6] ، وأنكروا صلتهم بالإفساد . مما نتج عنه

(١) انظر : الميداني ، ضوابط المعرفة : ٤٢١ .
(٢) انظر : المصدر السابق : ٤٢٢ .
(٣) انظر : الجويني ، البرهان في أصول الفقه ٢ : ٩٧٠ .
(٤) سورة البقرة ، آية :١١ - ١٢ .
(٥) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٦٩ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٦٧ .
(٦) انظر : ابن الحنبلي ، استخراج الجدل من القرآن الكريم : ١١٣ .

الدعوى الثانية وهي :

القضية الثانية : فقالوا : ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ ، أي : « مقصورون على الإصلاح المحض الذي لم يَشُبْه شيء من وجوه الفساد ، وقد بلغ في الوضوح بحيث لا يُرْتاب فيه »[1] .

فردّ الله تعالى عليهم بمنع ما ادّعوه من نفي الفساد عنهم ، وقصر أنفسهم على الصلاح[2] . وهو:

المنع الثاني : حيث قال سبحانه : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ ، فناسب في الردّ عليهم قصرهم على الإفساد الكامل الذي لا يقاربه إفسادٌ آخر[3] .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾[4] .

سبب نزول الآية :

روى الطبري عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : « لما قدم أهل نجران من النصارى أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حُرَيْملة : ما أنتم على شيء ، وكفر بعيسى بن مريم والإنجيل . فقال رجل من أهل نجران من النصارى : ما أنتم على شيء ، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة . فأنزل الله تعالى من ذلك في قولهما : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾ الآية »[5] .

صورة المنع :

يُظْهِر سبب النزول أن اليهود أنكروا أصل دين النصارى ، كما أن النصارى يجحدون أصل دين اليهود ، ومنشأ الدعوى ما اعتقد اليهود من أحقيتهم بالله تعالى واختصاصهم به ، ومن ثَمَّ نصّب بعضهم نفسه حاكماً ، فقرر إبطال دين النصارى ، فردّ عليهم النصارى القول للاعتقاد نفسه أو من باب المشاكلة ، دون أن يكون لأحدهما دليلٌ على قوله أو برهان . مع ما يشتمل عليه قولهم ضِمناً

---

(١) الألوسي ، روح المعاني ١ : ٢٤٨ .

(٢) انظر : ابن الحنبلي ، استخراج الجدل من القرآن الكريم : ١١٣ . و د . زاهر الألمعي ، مناهج الجدل في القرآن الكريم : ٤٠٧ .

(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ١ : ١١١ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ١١٣ .

(٥) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٥١٣ – ٥١٤ . وانظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٥٤٩ . والواحدي ، أسباب النزول : ٧١ .

من إنكار دعوة النبي ﷺ .

فورد المنع على منشأ الدعوى بأن سلبهم الله تعالى الحاكمية وبيّن عدم أهليتهم لها من خلال الأمور التالية :

١ - أن كلا الفريقين مضيّع أحكامَ الكتاب الذي يُظْهر الإقرار بصحته ، قال تعالى : :﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ ، أي : قال اليهود ذلك مع أنهم يتلون في التوراة تحقيق نبوة عيسى عليه السلام وما جاء به من عند الله . وقال النصارى ذلك وهم يتلون في الإنجيل تحقيق نبوّة موسى عليه السلام وما جاء به من عند الله (١) . فكيف يكون حاكماً من ضيّع أحكام كتابه .

٢ - أنهم بمقالتهم هذه شابهوا الجهلة من الأمم بدين الله تعالى ورُسُله وكُتُبه ، قال سبحانه : ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ ، والجمهور على أنهم كفار العرب (٢) ، وفي هذا التشبيه ما يحفز أهل الكتاب على نفيه وإثبات البراهين على صحة دعواهم ، وإنما ذلك للزّيادة في التوبيخ والتقريع .

٣ - أن الله تعالى أعلم بالأديان المنزلة منه على رسله ، فتوعدهم على تطاولهم وادعائهم ماليس لهم ضمنياً فقال : ﴿ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ، وهذا الحكم في الآخرة ، أما في الدنيا فقد أقام الحجج والبراهين على الدين الحقّ الذي جاء به النبي ﷺ ، وعلى نسخه الأديان السابقة (٣) ، بل على إبطال أهلها لها بالتحريف والتبديل .

وحكم الله تعالى بينهم ليس لتصديق فريق وتكذيب آخر بل لبيان كذبهم جميعاً ، قال الحسن البصري : « المراد بالحكم بين هذه الفريقين تكذيبهم وإدخالهم النار » (٤) .

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٥١٤ . والبقاعي ، نظم الدرر ٢ : ١١٦ .
(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٥٣ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٣٣ .
(٣) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٣٣ .
(٤) الرازي ، التفسير الكبير ٤ : ٨ . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٥٧٠ .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتّخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كلّ له قانتون ﴾ [1] .

صورة المنع :

يتوجّه الخطاب في هذه الآية إلى اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، ومشركي العرب القائلين : الملائكة بنات الله . فكلّهم أقدم على هذه الدعوى افتراءً على الله [2] .

فردّ الله عليهم بما يمنع دعواهم تلك حيث قال : ﴿ سبحانه ﴾ ومعناه : التبرئة والتنزيه عما قالوا [3] .

ثم استدلّ على هذا المنع بالسند القطعي فقال سبحانه : ﴿ بل له ما في السموات والأرض كلٌّ له قانتون ﴾ ، فأضرب عن مقالتهم الباطلة وما تقتضيه من تشبيهٍ له بالمخلوقات ، فالولد من جنس الوالد ، وذلك ممتنع في جناب الله سبحانه إذ لا يُشْبِهه شيء .

والمعنى : ليس الأمر كما زعموا ، بل كلّ ما في السموات والأرض - بمن فيهم من دعوهم لله أولاداً - مُلْكٌ له ، ومنقادٌ لأمره ، لا يستعصي عليه شيء منه [4] .

ويحتمل في قوله ﴿ قانتون ﴾ تقدير مضافٍ ليقال : كلّ ما جعلوه لله ولداً له قانتٌ ، فتكون الجملة إلزاماً بأن ما زعموه ولداً مطيعٌ لله ، مقرّ بعبوديّته . بعد إقامة الحجّة عليهم بما تقدّم [5] .

---

(1) سورة البقرة ، آية : ١١٦ .
(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٦٠ .
(٣) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٦١ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٨٥ . وأبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٣٦٢ .
(٤) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٨٥ . والألوسي ، روح المعاني ١ : ٥٧٧ .
(٥) انظر : الألوسي ، روح المعاني ١ : ٥٧٨ .

المبحث الرابع

القَلْب

القَلْبُ في اللغة : من قَلَب الشيء ، إذا حوَّله عن وجهه (١) ، وقال ابن فارس : « ردُّ الشيء من جِهةٍ إلى جِهة » (٢) .

وفي الاصطلاح :

١ - قال الجرجاني : « ودليل المعارض إذا كان عين دليل الخصم يُسمَّى قلباً » (٣) .

٢ - وقال الشوكاني : « هو أن يُبَيِّن القالب أنّ ما ذكره المستدِلّ يدُلُّ عليه لا له ، أو يدُلُّ عليه وله » (٤) .

٣ - وعرّفة الميداني بأنه : « معارضة دليل المعلّل بدليلِ نفسِه » (٥) .

أمثلة القلب من آيات سورة البقرة :

مما ينطبق عليه القلب في آيات سورة البقرة ما يأتي :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ (٦) .

صورة القلب :

زعم المنافقون أن الإيمان (سفه) ، وبَنَوا عليه نسبة المؤمنين إلى السفه ، ففي اعتقادهم أن دين النبي ﷺ باطل ، ولا يقبل الباطل إلا سفيه جاهل ، كما جعلوه عِلّة لاستبعاد دخولهم في دين الله حين تقدّم لهم فضلاء الصحابة بالدعوة إلى الإيمان فقالوا سرّاً أو بين من يأمنوهم -كما حكى القرآن عنهم - ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ أي : أنكون كالذين خفّت عقولهم ؟! (٧) ، إشارة إلى أن

---

(١) أنظر : الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ١٦٢ .
(٢) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٥ : ١٧ .
(٣) الجرجاني ، التعريفات : ٢١٩ .
(٤) الشوكاني ، إرشاد الفحول : ٢٢٧ .
(٥) الميداني ، ضوابط المعرفة : ٤٣٦ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٣ .
(٧) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٦٩ .

ذلك لا يكون منهم أصلاً [1] .

فقلب الله تعالى هذا اللقب عليهم [2] ، وقرر أن السفَه وفساد البصائر في حيِّزِهم وصفةٌ لهم ، ولم يعلموا أنهم سفهاء للران الذي على قلوبهم [3] .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من وليّ ولا نصير ﴾ [4] .

صورة القلب :

تكشف الآية الكريمة عن قوة شكيمة أهل الكتاب في دينهم رغم ما يعلمون من بطلانها ، فلم يكتفوا بالدعاوى السابقة كاختصاصهم بالله ، ودخولهم الجنّة ... ونحو ذلك ، بل أمّلوا ورغبوا أن يدع المسلمون دينهم ويصيروا على أديانهم ليصبحوا لهم تبعاً . وذلك لِما يُظْهرون من أن دينهم حقّ، وما عداه باطل .

فجاءت هذه الآية الكريمة بقلب هذا المعنى عليهم في قوله تعالى : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ ، قال الألوسي : « فأجيبوا بالقصر القلبي ، أي : دين الله تعالى هو الحقّ ، ودينكم الباطل » [5] ، ثم قال : « والأمر بهذا القول لهم ، لا يجب أن يكون جواباً لعين تلك العبارة ، بل جوابٌ وردٌّ لما يستلزم مضمونُها أو يلزمه من الدعوة إلى اليهودية أو النصرانية أو الاهتداء فيهما » [6] .

(١) انظر : حاشية الجرجاني على الكشاف ١ : ١٨٢ .
(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٩٨ . و د . زاهر الألمعي ، مناهج الجدل في القرآن الكريم : ٤٠٨ .
(٣) انظر صفحة ١٤٣ من هذه الرسالة .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٢٠ .
(٥) الألوسي ، روح المعاني ١ : ٥٨٥ .
(٦) المصدر السابق .

المبحث الخامس

المُقابلة

المقابلة عبارة عن مقارنة بين قضيتين ، أو موازنة بين شيئين ، لمعرفة الحق ، وتمييزه عن الباطل (١) .

مثال المقابلة من سورة البقرة :

أمكن الوقوف على مثال للمقابلة في آيات سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ الشيطانُ يَعِدُكم الفقرَ ويأمُرُكم بالفحشاء واللهُ يَعِدُكم مغفرة منه وفَضْلاً واللهُ واسعٌ عليم ﴾ (٢) .

وتتصل هذه الآية في موضوعها بالآية السابقة لها والتي نهى الله تعالى فيها المؤمنين عن إخراج الرديء من الطعام في الزكاة ، حيث قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أنّ الله غنيّ حميد ﴾ (٣) .

والمقابلة بين وَعْد الشيطان للتحذير من وسواسه ونزعاته ، وبين وَعْد الرحمن لإيجاب طاعته والترغيب فيها .

فبدأت الآية الكريمة بذكر وعد الشيطان وأمره حيث قال تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ ، والشيطان : كلّ عاتٍ متمرّد (٤) ، وسُمّي بذلك لبعده عن الحق (٥) .

ولهذا الشيطان مداخل إلى قلب الإنسان يأتيه منها ليبعده عن طاعة الله ، والتي منها التخويف من الفقر كما قال تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ والوعد إذا أُطْلِق في كلام العرب يُقصد به الخير . وإذا قُيِّد بالموعود يكون للشرّ كما في وعد الشيطان هنا ، ويكون للخير كما في وعد الرحمن (٦) .

---

(١) انظر : التّومي ، الجدل في القرآن الكريم : ٢٠٤ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٦٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٦٧ . وانظر صفحة ١٨٩ من هذه الرسالة .
(٤) انظر : الفيروزابادي ، القاموس المحيط : ١٥٦١ (ط الرسالة) .
(٥) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٩٠ .
(٦) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٥٤ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٣٢٨ .

وسُمِّي تخويف الشيطان وعداً للإيذان بمبالغته في الإخبار بتحقُّق مجيء الفقر وحصوله . أو لوقوعه في مقابلة وعد الله تعالى على طريق المشاكلة (١) .

وعن طريق التخويف يتوصّل الشيطان إلى أمره بالفحشاء ، فينتقل به عقب التخويف من الفقر إلى حثه على البخل وعدم الإنفاق بالكلية ، ولا يزال يستدرج المرء حتى يقع في الذنوب ولايبالي بارتكابها ، وذلك هو الفحشاء (٢) . ومن العلماء من فسرها هنا بالزنا على غالب إطلاق القرآن الكريم (٣) .

ومقابل ذلك الوسواس والتخويف ؛ وعد الله تعالى المؤمنين بالخير فقال : ﴿ والله يعدكم مَغْفِرَةً منه وفَضْلاً ﴾ ، فهوّن أمرَ الشيطان وأضعف شأنه لمَّا أشعر بكمال حال هذه المغفرة حين نسبها إليه في قوله تعالى : ﴿ مغفرة منه ﴾ (٤) .

والمغفرة : تكفير الذنوب ، والسّتر في الدنيا والآخرة (٥) . والفضل : « الرزق في الدنيا ، والتوسعة فيه ، والنعيم في الآخرة . وبكلّ قد وعد الله تعالى » (٦) .

وغاية المقابلة : أن طاعة الله أوجب ، ووعده أولى بالقبول فالله تعالى ﴿ واسع عليم ﴾ :

١ – ولأن وعد الله حاصل مقطوع به ، أما وعد الشيطان وتخويفه فمشكوك فيه .

٢ – ولأن الانتفاع بمغفرة الله وفضله لا شكّ فيه ، أما الانتفاع بالمال المبخول به فمُحْتَمل .

٣ – ولأن الانتفاع بفضل الله تعالى باقٍ لا ينقطع ، أما مال الدنيا فمنقطع زائل .

٤ – ولأن منافع الآخرة خالصة من الشوائب ، أما منافع الدنيا فمشوبة بالأكدار والمضار (٧) .

---

(١) انظر : الألوسي ، روح المعاني ٣ : ٦٤ .
(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٦٥ .
(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٣٢٨ . والألوسي ، روح المعاني ٣ : ٦٥ .
(٤) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٦٦ . والألوسي ، روح المعاني ٣ : ٦٥ .
(٥) انظر : القرطبي ، ٣ : ٣٢٩ . والرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٦٦ .
(٦) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٥٥ .
(٧) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٦٥ – ٦٦ .

المبحث السادس

التــحـــدي

التحدّي مأخوذ في اللغة من حدا يحدو ، وهو السّوق ، وفلان يتحدّى فلاناً : إذا كان يباريه وينازعه الغلبة [1] ، والاستخدام الجدلي له متّفق مع أصله في اللغة ، فكأن المتحدّي يسوق المتحدَّى إلى إحضار حجته أو الإذعان للحق والإقرار به .

والتحدّي في القرآن الكريم وإن كان فيه حث الخصم على المعارضة ، إلا أن الغاية منه إثبات عجزه وانقطاعه بما لا يدع مساغاً للمواربة كما حصل لمشركي قريش لمّا تحدّاهم بالقرآن الكريم ، وما زال يتنزّل معهم إلى أن تحدّاهم بآية منه .

أمثلة التحدّي من سورة البقرة :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ، وقد تقدّم [2] .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين ★ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ [3] .

سبب النزول :

روى الطبري عن قتادة السدوسي ، وأبي العالية الرياحي وغيرهما أن اليهود دُعوا إلى تمنّي الموت لقولهم فيما حكى الله تعالى عنهم : ﴿ لن يدخل الجنّة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ [4] ، وقولهم : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [5] .

---

(١) انظر : ابن فارس ٢ : ٣٥ . والفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ١٦٤٣ .
(٢) انظر صفحة ٧٥ - ٨١ من هذه الرسالة ، والآية في سورة البقرة برقم : ٢٣ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٩٤ - ٩٥ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١١١ .
(٥) سورة المائدة ، آية : ١٨ .

ويصح أن يكون دعاؤهم هنا للتمنّي من باب المباهلة لكثرة جحودهم وجدالهم كما صنع النبي ﷺ مع وفد نصارى نجران (١) .

موضوع التحدّي :

موضوع التحدّي في هاتين الآيتين الكريمتين إظهار كذبهم من حيث زعموا الصدق في أقوالهم الآنفة ، أو سائر دعاويهم التي عارضوا بها دعوة النبي ﷺ ، يقول أبوحيان : « والمقصود من ذلك التحدي : إظهاركذبهم ، وذلك أنه من أيقن أنه من أهل الجنّة اختار أن ينتقل إليها ، وأن يخلص من المقام في دار الأكدار وأن يصل إلى دار القرار » (٢) .

صورة التحدّي :

أورد المفسرون في صورة التحدّي وجهان :

الأول : أن يدعُوا بالموت على أنفسهم بقولهم : ليتنا نموت ، والتمنّي وإن كان من أعمال القلب إلا أن اللسان يفصح عنه ، والمراد في هذه الآية أن يفصحوا عنه بألسنتهم ، وليس مجرد الإضمار بالقلب ، يقول الزمخشري : « ومحال أن يقع التحدّي بما في الضمائر والقلوب ، ولو كان بالقلوب لقالوا : قد تمنينا الموت في قلوبنا . ولم ينقل أنهم قالوا ذلك » (٣) .

والثاني : ما رُوي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية : أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب (٤) .

وهذا التحدّي جاء مقترنا بمعجزة أخرى للنبي ﷺ ، حيث أخبر الله تعالى مسبقاً بعدم وقوع ذلك منه ، رغم توافر الدواعي لهم لإبطال نبوة النبي ﷺ ، وسهولة الإتيان بهذه الكلمة ، قال تعالى : ﴿ ولا يتمنونه أبداً بما قدّمت أيديهم ﴾ ، فقد علموا أنهم إن تمنّوا الموت ماتوا لمعرفتهم أنه نبيّ ، يقول النبي ﷺ : « لو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا » (٥) .

---

(١) انظر : ابن الحنبلي ، استخراج الجدل من القرآن الكريم : ١٠١ - ١٠٢ .
(٢) أبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٣١١ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٩١ .
(٣) الزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٩٨ . وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٣٣ .
(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٣٦٤ - ٣٦٥ . والرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٩٢ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٣٣ .
(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده ١ : ٢٤٨ .

وقد اختلف المفسرون في هذا التحدّي : أهو مخصوص باليهود الذين كانوا على عهد النبي ﷺ ، أم أنه يجري على من بعدهم ؟

فذهب بعضهم إلى أن التحدي عام لجميع اليهود في سائر الأزمنة [1] . ونسبه الألوسي إلى جمهور المفسرين [2] .

ويرى الألوسي أنه خاص باليهود الذين كانوا على عهد النبي ﷺ ، عرفوه ثم جحدوا نبوّته ، واستدل بما روى نافع مولى عبدالله بن عمر أن يهودياً خاصمهم فقال : إن في كتابكم : ﴿ فتمنوا الموت ﴾ ، وأنا أتمنّى الموت ، فمالي لا أموت ؟ فسمعه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فدخل بيته وسلّ سيفه وخرج ، فلمّا رآه اليهودي فرّ منه ، فقال ابن عمر : لو أدركته لضربت عنقه ، توهّم أن هذا لكل يهوديّ ، وإنما هو لأولئك الذين يعاندون ويجحدون نبوّة النبي ﷺ بعد أن عرفوه [3] .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه أن آتاه اللهُ الملكَ إذ قال إبراهيم ربّيَ الذي يُحْيِي ويُمِيت قال أنا أُحْيِي وأُمِيتُ قال إبراهيمُ فإنَّ اللهَ يأتي بالشّمس من المشرق فأتِ بها مِن المَغْرِب فبُهِتَ الذي كفر واللهُ لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [4] .

موطن التحدّي :

موطن التحدّي في هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ قال إبراهيمُ فإنَّ اللهَ يأتي بالشّمس من المشرق فأتِ بها مِن المَغْرِب ﴾ [5] .

موضوع التحدّي :

موضوع التحدّي في هذه الآية : الاستدلال على ألوهية الله تعالى وحده ببعض المظاهر التي لا يقدر الإنسان على مثلها [6] .

---

(١) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٩٢ .
(٢) انظر : الألوسي ، روح المعاني ١ : ٥٨٢ .
(٣) انظر : المصدر السابق .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٥٨ .
(٥) انظر : أبوزهرة ، تاريخ الجدل : ٧٢ .
(٦) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٢٥ - ٢٦ . وابن المنير ، الإنصاف (بحاشية الكشاف) ١ : ١ : ٣٨٨ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٣١٣ .

وقت التحدّي :

تعددت الأقوال والروايات في وقت المحاجّة والتحدّي بين إبراهيم عليه السلام والملك ، وأبرز تلك الأقوال :

١ - أن المحاجة وقعت بعد خروج إبراهيم عليه السلام من النار سالماً ، قال السدّي : « لمّا خرج إبراهيم من النار أدخلوه على الملك ، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه ، فكلمه وقال له : من ربّك؟ قال : ربي الذي يحيي ويميت . قال نمروذ : أنا أحيي وأميت ، أنا أدخل أربعة نفرٍ بيتاً فلايَطْعَمُون ولايَسْقون ، حتّى إذا هلكوا من الجوع أطعمت اثنين وسقيتهما فعاشا وتركت اثنين فماتا . فعرف إبراهيم أن له قدرة بسلطانه وملكه أن يفعل ذلك . قال إبراهيم : فإن ربي الذي يأتي بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ؟ فبُهت الذي كفر ، وقال : إنّ هذا إنسانٌ مجنون فأخْرِجوه ، ألا ترون أنّه من جنونه اجترأ على آلهتكم فكسرها ، وأنّ النار لم تأكله . وخشِيَ أن يفتضح في قومه ، وكان يزعم أنه ربّ ، وأمر بإبراهيم فأخرج »[1] .

٢ - أن المحاجة وقعت بعد تكسير الأصنام وحين إلقائه في النار ، قال الزمخشري : « قيل : كانت هذه المحاجة حين كسّر الأصنام ، وسجنه نمروذ ، ثم أخرجه من السجن ليحرقه ، فقال له : من ربك الذي تدعو إليه ؟ فقال : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ »[2] .

٣ - أن هذه المحاجة وقعت في وقتٍ ذهب فيه إبراهيم عليه السلام إلى النمروذ ليَمْتار من عنده ، وكان نمروذ يحتكر الطعام ، فلا يُمير الناس حتى يشهدوا له بالربوبية ، قال زيد بن أسلم : « أول جبّار كان في الأرض نمروذ ، فكان الناس يخرجون فيمتارون من عنده الطعام ، فخرج إبراهيم يمتار مع مَن يمتار ، فإذا مرّ به - أي نمروذ - ناسٌ قال : مَن ربكم ؟ قالوا : أنت . حتّى مرّ إبراهيم قال : من ربك ؟ قال الذي يحيي ويميت . قال : أنا أحيي وأميت ! قال : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبُهِت الذي كفر »[3] .

صورة التحدّي :

تبيّن من روايات القصة أن قول إبراهيم عليه السلام فيما يحكيه عنه القرآن : ﴿ ربي الذي

---

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٤٣٦ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٣٩٧ .
(٢) الزمخشري ، الكشاف ١ : ٣٨٨ - ٣٨٩ .
(٣) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٢٣٤ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٣٩٦ - ٣٩٧ . وهذه الرواية تتناقض مع المشهور من سيرة الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يرد أن له ذريّة وهو بأرض قومه ، أو أن ولديه إسماعيل وإسحاق اجتمعا سويّة ، وهو ما تحكيه هذه الرواية في تمامها . لذا فهي غير صحيحة والله أعلم .

يحيي ويميت ﴾ جاء رداً على سؤال النمروذ : من ربك ؟ ومعارضة النمروذ بقوله : أنا أحيي وأميت إنما هي فاسدة تدل على أحد أمرين : إما ضعف فهمه وعدم إدراكه صورة الإحياء والإماتة التي حاجّه بها إبراهيم عليه السلام . وإما أنه قصد المكابرة والتلبيس ، فمِثْلُه لا يخفى عليه قصدُ مجادلِه [1] ، قال ابن عطية : « ذكر الأصوليون في هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام وصف ربّه تعالى بما هو صِفة له من الإحياء والإماتة ، لكنه أمرٌ له حقيقة ومجاز ، قصد إبراهيم الحقيقة ، ففزع نمروذ إلى المجاز ، وموّه به على قومه . فسلّم له إبراهيم تسليم الجدل ، وانتقل معه من المثال ، وجاءه بأمرٍ لا مجاز فيه ، فبُهت الذي كفر ، ولم يمكنه أن يقول أنا الآتي بالشمس من المشرق لأن ذوي الأسنان يكذبونه » [2] .

وفي القصص أن النمروذ لما قال : أنا أحيي وأميت ، أحضر رجلين فقتل أحدهما وأرسل الآخر وقال : قد أحييتُ هذا وأمتُّ هذا [3] .

وإزاء ذلك الموقف لم يشأ إبراهيم عليه السلام إطالة الجدل ، فعدل إلى أمرٍ آخر لا يقدر عليه [4] ، فقال – فيما يحكيه القرآن عنه – : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ ، فقرّر ابتداءً أن حركة الشمس بإرادة الله تعالى ليقطع عليه أي جدل أو مواربة في ذلك ، ثم طالبه على سبيل التحدّي والتعجيز أن يغيّر حركتها لتخرج من المغرب عوضاً عن المشرق ، فكأن النمروذ أُخِذ بهذه الحجّة بغتةً ، فانقطع وتحير [5] ، قال تعالى : ﴿ فبُهت الذي كفر ﴾ .

وبهذا التحدي ظهر عجزه وانحطاطه عن مرتبة الألوهية التي كان يدعيها ، يقول البقاعي : « لما رأى إبراهيم عليه السلام أنه قد اجترأ على عظيم ، وأن محاجته في نفس الإحياء والإماتة ربما خفيت وطالت ، رأى أن يعجّل إبهاته مع بيان حقارته بما هو أجلى من ذلك » [6] .

وقد اختلفت عبارة المفسرين فيما إذا كان إبراهيم عليه السلام قد انتقل في هذه المحاجة من دليل إلى دليل ، أو أن الدليل واحد ، ولكن انتقل من مِثال إلى مِثال آخر .

(١) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٠٨ . وابن الحنبلي ، استخراج الجدل من القرآن الكريم : ٦٧ .
(٢) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٣٩٨ . ويعني بذوي الأسنان : كبار السّن من قومه .
(٣) انظر : المصدر السابق ٢ : ٣٩٧ .
(٤) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ٤ : ٥٠ .
(٥) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٣٧٤ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٠٠ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٠٨ . والفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ١٨٩ .
(٦) البقاعي ، نظم الدرر ٤ : ٥٠ .

فذهب بعضهم إلى أنه انتقل من دليل إلى دليل آخر أوضح منه [١] .

وذهب آخرون إلى أن الحجّة واحدة وإنما انتقل من مثال إلى مثال [٢] ، يقول ابن المنير الاسكندراني : « وقد التزم غير واحد من العلماء أن هذا الذي صدر من الخليل عليه الصلاة والسلام ليس بانتقال من الحجّة ، ولكن من المثال ، وأما الحجة فهي استدلاله على ألوهية الله تعالى بتعلق قدرته بما لا يجوز تعلق قدرة الحادث به . ثم هذا له أمثلة منها : الإحياء ، والإماتة ، والإتيان بالشمس من المشرق . والعدول بعد قيام الحجة وتمهيد القاعدة من مثال إلى مثال ليس ببدع عند أهل الجدل » [٣] .

---

(١) انظر : انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٧٤ . والزمخشري ، الكشاف ١ : ٣٨٨ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٠٨ . وابن الحنبلي ، استخراج الجدل من القرآن الكريم : ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) انظر: ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٣٩٨ . والرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٢٥ - ٢٦ . والبقاعي ، نظم الدرر ٤ : ٥١ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٣١٣ .

(٣) ابن المنير ، الإنصاف (بحاشية الكشاف) ١ : ٣٨٨ .

المبحث السابع

السَّبْر والتَّقسيم

السَّبْر والتقسيم طريقة جدلية يسمِّيها أهل المنطق : القياس الشرطي المنفصل [١] . ويعنى السبر في اللغة : الامتحان والاختبار [٢] . ومن تعريفاته في الاصطلاح ما يأتي :

١ - قال الجرجاني : « هو حصر الأوصاف في الأصل وإلغاء بعضها ليتعين الباقي للعلية » [٣].

٢ - وقال الجويني : « ومعناه في الجملة أن الناظر يبحث عن معان مجتمعة في الأصل ويتتبعها واحداً واحداً ، ويبيّن خروج آحادها عن صلاح التعليل به إلا واحداً يرضاه » [٤] .

واشترط الجويني لإفادة هذا الاعتراض وثبوته أن يدور بين النفي والإثبات [٥] .

وغاية السبر والتقسيم : اختبار أوصاف المحَلّ وضبطها ، وإبطال ما يظهر إبطاله منها [٦] . ومن فوائده : حصر أقسام الموضوع والكشف عن أن ما سواه لا يكون من أقسامه ولا يدخل فيه .

أمثلة السبر والتقسيم من سورة البقرة :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن تمسّنا النار إلا أياماً معدودة قل أتّخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ [٧] .

صورة السبر والتقسيم :

قول اليهود الذي يحكيه القرآن الكريم عنهم ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدوة ﴾ واحدٌ من دعاوى كثيرة وافتراءات أطلقوها في وجه المسلمين لإيقاع الشك في عقيدتهم ورغبة في إضعاف أمرهم ، فأبطل الله سبحانه هذه الدعوى وردها . وقدتبيّن خلال السبر والتقسيم أن حال هذه الدعوى لا يخرج عن أمرين هما :

---

(١) انظر : الفيروزابادي ، القاموس المحيط : ٥١٧ .
(٢) انظر : الغزالي ، معيار العلم : ١١٣ .
(٣) الجرجاني ، التعريفات : ١١٦ .
(٤) الجويني ، البرهان في أصول الفقه ٢ : ٨١٥ .
(٥) أنظر : المصدر السابق ٢ : ٨١٥ ، ٨١٦ .
(٦) انظر : الشوكاني ، إرشاد الفحول : ٢١٤ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٨٠ .

الأول : أن تكون صادرة عن دليل وبرهان .

والثاني : أن تكون مجرّدة عن ذلك .

وهذا الحصر جاء في قوله تعالى : ﴿ قل أتّخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ ، والغرض من ذلك إثبات أصدق الأمرين ونفي الآخر وإبطاله .

والدليل الذي طُولب به اليهود هو (عهد الله) قال سبحانه : ﴿ أتّخذتم عند الله عهداً ﴾ ، سواء كان ذلك العهد إيماناً يؤهلهم لدخول الجنة كما قال عبدالله عباس ، أو هو ميثاق خاص أعطاهم الله إياه ، فإن الله تعالى موفّ لهم به (١) .

ولكن ليس ثَمّت شيء من ذلك ، بل الأدلة قائمة على خلاف ذلك ، فقد بيّن الله سبحانه كفر هؤلاء بأنبيائهم وكتابهم قبل كفرهم بالنبي ﷺ ، وتوعدهم مراراً بالعذاب بل والخلود في النار . وبذا انتفى كون الدعوى معتمدة على دليل يصدقها ، و و حصل الجزم بأنها مجردة عن الدليل ، وأنها تقوّلٌ على الله تعالى بالباطل ، وجراءة عليه سبحانه (٢) .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (٣) .

صورة السبر والتقسيم :

زعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان على دينهم ، فأراد الله سبحانه إبطال هذه الدعوى هنا كما أبطلها في مواطن أخرى من كتابه العزيز . فقد برّأ إبراهيم عليه السلام من ذلك في قوله عزّ وجل : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ (٤) . وشهد له بالإسلام في قوله سبحانه : ﴿ ماكان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ (٥) .

ولذا فإن حالهم في الشهادة على إبراهيم عليه السلام وهؤلاء الأنبياء الموافقين له في دينه

(١) أنظر صفحة ١٢٤ - ١٢٦ من هذه الرسالة .
(٢) أنظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٧٩ . والرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٤٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٤٠ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ٦٥ .
(٥) سورة آل عمران ، آية : ٦٧ .

لايجاوز أمرين هما :

الأول : أن يكونوا أعلم من الله ، نعوذ بالله من ذلك .

والثاني : أن يكون الله أعلم منهم .

وهذا من باب التقرير والتوبيخ في آن واحد ، فليس بإمكانهم أن يقولوا : نحن أعلم . لأنهم يظهرون الإيمان بالله ، فإن قالوها ناقضوا أنفسهم ، وأكذبهم العقلاء قاطبة . فتحتم عليهم القول : الله أعلم . وبذلك تبطل دعواهم هذه [1] .

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر ٢ : ١٩٧ .

المبحث الثامن

المجـــاراة

المجاراة في اللغة المحاذاة، يقال: جارى الفرس مجاراة وجراءً: إذا جرى معه[1]. وفي الاصطلاح قال السيوطي: «أن يسلم بعض مقدماته -أي الخصم- حيث يراد تبكيته وإلزامه»[2].

مثال المجاراة من سورة البقرة :

من الأمثلة على المجاراة في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الشَّهرِ الحَرام قِتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبيرٌ وصَدٌّ عن سَبِيل اللهِ وكُفْرٌ به والمَسجِدِ الحَرام وإخْراجُ أهلِهِ مِنه أكبرُ عِند اللهِ والفِتْنةُ أكبرُ من القَتْل ولا يَزالونَ يُقاتِلونَكم حتَّى يردُّوكم عن دِينِكم إن استطاعوا ومَن يرتَدِدْ مِنكم عن دِينِه فَيَمُتْ وهو كافرٌ فأولئك حَبِطت أعمالُهم في الدُّنيا والآخرةِ وأولئك أصحابُ النَّارِ هم فيها خالدون ﴾[3].

سبب نزول الآية :

روى البيهقي عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ بعث سَرِيَّةً وأمَّر عليها عبدالله بن جحش الأسدي، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة - موضع بين مكة والطائف -، فوجدوا بها عمرو بن الحضرميّ في عِيرِ تِجارةٍ لقريش في يوم بقي من الشهر الحرام، فاختصم المسلمون، فقال قائل منهم: هذه غِرَّة من عدوّ، وغُنْم رُزِقتموه، ولا ندري أمن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا. وقال قائل منهم: لا نعلم اليوم إلا من الشهر الحرام، ولا نرى أن تستحلّوه لطمع أشفيتم عليه، فغلب الذي أرادوا القتال، فشدّوا على ابن الحضرمي فقتلوه، وغَنموا عِيره، فبلغ ذلك كفار قريش، وكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين، فركب وفد كفار قريش حتّى قدموا على النبي ﷺ بالمدينة، فقالوا: أتُحِلُّ القتال في الشهر الحرام؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾[4].

---

(١) انظر: الفيروزابادي، القاموس المحيط: ١٦٣٩.
(٢) السيوطي، الإتقان ٢: ١٧٤.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢١٧.
(٤) انظر: البيهقي، دلائل النبوّة ٣: ١٧ - ١٨. وابن سعد، الطبقات الكبرى ٢: ١٠ - ١١. والطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤: ٣٠٢ - ٣٠٧. وابن عطية، المحرر الوجيز ٢: ٢١٩. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية ج١: ٦٠١ - ٦٠٥.

وفي روايات أخرى أن كفار قريش أخذوا يُعَيِّرون المسلمين بذلك يقولون : « قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام ، فسفكوا فيه الدَّمَ ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال » (١) .

صورة المجاراة :

كان أهل الجاهلية يضعون أسلحتهم ويدعون القتال في الأشهر الحرم (٢) ، فلما كانت هذه السَّرِيَّة ، وصدر منها القتل ؛ عظّم المشركون ذلك وفَجّروا في القول ، واتّخذوه مطعنا في المسلمين لتشويه أمرهم ، وتنفير الناس عن دينهم .

فجاءت هذه الآية الكريمة مبطلة طعنَهم ، ورادّة كيدَهم ، فوافقتهم أولاً في حرمة القتال في الأشهر الحرم حيث قال تعالى : ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ فالقتل في الأشهر الحرم كبير ولا يحل ، ثم ردّت عليهم الطّعن مبينة أن صنيع المشركين بالمسلمين أعظم وأكبر :

١ - الصدّ عن سبيل الله ، حيث اجتهدوا في منع الناس من اتّباع النبي ﷺ بما أطلقوا عليه من أوصاف افتراءً عليه : شاعر ، وساحر ، ومجنون ... ونحو ذلك ، أو هو صدّ المسلمين عن الهجرة إلى المدينة (٣) .

٢ - والكفر بالله تعالى .

٣ - والصدّ عن المسجد الحرام ، فمنعوا المسلمين عن الصلاة والطواف فيه ، أو منعوا المسلمين من بلوغه (٤) .

٤ - وإخراج المسلمين من المسجد الحرام ، بل من مكة ، بأن آذوهم وضيّقوا عليهم ، فاضطروهم للخروج (٥) . وإنما سمّاهم ﴿ أهله ﴾ لأنهم القائمون بحقوقه ، أو إخبار بالمستقبل ، أي

---

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤ : ٣٠٤ . وانظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ٣٥٧ . وابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٦٠٤ . والبيهقي ، دلائل النبوة ٣ : ١٩ . وهناك قول آخر بأن السائل هم المسلمون ، استعظموا هذا العمل ، وأرادوا معرفة الحكم فيه . انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤ : ٢٩٩ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٢٨ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٣٧ .

(٢) قال القرطبي : « واختلف العلماء في نسخ هذه الآية ، فالجمهور على نسخها ، وأن قتال المشركين في الأشهر الحرم مباح . واختلفوا في ناسخها ، فقال الزهري : نسخها ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ [التوبة : ٣٦] ، وقيل نسخها غزو النبي ﷺ ثقيفاً في الشهر الحرام ، وإغزاؤه أباعامر إلى أوطاس في الشهر الحرام . وقيل : نسخها بيعة الرضوان على القتال في ذي القعدة ، وهذا ضعيف ، فإن النبي ﷺ لما بلغه قتل عثمان بمكة وأنهم عازمون على حربه بايع حينئذ المسلمين على دفعهم لا على الابتداء بهم » . [الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٤٣] . وانظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤ : ٣١٤ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٢٢٢ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٢٨ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٣٧ . والرازي ، التفسير الكبير ٦ : ٣١ .

(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٦ : ٣٣ - ٣٤ . والبيهقي ، دلائل النبوة ٣ : ١٨ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٤٣ .

(٤) انظر الرازي ، التفسير الكبير ٦ : ٣٤ . والبيهقي ، دلائل النبوة ٣ : ١٨ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٤٣ .

(٥) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٣٧ .

أنهم يصيرون أهلَه بعد فتح مكة (١) .

٥ - والفتنة ، حيث اجتهد كفار قريش في ردّ من آمن بالنبي ﷺ عن إيمانه ، فحبسوهم وعذّبوهم حتى هلك بعضهم (٢) . ومن العلماء مَن فسَّر الفتنة هنا بالشرك (٣) .

ولا تزال نفوسهم مقيمة على هذا الغرض ، إلا أنّ الله سبحانه ثبّط عزيمتهم ، وطمأن المؤمنين حيث قال ﴿ إن استطاعوا ﴾ استبعاداً لقدرتهم على ذلك (٤) .

فهذه الأعمال أكبر عند الله من القتل في الشهر الحرام ، قال تعالى : ﴿ وصدٌّ عن سبيل الله وكُفْرٌ به والمسجدِ الحرام وإخراجُ أهلِه منه أكبرُ عند الله والفِتْنَةُ أكبَرُ مِن القتْلِ ولا يَزالونَ يُقاتِلونَكم حتَّى يردُّوكم عن دِينِكم إن استطاعوا ﴾ .

قال الرازي : « روي أنه لما نزلت هذه الآية كتب عبدالله بن جحش صاحب هذه السريَّة إلى مؤمني مكة : إذا عيَّركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام ؛ فعيِّروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكة ، ومنع المؤمنين عن البيت الحرام » (٥) .

---

(١) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٦ : ٣٤ . والألوسي ، روح المعاني ٢ : ١٦٥ .

(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٢٢٣ . وابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٦٠٤ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٤٦ . والبيهقي ، دلائل النبوة ٣ : ١٨ .

(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٦ : ٣٤ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٢٣٨ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٤٦ .

(٤) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ٣٥٧ . والرازي ، التفسير الكبير ٦ : ٣٥ . والألوسي ، روح المعاني ٢ : ١٦٦ .

(٥) الرازي ، التفسير الكبير ٦ : ٣٥ .

الفصل الثالث

الأمثال

تمهيد

تعريف الأمثال :

المَـثَلُ والمِـثْل والمَثِـيل في اللغـة شيء واحـد بمعنى التسـوية ، ومناظرة الشيء بالشيء ، والمتماثلان : المتشابهان . ومن معاني المثل في اللغة أيضاً [1] :

الصِّفة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَل الجنَّة التي وُعِد المتَّقون تجري من تحتها الأنهار ﴾ [2] .

والعِبْرة ، ومنه قـوله سبحانه : ﴿ فـجعلناهم سَلَفاً ومَـثَلاً للآخـرين ﴾ [3] ، أي عِبْـرة يَعْتَبِـر بها المتأخرون .

والآية ، ومنه قوله عزّ وجلّ في عيسى عليه السلام : ﴿ وجعلناه مَثَلاً لبني إسرائيل ﴾ [4] ، أي آية تدُلُّ على نبوَّته .

والمَثَل في الاصطلاح :

١ – قال المبَرِّد : « هو قول سائرٌ يُشَبَّه به حالُ الثاني بالأوَّل » [5] .

٢ – وقال ابن السِّكِّيت : « المَثَل لفظٌ يخالفُ لفظَ المضروب له ، ويوافقُ معناه معنى ذلك اللفظ » [6] .

٣ – وعرفه الزمخشري بأنه : « القول السائرُ المُمَثَّلُ مَضْرِبُه بمَوْرِده » [7] .

وأما التمثيل فعرفه الجرجاني بأنه : « إثبات حكم واحدٍ في جزئيّ لثُبوته في جُزئيّ آخر لمعنىً مشترك بينهما » [8] ، ويسميه المتكلمون : ردّ الغائب إلى الشاهد [9] .

أهميّة الأمثال :

المَثَلُ أعون شيء على البيان ، لأنه يقرِّب المعنى للذّهن ، ويكشف خبيّات المعاني ، ويجعل الخفيّ بمنزلة الجليّ ، والغائب بمنزلة الشاهد [10] ، فتأتي أهميّته من ثباته واستقرار معناه في المخيّلة

---

(١) انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٥ : ٢٩١ . وابن منظور ، لسان العرب ١١ : ٦١٠ – ٦١٢ . والزمخشري ، الكشاف ١ : ١٨١ .
(٢) سورة الرعد ، آية : ٣٥ .
(٣) سورة الزخرف ، آية : ٥٦ .
(٤) سورة الزخرف ، آية : ٥٩ .
(٥) أبو الفضل الميداني ، مجمع الأمثال ١ : ٧ .
(٦) المصدر السابق .
(٧) الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٨١ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٧٣ .
(٨) الجرجاني ، التعريفات : ٦٦ . وانظر : الغزالي ، معيار العلم : ١١٩ .
(٩) انظر : الغزالي ، معيار العلم : ١١٩ .
(١٠) انظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ١ : ٤٨٧ . والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٧٢ .

يقول الخفاجي : « سُمِّي مَثَلاً لأنه ماثِل بخاطر الإنسان أبداً ، أي شاخص . فيَتَأسّى به ويَتّعِظ ، ويَخشى ويَرجو »(١) ، كما أنّ من فوائده : التَّذْكير ، والوعظ ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتبكيت المعاند(٢) ، وتمييز الحق عن الباطل ، يقول ابن تيمية : « وقد بيَّن الله في كتابه من الأمثال المضروبة والمقاييس العقلية ما يُعرف به الحقّ والباطل »(٣) .

أقسام الأمثال :

قسَّم أبوعبدالله البكراباذي الأمثال إلى أربعة أقسام (٤) :

الأول : إخراج ما لا يقع عليه الحسّ إلى ما يقع عليه الحس .

الثاني : إخراج ما لا يقع ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة .

الثالث : إخراج ما لم تَجْرِ به العادة إلى ما جرت به العادة .

الرابع : إخراج ما لا قوَّة له من الصّفة إلى ما له قوَّة .

وهذا التقسيم من حيث وظيفة المَثَل ، أما من حيث كيفية الورود في القرآن الكريم فله قسمان هما : الأول : أمثال ظاهرة . وأمثلتها سترد في هذا الفصل إن شاء الله . والآخر : أمثال كامنة ، ومنها مارواه الماوردي عن مضارب بن إبراهيم قال : « سألت الحسن بن الفضل فقلت : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد في كتاب الله : خير الأمور أوسطها ؟ قال : نعم ، في أربعة مواضع : قوله تعالى : ﴿ لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكان بَيْن ذلك قَواما ﴾(٦) ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾(٧) ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تَجْهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾(٨) . قلت : فهل تجد في كتاب الله : من جهل شيئاً عاداه ؟ قال : نعم ، في موضعين : ﴿ بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾(٩) ، و ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾(١٠) »(١١) .

(١) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ١ : ٤٨٧ .
(٢) انظر : المصدر السابق . و الزمخشري ، الكشاف ١ : ١٨١ .
(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٩ : ٢٣٠ .
(٤) انظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ١ : ٤٨٦ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٦٨ .
(٦) سورة الفرقان ، آية : ٦٧ .
(٧) سورة الإسراء ، آية : ٢٩ .
(٨) سورة الإسراء ، آية : ١١٠ .
(٩) سورة يونس ، آية : ٣٩ .
(١٠) سورة الأحقاف ، آية : ١١ .
(١١) السيوطي ، الإتقان ٢ : ١٦٨ .

المبحث الأول

أمثال المنافقين

ضرب الله تعالى للمنافقين في سورة البقرة أربعة أمثال هي :

المثل الأول :

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهم كمَثَل الذي استوقَد ناراً فلمّا أضاءتْ ما حَولَه ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُم في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُون ★ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُم لا يَرجِعُون ﴾ (١) .

كلمات المثل :

قوله تعالى : ﴿ مَثَلهم كمَثَل الذي استوقد ناراً ﴾ ، معناه : أن الذي يتحصّل في نفس الناظر من أمرهم في اشتراء الضلالة بالهدى كمثل الذي يتحصّل في نفس النار في أمر المستوقد (٢) .

وقوله : ﴿ استوقد ﴾ ، قيل : هي بمعنى أوقد ، والسين زائدة في الكلام (٣) . وقال ابن عطية : « يراد به : طلَبَ من غيره أن يُوقِد له ، على المشهور من باب استفعل ، وذلك يقتضي حاجته إلى النار ، فانطفاؤها مع حاجته إليها أنكى له » (٤) .

وقوله : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ، قال الزمخشري : « الفرق بين أذهبه وذهب به أن معنى أذهبه : أزاله وجعله ذاهباً . ويقال ذهب به : إذا استصحبه ومضى به معه ... والمعنى : أخذ الله نورهم وأمسكه ، وما يمسك الله فلا مرسل له ، وهو أبلغ من الإذهاب » (٥) .

وقوله : ﴿ تركهم في ظُلُمات ﴾ أي : أبقاهم فيها ولم يخرجهم منها ، بل ما تجدد لهم من الظلمة بعد ذهاب النور أشدّ وأسوء حالاً (٦) ، وهو ما يشير إليه جمع الظُلمة في قوله : ﴿ ظُلمات ﴾ ، وقرئ : ﴿ ظُلَمات ﴾ جمع ظُلَم ، والظُلَم جمع ظُلمة ، فهو جمعُ جمع (٧) ، قال النيسابوري : « وفي

(١) سورة البقرة ، آية : ١٧ - ١٨ .
(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٨٢ . والزركشي ، البرهان في علوم القرآن ١ : ٤٨٩ .
(٣) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٤ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٨٣ . وابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٤٢ . وابن جزي ، التسهيل ١ : ٦٦ .
(٤) ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٨٣ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٤ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٩ . والبقاعي ، نظم الدرر ١ : ١١٨ . وابن جزي ، التسهيل ١ : ٦٦ .
(٥) الزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٠٠ - ٢٠١ . وانظر : النيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٨٢ .
(٦) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٤ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢١٣ .
(٧) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٨٦ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٢١٣ .

جمع الظلمة وتنكيرها وإتباعها ما يدلّ على أنها ظلمة لا يتراءى فيها شبحان »[1] .

قوله : ﴿ صُمّ بُكم عُمي ﴾ الصَّمَم : انسداد الآذان وثقل السمع[2] ، فالأصمّ الذي لا يسمع . والأبكم : الأخرس، الذي لا ينطق ولا يفهم[3] .

صورة المثل :

شَبَّه الله سبحانه حال المنافقين بحال مستوقد النار ، وقد اختلف العلماء في هذا التشبيه والجامع بينهما على تأويلات متعددة منها :

أولاً : المثل تشبيه لحالهم في الدنيا ، ومن الأقوال فيه :

١ - كان المنافقون قبل الإسلام في ظُلْمة الشرك ، فلما جاء الإسلام دخلوا فيه ظاهراً ، وخالطوا المسلمين وعرفوا الحق وأبصروه ، فكان ذلك بمنزلة إبصار المستوقد ما أضاءت النار له ، ولكن إبطانهم الكفر ذهب بذلك النفع فاشتدت ضلالتهم ، كما ذهب نور المستوقد فاشتدّت عليه الظلمة ، وأصبحوا لا يقيمون على هدىً ولا يستقيمون على حقّ[4] .

يقول ابن القيم : « وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي : أنهم بمنزلة من استوقد ناراً لتضيء له وينتفع بها ، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاؤوا به ، وانتفعوا به ، وأمِنُوا به ، وخالطوا المسلمين ، ولكن لمّا لم يكن لصحبتهم مادة في قلوبهم من نور الإسلام طفئ عنهم و ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ولم يقل : بنارهم ، فإن النار فيها الإضاءة والإحراق ، فذهب الله بما فيها من الإضاءة ، وأبقى عليهم الإحراق ، ﴿ وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ .

فهذه حال من أبصر ثم عمي ، وعرف ثم أنكر ، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه ، فهو لايرجع إليه ، ولذا قال : ﴿ فهم لا يرجعون ﴾ »[5] .

٢ - ما روي عن مجاهد أن إضاءة النار كإقبالهم إلى المؤمنين وسماعهم الهدى ، وذهاب نورهم إقبالهم إلى الكافرين وارتكاسهم عندهم[6] .

---

(١) النيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٨٣ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٧٦ .
(٢) انظر : الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ١٤٥٩ .
(٣) انظر : المصدر السابق : ١٣٩٧ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٨٧ .
(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٢٢ .
(٥) ابن القيّم ، أمثال القرآن : ٥٤ .
(٦) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٢٣ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٨٥ .

٣ - قال ابن كثير : « وتقرير هذا المثل : أن الله سبحانه شبّهَهم في اشترائهم الضلاة بالهدى، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العَمى ، بمن استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتأنّس بها فبينا هو كذلك إذ طَفَئت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، وهو مع ذلك أصمّ لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لو كان ضياءً لما أبصر ، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك . فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغيّ على الرّشَد »(١) .

ثانياً : أن هذا المثل تشبيه لحالهم في الدنيا وما يصيرون إليه في الآخرة ، ومن الأقوال فيه : مارُوي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : « هذا مَثَل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزّون بالإسلام ، فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء ، فلمّا ماتوا سلبهم الله ذلك العزّ ، كما سلب صاحب النار ضوءه ﴿ وتركهم في ظلمات ﴾ قال : في عذاب »(٢) .

وروي مثله عن قتادة السدوسي(٣) ، والحسن البصري(٤) . ورجّحه الطبري(٥) ، ولكن شيخ الإسلام ابن تيميّة ردّه بأنّ لفظ الآية يدلّ على خلافه(٦) .

ثالثاً : أن هذا المثل إخبار عن حالٍ تكون للمنافقين في الآخرة ، وهو قوله تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظُرونا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكم قيل ارجِعوا وَراءكم فالتمِسوا نوراً فضُرِب بَيْنهم بِسُورٍ له بابٌ باطِنُه فيه الرَّحمةُ وظاهِرُه من قِبَلِه العذابُ ★ يُنادُونهم ألم نَكُنْ مَعكم قالُوا بلى ولكِنَّكُم فَتَنْتُم أنفُسكم وتَربَّصْتُم وارْتَبْتُم وغَرَّتْكُم الأمانِيُّ حتَّى جاء أمرُ الله وغَرَّكُم باللهِ الغَرُور ★ فاليوم لا يؤخَذُ مِنكم فِدْيَة ولا مِنَ الذين كفروا مأواكم النارُ هي مَوْلاكم وبئس المَصير ﴾(٧) . قال ابن عطية : « وهذا القول غير قويّ »(٨) .

ولكن يستفاد من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ترجيح هذا القول ، فبعد ردّه لما رجّحه الطبري قال : « وقال غير واحد من السلف : إن المنافق يُعطى يوم القيامة نوراً ثم يُطفأ ، ولهذا قال

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٨٠ . (ط . الشعب)
(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٢١ . وانظر : ابن جزى ، التسهيل ١ : ٦٦ .
(٣) انظر : المصدر السابق ١ : ٣٢٣ .
(٤) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٨٥ .
(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٢٦ - ٣٢٧ .
(٦) انظر : ابن تيميّة ، مجموع الفتاوى ٧ : ٢٧٤ .
(٧) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٨٦ .
(٨) سورة الحديد ، آية : ١٣ - ١٥ .

تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ والذين آمنوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبِأَيْمانِهِم يَقولون رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا واغْفِر لنا إنَّك على كُلِّ شيءٍ قَدِير ﴾ »[1] .

وقد تتماشى صورة هذا المثل مع جميع الأقوال الآنفة ، إلا أن مذهب من جعله مثلاً للمنافقين في الدنيا فيه مصلحة للمجتمع الإسلامي ، لما يقتضي من توضيح حقيقتهم ، وكشف خبيات نفوسهم ، وما قد يلبسونه على الناس، ومن ثَمّ التحرُّز منهم ، واتّخاذ التدابير الواقية من شرورهم .

وخلاصته : أن الآية الكريمة شبّهت جماعة المنافقين بمستوقد النار ، بجامع كون الواحد منهما في الظلمة أصلاً ، وبحثِه عن نورٍ يخرجه منها ويرشده إلى الصواب .

وشبّه إظهارهم الإسلام وما تحصّل لهم من الأمن بسببه ، بالنور الذي تحصّل عليه المستوقد فأبصر طريقه ، بجامع المعرفة ، فأولئك عرفوا الحق ، وهذا عرف جادّته .

ثمّ شبّه ما انطوت عليه قلوبهم من العداء والكفر ، وارتكاسهم عن كبرائهم بذهاب نور المستوقد ، بجامع ما حصل للمنافقين من ضلالةٍ شديدة وحيرة مُتَضاعِفة ، وعجزٍ عن الرجوع إلى الحقّ ، كما تضاعفت حُلكة الظلام بعد انطفاء النور فبَقِي المستوقد متحيراً في مكانه ، وتعطّلت قُواه عن إسعافه .

وأورد ابن الجوزي لهذا المثل ثلاثَ حِكَم هي[2] :

١ – أن المستضيء بالنار ؛ مستضيءٌ بنورٍ من جِهَة غيره لا من قِبَل نفسه ، فإذا ذهبت تلك النار بَقِي في ظُلْمة ، فكأنهم لمّا أقرُّوا بألسنتهم من غير اعتقاد قلوبهم كان نور إيمانهم كالمستعار .

٢ – أن ضياء النار يحتاج في دَوامه إلى مادَّة الحَطَب ، فهو له كغذاء الحيوان ، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادّة الاعتقاد ليدوم .

٣ – أن الظُّلمة الحادثة بعد الضَّوء أشدّ على الإنسان من ظُلمةٍ لم يَجِد معها ضياء ، فشبّه حالهم بذلك .

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٧ : ٢٧٤ ، و٢٧٥ ، ٢٧٦ . والآية في سورة التحريم برقم : ٨ .
(٢) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٤٠ – ٤١ .

المثل الثاني :

قوله تعالى : ﴿ أو كصَيِّبٍ من السماء فيه ظُلُماتٌ ورَعْدٌ وبَرْقٌ يَجْعلون أصابِعَهم في آذانِهم مِن الصَّواعق حَذَرَ الموتِ واللهُ مُحيطٌ بالكافرين ★ يكادُ البَرقُ يَخْطَفُ أبصارَهم كُلَّما أضاءَ لهم مَشَوا فيه وإذا أظْلَم عليهم قامُوا ولو شاء اللهُ لذهب بسَمْعِهم وأبصارِهم إنّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَدِير ﴾ (١) .

كلمات المثل :

قوله تعالى : ﴿ أو كصَيِّب ﴾ ، (أو) للتخيير ، ومعناه : مثِّلوهم بهذا أو بهذا (٢) ، وقيل : المراد به الإبهام ، فكأنه قال : مَثَلهم كأحد هذين (٣) ، وقيل : المراد به التفصيل ، ومعناه : بعضهم يُشَبَّه بالذي استوقد ناراً ، وبعضهم بأصحاب الصَّيِّب (٤) .

والصَّيِّب ، قيل : هو المطر النازل من السماء ، قال ابن منظور : « الصَّوْب : نزول المطر ، وصاب المطر صَوباً وانصاب كلاهما : انصبّ . ومطرٌ صَوْبٌ وصَيِّبٌ وصَيُّوب » (٥) . وقيل : هو السحاب ، قال ابن فارس : « ويقال : الصَّيِّبُ السحابُ ذو الصَّوْب » (٦) .

وقوله : ﴿ يَخْطَف ﴾ ، الخَطْف : الانتزاع بسرعة ، وقال ابن فارس : « هو استلاب في خِفَّة » (٧) .

صورة المثل :

لبيان مَضْرِب المَثَل ومَوْرِدِه لا بدّ من ذِكر التشبيهات التي يتركب منها قبل بيان الصورة الإجمالية له ، وذلك كما يأتي :

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٩ – ٢٠ .
(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٨٩ . وابن جزى ، التسهيل ١ : ٦٧ .
(٣) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٤٦ .
(٤) انظر : المصدر السابق .
(٥) ابن منظور ، لسان العرب ١ : ٥٣٤ مادة « صوب » . وانظر : ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٤٢ . والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٣٣ – ٣٣٥ . وابن جزى ، التسهيل ١ : ٦٧ .
(٦) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٣ : ٣١٨ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٥ . والأصفهاني ، المفردات : ٢٨٨ . والبقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٢٦ .
(٧) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٢ : ١٩٦ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٦ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٩٣ ، وأوصل جملة القراءات في هذه الكلمة إلى تسعة ، منبهاً على أن قراءة ﴿ يَخْطَفُ ﴾ قرشية وأفصح لغات العرب .

أولاً : التشبيهات الواردة في المثل :

أ) الصَّيِّب ، مَثَلٌ للقرآن الكريم [1] ، وجعله ابن منظور مثل لدين الإسلام [2] ، وهو قريب . وقيل : هو ظاهر إيمان المنافق [3] .

ب) والظُّلُمات ، مثلٌ للابتلاء والوعيد ، أوالتكليفات الشاقة على المنافقين [4] .

ج) والرّعد ، مثلٌ للتخويف والزّجر [5] .

د) والبرق ، مثلٌ لما ينزل في القرآن من حجج ومواعظ [6] ، وقال ابن كثير : « هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضَّرْبِ من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان » [7] ، وأما خطف البرق أبصارهم فمعناه - كما قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما - : « يكاد محكم القرآن يدلُّ على عورات المنافقين » [8] .

هـ) قوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق ﴾ ، هذا مثلٌ لحذرهم وتخوفهم من القتل إذا ظهر نفاقهم وانكشفت مكائدهم [9] . أو لكراهة التكليف بالقتال لأنه مؤدّ إلى الموت ، أو فيه قتل من يوادّونه [10] . وروي عن مقاتل أنه إعراضهم عن القرآن كراهية له [11] .

و) وقوله تعالى : ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴾ مثلٌ لما أظهر المنافقون من الإسلام ، ومتابعتهم لما يحبون منه ، مع تمتعهم بأحكام المسلمين في الجملة [12] .

ز) وقوله تعالى : ﴿ قاموا ﴾ مثل لما أبطنوا من الكفر [13] . وقيل : هو افتضاح نفاقهم [14] .

---

(١) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٦ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٩٢ . والرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٧٧ . والبقاعي ، نظم الدرر ١ : ١٢٦ .

(٢) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١ : ٥٣٤ مادة « صوب » .

(٣) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٦ .

(٤) انظر : المصدر السابق . والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٤٩ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٩٢ .

(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آيات القرآن ١ : ٣٤٩ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٩٢ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٤٦ .

(٦) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٧٦ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٩٢ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٤٦ .

(٧) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٨٣ . (ط . الشعب)

(٨) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٤٩ .

(٩) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٩٢ .

(١٠) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٤٦ .

(١١) انظر : المصدر السابق .

(١٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٤٩ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٤٦ .

(١٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٤٨ .

(١٤) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٩٥ .

ثانياً : الصورة الإجمالية للمثل :

ومن أبرز ما روي في ذلك ما يأتي :

١ - روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وغيره من الصحابة قالوا : « كان رجلان من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين ، فأصابهم هذا المطر الذي ذكر الله، فيه رعدٌ شديد وصواعق وبرق ، فجعلا كلما أضاء لهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما من الفَرَق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما . وإذا لمع البرق مشيا في ضوئه ، وإذا لم يلمع لم يبصرا ، وقاما مكانهما لا يمشيان . فجعلا يقولان : ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمداً فنضع أيدينا في يده. فأصبحا ، فأتياه فأسلما ، ووضعا أيدهما في يده وحسُن إسلامهما .

فضرب الله شأن هذين المنافقين الخارجين مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة ، وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم فَرَقاً من كلام النبي ﷺ أن ينزل فيهم شيء، أو يذكروا بشيء فيقتلوا ، كما كان ذانك المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما ، وإذا أضاء لهم مشَوا فيه ، فإذا كَثُرت أموالهم ووُلِد لهم الغِلمان وأصابوا غنيمة أو فتحاً مَشَوا فيه وقالوا : إن دين محمد ﷺ دين صِدق ، فاستقاموا عليه ، كما كان ذانك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهم البرق مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، فكانوا إذا هلكت أموالهم ووُلد لهم الجواري وأصابهم البلاء قالوا : هذا من أجل دين محمد ، فارتدوا كفاراً كما قام ذانك المنافقان حين أظلم البرق عليهم »(٢) .

٢ - وروي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : « هم في ظُلُمات ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل - على الذي هم فيه من الخلاف والتخوّف منكم - ؛ على مثل ما وُصِف من الذي هو في ظُلْمة الصَّيِّب ، فجعل أصابعه في أذنيه من الصواعق حذر الموت ، ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ أي لشدة ضوء الحق ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ أي يعرفون الحقّ ويتكلمون به ، فهم من قولهم به على استقامة ، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيّرين »(٣) .

٣ - وقال قتادة بن دِعامة السدوسي : « أجْبَن قوم - يعني المنافقين - ، لا يسمعون شيئاً إلاظنّوا أنهم هالكون فيه حذراً من الموت ، ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ ، ثم ضرب لهم مثلاً آخر فقال : ﴿ يَكادُ البَرقُ يَخطَفُ أبصارَهم كُلَّما أضاءَ لهم مَشَوا فيه وإذا أظلَم عليهم قامُوا ﴾ يقول : هذا

---

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٤٧ - ٣٤٨ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٩٣ . وابن جزي ، التسهيل ١ : ٩٧ .

(٢) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٤٦ .

المنافق ، إذا كثُر ماله ، وكثرت ماشيتُه وأصابته عافية قال : لم يصبني منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً ، ﴿ وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ يقول : إذا ذهبت أموالهم ، وهلكت مواشيهم وأصابهم البلاء قاموا متحيّرين »[1] .

٤ - وقال الربيع بن أنس : « مَثَلهم كمثل قوم ساروا في ليلة مظلمة ، ولها مطر ورعد وبرق على جادّة ، فلما أبرقت أبصروا الجادّة فمضوا فيها ، وإذا ذهب البرق تحيّروا . وكذلك المنافق كلما تكلّم بكلمة الإخلاص أضاء له ، فإذا شكّ تحيّر ووقع في الظُّلمة »[2] .

٥ - وقيل : مثلهم مثل من اجتمعت عليه ظلماتٌ ثلاث : ظلمة السحاب ، وظلمة الليل ، وظلمة المطر ، فإذا اشتدّت الصواعق جعل أصابعه في أذنيه حذر الموت ، ويكاد البرق من سطوعه يخطف أبصارهم، فإذا أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا ذهب ضوؤه بَقُوا في ظلمة عظيمة فوقفوا متحيّرين، لأن من أصابه البرق في الظلمات الثلاث ثم ذهب عنه تشتدّ حيرته ، وتعظم الظلمة في عينيه .

فشبّه المنافقين في حيرتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء الذين وصفهم ، إذ كانوا لا يرون طريقاً ولا يهتدون[3] .

٦ - وقيل : « إن المطر وإن كان نافعاً إلا أنه لما وجد في هذه الصورة مع هذه الأحوال الضارة صار النفع به زائلاً ، فكذا إظهار الإيمان نافعٌ للمنافق لو وافقه الباطن ، فإذا فقد منه الإخلاص وحصل معه النفاق صار ضرراً في الدِّين »[4] .

٧ - وقيل : « إن من نزلت به هذه الأمور مع الصواعق ظَنَّ المَخْلَص منها أن يجعل أصابعه في أذنيه ، وذلك لا ينجيه مما يريده الله تعالى به من هلاك وموت . فلما تقرر ذلك في العادات شبّه تعالى حال المنافقين في ظنّهم أن إظهارهم للمؤمنين ما أظهروه ينفعهم . مع أن الأمر في الحقيقة ليس كذلك »[5] .

٨ - وقيل : « هو مثل لما يخافونه من وعيد الآخرة لشكهم في دينهم ، وما فيه من البرق بما في إظهار الإسلام من حقنِ دمائهم ومناكِحِهم ومواريثِهم ، وما فيه من الصواعق بما في الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل »[6] .

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٣٥٠ .
(٢) المصدر السابق ١ : ٣٥٠ - ٣٥١ .
(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٢ : ٧٧ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق .
(٦) المصدر السابق .

وبتحليل مجموع هذه الروايات والأقوال الواردة يمكن تقديم صورة متكاملة للمثل ، ولكن قبل الشروع فيها تجدر الإشارة إلى بعض الأمور المتعلقة بالمنافقين ، فهذه الشريحة تقيم بين أظهر المسلمين وتتمتع بأحكامهم في الجملة مع أنها تبطن الكفر ، وهي ضئيلة ضعيفة ، ورغم ذلك كانت دائمة الكيد للمسلمين والائتمار ضدهم سراً لعجز المنافقين عن مجابهة المسلمين علانية ، وفي الوقت ذاته يجتهدون في ستر معتقدهم ومكائدهم خوفاً من العقاب .

ولكن القرآن الكريم كان يتنزّل بين الفينة والأخرى كاشفاً أسرارهم ، وفاضحاً خباياهم من خداع ، وسخرية ، وهُزء ، وغدر ، وفتنة ، وتفريق بين المؤمنين ، وموالاة الكافرين ... ونحوها . ولا يمنع ذلك النبي ﷺ من الاستمرار في إجراء الأحكام على ظاهرهم لأمرٍ ما يريده الله سبحانه ، وإن مُنع بعضهم من المشاركة في الغزو ، أو نُهي عن الصلاة على موتاهم .

فالمثل القرآني الكريم هنا يتحدث عن حالة المنافقين هذه ، فهم لسوء معتقدهم وسوء أفعالهم دائموا الخوف والفزع رغم ما يظهرون من موافقة المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدَّخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون ﴾ [1] ، ويحاذورن نزول الوحي كاشفاً ذلك منهم ، قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون أنْ تُنَزَّل عليهم سُورةٌ تُنَبِّئهم بما في قُلُوبِهم قل استهزئوا إنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُون ﴾ [2] ، فإذا نزلت الآيات الكريمة ظنّوها نازلة بشأنهم ، قال تعالى : ﴿ يَحْسَبُون كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِم ﴾ [3] . فإن كانت كذلك طارت أفئدتهم وزاغت أبصارهم فزعاً من العقاب ، وكذا إن كان فيها تكليف بما يكرهون ، قال تعالى : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلت سورة فإذا أنزلت سُوْرَة مُحْكَمَة وذُكِر فيها القتالُ رأيت الذين في قلوبهم مرضٌ يَنْظُرون إليك نَظَر المَغْشِيِّ عليه من الموت فأولى لهم ﴾ [4] ، وهم في ذلك بحاجة إلى موافقة المسلمين والقبول منهم على مضض ، ليستمر إجراء الأحكام عليهم كالمسلمين . وتبقى حالهم هذه متجددة بتجدد نفاقهم ومكائدهم ، حتى يموت الواحد منهم أو يرجع عن نفاقه .

فهذه الحال تُشْبِه حال مَنْ كان بفلاة في ليلة شاتية ، متراكبة السحب ، كثيرة المطر والرعد والبرق والصواعق ، لا يستره شيء ، يضع أصابعه في أذنيه من شدة الصواعق خشية الموت على نفسه ، ويكاد بصره يذهب من سطوع البرق ولمعانه ، مع أنه محتاجٌ إليه ليبصر طريقه ، ولكنه سرعان ما ينطفئ فيعود إلى ظلمة أشدّ ، وحيرة أكبر ، ولا يزال على حاله هذه حتى يتوقف الصَّيِّب وتنقشع السحب .

(١) سورة التوبة ، آية : ٥٦ - ٥٧ .
(٢) سورة التوبة ، آية : ٦٤ .
(٣) سورة المنافقون ، آية : ٤ .
(٤) سورة محمد ، آية : ٢٠ .

المبحث الثاني

أمثال الكفار

من أمثال الكفّار في سورة البقرة ما يأتي :

المثل الأول :

قوله تعالى : ﴿ ومَثَل الذين كَفَروا كمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِما لايَسْمَعُ إلاّ دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُم لا يَعْقِلون ﴾ (١) .

كَلِمات المثل :

قوله تعالى : ﴿ يَنْعِق ﴾ ، يقال : « نَعَق الراعي بالغنم إذا صاح بها زجراً » (٢) ، ومنه قول الأخطل (٢) :

انْعَق بضأنِك يا جرير فإنّما ... مَنَّتك نفسُك في الخلاء ضلالا

والعرب تضرب المثل براعي الغنم ، تقول : « أجْهَل من راعي ضأن » (٣) ، قال ابن الأنباري : « والفاشي في كلام العرب أنه لا يقال : نَعَق إلا في الصياح بالغنم وحْدَها ، فالغنم تسمع الصَّوْت ولاتعقِل المعنى » (٤) .

صورة المثل :

يجيء هذا المثل بعد قوله تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لهم اتَّبِعُوا ما أنْزَلَ اللهُ قالوا بل نَتَّبع ما ألْفَيْنا عليه آباءنا أوَلَو كان آباؤهم لا يَعْقِلُون شيئاً ولا يَهْتَدون ﴾ (٥) ، حيث أثبت سبحانه ضلالَ آباء المشركين وجهلَهم ، وبعدَهم عن جادَّة الصواب . فأراد هنا - والله أعلم - أن يحقِّرهم لمَّا تركوا التدبُّر والإصغاء إلى الحقِّ تقليداً لآبائهم . وفي ذلك - إضافة إلى استصغار الكفّار وتضييق صدورهم -

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٧١ .

(٢) انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٥ : ٤٤٥ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٦٤ . وابن جزى ، التسهيل ١ : ١٢٠ .

(٢) ديوان الأخطل ١ : ١١٦ .

(٣) انظر : الميداني ، مجمع الأمثال ١ : ٣٣٧ . وأورده ص ٣٩٨ بلفظ : أحمق من راعي ضأنٍ ثمانين . وبلفظ : أشقى من راعي ضأنٍ ثمانين . وذلك أن الضأن تنفر وتنتشر فيخشى عليها السباع ، فيحتاج الراعي أن يكثر الصياح بها ليجمعها ويحفظها .

(٤) ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٧٤ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ١٧٠ .

زجرٌ وردعٌ للسامع أن يسلك طريقهم [1] .

وللعلماء في أوجه التشبيه أقوال متعددة ، وقد قسمها أبوحيان الأندلسي إلى عدة أقسام أبرزها :

أولاً : تشبيه الكافر بالناعق :

ومن الأقوال الواردة فيه :

١ - قيل : مَثَل الذين كفروا في قلة فهمهم وعقلهم كمثل الرُّعاة يكلِّمون البَهْمَ ، والبَهْمُ لا تعقل شيئاً [2] ، قال الرازي : « فكما أنّ الكلام مع البهائم عبث عديم الفائدة ، فكذا تقليد آبائهم عبث عديم الفائدة » [3] .

٢ - وقيل : مثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دُعاءهم كمثل الناعق بغنمه ، فلا ينتفع من نعيقه بشيء ، غير أنه في عناء ونداء . وكذلك الكافر ، ليس له من دعائه الآلهة وعبادة الأوثان إلا العناء [4] .

٣ - وذهب ابن زيد إلى أن مثل الذين كفروا كمثل رجل يصيح في جوف الجبال ، فيجيبه فيها صوت يراجعه يقال له الصدىٰ ، فيسمع دعاءه ونداءه ، ولا ينفعه [5] .

٤ - وقيل : مثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم كمثل الناعق بغنم له من حيث لا تسمع صوتَه غنمُه ، فلا تنتفع من نعقه بشيء غير أنه في عناء من دعاء ونداء . فكذلك الكافر في دعائه آلهته ، إنما هو في عناء من دعائه إياها وندائه لها ولا ينفعه شيء [6] ، و « قال قطرب : المعنى : مثل الذين كفروا في دعائهم من لا يفهم من الأصنام كمثل الراعي إذا نعق بغنمه وهو لا يدري أين هي » [7] .

٥ - وقيل : المراد بالذين كفروا : المتبوعون لا التابعون . ومعناه : مثل الذين كفروا في

---

(١) انظر : أبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٤٨١ .
(٢) انظر : المصدر السابق .
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ٥ : ٨ .
(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٣١١ . وأبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٤٨١ . والرازي ، التفسير الكبير ٥ : ٨ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٧٤ .
(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٣١٢ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٨٤ . وأبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٤٨٢ . والرازي ، التفسير الكبير ٥ : ٨ .
(٦) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٣١٣ .
(٧) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٢١٤ .

دعائهم أتباعهم وكون أتباعهم لا يحصل لهم منهم إلا الخيبة والخسران كمثل الناعق بالغنم [١] .

ثانياً : تشبيه الكافر بالمنعوق به :

ونسب أبوحيان هذا التشبيه إلى أكثر المفسرين [٢] ، وفيه تشبيه للذين كفروا بالبهائم لقلة فهمهم ، وعدم استجابتهم . ومعناه : أن مَثَل الكافر في قِلَّةِ فهمه عن الله ما يتلى عليه في كتابه ، وسوء قبوله لما يُدعى إليه من توحيد الله ويوعظ به مَثَل البهيمة التي تسمع الصوت وإذا نُعق بها ولا تعقل ما يقال لها [٣] ، قال عبدالله بن عباس : « مِثْلُ الدّابة ، تُنادى فتسمع ولا تعقل ما يقال لها . كذلك الكافر ، يسمع الصوت ولا يعقل » [٤] ، وقال مجاهد : « مَثَلٌ ضربه الله للكافر ، يسمع ما يقال له ولا يعقل ، كمثل البهيمة تسمع النعيق ولا تعقل » [٤] .

ورجّح الطبري هذا القول ، واعتماده في ذلك على أن الخطاب يراد به اليهود لا المشركين [٥] . ولكن ردّه أبوحيان وغيره من حيث اللغة فقال : « فيراد بالذي يَنْعِقُ : الذي يُنْعَقُ به ، فيكون هذا من المقلوب ... وذهب إلى هذا التفسير أبوعبيدة والفرّاء وجماعة ، وينبغي أن ينزّه القرآن عنه ، لأن الصحيح أن القلب لا يكون إلا في الشعر ، أو إن جاء في الكلام فهو من القلة بحيث لا يقاس عليه » [٦] .

ثالثاً : تشبيه الداعي والكافر بالناعق والمنعوق به :

وهذا التشبيه يقتضي حذفُ كثيرٌ تقديره : مثلك يا محمد في وعظهم ومَثَل الذين كفروا فيما يوعظون به كمثل الناعق والمنعوق به ، فشبّه داعي الكفار براعي الغنم في مخاطبته من لا يفهم عنه، وشبّه الكفار بالغنم في كونهم لا يسمعون مما دعوا إليه إلا أصواتاً ولا يعرفون ما وراءه [٧] ، واختاره سيبويه [٨] .

---

(١) انظر : أبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٤٨٢ .
(٢) انظر : المصدر السابق . وابن جزي ، التسهيل ١ : ١٢٠ .
(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٣٠٨ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٦٣ . والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٢١٤ .
(٤) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٣٠٩ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٨٤ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٧٤ .
(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٣١٣ .
(٦) أبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٤٨٢ . وانظر : ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن : ١٩٩ .
(٧) انظر : ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٦٨ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٧٤ . وأبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٤٨٢ .
(٨) انظر : سيبويه ، الكتاب ١ : ٢١٢ .

ويفهم مما ذكره أبوحيان الأندلسي موافقته سيبويه في هذا الوجه حيث قال : « وذهب إلى تقرير هذا الوجه جماعة من أصحابنا منهم الأستاذ أبوبكر بن طاهر ، وتلميذه أبوالحسن بن خروف ، والأستاذ أبوعلي الشلوبين ، وقالوا : إن العرب تستحسنه ، وإنه من بديع كلامها .

وعلى هذا الضَّرب من التشبيه حمل الآية أبوالقاسم الراغب . قال الراغب : فلمّا شبّه قصّة الكافرين في إعراضهم عن الداعي لهم إلى الحق بقصّة الناعق ، قدّم ذكر الناعق ليبني عليه ما يكون منه ومن المنعوق به »[1] .

ويلحظ على القسمين الأخيرين أنهما يشتركان في تشبيه الكفار بالبهائم وتنزّلهم بمنزلتها ، وعليه فمعنى الآية : أن هؤلاء الكفرة يمرّ الدعاء على آذانهم صفحاً ، يسمعونه ولا يفقهونه ، إذ لاينتفعون به ، لأنهم كما قال سبحانه : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون ﴾[2] .

المثل الثاني :

قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بالمَنّ والأذىٰ كالذي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاء النّاسِ ولا يُؤمِن باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُه كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لايَقْدِرونَ على شَيْءٍ مِمّا كَسَبوا واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرين ﴾[3] .

توجيه المَثَل :

ذهب بعض العلماء إلى أن قوله تعالى : ﴿ فمَثَله كمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ مَثَلٌ للكفار ، إجراءً للآية على ظاهرها ، قال قتادة : « هذا مَثَلٌ ضربه الله لأعمال الكفّار يوم القيامة »[4] ، وممن قال بذلك أيضاً : الربيع بن أنس ، والضَّحَّاك بن مُزَاحِم[5] ، ويؤيِّدُه آخرُ الآيةِ الكريمة حيث قال سبحانه : ﴿ والله لايَهْدِي القَوْمَ الكافِرين ﴾ ، وكذا ما عُرِف عن مشركي العرب من جُود وكرم ، ليس إيماناً بالله وطلباً لثوابه ، بل حُبّاً في الرياسة ، ورغبة في حُسْن الثناء .

(١) أبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٤٨٢ .
(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٦٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٦٤ .
(٤) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٢٦ .
(٥) انظر : المصدر السابق ٥ : ٥٢٧ .

وذهب عبدالله بن عباس رضي الله عنهما إلى أن المراد بهذا المثل المنافقون[1] ، وذلك لأنهم يجمعون بين الكفر بالله والمراءاة في الأعمال . واقتصر على هذا التفسير : الزمخشري[2] ، وابن قتيبة[3] ، والنسفي[4] .

وأورد الاحتمالين ابن عطية فقال : « ويُحْتَمل أن يُرِيد الكافرَ الظاهر الكفر ، إذ قد يُنْفِق ليقال جواد ، وليثنى عليه بأنواع الثناء ، ولغير ذلك . ويُحْتَمل أن يُرِيد المنافق الذي يظهر الإيمان »[5] .

كلمات المَثَل :

﴿ صَفْوَان ﴾ : جمع صفوانة . والصّفا : الحجر الأملس ، وقال ابن سيدة : « الحجر الصَّلْد الضخم الذي لا يُنْبِت شيئاً »[6] ، وأصل الكلمة من صفا يصفو ، وهو الخلوص من الشوائب ، ولذا سُمِّي به الحجر الأملس لأنه يصفو من الطين والرمل[7] .

﴿ وَابِل ﴾ : هو المطر الشديد ، الضخم القَطْر[8] .

﴿ صَلْداً ﴾ : أصل الكلمة يدلُّ على صلابة ويُبْس ، وقال ابن عطية : « والصَّلْدُ من الحجارة : الأملسُ الصُّلْبُ الذي لا شيء فيه »[9] .

صورة المَثَل :

شبَّه الله سبحانه في مطلع هذه الآية الكريمة الذي يُتْبِع صدقته بالمنِّ والأذى بالمرائي في نفقته ، فكما أن الرياء يبطل ثواب الإنفاق ، فكذلك المَنُّ في النَّفقة يبطل أجرها[10] .

ثم ضرب مثلاً للمرائي - منافقاً كان أم مشركاً - فقال : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ ، ومما ورد في معناه ما يأتي :

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن .
(٢) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ٣٩٤ .
(٣) انظر : ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن : ٣٢٤ .
(٤) انظر : النسفي ، تفسير النسفي ١ : ١٣٤ .
(٥) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٣٢ .
(٦) ابن منظور ، لسان العرب ١٤ : ٤٦٤ ، مادة « صفا » .
(٧) انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٣ : ٢٩٢ .
(٨) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١١ : ٧٢٠ ، مادة « وبل » . وابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٥ : ٣٠٣ .
(٩) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٣٦ . وانظر : ابن منظور ، لسان العرب ٣ : ٢٥٦ ، مادة « صلد » .
(١٠) يأتي ذكر هذا التشبيه مفصلاً صفحة ٢٩٤ من هذه الرسالة .

١ - مَثَل الذي يرائي في نفقته ، ويظنُّ الناسُ من ظاهره أنَّه مثاب فيها وأن لها قدراً عند الله ، كمثل صفوان عليه تراب قليل ، فظنه الظانّ أرضاً طيِّبة مُنبِتَة ، فإذا أصابها مطرٌ شديد زال عنه ذلك التراب ، وبقي أملساً لا شيء يشوبه ، فكذلك أعمال المرائي تضمحِلُّ وتذهب إذ لا قدر لها عند الله ، فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى ثوب عمله ذاك وجده زائلاً ولم ينتفع منه بشيء ، كما أذهب الوابل التراب ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لا يَقْدِرون مما كَسَبوا على شيء ﴾ [١] .

٢ - وروي عن القفّال [٢] وجهٌ آخر في التشبيه هو : أن أعمال العباد ذخائر لهم يوم القيامة ، فمن عمل بإخلاص فكأنه طرح بذراً في أرضٍ طيِّبة ، فهو يُضاعف له وينموا حتى يَحْصُدَه في وقته ، ويجده وقت حاجته . ومن راءى في عمله فهو كمن بذر فوق صفوان عليه تراب قليل ، ومعلوم أنه لا يقبل البذر ولا ينبت فيه شيء ، فإذا أصابه الوابل أزال التراب وبقي الصفوان خالياً لا نبات فيه ، ولم يجد منه شيئاً عند حاجته [٣] .

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٢٥ - ٥٢٦ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٣٤ - ٤٣٥ . والرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٥٤ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٤٧١ . (الشعب) .

(٢) هكذا سماه الرازي ، وصوابه : ابن القفّال ، واسمه محمد بن عبدالرحمن .

(٣) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٥٤ . وابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن : ٣٢٤ - ٣٢٥ .

المبحث الثالث

أمثال المسلمين

من الأمثال المضروبة للمسلمين في سورة البقرة ما يأتي :

المثل الأول :

قوله تعالى : ﴿ مَثَل الذين يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم في سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ واللهُ واسعٌ عَلِيم ﴾ [1] .

ذهب الطبري إلى أن هذا المثل متعلق بقوله تعالى : ﴿ مَنْ ذا الذي يُقْرِض اللهَ قَرْضاً حَسَنا فيُضاعِفَه له أضْعافاً كثيرة ﴾ [2] ، فهو بيان للمضاعفة [3] .

وأما أبوحيان الأندلسي فذهب إلى تعلقها بما تقدمها من قصة المارّ على القرية وقصة إبراهيم عليه السلام ، من حيث هي دليل على البعث فقال : « مناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنه لمّا ذكر قصة المارّ على القرية ، وقصة إبراهيم عليه السلام ، وكانا من أدلّ دليل على البعث ، ذكر ما يَنْتَفع به يوم البعث ويَجِدُ جدواه هناك وهو الإنفاق في سبيل الله »[4] ، ثم قال : « واستدعاء النفقة في سبيل الله مذكّر بالبعث ، وحاضّ على اعتقاده لأنه لو لم يعتقد وجوده لما كان ينفق في سبيل الله . وفي تمثيل النفقة بالحبة المذكورة إشارة أيضاً على البعث وعظيم القدرة ، إذ حبة واحدة يخرج الله منها سبعمائة حبة ، فمن كان قادراً على مثل هذا الأمر العجاب فهو قادرٌ على إحياء الأموات بجامع ما اشتركا فيه من التغذية والنموّ »[5] .

كَلِمات المثل :

قوله تعالى ﴿ في سبيل الله ﴾ ، ذهب ابن زيد إلى أنه الجهاد ، وقيل : هو أبواب الخير كلّها [6]، قال ابن عطية : « وسبل الله كثيرة ، وهي جميع ما هو طاعة وعائدٌ بمنفعة على المسلمين والملة ، وأشهرها وأعظمها غناءً الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا »[7] .

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٦١ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٥ .
(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥١٢ - ٥١٣ .
(٤،٥) أبوحيان ، البحر المحيط ٢ : ٣٠٣ .
(٦) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥١٣ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٧٩ .
(٧) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٢٦ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٧٩ . وابن القيم ، أمثال القرآن : ١١٤ .

وقوله ﴿ حَبَّة ﴾ ، قال ابن عطية : « اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتاته ، وأشهر ذلك البُرّ ، وكثيراً ما يراد - أي البُرّ - بالحب ، وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبّة ، وأما في سائر الحبوب فأكثر ، ولكن المثال وقع بهذا القدر »(١) ، وفي هذا إشارة منه إلى تعيين الحبّة بالقمحة .

ولكن الطبري جعلها عامة في حبات الحنطة والشعير وغيرهما من نبات الأرض الذي يخرج ريعه سنابل (٢) . وقال الزمخشري : « ومعنى إنباتها سبع سنابل : أن تخرج ساقاً يتشعب منها سبع شعب ، لكل واحدة سنبلة . وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر . وهو موجود في الدُّخْن والذُّرة ، وربما فرّخت البُرّة في الأرض الجيدة مثل هذا ، ولو لم يكن موجوداً لكان صحيحاً على سبيل الفرض والتقدير » (٣) .

قوله ﴿ والله يُضاعِفُ لمن يَشاء ﴾ ، قيل : يضاعف تلك المضاعفة لمن يشاء ، لا لكلّ منفق ، لتفاوت أحوال المنفقين . وقيل : يزيد عن السبعمائة ضعف لمن يشاء (٤) .

وذهب الضّحّاك بن مُزاحِم إلى أن المضاعفة للمنفق في الجهاد لا تَنْقُص عن وعدِ الله سبحانه سبعِمائة ضعف ، والله يضاعف لمن يشاء ممن أنفق في غير الجهاد (٥) .

صورة المثل :

ضرب الله سبحانه هذا المثل لمضاعفة ثواب من أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، فشبّه نفقة الباذلين بالحبة ، أو شبه المنفقين بباذر حبةٍ أخرجت نبتة فيها سبع سنابل ، كل سنبلة فيها مائة حبة ، فذلك المنفق ماله في سبيل الله له أجره سبعمائة ضعف على الواحد من نفقته (٦) .

فظاهر الآية مثال لشرف النفقة في سبيل الله وحُسْنِها ، وضِمْنها التحريض على النفقة والحث عليها (٧) .

وظاهر قول الربيع بن أنس تخصيصُ الصحابة بهذا المثل حيث قال : « فكان من بايع النبي ﷺ على الهجرة ورابط مع النبي ﷺ بالمدينة ، ولم يَلْق وجهاً إلا بإذنه ، كانت له الحسنة بسبعمائة

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٢٦ .
(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥١٣ .
(٣) الزمخشري ، الكشاف ١ : ٣٩٣ .
(٤) انظر : المصدر السابق . والنسفي ، تفسير النسفي ١ : ١٣٣ .
(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥١٥ - ٥١٦ .
(٦) انظر : المصدر السابق ٥ : ٥١٣ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٤٦٧ . (الشعب) .
(٧) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٢٦ . وأبو حيان ، البحر المحيط ٢ : ٣٠٤ .

ضعف ، ومن بايع على الإسلام كانت له الحسنة عَشْرَ أمثالها »[١] .

المثل الثاني :

قوله تعالى : ﴿ ومَثَل الذين يُنفقُونَ أمْوَالَهُم ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أنْفُسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فإنْ لَمْ يُصِبْها وَابِلٌ فَطَلٌّ واللهُ بِما تَعْمَلونَ بَصِير ﴾[٢] .

كَلِمات المثل :

قوله تعالى ﴿ تَثْبِيتا من أنفسهم ﴾ أي تصديقًا من أنفسهم ، ويقيناً بحصول وعد الله إياهم بالثواب على ما أنفقوا في طاعته بغير مَنّ ولا أذى . يقال : ثَبَّتَ فلاناً في هذا الأمر إذا صحَّحْتَ عزمه وحقَّقْته ، وقوَّيت رأيه فيه[٣] . قال ابن القيم : « وهو - أي التَّثْبيت - إخراج المال بقلب ثابت ، قد انشرح صدره بإخراجه ، وسمحت به نفسه ، وخرج من قلبه خروجه من يده ، فهو ثابت القلب عن إخراجه ، غير جزع ولاهلع ، ولا مُتْبِعُه نفسَه ، ترجُف يدُه وفؤاده »[٤] .

وذهب مجاهد والحسن البصري إلى أن معناه التَثَبُّت في موضع الصدقة[٥] . ولكن الطبري استبعده فقال : « وهذا التأويل الذي ذكرنا عن مجاهد والحسن تأويلٌ بعيد المعنى عن ظاهر التلاوة »[٦] .

وأورد الرازي رأياً آخر هو أن ثبات القلب واطمئنانه واستقرار النفس لا يكون إلا إذا كان الإنفاق خالصاً لله ، لا لأجل غرض النفس ، ولذا قال أولاً : ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ ثم أتبعه : ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ وقد حكى الله سبحانه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في إنفاقه : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴾[٧] . ووصف إنفاق أبي بكر رضي الله عنه بقوله : ﴿ وما لأحدٍ عِنْدَه من نِعْمَةٍ تُجْزى ★ إلا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّه الأعلى ★ وَلَسَوْفَ يَرْضى ﴾[٨] .

---

(١) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥١٤ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٦٥ .
(٣) انظر : ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن : ٣٢٥ . والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٣١ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٣٨ .
(٤) ابن القيم ، أمثال القرآن : ١١٥ .
(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٣٢ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٣٨ . والرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٥٥ .
(٦) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٣٢ . ووافقه ابن عطية ، انظر : المحرر الوجيز ٢ : ٤٣٨ .
(٧) سورة الإنسان ، آية : ٩ .
(٨) سورة الليل ، آية : ١٩ - ٢١ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٥٥ - ٥٦ .

وقوله ﴿ ربوة ﴾ أصلها من ربا يربو ، وهو الزيادة والنماء والعلوّ . فالربوة : المكان المرتفع [1] ، وقيل : المستوي في ارتفاعه [2] . وقال ابن قتيبة : « أحسن ماتكون الجنان والرياض على الرُّبا » [3] .

قوله ﴿ وابل ﴾ تقدم [4] .

قوله ﴿ أكُلَها ﴾ ، الأُكُلُ : المأكول من كلّ شيء ، والمراد به هنا ثمر الجنة [5] .

قوله ﴿ ضعفين ﴾ أي مثلين . قال عطاء : « حملت في سنة من الريع ما يحمل غيرها في سنتين » [6] . وقال أبوحيان : « ويحتمل عندي أن يكون قوله ضعفين مما لا يراد به شفع الواحد ، بل يكون من التشبيه الذي يقصد به التكثير ، وكأنه قيل : فآتت أُكُلَها ضعفين ضعفاً بعد ضعف ، أي أضعافاً كثيرة ، وهذا أبلغ في التشبيه للنفقة بالجنة ، لأن الحسنة لا يكون لها ثواب حسنتين ، بل جاء : تُضاعف أضعافاً كثيرة ، وعشر أمثالها ، وسبعمائة وأزيد » [7] .

قوله ﴿ طَلٌّ ﴾ هو أضعف المطر ، خفيف ، صغير قطره . قال ابن فارس : « وإنما سمّي به لأنه يُحَسِّن الأرض » [8] . وقال ابن الجوزي : « قال الزجاج : هو المطر الدائم ، الصغار القطر ، الذي لاتكاد تسيل منه المثاعب » [9] .

وقوله ﴿ فإن لم يُصِبها وابل فطل ﴾ معناه : أن هذه الجنّة إن لم يصبها كثير مطر أصابها القليل منه ، فتبقى مثمرة ، لا يضيرها انتقاص المطر ، لكرم منبتها [10] .

صورة المثل :

ضرب الله تعالى هذا المثل لعمل المؤمن المخلص ، ولنفقته السليمة من المَنّ والأذى . ومعناه: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله للجهاد أو غيره من أبواب البِرّ ابتغاء مرضاة الله ، ويقيناً

---

(١) انظر : ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٢ : ٣٨٣ .
(٢) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٨٢ .
(٣) ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن : ٣٢٥ . وانظر : الرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٥٦ . وابن القيم ، أمثال القرآن : ١١٥ .
(٤) انظر صفحة ٢٨٣ من هذه الرسالة .
(٥) انظر : ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٩٧ . والطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٣٨ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٣٨ .
(٦) الرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٥٧ . وانظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٨٢ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٤١ .
(٧) أبوحيان ، البحر المحيط ٢ : ٣١٢ .
(٨) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٣ : ٤٠٦ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٤١ .
(٩) ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣١٩ .
(١٠) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٤١ . والرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٥٧ . وابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن : ٣٢٥ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٤٧١ . (الشعب)

من أنفسهم بوعد الله تعالى وثوابه لهم ، كمثل بستان بربوة ، إذا أصابه مطر كثير حمل ضعفي ما يحزر في مثله ، وإن أصابه مطر قليل كفاه ، لكرم منبته ، لا تُخْلِف ثمرته مع القليل كما لا تُخْلِف مع الكثير ، وكذلك نفقة المؤمن المخلص لا تخيب ، فلا يبور عمله ، ولا يُخْلِفه أجره ، قليلاً كانت نفقته أم كثيرة [1] . يقول ابن القيم : « في ذكر نوعي الوابل والطلّ إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل ، فمنهم من يكون إنفاقه وابلاً ، ومنهم من يكون إنفاقه طلاً ، والله لا يضيع مثقال ذرَّة » [2].

وفي ذلك حثٌّ للمؤمنين على المداومة على الإنفاق ولو بالقليل ، يقول الماوردي : « أراد بهذا ضربَ المثل أنّ كثير البِرِّ مثل زرع المطر كثيرُ النفع ، وقليلَ البِرِّ مثل زرع الطَّلّ قليل النفع ، ولا تدعْ قليل البِرِّ إذا لم تفعل كثيره ، كما لا تدع زرع الطلّ إذا لم تقدر على زرع المطر » [3] .

المثل الثالث :

قوله تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُم أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِن نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَه ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَت كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرُون ﴾ [4] .

كلِمات المثل :

قوله تعالى ﴿ إعصار ﴾ قيل : ريح شديدة تعصف وترفع تراباً إلى السماء كأنه عمود . وقيل : تثير سحاباً ذات رعد وبرق . وقيل : ريحٌ فيها نار [5] .

صورة المثل :

هذه الآية مثلٌ في الحسرة على فوات خير . وللعلماء فيمن قصد به المثل خمسة أقوال هي :

أولاً : أنها مثل لمن أمضى جُلَّ عمره في الطاعات ، ثم ختم عمره بإساءة أذهبت حسناته فقدم

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٣٩ - ٥٤٠ . والرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٥٧ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٤٢ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٤٧١ . (الشعب)
(٢) ابن القيم ، أمثال القرآن : ١١٦ .
(٣) الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٨٣ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٦٦ .
(٥) انظر : ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٩٧ . وابن منظور ، لسان العرب ٤ : ٥٧٨ . مادة « عصر » .

على الله تعالى وهو أحوج ما يكون إلى ثواب عمله فوجده زائلاً ، وبهذا قال عمر بن الخطاب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم ، حيث روى البخاري عن عمر رضي الله عنه أنه قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ : « فيم ترون هذه الآية نزلت : ﴿ أيودّ أحدكم أن تكون له جنّة ﴾ ؟ قالوا : الله أعلم . فغضب عمر فقال : قولوا : نعلم ، أو لا نعلم . فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين . قال عمر : يا ابن أخي ، قل ولا تُحَقِّر نفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلاً لعمل . قال عمر : أيُّ عمل ؟ قال ابن عباس : لعمل . قال عمر : لرَجُل غني ، يعمل بطاعة الله عزّ وجلّ ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله »(١) .

فالجنّة الموصوفة في هذه الآية مثلٌ للطاعات الكثيرة التي أمضى هذا الرجل جلّ عمره فيها . والإعصار الذي أحرق الجنة مثلٌ لإساءته التي محقت ثواب أعماله كلها . فيلقى الله سبحانه أفقر ما يكون إلى عمله الصالح فلا يجد منه شيئاً . ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً من عذاب الله ، فلاتوبة حيث انقطع العمل . كما لا يقدر صاحب الجنّة لكبره أن يدفع الحريق عن جنّته ، ولاذرّيته لضعفهم ، ولا أن يغرسوا جنّة غيرها .

قال ابن عطية : « فهذا نظرٌ يحمل الآية على ما يدخل تحت ألفاظها »(٢) . ويصدّقه حديث النبي ﷺ : « إنّ أحدَكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيَسْبِقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل النّار فيدخلها . وإنّ أحدَكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيَسْبِقُ عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها »(٣) .

ثانياً : أنها مثلٌ للمرائي في النفقة ، وهو قول السدّي ، وبيانه : أن الجنة مثلٌ لنفقة المنافق المرائي في وجوه شتّى من الخير ، لا يريد بذلك وجه الله ، بل رياءً وسمعة ، فظاهر حُسْن النفقة وحَمْد الناس لصاحبها كحُسْن الجنة التي فيها من كل الثمرات ، حتى إذا بُعِث يوم القيامة وكان أحوج ما يكون إلى الحسنات ؛ وَرَدَ على أعمال قد محقها الله وأبطلها ، ووكله في ثوابها إلى ما عمل له . فمثله في ذلك كمثل صاحب الجنة احترقت ففقدها في وقت أحوج ما يكون إليها عند كبر السنّ وضعف الحيلة ، وكثرة العيال ، وطفولة الولد(٤) .

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ﴾ الآية ، ح ٤٥٣٨ . انظر : فتح الباري ٨ : ٢٠١ – ٢٠٢ . وانظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٤٥ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٤٣ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٤٧٢ . (الشعب) .

(٢) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٤٣ .

(٣) رواه مسلم في كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ، ح ١(٢٦٤٣) ، الصحيح ٤ : ٢٠٣٦ .

(٤) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٤٤ . وابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن : ٣٢٤ .

ورجّح الطبري هذا القول [1] .

ثالثًا : أنها مثلٌ للمانّ في النفقة ، قال ابن ابن زيد ، روى الطبري عنه أنه قرأ قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ﴾ [2] ، قال : « ثم ضَرَبَ ذلك مثلاً فقال : ﴿ أيودّ أحدكم ﴾ الآية . قال : جرت أنهارها وثمارها ، وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت . أيودّ أحدكم هذا ؟ يتجمّل أحدكم إذ يخرج من صدقته ونفقته ، حتى إذا كان له عندي جنة ، وجرت أنهارها وثمارها وكانت لولده وولد ولده أصابها ريح إعصار فاحترقت » [3] .

قال ابن عطية : « وهذا أبين من الذي رجح الطبري ، وليست هذه بمثل آخر لنفقة الرياء ، هذا مقتضى سياق الكلام » [4] .

رابعًا : أنها مثل للمفرّط في طاعة الله ، قال به قتادة ومجاهد والربيع بن أنس ، والمعنى : أيودّ أحدكم أن يعيش في هذه الدنيا في الضلالة ، لا يعمل بطاعة الله ، حتى إذا مات أصبح كلّ شيء عليه حسرة ، ويجيء يوم القيامة ولا عمل له مدّخراً عند الله ؟! فمثل من فعل ذلك كمثل صاحب جنّة ، تجري من تحتها الأنهار ، حتى إذا كبر أصابها إعصار فأحرقها ، ولم يغن عنها شيئاً لكبره ، ولاولده لصغرهم ، ففقدوها أحوج ما يكونون إليها ، وذهبت أنفسهم عليها حسرات [5] .

خامسًا : أنه مثل للكافر ، قال الضحاك بن مُزاحم - بعد أن قرأ الآية - : « رجلٌ غرس بستانًا فيه من كل الثمرات ، فأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، فلايستطيع أن يدفع عن بستانه لكبره ، ولم يستطع ذريته أن يدفعوا عن البستان . فذهبت معيشته ومعيشتهم . فهذا مثلٌ ضربه الله للكافر ، يلقى الله تعالى يوم القيامة وهو أحوج ما يكون إلى خير يصيبه ، فلا يجد له عند الله خيراً ، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً من العذاب » [6] .

وروى الطبري مثل هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما [7] ، إلا أن الثابت عنه في صحيح البخاري بخلافه وقد تقدم آنفاً [8] .

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٤٤ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٦٤ .
(٣) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٤٩ - ٥٥٠ . وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٣ : ٢١٨ .
(٤) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٤٢ .
(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٤٤ ، ٥٤٩ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٨٤ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٢١ .
(٦) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٥٠ .
(٧) انظر : المصدر السابق ٥ : ٥٤٨ .
(٨) انظر صفحة ٢٩٠ من هذه الرسالة .

المبحث الرابع

التشبيهات

من أبرز التشبيهات الواردة في سورة البقرة ما يأتي :

أولاً : اشتراء الضلالة بالهدى :

قال تعالى : ﴿ أولئكَ الذينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بالهُدى فما رَبِحَتْ تِجارَتُهُم وما كانُوا مُهْتَدِين ﴾ (١).

الاشتراء : إعطاء بَدَل وأخْذ آخر (٢) لتحقيق فائدة تُرجَّى منه .

ولتمكُّن المنافقين من الإيمان ووقوفهم على دلائله وبراهينه ، وقدرتهم على الدخول فيه ؛ أصبح بالنسبة إليهم كالثمن بيد المشتري ، فلمّا أعرضوا عنه واختاروا الضلال شُبِّهوا بالمشتري الذي استبدل ثمناً بمُثَمَّن ، فكأنَّهم دفعوا في الضلالة هُداهم (٣) .

ثم مثَّل معاوضتهم هذه بالتجارة الخاسرة ، فالمنافقون تركوا الهدى واستبدلوا به الضلالة لِما ارتجَوا من فوائد دنيوية يحصلون عليها ، وربما اعتقدوا أنهم لن يخسروا في الآخرة كاليهود . إلا أنهم فقدوا عزّ الدنيا ، وكان مآلهم إلى النار يوم القيامة . فهم في ذلك يشبهون الذي دفع رأس ماله في أمر يرتجي منه فائدة ، فلم تربح صفقته وخسر رأس ماله (٤) .

ثانياً : قساوة قلوب بني إسرائيل :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كالحِجارَةِ أو أشَدُّ قَسْوَةً وإنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْه الأنهارُ وإنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْه الماءُ وإنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلونَ ﴾ (٥) .

ويجيء هذا التشبيه بعد آيةٍ عظيمة من آيات الله التي يجب على من شاهدها أن يتَّعِظَ ويعتبر، ويلينَ قلبُه وينيب إلى الله عزّ وجلّ . وعلى مَنْ تُليت عليه أن يتدبر فيها ويدع الكبر والعناد . إلا أنَّ

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٦ . وانظر : آية (١٧٥) .
(٢) انظر : النيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٧٩ .
(٣) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ١٨٠ . وأبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٧٢ . وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١ : ٧٩ . (الشعب).
(٤) انظر : أبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٧٣ . والنيسابوري ، غرائب القرآن ١ : ١٧٩ - ١٨٠ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٧٤ .

بني إسرائيل صدر منهم غير ذلك ، فيروى أنه بعد أن عادت الروح للمقتول وعيَّن قاتله كُذِّبَ ، وتمالأ جمعٌ منهم على ذلك [1] . والذين جاءوا بعد ذلك سمعوا بهذه الآية وأمثالها مما جاء به موسى عليه السلام ، كما شاهدوا الآيات الدالة على صدق نبوّة محمد ﷺ ولكن كذَّبوا واستمرؤوا العصيان حتى غلظت قلوبهم واسودّت [2] . فشبّه الله قلوبَهم بالحجارة حيث قال : ﴿ فهِي كالحِجارَةِ أو أشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .

وقساوة القلب : ذهاب اللين منه والرحمة والخشوع ، يقول الرازي : « القلب من شأنه أن يتأثّر عند مطالعة الدّلائل والآيات والعبر ، وتأثُّره عبارة عن ترك التمرُّد والعتوّ والاستكبار ، وإظهار الطاعة والخضوع لله ، والخوف من الله تعالى ، فإذا عرض للقلب عارض أخرجه عن هذه الصفة صار في عدم التأثّر شبيهاً بالحجر » [3] .

والمعنى الجامع بين قساوة القلب وقساوة الحجر « عدم قبول التّحوّل عن الحالة الموجودة إلى حالة تخالفها » [4] ، فكما أنَّ قلوب هؤلاء لا تتحوّل عن صفة الغلظة والشّدَّة لاستمرائها المعاصي والاستهانة بها ؛ فكذلك الحجارة لا تتحول عن صلابتها ، ولذا كانت غاية المثل في ذلك ، يقول الفرزدق [5] :

أمّا العدوّ فإنّا لا نَلينُ له … حتّى يلين لضِرْس الماضغ الحجرُ

وللمفسرين في (أو) من قوله تعالى : ﴿ أو أشدّ قَسْوَة ﴾ عدة أقوال منها :

١ – المراد بها الإبهام على المخاطب ، والله تعالى أعلم بأيّ الأمرين كائن [6] .

٢ – وقيل : المراد بها التنويع ، فكأنه قسّم قلوبهم قسمين : قلوب كالحجارة قسوة . وقلوب أشدّ قسوة من الحجارة [7] . واستحسنه أبوحيان [8] .

٣ – وقيل : هي بمعنى (الواو) ، أي : وأشدُّ قسْوة [9] .

٤ – وقيل : هي بمعنى (بل) وتأويله : فهي كالحجارة ، بل أشدّ قسوة [10] .

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٣٤ . والرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٢٨ .
(٢) انظر : الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٢٨ . وابن ناقيا ، الجمان في تشبيهات القرآن : ٥ .
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ٣ : ١٢٨ . وانظر : ابن ناقيا ، الجمان في تشبيهات القرآن : ٥ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ١٠٢ .
(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ج١ ك٢ : ٥٦٢ . وانظر : الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل ١ : ٧٤ .
(٥) الفرزدق ، الديوان ١ : ٢٠٠ . وانظر : ابن ناقيا ، الجمان في تشبيهات القرآن : ٦ .
(٦) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٣٥ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٢٦ .
(٧) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٣٦ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٢٦ . وأبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٢٦٢ .
(٨) انظر : أبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٢٦٢ .
(٩) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٢٣٦ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٢٧ .
(١٠) انظر : المصدرين السابقين .

٥ - وذهب الشيخ ابن عاشور إلى جواز أن تكون (أو) للتخيير في الإخبار لا في التشبيه ، قال : « والمقصود من التخيير إظهار التَحَرّي والاستقصاء في شأنهم ، فإنّه ساواهم بالحجارة في وصفٍ ، ثم تقصى فرأى أنهم فيه أقوى ، فكأنه قال للمخاطب : إن شئت فسوّهم بالحجارة في القسوة ، ولك أن تقول : هم أشدّ منها » [١] .

ثم عدّد الله سبحانه أوجُه تقديم قسوة قلوب بني إسرائيل على قسوة الحجارة فقال : ﴿ وإنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْه الأنْهارُ وإنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْه الماءُ وإنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ فالحجارة رغم صلابتها قابلة للخير ، منقادة لأمر الله تعالى بإلهام منه ، لا تمتنع على مايريد منها . وأما قلوب هؤلاء فلا تنقاد لأمر الله تعالى ولا تلين ولا تخشع [٢] .

ثالثاً : المَنُّ في النَّفقة :

قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذِيْنَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكم بالمَنِّ والأذى كالذي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ الناسِ ولا يُؤمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ [٣] .

والمراد ببطلان الصدقة ، قيل : ذهاب الفضل دون الثواب . وقيل : إبطال موقعها في نفس المُعْطى [٤] . وحكى ابن عطية عن جمهور العلماء أن الصدقة التي يعلم الله تعالى من صاحبها أنه يمُنّ أو يؤذي فإنه لا يتقبّل صدقته [٥] . وعند أبي حيان الأندلسي أن الله تعالى « لمّا شرط في الإنفاق ألا يُتْبع منّاً ولا أذى [٦] لم يكتف بذلك حتى جعل المَنَّ والأذى مبطلاً للصدقة ، ونهى عن الإبطال ليقوى اجتناب المؤمن لهما » [٧] . قال : « ودلّت الآية على أن المَنَّ والأذى مبطلان للصدقة ، ومعنى إبطالهما أنّه لا ثواب فيها عند الله » [٨] .

والمَنُّ : ذكر النِّعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها [٩] .

والأذى : السَّبُّ والتَّشكّي [١٠] . وقيل : أن يُخْبِر بإحسانه إلى الفقير من يكره الفقيرُ إطْلاعَه

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ج١ ك٢ : ٥٦٤ .
(٢) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٩١ . والخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل ١ : ٧٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٦٤ .
(٤) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٨١ .
(٥) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٣٢ . وأبوحيان ، البحر المحيط ٢ : ٣٠٨ .
(٦) يشير بهذا إلى قوله تعالى : ﴿ الذينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُم في سَبِيْلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أنْفَقُوا مَنّاً ولا أذىً لَهُم أجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ [سورة البقرة ، آية : ٢٦٢] .
(٧) أبوحيان ، البحر المحيط ٢ : ٣٠٨ .
(٨) المصدر السابق .
(٩) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٢٩ .
(١٠) انظر : المصدر السابق .

على ذلك [1] .

والرِّياء : « ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه » [2] .

ففي هذه الآية الكريمة تشبيه للصدقة التي يتبعها مَنٌّ وأذى بالصدقة الرياء . والمعنى الجامع للصورتين : اشتراكهما في كون تلك الصدقة ما أريد بها وجه الله تعالى . ومن ثَمَّ اشتركا في بطلان الثواب .

والتقدير : لا تُبطِلوا أجورَ صدقاتكم بالمنّ والأذى ، كما أبطل الكافر أو المنافق الذي يرائي أجر نفقته ، لأنه أتى بالصدقة لا لوجه الله تعالى بل رياءً وسمعة . ومن قرن نفقته بالمنّ والأذى فقد أتى بها لا لوجه الله أيضاً ، ولو كان غرضه مرضاة الله تعالى لما مَنّ بها على الفقير ولا آذاه [3] .

رابعاً : آكل الربا :

قال تعالى : ﴿ الذِيْنَ يأكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُون إلا كَما يَقُوْم الذي يَتَخَبَّطُه الشيطانُ مِنَ المَسِّ ﴾ [4] .

الرِّبا في اللغة : الزيادة [5] . وفي الشرع : « فضلٌ خالٍ عن عوضٍ شُرِط لأحد العاقِدَين » [6] . وقال الماوردي : « هو الزيادة على مقدار الدَّين لمكان الأجل » [7] .

والتَّخَبُّط : الضَّرْب على غير استواء ، ويقال للرجل الذي يتصرّف في أمورٍ لا يهتدي فيها : إنه يخْبِط خبط عشواء ، وتخبَّطه الشيطان : مسَّه بخبل أو جنون [8] .

والمسّ : الجنون [9] .

وفي هذه الآية يشَبِّه الله سبحانه حال آكلي الربا عندما يبعثون من قبورهم يوم القيامة بحال الذي به مسٌّ من الجُنون في الدُّنيا ، يخبط خبط عشواء ، ولا يهتدي لمذهبه . فيكون ذلك علامة يَعْرِف بها أهلُ الموقف آكل الربا ، هتكاً له وفضيحة [10] . وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه :

(١) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣١٨ .
(٢) الجرجاني ، التعريفات : ١١٣ .
(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٥٢٦ . والرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٥٣ .
(٤) سورة البقرة ، اية : ٢٧٥ .
(٥) انظر : الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ١٦٥٩ . (ط . الرسالة)
(٦) الجرجاني ، التعريفات : ١٠٩ .
(٧) الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٨٨ . وانظر : البقاعي ، نظم الدرر ٤ : ١٠٩ .
(٨) انظر : الفيروزاباذي ، القاموس المحيط : ٨٥٧ (ط . الرسالة) . والرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٨٨ .
(٩) انظر : ابن قتيبة ، تفسير غريب القرآن : ٩٨ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٨١ . والرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٨٨ .
(١٠) انظر : الماوردي ، النكت والعيون ١ : ٢٨٨ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٨٠ . والرازي ، التفسير الكبير ٧ : ٨٩ . وابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٣٣٠ . والبقاعي ، نظم الدرر ٤ : ١١٠ .

﴿ لايقومون يوم القيامة إلا كما يقوم المجنون ﴾ [1] .

وقـيل : بل كـالسكران ، إذا أراد أن يقـوم وقع تارة لبطنـه وتارة لظهـره ، وآكل الـربا يوم القيامة لا يقدر على القيام لعظم بطنه ، جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال في صفتهم : « أتِيتُ ليلة أسْرِي بي على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيّات تُرى من خارج بطونهم ، فقلت من هؤلاء ياجبرائيل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا » [2] .

وقال ابن عطية : « وأما ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون ، لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه ، وهذا كما تقول لمسرع في مشيه مخلّطٍ في هيئة حركاته إما من فزع أوغيره : قد جُنَّ هذا .

لكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود ، وتظاهرت به أقوال المفسّرين يضعف هذا التأويل » [3].

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٨٠ .
(٢) رواه ابن ماجه في كتاب التجارات ، باب التغليظ في الربا ، ح ٢٢٧٣ . السنن ٢ : ٧٦٣ .
(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٤٨٠ . وانظر : البقاعي ، نظم الدرر ٤ : ١١٠ .

الباب الثالث

ضوابط المنهج العقلي في الدعـوة
ومـوانع الاستفادة منه
وسبل التغلب عليها

الفصل الأول

ضوابط المنهج العقلي في الدعوة

المبحث الأول

الضابط الشرعي في التفكير

الضبط في اللغة : لزوم الشيء وحبسه ، وضَبَطَ الشيء : حفظه بحزم ، ورجلٌ ضابطٌ : أي حازمٌ وقويٌّ في عمله [1] .

وهذا المعنى اللغوي يوضح المراد من الضابط الشرعي ، وهو حماية العقل من الشطط والانحراف ، وحمله على الجادة .

والقرآن الكريم وجّه إلى الاستفادة من العقل وإعماله بالتفكّر والتدبّر والنظر ، وذلك مستفيض في الآيات الكريمة ، كقوله تعالى : ﴿ كذلك يُحْيي اللهُ الموتى ويُريكُم آياتِه لَعَلَّكُم تَعْقِلون ﴾ [2] ، وقوله سبحانه : ﴿ كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكُم الآياتِ لعلَّكُم تَتَفكَّرُون ﴾ [3] ونحو ذلك من الآيات الحاثّة على إعمال العقل ، وفق شروط وقواعد شرعية ، وليس إطلاقًا له على عواهنه .

ويمكن بيان الضابط الشرعي في التفكير من خلال الأمور التالية :

أولاً : الاستقاء من أصل الشريعة :

بمقدور العقل البشري أن يستشعر الحقّ وأن يتلمّس وجه الصواب ، ولكن ليس بمقدوره أن يصل إلى الهداية الحقّة إلا باتباع شريعة الله تعالى ، وتلك حقيقة يعلمها العاقل من نفسه ، وتؤكدها قصة زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ، أحد الأربعة الذين تحنّفوا من قريش ، فهجر الأصنام ، وعاف ذبائح قومه ، وأحيا الموءودة ، وضرب الأرض يبحث عن الحنيفية الحقة ، ولم يرض باليهودية والنصرانية ، ومما روي عنه أنه كان يُسْنِد ظهره إلى الكعبة ويقول : « اللهم إني لو أعلم أحبّ الوجوه إليك لعبدتك ، ولكنّي لا أعلم » [4] . قال الراغب الأصفهاني : « واعلم أن العقل بنفسه قليل الغناء ، لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأشياء دون جزئياتها ، نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحقّ وقول الصدق ، وتعاطي الجميل ، وحسن استعمال العدالة ، وملازمة العِفَّة ... ونحو ذلك من غير أن يعرف ذلك شيء » [5] .

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٧ : ٣٤٠ – ٣٤١ مادة « ضبط » .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٧٣ . وانظر آية : ١٦٤ ، ٢٤٢ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢١٩ ، ٢٦٦ .
(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ : ٢٢١ .
(٥) الراغب الأصفهاني ، تفصيل النشأتين : ١١٩ .

ولأجل أن لا سبيل للعقل لمعرفة ذلك ، ولعلم الله تعالى بحال الإنسان وحاجته ، بعث الرسل كما قال سبحانه : ﴿ وما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (١) . وخاتمُ الرسل نبينا محمد ﷺ ، أنزل الله عليه شريعته ، وقرر في كتابه العزيز حصر الهداية بها من خلال اتباع النبي ﷺ حيث قال سبحانه : ﴿ ألم ★ ذلك الكِتابُ لا رَيْبَ فيه هدىً للمُتَّقِين ★ الذينَ يُؤمِنُون بالغَيْبِ ويُقِيمون الصَّلاة ومما رَزَقْناهُم يُنْفِقُون ★ والذين يُؤمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْك وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِك وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ★ أولئك على هدىً من رَبِّهِمْ وأولئك هم المُفْلِحُون ﴾ (٢) ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ قل إنّ هُدى اللهِ هو الهُدىٰ ﴾ (٣) ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ وإذا سألَكَ عِبادِي عنّي فإنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ولْيُؤمِنُوا بي لَعَلَّهُم يَرْشُدُون ﴾ (٤) .

فالهداية من الله تعالى ، والإجابة منه كذلك ، وشرط حصولهما الاتباع والانقياد لأوامره ، والديمومة على الإيمان ، والإخلاص في الدين . وبذا يصبح المؤمن على رجاءٍ من حصول الرشد له والهداية . وأما إن دعا غير الله ، وانصرف إلى غير شريعته فقد وقع في الغيّ والضلالة .

واستناداً إلى مثل هذا قرر علماء السلف عليهم رحمة الله تقديم الشرع على العقل ، « لأن العقل مصدِّقٌ للشرع في كل ما أخبر به ، والشرع لم يُصدِّق العقل في كل ما أخبر به ، ولا العلم بصدقه موقوف على ما يخبر به العقل » (٥) .

ويتضح هذا التقرير مما يأتي :

١ - أن الرسل عليهم الصلاة والسلام أعلم بالله تعالى وبشريعته من سائر الخلق ، ودلائل رسالتهم لا تخفى على العقلاء ، وإن كابر بعضهم وجحد كأبي جهل بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، وغيرهما من كبراء قريش .

وإذا حصل الإيمان بالنبي ﷺ وجب على العقل المسلم أن يتبع ما أخبر به مما صحّ عنه وثبت ، وإن وجد في عقله ما ينازعه في خبره ، لزمه أن يُسَلِّم لخبره ، وأن لا يقدّم رأيه على قول النبي ﷺ ، لأنه ﷺ أعلم بالله وبشريعته منه .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ١٥ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١ - ٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٢٠ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٨٦ .
(٥) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ١ : ١٣٨ .

وشاهد ذلك أن عقل المريض يوجب عليه اتباع وصف الطبيب وتقديره في العلاج واستعمالاته ، مع إمكان وقوع الخطأ منه ، واحتمال عدم الشفاء بذلك الدواء . فكيف الحال مع النبي ﷺ وهو الصادِق المصدَّق الذي لا يرد عليه الخطأ في أمرٍ من أمور الشريعة (١) .

٢ - أن تقديم المعقول على الأدلة الشرعية ممتنع متناقض ، وأما تقديم الأدلة الشرعية ممكن مؤتلف .

وإيضاح ذلك أن كون الشيء معلوماً بالعقل أو غير معلوم بالعقل ليس صفة لازمة له ، بل هو من الأمور النسبية الإضافية ، فما يقبله بعض العقلاء يأباه غيرهم ويرفضه . وينطبق هذا على جميع المسائل التي تُوْرَد على أنها متعارضة مع الشرع ، فعند النظر والاستقراء لا تجد للعقلاء فيها قولاً واحداً ، لأن العقول بحدّ ذاتها ليست شيئاً واحداً بيِّنا بنفسه ، ولا دليل عليها معلوم للناس . فلو قيل بتقديم العقل على الشرع لوجب أن يحال الناس على شيء لا سبيل إلى ثبوته ومعرفته ولا اتفاقِ الناس عليه (٣) .

وأما الشرع فهو في نفسه حقٌّ وصدقٌ ، وهذه صفة لازمة له ، لا تختلف باختلاف أحوال الناس ، والعلم بذلك ممكن ، وردُّ الناس إليه ممكن ، ولذا أنزل الله سبحانه شريعته ، وجعل كتابه العزيز حاكما بين الناس فيما اختلفوا فيه ، قال تعالى : ﴿ كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ وأنزَلَ مَعَهُمُ الكِتابَ بالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فيما اخْتَلَفُوا فيْهِ ﴾ (٢) ، وأمر المؤمنين عند التنازع بالردّ إلى الله والرسول حيث قال : ﴿ يا أيُّها الذيْنَ آمَنُوا أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأولِي الأمْرِ مِنْكُم فإنْ تنازَعْتُم في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ إنْ كُنْتُم تُؤمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ذلكَ خَيْرٌ وأحْسَنُ تأوِيلا ﴾ (٤) .

ولو رُدّوا إلى عُقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم وبراهينهم لم يزدهم ذلك الردّ إلا اختلافاً واضطراباً وشكاً وارتياباً (٥) ، قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ ورَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الحَمْدُ للهِ بَلْ أكْثَرُهُم لا يَعْلَمُون ﴾ (٦) .

---

(١) انظر : المصدر السابق ١ : ١٤١ - ١٤٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢١٣ .
(٣) انظر : ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ١ : ١٤٦ .
(٤) سورة النساء ، آية : ٥٩ .
(٥) انظر : ابن تيمية ، درء تعارض العقل ١ : ١٤٦ - ١٤٧ .
(٦) سورة الزمر ، آية : ٢٩ .

ثانياً : الحفاظ على الإطار الشرعي :

ويأتي دور هذا العنصر بعد تكون الإطار الشرعي بالاستقاء من أصل الشريعة ، ويتمثل هذا الإطار في (الخيرية) التي وصف الله تعالى بها سعي المؤمنين ، واختصّهم بها دون غيرهم من أهل الملل والأديان الأخرى ، قال تعالى : ﴿ وِلِكُلّ وِجْهَةٌ هُو مُوَلّيها فاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ ﴾ [1] . فأهل الملل والأديان الأخرى لهم وجهة أو قبلة يتولّونها ، وأما المؤمنون الذين وفّقهم الله إلى اتّباع ما أمر الله به فيتمسكون بقبلتهم ، ويسارعون إلى الأعمال الصالحة [2] أيّاً كانت فكرية أو بدنية ، ولا يخرج سعيهم – وإن اتّسع – عن إطار ﴿ الخيرات ﴾ .

ومن دواعي رسوخ هذه الخاصية ، والحفاظ على الإطار الشرعي في المجال الفكري بخاصة **ترك الاشتغال بالمباحث التي لا ينبني عليها عمل** . يقول الشاطبي : « كلُّ مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها خوضٌ فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي » [3] ، بل الدليل قائم على خلافه كما في قوله تعالى : ﴿ يسألُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِي مَواقِيْتُ للنّاسِ والحَجِّ ﴾ [4] ، فسؤال الصحابة رضوان الله عليهم إنما كان عن خَلْق الهلال وزيادته ونقصانه واختلاف أحواله ، وذلك مبني على قضايا فلكية دقيقة يدركها الخاصّة ، ويعِزُّ فهمها على العموم ، فوقع الجواب بما هو أليق بحال الشريعة ، وأعظم فائدة للسائل والسامع : ﴿ قُلْ هِي مَواقِيْتُ لِلنَّاسِ والحَجِّ ﴾ . قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : « يعلمون بها حَلَّ دَيْنِهم ، وعِدَّة نسائهم ، ووقت حجِّهم » [5] .

ومثله من سأل عن الساعة في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونكَ عَنِ السَّاعَةِ أيّانَ مُرْساها ﴾ [6] فلم يُجَب عن وقت قيام الساعة ، بل نبّه سبحانه إلى ترك السؤال عن ذلك ، وأكّد أنما منتهى علمها إليه ، لا يعلمه أحدٌ غيره [7] فقال : ﴿ فِيْمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها ★ إلى رَبِّكَ مُنْتَهاها ﴾ [8] ، قال الشاطبي : « أي أنّ السؤال عن هذا سؤال عما لا يعني ، إذ يكفي من علمها أنه لا بدّ منها ، ولذلك لمّا سئل عليه الصلاة والسلام عن الساعة قال للسائل : « ما أعددتَ لها؟ » [9] إعراضاً عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق بها مما فيه فائدة ، ولم يجبه عما سأل » [10] .

(١) سورة البقرة ، آية : ١٤٨ .

(٢) انظر : ابن العربي ، أحكام القرآن ١ : ٤٤ . والماوردي ، النكت والعيون ١ : ١٧١ . وأبوحيان ، البحر المحيط ١ : ٤٣٧ .

(٣) انظر : الشاطبي ، الموافقات ١ : ٤٦ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ١٨٩ .

(٥) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٥٥٤ . وانظر : الشاطبي ، الموافقات ١ : ٤٦ .

(٦) سورة النازعات ، آية : ٤٢ .

(٧) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٩ : ٢٠٩ .

(٨) سورة النازعات ، آية : ٤٣ – ٤٤ .

(٩) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ، باب ما جاء في قول الرجل : ويلك ، ح ٦١٦٧ . الجامع الصحيح ٤ : ١٢٢ . ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب المرء مع من أحبّ ، ح ١٦١ (٢٦٣٩) . الصحيح ٤ : ٢٠٣٢ .

(١٠) الشاطبي ، الموافقات ١ : ٤٧ .

ومن أوجه عدم استحسان الخوض في هذه المسائل ما يأتي :

أ) أنه يشغل عما يَعْنِي من أمر التكليف الذي طُولِب به المكلف بما لا يَعْنِي ، إذ لا ينبني على ذلك فائدة لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فالعلم به في الدنيا لا يزيد شيئاً في تدبير المعاش ، ولذّة معرفته لا تفي مشقةَ تحصيلة واكتسابه ، وأما في الآخرة فإنه مسؤول عما كُلّف به مما أمر به أو نُهي عنه (١) .

ب) أن الشرع جاء ببيان ما تصلح به أحوال العباد في الدنيا والآخرة على أتم الوجوه وأكملها ، وما خرج عن ذلك إلى علوم أهل الكلام وأهل الفلسفة ما دَرَسَ منها وماجدّ إنما هي مضرّة وفتنة ، قال تعالى : ﴿ واتّبَعوا ما تَتْلُوا الشَّياطِيْنُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ وما كَفَرَ سُلَيْمانُ ولكِنَّ الشَّياطِيْنَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وما أُنْزِلَ على المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هارُوتَ ومارُوتَ وما يُعَلِّمانِ مِنْ أحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوجِهِ وما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أحَدٍ إلا بِإذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُم ولا يَنْفَعُهُمْ ولَقَدْ عَلِمُوا لَمَن اشْتَراه مالَه في الآخِرَةِ مِنْ خَلاق ﴾ (٢) ، فالضرر وعدم المنفعة متحققان في السِّحْر كما أخبر الله تعالى ، ومثله كل علم يؤدي بصاحبه إلى الشكّ والارتياب .

ومشاهد بالتجربة أن المشتغلين بمثل هذه العلوم يخرجون عن الصراط المستقيم ، وتقع بينهم الفتن ، ويثور بينهم الخلاف والنزاع المؤدي إلى التقاطع والتدابر والتعصّب ، حتى أصبحوا شيعاً ، وربما كفر بعضهم بعضاً ، وإنما ذلك لاشتغالهم بهذه العلوم وأمثالها وخروجهم عن السُّنّة (٣) .

بل عامة علماء السلف رضوان الله عليهم يحرمون النظر في علم الكلام ولا يتوقفون عند عدم استحسانه ، فقد سئل أبوحنيفة النعمان رحمه الله عما أحدث الناس في الكلام عن الأعراض والأجسام فقال : « مقالات الفلاسفة ، عليك بطريق السلف ، وإياك وكل محدثة » (٤) . وكتب رجل إلى الشافعي رحمه الله يسأله عن مجالسة أهل الكلام ومناظرتهم فقال : « الذي كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا من سلفنا من أهل العلم أنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض مع أهل الزيغ ، وإنما الأمر في التسليم والانتهاء إلى ما في كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله ﷺ ، لا تَعَدّي ذلك » (٥) .

---

(١) انظر : الشاطبي ، الموافقات ١ : ٥٠ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٠٢ .
(٣) انظر : الشاطبي ، الموافقات : ١ : ٥٠ - ٥١ .
(٤) ابن مفلح ، الآداب الشرعية ١ : ٢٠١ .
(٥) المصدر السابق ١ : ١٩٩ - ٢٠٠ .

وسئل أحدهم فقيل له : « ترى لي أن أقرأ علم الكلام ؟ فقال : الدِّين النصيحة ، أنت الآن على ما بك مسلم سليم ، وإن لم تنظر في الجزء ، وتعرف الصفرة ، ولا عرفت الخلا ، والملة ، والجوهر ، والعرض ، وهل يبقى العرض زمانين ؟ وهل القدرة مع الفعل أو قبله ؟ وهل الصفات زائدة على الذات ؟ وهل الاسم عين المسمّى أو غيره ؟ وإني أقطع أن الصحابة رضي الله عنهم ماتوا وماعرفوا ذلك ، فإن رأيت طريق المتكلمين أجود من طريقة أبي بكر وعمر فبئس الاعتقاد ، وقد أفضى علم الكلام بأربابه إلى الشكوك »(١) .

جـ) « أنّ تتبع النظر في كل شيء وتطلُّب علمه من شأن الفلاسفة الذين يتبرأ المسلمون منهم ، ولم يكونوا كذلك إلا لتعلُّقهم بما يخالف السُّنة . فاتباعهم في نحلة هذا شأنها خطأ عظيم ، وانحراف عن الجادة »(٢) .

ثالثاً : التثبُّت في العبارات المُشْتبهة والمناهج المحدثة :

من شأن أهل الأفكار الغريبة والمذاهب المنحرفة حال ضعفهم أو ابتداء أمرهم تغليفُ أفكارهم ومعتقداتهم ، وعرضها ضمن طروحات مجملة محتملة ، كما كان يصنع بنو إسرائيل إبان العهد النبوي ، قال تعالى - في معرض التحذير لهم عن ذلك - : ﴿ ولا تَلْبِسُوا الحَقَّ بالبَاطِلِ وتَكْتُمُوا الحَقَّ وأنْتُمْ تَعْلَمُون ﴾(٣) . والتلبيس يعني خلط الحق بالباطل بحيث لا تستبين دلائله(٤) ، ومن ثَمَّ يتشكَّل الباطل بصورة الحَقّ ويُشْكِل على كثير من الناس .

وسواء كانت تلك العبارات المتشابهة المحتملة محدثة المعنى واللفظ ، أو محدثة المعنى لألفاظٍ متداولة أو نصوصٍ شرعية ؛ فإنها بذرة خلاف ، ودعوى شقاق كما أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب المناوئين للدعوة في قوله : ﴿ وإنَّ الذين اخْتَلَفُوا في الكِتابِ لَفي شِقاقٍ بَعِيد ﴾(٥) ، وكما فعل عبدالله بن سبأ اليهودي الذي تذرّع بمحبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولبّس على جهلاء من المسلمين بعضَ أمور الشريعة ، ولم يزل هذا دأبه حتى بثَّ الفتنة في المجتمع الإسلامي .

وموقف علماء السلف رحمهم الله تعالى من مثل ذلك التثبتُ والاستفسار والتفصيل ، وعدم

---

(١) ابن مفلح ، الآداب الشرعية ١ : ٢٠٤ .
(٢) الشاطبي ، الموافقات ١ : ٥١ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٤٧ .
(٤) انظر صفحة ١٠٨ من هذه الرسالة .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٧٦ .

التعجل بإطلاق النفي والإثبات عليها ، وليس ذلك قصوراً عن فهمها ، أو تقصيراً في بيان الحقّ ، بل لما تحويه تلك العبارات من حقّ وباطل ، فنفيها جملة فيه نفي حقّ وباطل ، وإثباتها جملة إثباتُ لحقّ وباطل . وأما بعد الاستفسار والتدقيق ، يمتاز الحق فيُثْبَت ، وينكشف الباطل فيُنفى [1] ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « فالسلف والأئمة لم يذموا الكلام لمجرد مافيه من الاصطلاحات المولدة كلفظ الجوهر والعرض والجسم وغير ذلك ، بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه ، لاشتمال هذه الألفاظ على معان مجملة في النفي والأثبات ، كما قال الإمام أحمد في وصفه لأهل البدع فقال : هم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مفارقة الكتاب ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جُهال الناس بما يلبِّسون عليهم .

فإذا عُرِفت المعاني التي يقصدونها بأمثال هذه العبارات ، ووُزِنَت بالكتاب والسُّنَّة بحيث يُثْبت الحق الذي أثبته الكتاب والسنة ، وينفى الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة - كان ذلك هو الحقّ » [2] .

وهذه القاعدة مستمدة من التوجيهات النبوية الشريفة حيال أخبار بني إسرائل ، فما وافق الحق منها قُبِل ، وما خالفه رُدّ ، وما كان غير ذلك فلا يُصدّق ولا يكذب .

ويندرج تحتها ما جدّ في وقتنا الحاضر من المناهج الفكرية لدى الأمم الأخرى غير المسلمة، فلا بأس من الاستفادة منها إن كانت مُتَّفقة مع أصل الشرع ، أو لا تخالفه . وما تضادّ منها مع التعاليم الشرعية وجب تجنُّبه والإعراض عنه .

ولعل من أخطر ما يواجه المسلمون في وقتنا هذا التبعية للفكر الغربي وتقليده دون تروٍّ ونظر ، ومن فعل ذلك فقد شابه أهل الجاهلية الذين نعى الله تعالى عليهم تقليدَهم آباءَهم ، وإهمالَهم عقولَهم ، فقال سبحانه : ﴿ وإذا قيل لهم اتَّبِعوا ما أنْزَلَ اللهُ قالوا بَلْ نَتَّبع ما ألْفَيْنا عليه آباءنا أوَلوا كان آباؤهم لا يَعْقِلُون شَيئا ولا يَهْتَدُون ﴾ [3] .

ثمرات الضابط الشرعي :

ثمرةُ طبيعيةُ للضابط الشرعي في التفكير أن تتميز الشخصية الإسلامية وتتماسك ، نظراً لتنّور الفكر وتحرره من قيود الجاهلية والمادية ، وسلامته من الحيرة والتردد والضلال ، لحصول

(١) انظر : ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ١ : ٧٦ .
(٢) المصدر السابق ١ : ٤٤ . وانظر : ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٣ : ٣٠٧ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٧٠ .

المسلم على اليقين بصحة شريعته ، قال تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَسْتَحي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فأمّا الذينَ آمنوا فَيَعْلمونَ أنَّه الحقُّ مِنْ رَبِّهِم وأمّا الذين كَفَروا فيَقُولونَ ماذا أرادَ اللهُ بِهَذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثيْراً ويَهْدِي بِهِ كَثيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إلا الفاسِقِين ﴾ (١) . فأخبر سبحانه عن المؤمنين بالعلم ، وهو الجزم المطابق للدليل . وعلمُهم بكونه حقاً من باب الهدى الذي ازداد به المؤمنون نوراً إلى نورهم . وأما الذين كفروا وابتعدوا عن شريعة الله فقد ازداد تخبطهم وضلالهم (٢) .

فالتميُّز والقوة آتيان من اليقين بسلامة المصدر وصحته ، وحصولُ التماسك منبعُه توفر ذلك اليقين - في الأصل - لدى أفراد المسلمين جميعهم ، فالآية الكريمة حينما أوردت المسلمين بلفظ الجمع في قوله سبحانه : ﴿ فأمّا الذينَ آمنوا فَيَعْلمونَ أنَّه الحقُّ مِنْ رَبِّهِم ﴾ أفادت بأن التصديق صادر عنهم جميعاً . ولا بد لاستمرار ذلك من الانضباط الشرعي في جميع المجالات ، والفكرية منها بخاصة .

وأما التفلّت من الضوابط الشرعية فسبيل إلى تجاوز الشرع والبعد عنه كما وقع لأهل الكتاب حين تجاوزوا أحكام شريعتهم وادّعوا الحاكمية على غيرهم ، قال تعالى : ﴿ وقالت اليَهُودُ ليستْ النصارىٰ على شيءٍ وقالت النَّصارىٰ ليست اليهودُ على شيءٍ وهمْ يَتْلونَ الكتابَ كذلك قال الذينَ لا يَعْلَمون مِثْلَ قولِهم فالله يحكمُ بَيْنَهُم يومَ القِيامةِ فيما كانوا فيه يخْتَلفون ﴾ (٣) .

وفي قوله سبحانه : ﴿ وهُمْ يَتْلونَ الكِتابَ ﴾ تنبيه لأمة محمد ﷺ على ملازمة القرآن والوقوف عند حدوده للسلامة مما وقع فيه أهل الكتاب (٤) ، وليكونوا أقرب إلى الصواب في أعمالهم واجتهاداتهم .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٧ .
(٢) انظر : الزمخشري ، الكشاف ١ : ٢٦٧ . وأبوحيان ، البحر المحيط ١ : ١٢٤ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١١٣ .
(٤) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٤٥٢ .

المبحث الثاني

التوقف عند الحدود المتاحة للعقل

أكرمت الشريعة الإسلامية العقل ، ورفعت من قدره ، وأعطته المكانة اللائقة به . فلم تغضّ من شأنه ، ولم ترفعه إلى مراتب لا طاقة له بها ، فكان منهجها بذلك واقعياً ملائما لحال العقل وطبيعته ووظيفته التي خلقه الله تعالى لأجلها ، ووسطاً بين أهل الفلسفة وأهل الكلام الذين أفرطوا في تعظيم العقل ، وتمادوا في الاعتداد به والاعتماد عليه ، حتى أصبح أصل علمهم ، وجعلوا الإيمان والقرآن تابعين له ، وصارت « المعقولات عندهم هي الأصول الكلية الأولية المستغنية بنفسها عن الإيمان والقرآن »[(١)] . وبين المتصوّفة الذين أهملوا العقل في أمور كثيرة ، وحطُّوا من قدره حتى ارتأوا أن « الأحوال العالية ، والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه »[(٢)] .

وبهذه المنهجية ؛ أرست الشريعة الضوابط المُبَيِّنة للحدود المتاحة للعقل ، والكفيلة بتجنب السلبيات الناتجة عن إفراط العقلانيين وتفريط المتصوّفة ، والتي أخرجت - في مجملها - كثيراً منهم عن حيّز الإسلام ، حيث سوّغوا التدين بغير ما في شريعة الإسلام . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - مبيناً ذلك المنهج الوسطي - : « بل العقل شرط في معرفة العلوم ، وكمال وصلاح الأعمال ، وبه يكمل العلم والعمل ، ولكنه ليس مستقلاً بذلك ، لكنه غريزة في النفس ، وقوّة فيها ، بمنزلة قوّة البصر التي في العين ، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل بها نور الشمس والنار . وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها . وإن عُزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أموراً حيوانية قد يكون فيها محبةٌ ووجْدٌ وذوق كما قد يحصل للبهيمة »[(٣)] .

وبما أن محور البحث يدور حول المنهج العقلي ، وإعمال العقل ؛ فإن الحديث يتجه هنا إلى بيان الحدود المتاحة له وفق المنهجية الشرعية ، من خلال ما تضمنته الآيات الكريمة في سورة البقرة من تنبيهات ودلائل ، وذلك فيما يأتي :

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٣ : ٣٣٨

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ٣ : ٣٤٢ .

أولاً : التوقف عن النظر في الشرع بمجرد العقل :

يقرر الشاطبي رحمه الله تعالى أن « الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم فإنما تستعمل مركَّبة على الأدلة الشرعية ، أو مُعينة في طريقها ، أو مُحَقِّقة لمناطها ، أو ما أشبه ذلك . لا مستقلة بالدلالة . لأن النظر فيها نظرٌ في أمرٍ شرعي ، والعقل ليس بشارع »(١) ، ومن ثَمَّ فتشريع الأحكام ووضع التكليفات ؛ خارجٌ عن نطاق العقل ، إذ هو عاجز عن الإتيان بمثل الشريعة المنزلة من الله تعالى على نبيه محمد ﷺ .

وليس ذلك تعطيلاً للعقل ، بل رحمةٌ من الله تعالى به حيث لم يكلّفه ما لا يطيق ، وتحديداً لنطاق عمله ، فعقل المسلم ينطلق من حيث يطلقه الله سبحانه ، يقول ابن تيمية : « والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه ، ولم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه . لكن المسرفين فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها لحجج عقلية بزعمهم ، اعتقدوها حقّاً وهي باطل ، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به . والمعرضون عنه صدَّقوا بأشياء باطلة ، ودخلوا في أحوال وأعمال فاسدة ، وخرجوا عن التمييز الذي فضّل الله به بني آدم على غيرهم »(٢) .

ويتّحدد ذلك النطاق باستخراج النصوص ، وبيان القواعد الشرعية العامة التي تعدُّ نبراساً يُهْتدى بهديه ، وتطبيق تلك المعاني على ما يجدُّ من أحداث(٣) ، يقول أبو زهرة : « ولقد قام بهذا المجهود الأئمة السابقون ، فأعملوا عقولهم ، وصاغوا القواعد التي استنبطوا بها ، وضبطوا بها الأحكام ، وتركوا من الفقه ثروة مثرية ، كان لجهودهم العقلية فيها أثر واضح ، من غير خروج عن الجادَّة ، ولا شرود عن الطريق »(٤) .

وأي إعمال للعقل بعيداً عن الدائرة الشرعية مؤدٍ لا محالة إلى مفاسد كبيرة أهمها :

١ - **سيطرة الهوى على العقل** ، والذي لا شك فيه أن العقل إذا لم يسترشد بالدين ؛ اقترن به الهوى ، والآيات الكريمة تؤكد ذلك وتدلّ عليه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إنَّ هُدىٰ اللهِ هُوَ الهُدىٰ ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أهْواءهُم بَعْدَ الذي جاءكَ مِنَ العِلْمِ مالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيّ ولا نَصِير ﴾(٥) ، وقوله سبحانه : ﴿ ولَئِنْ أتَيْتَ الذين أوتوا الكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وما أنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ إنَّكَ إذاً لَمِنَ الظّالِمِين ﴾(٦) ، فالعقل

(١) الشاطبي ، الموافقات ١ : ٣٥ .
(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٣ : ٣٣٩ .
(٣) انظر : أبو زهرة ، أصول الفقه : ٧٤ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٢٠ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٤٥ .

البشري إما أن يُسدد بشرع الله فيهتدي ، وإما أن يُسيطر عليه الهوى فيُطغيه ، ولا يكاد يخرج الحال به عن شيء من ذلك ، قال تعالى : ﴿ لا إكْراهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ وَيُؤمِنْ باللهِ فَقَد اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَىٰ لا انْفِصامَ لَها واللهُ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ (١) .

وكل الذين نظروا في شريعة الله تعالى بمجرد عقولهم من أهل الكتاب ومن حذا حذوهم إنما أعملوا عقولاً سيطر عليها الهوى ، فأملت عليهم تحوير أحكام الله ومخالفتها على النحو الذي يتوافق وهواهم ، ومن شواهده عند أهل الكتاب دعواهم دخول الجنة حيث قالوا - فيما يحكيه القرآن عنهم - : ﴿ وقالوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَنْ كانَ هُوداً أو نَصارى ﴾ (٢) ، وتحريفُهم الشرائع المنزلة من الله تعالى على أنبيائهم ، ومنشأ ذلك كُلّه الهوى ، فالنفس البشرية تُحِبُّ النعيم وتكره العذاب ، ولذا خَصّوا أنفسهم بالجنة ، مع أن دخول الجنة يستلزم التمسك بشريعة الله ، إلا أن نفوسهم تلك تُحِبُّ التَفَلُّت من الأحكام وتكره الالتزام بها فحرفوها وفق ما تهوى أنفسهم . ثم اعتقدوا أنهم حازوا بذلك نعيم الدنيا والآخرة ، وواقع الحال أنهم ذهبوا بسخط الله في الدنيا ، وخزيه في الآخرة .

٢ - **الاعتراض على الخالق سبحانه** ، وهو مرتبط بالأمر المتقدِّم ، فكثيراً ما ينشأ الاعتراض عن الهوى وكراهية الالتزام بالشرع ، وربما نشأ عن غيره كسوء فهم ، أو قلة علم مصاحباً بالكفر أو ضعف اليقين .

وأوَّل من تَحَمَّل وزر ذلك إبليس لعنه اللهُ حين أبى السجود لآدم عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وإذْ قُلْنا لِلْمَلائكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إبْلِيسَ أبى واسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرين ﴾ (٣) ، وسبب استكباره أنه نظر بمجرد عقله في أمر الله تعالى له وللملائكة بالسجود لآدم ، فاستنتج بمقياسه العقلي تفضيل النار على الطين ؛ فاعترض على الأمر وأبى أن يسجد ، قال تعالى - فيما يحكي عنه - : ﴿ قال أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِنْ نارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْن ﴾ (٤) .

ثم فشا الاعتراضُ من بعدُ عند كثير من بني آدم ، ولعل أكثر الأمم اعتراضاً بنوإسرائيل ، وشواهد ذلك من القرآن الكريم كثيرة منها قصة تمليك طالوت ، إذْ لمّا بلّغهم نَبِيُّهُم أنّ الله تعالى ملّك عليهم طالوت اعترضوا وقالوا - فيما يحكيه القرآن عنهم - : ﴿ قالوا أنَّى يكونُ لهُ المُلْكُ عَلَينا ونَحْنُ أحَقُّ بالمُلْكِ مِنْهُ ولَمْ يُؤتَ سَعَةً مِنَ المال ﴾ (٥) ، فقد نظروا إلى الأمر بمجرد عقولهم وقاسوه بمقياسهم فلم يتقبلوه ، حيث اعتادوا أن يكون المَلِك ثرياً ومن سبط المُلْك فيهم . ولو أنّهم استحضروا عظمة الله تعالى وتدبّروا حكمةَ أمره لتقبَّلوه وانقادوا له .

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٥٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١١١ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٣٤ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٢ . وسورة ص ، آية : ٧٦ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٤٧ .

كما عُرف بالاعتراض على الخالق سبحانه بعض المنتسبين إلى الإسلام أمثال ابن الراوندي الذي اعترض على قَدَرِ الله تعالى في الأرزاق فقال[1] :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل		وترزق مجنوناً وترزق أحمقا
فلا ذنب يا ربِّ السماء على امرئ		رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا

وأبوعلي بن مُقْلَة الذي قال[2] :

أيا ربِّ تخلُق أقماراً بليل		وأغصان بانٍ وكُثبان رمل
وتُبدع في كل طرْفٍ بسحر		وفي كلِّ قدٍ وساقٍ بشكل
وتنهىٰ عبادَك أن يعشقوا		أيا حاكمَ العَدْل ذا حكم عدل ؟

ولِعِلْم الله تعالى بحال الإنسان وما يمكن أن يقع فيه لو وُكِل إلى عقله المجرد ، سَدَّ عليه منافذ الشيطان ، وأوجب عليه الانقياد والتسليم الكاملين فقال سبحانه : ﴿ وما كان لِمُؤمِنٍ ولامؤمِنَةٍ إذا قَضى الله وَرَسُوله أمراً أن يكونَ لهُم الخِيَرة من أمرهم ﴾[3] ، كما أغلظ النبي ﷺ لمن طرق هذا الباب وأراد الولوج فيه ، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها . فاختصموا إلى رسول الله ﷺ ، فقضى رسول الله ﷺ أنّ دية جنينها غرة : عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها ، وورَّثها ولدها ومن معهم .

فقال حَمَل بن النَّابِغَة الهُذلي : يا رسول الله ؛ كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهلّ ، فمثل ذلك يُطَلّ .

فقال رسول الله ﷺ : إنما هذا من إخوان الكهّان »[4] .

قال أهل العلم : « إنما ذُمَّ سجعه لوجهين : أحدهما أنه عارض به حكم الشرع ورام إبطاله . والثاني : أنه تكلّفه في مخاطبته »[5] .

ولذا شدّد العلماء رحمهم الله في النهي عن السؤال في الأحكام بـ(كيف) ، لما تحمله من معنى الاعتراض ، قال الإمام الشافعي رحمه الله حاكياً عمّن سأله في ردِّ الشاة المُصَرّاة على البائع فقال :

---

(١) انظر : ابن مفلح ، الآداب الشرعية ٢ : ١٩٣ .
(٢) انظر : المصدر السابق ٢ : ١٩٣ - ١٩٤ .
(٣) سورة الأحزاب ، آية : ٣٦ .
(٤) رواه الإمام مسلم في كتاب القسامة ، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني ، ح ٣٦ . الصحيح ٣ : ١٣٠٩ - ١٣١٠ .
(٥) النووي ، شرح صحيح مسلم ١١ : ١٧٨ . وانظر : الشوكاني ، نيل الأوطار ٧ : ٧١ - ٧٢ .

« كيف يردُّ صاعاً من تمرٍ ولا يردُّ ثَمَنَ اللَّبَن ؟ قلت : أَثَبَتَ هذا عن النبي ﷺ ؟ قال : نعم . قلت : ما ثَبَتَ عنه فليس فيه إلا التسليم . وقولك وقول غيرك فيه : لِم وكيف ، خطأ . وكيف ، إنما يكون لأقاويل الآدميين الذين قولهم تَبَع لا متبوع . ولو جاز في القول اللازم كيف حتّى يُحْمل على قياسٍ أو فطرة عقل لم يكن للقول غاية ينتهي إليها ، وإذا لم يكن له غاية ينتهي إليها سقط القياس »[1] .

وما ذلك التشديد إلا لما في الاعتراض من كفرٍ بالله تعالى ، واستعلاءٍ على أحكامه ، وتعطيلٍ لشريعته .

ثانياً : التوقف عن طلب العلوم المستورة :

أنعم الله تعالى على الإنسان بجميع العلوم اللازمة له لصلاح معاشه ومعاده . وهذه العلوم – مع وفائها بحاجة الإنسان – قليلة إلى جانب علم الله تعالى حيث قال سبحانه : ﴿ وما أوتِيتُمْ مِنَ العِلْم إلا قَلِيلاً ﴾[2] .

وكما تُبَيِّن الآية قِلّة علم الإنسان ، فإنها تُشْعِر بأن علوماً كثيرة استأثر الله تعالى بعلمها وحجبها عنه ، لعلمه سبحانه أن الناس ليسوا بحاجة إليها ، وقد لا يطيقون تحملها لو كشف لهم عن شيء منها .

ولذا فمن جميل الشكر وحسن الأدب مع الله تعالى أن يَقْنَع الإنسان بما وهبه الله تعالى من علوم ، وألا يجهد عقله ويذهب عمره في الاشتغال بالبحث عما حُجِب عنه ، فإنه إن فعل ذلك عجز عن إدراكها ، وقصَّر فيما كُلِّف به .

وعلم (الماهيات) واحدٌ من العلوم التي قرر بعض العلماء ومنهم الشاطبي رحمه الله تعالى أنها مستورة استأثر الله بها ، حيث قال : « ماهيات الأشياء لا يعرفها على الحقيقة إلا باريها ، فتسوُّر الإنسان على معرفتها رميٌ في عَماية »[3] .

وأصل اشتقاق هذه التسمية من : ما هو ؟ أو : ما هي ؟ جعلت الكلمتان كالكلمة الواحدة[4] واستخدمت في اصطلاح فسّره أهل المنطق بأنّه « جوهر الشيء » ، وهو بهذا المعنى مما لم يقصد الشارع إليه ، ولا كلّف به ، ولا وجَّه إلى معرفته[5] .

---

(١) الخطيب ، الفقيه والمتفقه ١ : ٢٢٨ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٨٥ .
(٣) الشاطبي ، الموافقات ١ : ٥٨ .
(٤) انظر : الجرجاني ، التعريفات : ١٩٥ .
(٥) انظر : الشاطبي ، الموافقات ١ : ٥٧ .

والمنهج القرآني الكريم يرشد المسلمين إلى ترك الاشتغال بالماهيات ، لما قد يترتب عليها من أضرار شرعية تفوق - على سبيل الافتراض - الفائدة المرجوَّة منها عند الوقوف عليها . ففي قصة البقرة أعرض سبحانه وتعالى عن إجابة بني إسرائيل حين سألوا عن (ماهية البقرة) في موضعين ، قال تعالى - حاكياً تساؤلهم في الموضع الأول - : ﴿ قالوا ادْعُ لنا رَبَّك يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ ﴾ (١) ، فوقع الجواب عن الصفات والأعراض التي يسهل التعرف عليها ، فقال سبحانه : ﴿ قال إنَّهُ يَقُولُ إنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك فافْعَلُوا ما تُؤْمَرُون ﴾ (٢) ، وقال تعالى - حاكياً تساؤلهم في الموضع الثاني - : ﴿ قالوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إنَّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وإنّا إنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُون ﴾ (٣) ، فأعرض سبحانه هنا عنهم أيضاً ، وأجابهم بصفات أخرى فقال : ﴿ قال إنَّهُ يَقُول إنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرْضَ ولا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فيها ﴾ (٤) .

كما أعرض سبحانه عمّن سأل عن ماهية (الرُّوح) ، بل ولم يذكر شيئاً من صفاتها ، قال تعالى : ﴿ يَسْألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبّي وَما أوتِيتُمْ مِنَ العِلْم إلا قَلِيلا ﴾ (٥) .

وسبب نزول الآية أن يهود المدينة أرادوا اختبار نبوّة النبي ﷺ بها ، فأشاروا على وفد قريش بسؤاله عن ذلك ، وقيل : بل هم سألوه ذلك في المدينة (٦) .

والسؤال متّجه هنا - عند جمهور المفسّرين - إلى « الأرواح التي في الأشخاص الحيوانية ، ماهي ؟ » (٧) ، قال ابن عطية : « وهذا هو الصواب » (٨) . ويؤيده ظاهر الردّ حيث قال سبحانه : ﴿ قُل الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبّي وَما أوتِيتُمْ مِنَ العِلْم إلا قَلِيلا ﴾ ، والمعنى : « أي الروح من جملة العلوم التي استأثر الله بعلمها » (٩) . وقال ابن الجوزي : « قال أبوسليمان الدمشقي : قد ذكر الله تعالى الروح في مواضع من القرآن ، فغالب ظني أن الناقلين نقلوا تفسيره من موضعه إلى موضع لا يليق به وظنّوه مثله ، وإنما هو الروح الذي يحيى به ابن آدم » (١٠) .

ومادامت الحياة مرتبطة بالروح ؛ والروح من علم الله تعالى الذي استأثر به ؛ فإن من المحال أن يتوصل الإنسان إلى سرّها وما هيتها ، ومن ثم فهو أعجز من أن يقدر على إعادة الحياة لمن

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٦٨ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٦٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٧٠ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٧١ .
(٥) سورة الإسراء ، آية : ٨٥ .
(٦) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٩ : ١٨٠ . وابن الجوزي ، زاد المسير ٥ : ٨٢ .
(٧) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٩ : ١٨٠ .
(٨) المصدر السابق .
(٩) المصدر السابق . وانظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ٥ : ٨٢ .
(١٠) ابن الجوزي ، زاد المسير ٥ : ٨٢ .

فارقت روحه جسده ، وأي سعيٍ في ذلك ضربٌ من العبث [1] . فسبب العلم بها محجوب ، والإحياء والإماتة شأنٌ لله تعالى وحده ، وإنما أجرى سبحانه الإحياء على يد عيسى عليه السلام معجزة له ، وسيجريه على يد الدجّال استدراجاً له .

وتجدر الإشارة إلى ضرورة التفريق بين الماهيات وبين مركّبات الشيء وجزيئاته ، فالجزيئات داخلة في إطار الممكن إدراكه والتعرُّف عليه لمن يسّر الله له ذلك . وأما الماهيات فقد احتفظ الله سبحانه بسبب معرفتها ولذا كما تقدم في كلام الشاطبي فإنه لا يعرفها على الحقيقة إلا باريها .

وينقاس على الماهية أمران هما :

١ - قضايا غيبية تحدّث الخطاب الشرعي عن شيءٍ منها على سبيل التعليم ، أو التحذير والتنبيه ، كما ورد في عرش إبليس عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أنه قال : « سمعت النبي ﷺ يقول : إن عرش إبليس على البحر ، فيبعث سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة » [2] ، وما ورد في صفة الدجال والتحذير من فتنته ، وأن نفراً من قوم تميم الداري رضي الله عنه رأوه في جزيرةٍ بالبحر موثوقاً [3] ، فهذه الأمور وأمثالها مما قصد الشارع إلى بيانها لمصلحة دينية .

وأما إشغال الوقت والعقول بتحديد مكان عرش إبليس ، وادعاء الأدلة القاطعة على أنه في (مثلث برمودا) فذلك مما لا فائدة فيه ، ولم يقصد إليه الشرع ولا كلّف به . ومثله الاشتغال بتحديد عُمُر الدجال ، والجزم أيضاً بأن مكانه (مثلث برمودا) .

فمثل ذلك كما أنه إهدار للوقت بما لا طائل منه ، فإنه إعمال للعقل فيما أخفاه الله تعالى عن البشر ، ولم يعطهم سببا للتعرف إليه ، فتبقى المقولات في ذلك ظنية محتملة لا تستند إلى دليل شرعي ، أو استنتاج عقلي سليم ، أو دليل حسي مشتهر .

٢ - قضايا خارجة عن إرادة البشر ، فالله تعالى أودع في الإنسان إرادة خاصة به ، ووضع لها ضوابط ومعايير تسددها وتقوّمها حتى لا يسترسل في طلب ما ليس له . فما كل ما يطلبه الإنسان

---

(١) نشرت (مجلة الشرق الأوسط عدد رقم ٥٦٠ وتاريخ ١٩ - ٢٥ مارس ١٩٩٧م) مقالة عن شركة أمريكية تعمل على تجميد الإنسان بعد وفاته مباشرة ، وحفظه مبرداً بعد فصل الرأس عن الجسد بمادة النيتروجين ، للعمل على إعادة الحياة له بعد ذلك ، أو استنساخ جسد آخر لهذا الشخص وتركيب الرأس عليه . وعقبت عليه بمقابلة مع الدكتور يوسف القرضاوي وسؤاله عن هذا الموضوع فأفتى بحرمته .

(٢) رواه الإمام مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، ح ٦٦ (٢٨١٣) . الصحيح ٤ : ٢١٦٧ .

(٣) انظر الحديث في صحيح مسلم ٤ : ٢٢٦١ - ٢٢٦٤ في كتاب الفتن ، باب قصة الجساسة ، ح ١١٩ (٢٩٤٢) .

داخل في إرادته حتى وإن كان شريفاً . فالله تعالى نبه أنبيائه الكرام إلى أن الهداية والمغفرة من شأنه وحده ، ففي جانب الهداية قال تعالى مخاطباً النبي ﷺ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُم وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاء ﴾ (١) . فالنبي ﷺ لا يملك هداية قومه ، وإكراههم على إظهارها لا ينفعهم ، لأنّه لا بدّ من تحققها في القلوب على سبيل التطوع والاختيار ، وهذا لا يكون إلا بإرادة الله تعالى وتوفيقه .

ومن هنا جاءت الآيات الكريمة مثبتة قلب النبي ﷺ ببيان ما يقدر على فعله كما قال تعالى : ﴿ إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ (٢) ، وقال سبحانه : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ (٣) .

وفي جانب المغفرة ، نُهي نوحٌ عليه الصلاة والسلام عن طلب المغفرة لابنه ، قال تعالى : ﴿ ونادى نوحٌ ربّه فَقالَ رَبِّ إنَّ ابْني مِنْ أهْلِي وإنَّ وَعْدَكَ الحَقّ وأنْتَ أحْكَمُ الحَاكِمِين ★ قال يا نُوحُ إنَّه لَيْسَ مِنْ أهْلك إنَّه عَمَلٌ غَيْرُ صالح فلا تَسْألْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنّي أعِظُكَ أنْ تَكُونَ مِنَ الجاهِلِين ★ قال رَبِّ إنّي أعُوذُ بِكَ أنْ أسْألَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وإلا تَغْفِرْ لي وتَرْحَمْني أكُنْ مِنَ الخاسِرِين ﴾ (٤) ، ولم يؤذن للنبي ﷺ أن يستغفر لأبويه ، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « زار النبي ﷺ قبر أمّه ، فبكى وأبكى من حوله . فقال : استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي . فزوروا القبور فإنها تذكّر الموت » (٥) .

وخلاصة الأمر أن ليس للمرء أن يشتغل بما يخرج عن إرادته وبخاصة ما اختصّ الله تعالى به لنفسه ، ولم يُعْطِ أحداً القدرة عليه ، فالعقل أعجز من أن يصل إلى أمر مُنِعَ أسبابه .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .
(٢) سورة هود ، آية : ١٢ .
(٣) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .
(٤) سورة هود ، آية : ٤٥ - ٤٧ .
(٥) رواه الإمام مسلم في كتاب الجنائز ، باب استئذان النبي ﷺ ربّه عزّوجل في زيارة قبر أمّه ، ح ١٠٨ . الصحيح ٢ : ٦٧١ .

المبحث الثالث

توفر الشروط اللازمة للتأويل

تعريف التأويل :

التأويل في اللغة من آلَ الشيء يؤول أوْلاً ومآلاً ، وهو الرُّجوع . وأوَّلَ الكلام وتأوَّله : دبَّره وقدَّره ، وأوَّله وتأوَّله : فسَّره [١] .

وأما اصطلاحاً فهو بحسب استعمالات الناس له على ثلاثة معان هي :

الأول : يراد بالتأويل : « الحقيقة التي يؤول إليها الكلام » [٢] ، وبه فسّر شيخ الإسلام ابن تيمية التأويل في قوله تعالى : ﴿ هلْ يَنْظُرُونَ إلا تأوِيلَهُ يَوْمَ يأتي تأوِيلُه يَقُولُ الذينَ نَسُوه من قَبْلُ قَدْ جاءتْ رُسُلُ رَبِّنا بالحقِّ ﴾ [٣] ، حيث قال : « فتأويل ما في القرآن من أخبار المعاد ؛ هو ما أخبر الله به مما يكون من القيامة والحساب والجزاء والجنّة والنّار ،ونحو ذلك . وهذا هو عين ما هو موجود في الخارج . ومنه قول عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي . يتأوَّل القرآن » [٤] ، تعني قول الله تعالى : ﴿ فسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْه ﴾ » [٥] .

والثاني : بمعنى التفسير ، وهو مذهب أهل اللغة ، وجمهور المتقدمين من أهل التفسير [٦] ، حيث قال أبوالعباس المبرِّد : « التأويل والمعنى والتفسير واحد » [٧] . ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله عزّ وجل ، فمن ادعى علمه فقد كذب » [٨] .

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ١١ : ٣٢ - ٣٣ مادة « أول » . وابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ١ : ١٥٩ .
(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٣ : ٥٦ . وذكر التعريف في موضع آخر بلفظ : « الموجود الذي يؤول إليه الكلام » [مجموع الفتاوى ١٧ : ٣٦٨] .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ٥٣ .
(٤) رواه الإمام مسلم في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ، ح (٢١٧ (٤٨٤) . الصحيح ١ : ٣٥٠ .
(٥) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٣ : ٥٦ ، والآية في سورة النصر ، رقم ٣ .
(٦) انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٤ .
(٧) ابن منظور ، لسان العرب ١١ : ٣٣ مادة « أول » .
(٨) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٥ : ٣٧ .

فيُعَرَّف على هذا الوجه بأنه - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - : « الكلام الذي يفسِّر به اللفظ حتى يُفهَم معناه ، أو تُعرَف علته أو دليله »(١) .

والثالث : التأويل غير التفسير ، وهو مذهب أهل الفقه وأصوله ، حيث قالوا : « التفسير إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلي . والتأويل نقل الكلام عن وضعه فيما يحتاج إليه في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ »(٢) .

ومما جاء من التعاريف موافقاً لهذا المعنى :

١ - قول الجرجاني : « التأويل صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً الكتابَ والسُّنَّة »(٣) .

٢ - وقول الجويني : « التأويل ردُّ الظاهر إلى ما إليه مآله في دعوى المؤوِّل »(٤) .

٣ - وقيل : « صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية »(٥) .

موقف العلماء من التأويل :

التأويل بالمعنى الأول من الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى ، وكذا الصفات ، حيث تفرد الله سبحانه بعلم حقيقتها وكيفيتها ، ومما يدل على بطلان تأويلها « أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها ، ولم يتعرضوا لتأويلها ، ولا صرفوها عن ظاهرها ، فلو كان التأويل سائغاً لكانوا أسبق إليه لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة »(٦) .

كما تواترت عبارات العلماء في النهي عن تأويل آيات الصفات ، فيروى أن رجلاً سأل الإمام مالك بن أنس رحمه الله عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ على العَرْشِ اسْتَوىٰ ﴾(٧) قال : كيف استوى ؟ فأطرق مالك رأسه ملياً وعلاه الرحضاء ، ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعه ، وما أراك إلا ضالاً ، ثم أمر به فأخرج »(٨) .

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٣ : ٥٥ - ٥٦ .
(٢) ابن الجوزي ، زاد المسير ١ : ٤ .
(٣) الجرجاني ، التعريفات : ٥٠ .
(٤) الجويني ، البرهان في أصول الفقه ١ : ٥١١ .
(٥) السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ٢ : ٢٢٢ .
(٦) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٥ : ٩٠ .
(٧) سورة طه ، آية : ٥ .
(٨) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ١٦ : ٤٠٠ .

وكان جِلّة علماء السلف أمثال سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبدالله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهم من التابعين يقولون في آيات الصفات : « أمروها كما جاءت بلا كيف » (١) .

وأما ما ذكره القاضي أبويعلى الموصلي عن الإمام أحمد في المناظرة يوم المحنة أنه أوّل المجيء في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلا أنْ يأتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ من الغَمام والملائكَةُ وقُضِيَ الأمرُ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمُور ﴾ (٢) قال : المراد به قدرته وأمره . فقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية ثلاثة أقوال في الردّ عليه هي :

١ - أن هذا مما انفرد بنقله حنبلٌ دون غيره من رواة المناظرة ، قال ابن تيمية : « وحنبل ينفرد بروايات يغلطه فيها طائفة كالخلال وصاحبه ، قال أبو إسحاق بن شاقلا : هذا غلط من حنبل لاشك فيه » (٣) .

٢ - أن الإمام أحمد « قاله إلزامًا للخصم على مذهبه ، لأنهم في يوم المحنة لمّا احتجّوا عليه بقوله : « تأتي البقرة وآل عمران » (٤) أجابهم بأن معناه : يأتي ثواب البقرة وآل عمران ، كقوله : ﴿ أنْ يأتِيَهُمُ اللهُ ﴾ أي : أمرُه وقدرته ، على تأويلهم ، لا أنّه يقول بذلك ، فإن مذهبه ترك التأويل » (٥) .

٣ - أن هذه رواية عن الإمام أحمد . ولكن المشهور المتواتر عنه ردّ التأويل ، وهو المعتمد في مذهبه (٦) .

بل وعامة كلام الأئمة في المنع من هذا التأويل والتحذير منه ، يقول الإمام الجويني : « وقد درج صحب رسول الله ﷺ على تَرْكِ التعرض لمعانيها ودَرْكِ ما فيها ، وهم صفوة الإسلام والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة، والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون منها ، فلو كان تأويل هذه الآي الظواهر مسوَّغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين رضي الله عنهم على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتَّبع بحقّ ، فعلى ذي الدين أن يعتقد تنزيه

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ١٦ : ٤٠١ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢١٠ .
(٣) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ١٦ : ٤٠٥ .
(٤) رواه الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ، ح ٢٥٢ (٨٠٤) ولفظه : « اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ ، تحاجّان عن أصحابها » [الصحيح ١ : ٥٥٣] .
(٥) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ١٦ : ٤٠٦ .
(٦) انظر : المصدر السابق ١٦ : ٤٠٦ .

الرب عن صفات المحدثين ، ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكل معناها إلى الرب تعالى »[1] .

والتأويل الذي يراد به التفسير لا شك بأن النبي ﷺ يعلمه لقوله تعالى : ﴿ وأنْزَلْنا إليكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهم ﴾[2] ، وكذا الراسخون في العلم ، يقول ابن تيمية : « وهذا التأويل يعلمه الراسخون في العلم ، وهو موافق لوَقْفِ مَنْ وقَف من السلف على قوله : ﴿ وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ والرّاسِخُونَ في العِلْمِ ﴾[3] ، كما نُقِل ذلك عن ابن عباس ومجاهد ومحمد بن جعفر بن الزبير ومحمد بن إسحاق وابن قتيبة وغيرهم »[4] .

وقد اشتبه الأمر على جماعة من الناس فخلطوا بين التأويل المذموم الذي ردّه العلماء ، وبَيْنَ هذا التأويل الذي يراد به معرفة المعاني والدلائل ، وبلغ الأمر بهم أن قالوا : « إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات ، ولا جبريل يعرف معاني الآيات ، ولا السابقون الأوّلون عرفوا ذلك »[5] ، وحاشا لله أن يكون الرسول ﷺ – وهو المُبَيِّن عن ربّه – لا يفهم معنى ما يقول ويبلّغ ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « فهؤلاء يظنّون أنهم اتبعوا قوله تعالى : ﴿ وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ ﴾ ، فإنّه وَقَفَ أكثرُ السلف على قوله : ﴿ وما يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ ﴾ ، وهو وقْفٌ صحيح، ولكن لم يفرّقوا بين معنى الكلام وتفسيره وبين التأويل الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، وظنوا أن التأويل المذكور في كلام الله تعالى هو التأويل المذكور في كلام المتأخرين ، وغلطوا في ذلك »[6] .

وأما التأويل على مذهب الأصوليين من الفقهاء ، فإن المتأمل فيه يجد أن المحققين الموثّقين من أهل العلم لم يأخذوا فيه إلا عن الجهابذة الراسخين في العلم ، الذين انصب تأويلهم على النصوص الشرعية ، تحريراً للمعاني ، واستنباطاً للعلل والقواعد الشرعية .

وقد عُرِف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يسأل عن دقيق المعاني وبواطنها ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأنّ بعضَهم وجد في نفسه فقال : لم تُدْخِل هذا معنا ولنا أبناء مثلُه ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم .

(١) الجويني ، العقيدة النظامية : ٢٣ – ٢٤ . وانظر : ابن القيم ، إعلام الموقعين ٤ : ٢٤٦ .
(٢) سورة النحل ، آية : ٤٤ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٧ .
(٤) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٥ : ٣٥ – ٣٦ .
(٥) المصدر السابق ٥ : ٣٤ .
(٦) المصدر السابق ٥ : ٣٥ .

فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رئيتُ أنه دعاني يومئذٍ إلا ليُريهم . قال : ما تقولون في قول الله تعالى : ﴿ إذا جاء نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ ﴾؟ فقال بعضهم : أمِرْنا نَحمدُ الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً . فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ - وذلك علامة أجلك - ﴿ فسبّح بحمد رَبّكَ واسْتَغفِرْه إنّهُ كان تَوّابا ﴾ فقال عمر : ما أعلمُ منها إلا ما تقول »(1) .

فهذا تأويل باطن الآية الموافق لظاهرها استدلالاً على الشيء بملزوماته ، فالنبي ﷺ أمر بالاستغفار عند ظهور الدِّين ، والاستغفار مأمورٌ به عند ختام الأعمال ، وبظهور الدين حصل مقصود الرسالة ، فعُلِم من ذلك أنه إعلام بقُرْب الأجل(2) .

ومن البوعث على هذا التأويل إعمال النصوص ، والتوفيق بينها ، ولذا تجد من أبواب التأويل عند الأصوليين : **تخصيص العام** ، مثل قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا لا تأكُلُوا أمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطِلِ إلا أنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُم ﴾(3) ، حيث خُصِّص عام التجارة بالنهي عن تلقّي الجلب(4) . **وتقييد المطلق** ، مثل قوله تعالى : ﴿ إنّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ ولَحْمَ الخِنْزِيرِ ﴾(5) ، حيث قُيِّد الدم المطلق بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ لا أجِدُ فِيما أوحِيَ إليَّ مُحَرَّما على طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلا أنْ يَكُونَ مَيْتَةً أو دَماً مَسْفُوحاً أو لَحْمَ خِنْزِير ﴾(6) .

ويتقرر مما تقدم أن التأويل المذموم الباطل هو تأويل أهل التحريف والبدع والاعتقادات الفاسدة ، وعلماء السلف متفقون على ردّه والمنع منه ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ولهذا كان الإمام أحمد وغيره ينكرون على الجهمية وأمثالهم من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه تأويل ما تشابه عليهم من القرآن على غير تأويله » قال : « وذمّهم على أنهم تأوّلوه على غير تأويله ، ولم يَنْف مطلق لفظ التأويل كما تقدم من أن لفظ التأويل يراد به التفسير المبين لمراد الله به ، فذلك لايعاب بل يُحمد . ويراد بالتأويل الحقيقة التي استأثر بعلمها، فذلك لا يعلمه إلا هو »(7) .

---

(1) رواه الإمام البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إنّهُ كان تَوّابا ﴾ ، ح ٤٩٧٠ . الصحيح ٣ : ٣٣٢ .
(2) انظر : ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ١٦ : ٤١٨ .
(3) سورة النساء ، آية : ٢٩ .
(4) انظر الحديث عند الإمام مسلم في كتاب البيوع ، باب تحريم تلقي الجلب ، ح ١٦(١٥١٩) . الصحيح ٣ : ١١٥٧ . وانظر : أبوزهره ، أصول الفقه : ١٣٧ .
(5) سورة البقرة ، آية ١٧٣ .
(6) سورة الأنعام ، آية : ١٤٥ . وانظر : أبو زهرة ، أصول الفقه : ١٣٧ - ١٣٨ .
(7) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ٣ : ٦٦ .

كما أنه سبب لافتراق الأمة ، والصدّ عن دين الله ، بطمس الحقّ ، والتلبيس على الناس ، والكذب على الله ورسوله . وكلما ساء القصد وقَصُر الفهم كان التأويل أشدّ انحرافاً وضرراً ، يقول ابن القيم : « فأصل خراب الدين والدنيا إنما هو من التأويل الذي لم يرده الله ورسوله بكلامه ، ولا دلّ عليه أنه مراده. وهل اختلفت الأمم على أنبيائها إلا بالتأويل ؟ وهل وقعت في الأمة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل؟ فمن بابه دخل إليها . وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل ؟

وليس هذا مختصاً بدين الإسلام فقط ، بل سائر أديان الرسل لم تزل على الاستقامة والسداد حتى دخلها التأويل ، فدخل عليها من الفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد »[1] .

فأهل الكتاب أفسدوا ملّتهم بما تطرّقوا إليها من التأويلات والتحريفات . ولما بعث النبي ﷺ سلّطوا تأويلاتهم على البشارات فأفسدوها بالتحريف والتبديل والكتمان . قال سبحانه وتعالى في حقهم : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ★ وإذا لَقُوا الذين آمَنُوا قالوا آمنّا وإذا خلا بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ قالوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِما فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُم لِيُحاجّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أفلا تَعْقِلُونَ ﴾[2] .

وما عدا ذلك من أبواب التأويل فمقبول لدى العلماء بشروط محددة ، مع أن شيخ الإسلام ابن تيمية له مأخذ على مذهب المتأخرين من الفقهاء ، إلا أن لُبَّ انتقاده ينحصر في تأويلات أهل البدع والمعتقدات المنحرفة لا الأصوليين من الفقهاء ، حيث قال : « وأما التأويل بالمعنى الثالث وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح ؛ فهذا الاصطلاح لم يكن بعد عرف في عهد الصحابة ، بل ولا التابعين ، بل ولا الأئمة الأربعة ، ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفاً في القرون الثلاثة ، بل ولا علمت أحداً منهم خصّ لفظ التأويل بهذا . ولكن لمّا صار تخصيص لفظ التأويل بهذا شائعاً في عرف كثير من المتأخرين ، فظنوا أن التأويل في الآية هذا معناه ، صاروا يعتقدون أن لمتشابه القرآن معاني تخالف ما يفهم منه ، وفرقوا دينهم بعد ذلك وصاروا شيعاً . والمتشابه المذكور الذي كان سبب نزول الآية لا يدل ظاهره على معنى فاسد ، وإنما الخطأ في فهم السامع .

نعم قد يقال : إن مجرد هذا الخطاب لا يبين كمال المطلوب ، ولكن فرق بين عدم دلالته على المطلوب ، وبين دلالته على نقيض المطلوب . فهذا الثاني هو المنفي ، بل وليس في القرآن

---

(١) ابن القيم ، إعلام الموقعين ٤ : ٢٥٠ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٧٥ .

مايدلّ على الباطل البتة »[١] .

وبالتأمل في منهج علماء أصول الفقه يظهر بجلاء توسط مذهبهم في التأويل ، فلم يغرقوا فيه ويسلكوا مسلك أهل البدع والمذاهب المنحرفة الذين يتوجه إليهم نقد شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولم يغلقوا باب التأويل بالكلية .

ويلخص الشيخ عبدالوهاب خلاف ذلك المنهج بقوله : « وإغلاق باب التأويل كله ، والأخذ بالظاهر دائما ، كما هو مذهب الظاهرية ؛ قد يؤدي إلى البعد عن روح التشريع ، والخروج عن أصوله العامة ، وإظهار النصوص متخالفة .

وفتح باب التأويل على مصراعيه بدون حذر واحتياط ؛ قد يؤدي إلى الزلل والعبث بالنصوص ومتابعة الأهواء .

والحق هو في احتمال التأويل الصحيح ، وهو ما دلّ عليه دليل من نصّ أو قياس أو أصول عامّة ، ولا يأباه اللفظ ، بل يحتمل الدلالة عليه بطريق الحقيقة والمجاز ، ولم يعارض نصاً صريحاً »[٢] .

شروط التأويل :

يمكن تقسيم شروط التأويل إلى قسمين : الأول يتعلق بالمؤوّل ، والثاني بالنص المؤوّل .

أولاً : شروط المؤوّل :

يُحَدِّدُ قولُه تعالى : ﴿ وما يَعْلَمُ تأوِيلَهُ إلا اللهُ والرّاسِخُونَ في العِلْمِ ﴾[٣] شرطاً من شروط التأويل هو **الرسوخ في العلم** ، ومن علائم الرسوخ في العلم توفر غالب شروط المجتهد أو المفتي فيه ، وهي كما عددها العلماء[٤] :

---

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ١٧ : ٤٠١ .

(٢) خلاف ، علم أصول الفقه : ١٦٦ .

(٣) سورة آل عمران ، آية : ٧ .

(٤) انظر : الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ١٥٦ . والجويني ، البرهان في أصول الفقه ٢ : ١٣٣٠ - ١٣٣٣ . والشهرستاني ، الملل والنحل ١ : ٢٠٠ . والرازي ، المحصول ٢ : ٣ : ٣٠ - ٣٦ . وابن النجار ، شرح الكوكب المنير ٤ : ٤٥٩ - ٤٦٧ . وخلاف ، علم أصول الفقه : ٢١٨ - ٢١٩ . والبرديسي ، أصول الفقه : ٤٦٧ - ٤٧٢ .

١ - العلم باللغة العربية ، ومعرفة آداب العرب ، وأساليبها ، ومواقع كلامها ، والتمييز بين الألفاظ الوضعية والاستعارية ، والنص والظاهر ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمفصل ، وفحوى الخطاب ، ومفهوم الكلام ، وما يدعل على مفهومه بالمطابقة ، وما يدل بالتضمن ، وما يدل بالاستتباع . فهذه علومُ آلة مَن لم يُحكِمها لم يُحكِم الصنعة .

٢ - العلم بكتاب الله ، وبخاصة آيات الأحكام ، يقول ابن النجار : « وليس المراد بعلمه بذلك حفظَه ، بل المراد أن يكون بحيثُ يمكنُه استحضاره للاحتجاج به »[(١)] ، مع معرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، « ولا يشترط أن يعرف جميع الناسخ والمنسوخ في جميع المواضع »[(٢)] .

٣ - العلم بالسنة المشرَّفة ، متونِها وأسانيدِها ، وأحوال رواتها ، ليَميز الصحيح من الضعيف ، « ولو كان علمه بذلك تقليداً ، كنقله من كتابٍ صحيحٍ من كتب الحديث المنسوبة لأئمته كمالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبي داود والدارقطني والترمذي والحاكم وغيرهم ، لأنهم أهل المعرفة بذلك ، فجاز الأخذ بقولهم ، كما يؤخذ بقول المُقَوِّمين في القِيَم »[(٣)] .

٤ - العلم بأصول الفقه ، ليتبين مراتب الأدلة ، وطرق الاستدلال والاستنباط . « ويتضمن ذلك أن يكون عنده سجية وقوة يقتدر بها على التصرف بالجمع والتفريق ، والترتيب ، والتصحيح، والإفساد ، فإن ذلك ملاك صناعة الفقه »[(٤)] .

٥ - معرفة مواقع الإجماع ، حتى لا يفتي بخلاف ما أُجْمِع عليه ، فيكون خرقاً للإجماع .

٦ - العلم بالقياس ، والاهتداء لمواضعه ، وكيفية التردد فيها .

والشرط الآخر من شروط المؤَوِّل هو **سلامة الاعتقاد** ، فلا يؤخذ التأويل عن مبتدع ولا ذي اعتقاد فاسد ، إذ الراجح في مثل حاله عدم التورع عن التأويلات الفاسدة لموافقة نحلته وهواه ، يقول ابن تيمية : « ولكن كثيراً من الناس يزعم أن لظاهر الآية معنى ، إما معنى يعتقده ، وإما معنى باطلاً فيحتاج إلى تأويله . ويكون ما قاله باطلاً لا تدل الآية على معتقده ، ولا على المعنى الباطل ، وهذا كثير جداً ، وهؤلاء هم الذين يجعلون القرآن كثيراً ما يحتاج إلى التأويل

---

(١) ابن النجار ، شرح الكوكب المنير ٤ : ٤٦١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ٤ : ٤٦٢ .
(٤) المصدر السابق ٤ : ٤٦٠ .

المحدث، وهو صرف اللفظ عن مدلوله إلى خلاف مدلوله »[1] .

ثانيًا : شروط التأويل :

من أبرز ما ذكره الأصوليون في شروط التأويل ما يأتي[2] :

١ - أن يكون المؤوَّل محتملاً للتأويل .

والذي يحتمل التأويل من ظاهر الدِّلالة : **الظاهر** ، وهو « ما دلّ على المراد منه بنفس صيغته من غير توقف فهم المراد منه على أمر خارجي ، ولم يكن المراد منه هو المقصود أصالة من السياق »[3] . وحكمه : وجوب العمل بما ظهر منه ما لم يقم دليل يقتضي العمل بغير ظاهره ، لأن الأصل عدم صرف اللفظ عن ظاهره إلا إذا اقتضى ذلك دليل[4] .

وأما **النصّ** ، وهو : « هو ما دلّ بنفس صيغته على المعنى المقصود أصالة من سياقه ويحتمل التأويل »[5] . وخالف الجويني في احتماله التأويل فذهب إلى أنّه لا يحتمله[6] . وحكمه وجوب العمل بما نصٌّ عليه ، إلا أن يقوم دليل صحيح على نسخه أو إراده معنى آخر خلاف ما نَصَّ عليه .

وما لا يحتمل التأويل من ظاهر الدِّلالة : **المفسَّر** ، وهو « مادلَّ بنفسه على معناه المفصل تفصيلاً لا يبقى معه احتمال للتأويل »[7] . ويجب العمل به - إذا لم يكن منسوخاً - ولا يحتمل أن يصرف عن ظاهره[8] ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وأتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لله فإنْ أُحْصِرْتُمْ فَما اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ ولا تَحْلِقُوا رُؤوسَكُم حَتَّىٰ يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّه فَمَنْ كان مِنْكُمْ مَرِيضاً أو بِهِ أذىً مِنْ رأسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أو صَدَقَةٍ أو نُسُكٍ فإذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بالعُمْرَةِ إلى الحَجِّ فَما اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ فَمَنْ لم يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أيّامٍ في الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلكَ لِمَنْ لم يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِري المَسْجِدِ الحَرام واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقاب ﴾[9] .

(١) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ١٧ : ٤٠١ .
(٢) انظر : الجويني ، البرهان في أصول الفقه ١ : ٥٤٥ - ٥٦١ . والشاطبي ، الموافقات ٣ : ٩٩ - ١٠٢ . وخلاف ، علم أصول الفقه ١٦٤ . وأبو زهرة ، أصول الفقه : ١٣٥ - ١٣٦ . والبرديسي ، أصول الفقه : ٣٨٩ . وزيدان ، الوجيز في أصول الفقه : ٣٤١ .
(٣) خلاف ، علم أصول الفقه : ١٦٢ . وانظر : الفرّاء ، العدّة في أصول الفقه ١ : ١٤٠ . وشهاب الدين الحنبلي ، المسوّدة في أصول الفقه : ٥٧٤ . وزيدان ، الوجيز في أصول الفقه ٣٣٨ .
(٤) انظر : خلاف ، علم أصول الفقه : ١٦٢ . والبرديسي ، أصول الفقه ٣٨٦ .
(٥) خلاف ، علم أصول الفقه : ١٦٣ . وانظر : الفرّاء ، العدّة في أصول الفقه ١ : ١٣٨ . وزيدان ، الوجيز في أصول الفقه : ٣٤٠ .
(٦) انظر : الجويني ، البرهان في أصول الفقه ١ : ٥١٢ .
(٧) خلاف ، علم أصول الفقه : ١٦٦ . وانظر : الفرّاء ، العدّة في أصول الفقه ١ : ١٥١ . وزيدان ، الوجيز في أصول الفقه : ٣٤٣ .
(٨) انظر : خلاف ، علم أصول الفقه : ١٦٧ . والبرديسي ، أصول الفقه : ٣٨٤ .
(٩) سورة البقرة ، آية : ١٩٦ .

والمحكم ، وهو « مادلَّ على معناه الذي لا يقبل إبطالاً ولا تبديلاً بنفسه دلالة واضحة لايبقى معها احتمال للتأويل » (١) . ولا يقبل هذا الصنف من الأدلة النسخ ، لأن الحكم المستفاد منه من قواعد الدين ، كالإيمان بالله تعالى ، مثل قوله سبحانه : ﴿ يا أيها النّاس اعْبُدوا ربّكم الذي خلقكم والذين مِنْ قَبْلِكم لعلّكم تتّقون ﴾ (٢) ، ووجوب الصلاة والزكاة ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وأقِيمُوا الصّلاةَ وآتُوا الزّكاةَ وارْكَعُوا مَعَ الرّاكِعِين ﴾ (٣) ... ونحو ذلك .

٢ - أن يقوم دليل صحيح على التأويل .

واشتُرِط في هذا الدليل الذي هو سند التأويل أن يكون زائداً في الظهور على المؤوَّل . فإن كان المؤوَّل أظهر فالتأويل مردود ، وإن استويا وقع ذلك في رتبة التعارض ، فإن كانت مرتبة المؤوَّل مقدَّمة فالتأويل مردود (٤) .

٣ - أن يكون اللفظ محتملاً للمعنى الذي يؤوّل إليه .

ولازمه أن يكون التأويل موافقاً وضع اللغة ، أو عرف الشرع ، أو عرف الاستعمال ، حيث اشترط الشاطبي للتأويل : « أن يرجع إلى معنى صحيح في الاعتبار ، متفق عليه في الجملة بين المختلفين ، ويكون اللفظ المؤوَّل قابلاً له » (٥) .

كما يلزم منه ألا يتضمن حمل كلام الشارع على جهة ركيكة تنأى عن اللغة الفصحى ، قال الجويني : « فإذا حَمَل حامل آية من كتاب الله أو لفظاً من ألفاظ رسول الله ﷺ على أمثال هذه المحامل ، وأزال الظاهر الممكن إجراؤه لمذهبٍ اعتقده فهذا لا يقبل » (٦) .

٤ - ألا يؤدي التأويل إلى تعطيل اللفظ .

قال الجويني : « وأصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا وجدوا ما يظهر عندهم قصد رسول الله ﷺ اكتفوا به ولم يميلوا إلى غيره ، ورأو من يركن إلى القياس لإزالة ظاهر ما صحّ عندهم في حكم الرادّ لخبر رسول الله ﷺ » (٧) .

---

(١) خلاف ، علم أصول الفقه : ١٦٨ . وانظر : الفرّاء ، العدّة في أصول الفقه ١ : ١٥١ - ١٥٢ . والبرديسي ، أصول الفقه : ٣٨٢ . وزيدان ، الوجيز في أصول الفقه : ٣٤٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢١ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٤٣ .
(٤) انظر : الجويني ، البرهان في أصول الفقه ١ : ٥٦١ .
(٥) الشاطبي ، الموافقات ٣ : ٩٩ - ١٠٠ .
(٦) الجويني ، البرهان في أصول الفقه ١ : ٥٤٥ - ٥٤٦ .
(٧) المصدر السابق ١ : ٥٣٤ .

٥ - أن يكون ثَمَّةَ موجِب للتأويل .

ومن موجبات التأويل أن يعارض الظاهر ما هو أقوى منه دلالة . قال الشاطبي : « التأويل إنَّما يُسلَّط على الدليل لمعارضة ما هو أقوى منه ، فالناظر بين أمرين إما أن يبطل المرجوح جملة اعتماداً على الراجح ، ولا يلزم نفسه الجمع . وهذا نظرٌ يرجع إلى مثله عند التعارض على الجملة . وإما أن لا يبطله ، ويعتمد القول به على وجهٍ ، فذلك الوجه إن صحّ واتفق عليه فذلك ، وإن لم يصح فهو نقض الغرض ، لأنه رام تصحيح دليله المرجوح بشيء لا يصح » [١] .

(١) الشاطبي ، الموافقات ٣ : ١٠١ .

المبحث الرابع

عدم تحميل النصوص ما لا تحتمل

ارتباط هذا المبحث بما قبله وثيق جداً حيث إنه واحد من الشروط اللازمة للتأويل ، ومن الحَسَن - بين يدي الموضوع - التذكير بأمور هامه هي :

أولاً : أن قواعد الإسلام وأصوله واضحة منضبطة ، فالقرآن الكريم مصان بحفظ الله تعالى عن التحريف والتبديل ، والسنة المشرفة مبينة للقرآن ومكملة له . فهذا الدين غني بحمد الله عما وضع الوضّاعون ، وأوّل المحرفون .

ثانياً : أن الدعوة الإسلامية منذ بزوغ فجرها وانطلاقتها الأولى على يد النبي ﷺ كانت بيّنة الملامح ، واضحة المعالم ، سهلة الإدراك والفهم ، وإن شقّ على أهل الكفر سماعها ، وصعب عليهم الانقياد لها .

ولم تكن يوماً ما بحاجة إلى تأويلات غريبة تعضدّها ، أو زيادات تكملها ، ومن زعم شيئاً من ذلك فقد نسب النقص إلى الإسلام ، مخالفاً بذلك صريح قوله تعالى : ﴿ اليومَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً ﴾ (١) .

ثالثاً : أن الشروط والاحترازات التي نصّ عليها العلماء للتأويل ؛ إنّما هي لحصر التأويل في أهله ، ومنع الناس من الاسترسال فيه بلا علم أو دراية ، ولكشف التأويلات الخاطئة ، وتعرية التأويلات المنحرفة ، وتمييز الحقّ عن الباطل .

رابعاً : أن سبب افتراق الأمة ناتج عن الجرأة على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، بالنظر فيهما وإعمال الرأي دون أهلية لذلك . فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خلاً يوماً «فجعل يحدّث نفسه : كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد ، وقبلتها واحدة ؟ فقال ابن عباس : يأمير المؤمنين ، إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه ، وعلمنا فيم نزل . وإنّه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل ، فيكون لهم فيه رأي ، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا ، فإذا اختلفوا اقتتلوا .

فزجره عمر وانتهره ، فانصرف ابن عباس ، ونظر عمر فيما قال ، فعرفه ، فأرسل إليه فقال :

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٣ .

أعدْ عليّ ما قلت . فأعاده عليه ، فعرف عمر قوله وأعجبه »(٢) .

بل كان نظر فئة من الناس عن سوء اعتقاد ، وفساد طوية ، وعنهم صدرت تلك الفرق والطوائف ، وذلك ما ستبينه الأمثلة قريباً .

خامساً : « أن الواجب فيما علّق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعاني أن لا يُتجاوز بألفاظها ومعانيها ، ولا يُقصَّر بها ، ويعطى اللفظ حقه والمعنى حقّه »(١) .

فالمنع من تحميل النصوص ما لا تحتمل أصل لصيانة الدين من التحريف ، وصيانة الأحكام من التغيير ، وصيانة النصوص من التعطيل . وكل من حمّل نصاً ما لا يحتمل فقد أوّل تأويلاً فاسداً، ووقع في شيء من هذا ، وإن بدا قصده حسناً .

وذلك التأويل قد يكون للمعنى ، وهو الغالب الأعمّ ، وقد يكون للحرف .

أولاً : تأويل المعاني :

فأما تأويل المعنى فمنه ما هو **حملٌ للنصوص على غير مقصود الشارع منها** لعدم العلم الكافي بها ، كما روي في قوله تعالى : ﴿ وأنْفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ ولا تُلْقُوا بأيدِيكُم إلى التَّهْلُكَةِ وأحْسِنوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنين ﴾ (٣) ، يقول أسلم التجيبي : « كنا بمدينة الروم - يعني القسطنطينية - ، فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد ، فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل عليهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله يُلقي بيديه إلى التهلكة .

فقام أبو أيوب الأنصاري فقال : يا أيها الناس ، إنكم لتأوّلون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لمّا أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ : إنّ أموالنا قد ضاعت ، وإنّ الله قد أعزّ الإسلام وكثّر ناصروه ، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها . فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه يردّ علينا ما قلنا : ﴿ وأنْفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ ولا تُلْقُوا بأيدِيكُم إلى التَّهْلُكَةِ وأحْسِنوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنين ﴾ فكانت التّهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحُها وتركنا الغزو »(٤) .

(١) ابن القيم ، إعلام الموقعين ١ : ٢٨٨ .
(٢) الشاطبي ، الموافقات ٣ : ٣٤٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٩٥ .
(٤) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، ح ٢٩٧٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب . السنن ٥ : ١٩٦ .

وكذا ما روي عن مروان بن الحكم أنّه أرسل رافع - بوّابه - إلى عبدالله بن عباس وقال : قل له : « لئن كان كل امرئ فرح بما أوْتي وأحب أن يُحمد بما لم يفعل معذّباً ، لنُعذّبنّ أجمعون ؟

فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية ! إنما أنزلت في أهل الكتاب . ثم تلا : ﴿ وإذ أخَذَ اللهُ مِيثاقَ الذينَ أوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوه وَراءَ ظُهُورِهم واشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قليلاً فبِئسَ ما يَشْتَرون ★ لا تَحْسَبَنَّ الذينَ يَفْرَحُونَ بما أتَوا ويُحِبُّونَ أن يُحْمَدُوا بما لم يَفْعَلوا فلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفازَةٍ من العَذابِ ولَهُم عذابٌ أليم ﴾ (١) ، قال : سأل النبي ﷺ يهود عن شيء فكتموه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما قد سألهم عنه ، فاستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه » (٢) .

فأبو أيوب الأنصاري وابن عباس رضي الله عنهم ردّا تأويل من تأوّل الآيتين على غير مقصود الشارع منهما لإحاطتهما بأسباب النزول ، والوجه الشرعي المراد أصالة من الآيتين .

ومن حمل النصوص على غير مقصود الشارع ، ما روي من تأويل قدامة بن مظعون رضي الله عنه لقوله تعالى : ﴿ ليسَ على الذينَ آمَنُوا وعملوا الصالحات جُناحٌ فيما طَعِموا إذا ما اتَّقَوا وآمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ ثُمّ اتّقَوا وآمنوا ثُمَّ اتقَوا وأحْسَنوا واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنين ﴾ (٣) ، فقد روي أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه استعمل قدامة بن مظعون - صحابي شهد بدراً - على البحرين ، فقدم الجارود - سيّد عبدالقيس - على عمر فقال : إن قدامة شرب فسكر . وشهد عليه بذلك أبوهريرة فقال : رأيته سكران يقيء ، ثم قال لعمر : إن كنت تشكّ في شهادتنا فأرسل إلى ابْنةِ الوليد - امرأة قدامة - فسَلْها . فأرسل عمر إليها ، فأقامت الشهادة على زوجها .

فقال عمر لقدامة : إني حادُّك . فقال قدامة : لو شربتُ كما يقولون ما كان لكم أن تجلدوني .

قال عمر : لم ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : ﴿ ليسَ على الذينَ آمَنُوا وعملوا الصالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِموا إذا ما اتَّقَوا وآمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ ثُمّ اتقَوا وآمنوا ثُمَّ اتقَوا وأحْسَنوا واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنين ﴾ .

فقال عمر : إنّك أخطأت التأويل ، إذا اتّقيتَ الله اجْتنبتَ ما حرّم الله عليك (٤) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، ح ٣٠١٤ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب . السنن ٥ : ٢١٧ .

(٣) سورة المائدة ، آية : ٩٣ . وتأوّل الهاشمية - أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية - هذه الآية على أن من وصل إلى الإمام وعرفه ارتفع عنه الحرج في جميع ما يطعم ، ووصل إلى الكمال والبلاغ . [الشهرستاني ، الملل والنحل ١ : ١٥١ - ١٥٢ .

(٤) انظر : الصنعاني ، المصنّف ٩ : ٢٤٠ - ٢٤٣ . و الشاطبي ، الموافقات : ٣ : ٣٤٩ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٥ : ٣٢ - ٣٣ . وابن حجر ، الإصابة ٣ : ٢٢٨ - ٢٢٩ .

فعمر رضي الله عنه ردّ تأويل قدامة لمخالفته حكم تحريم الخمرة الثابت في قوله تعالى : ﴿ يا أيُها الذينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ والمَيسِرُ والأنْصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عَملِ الشيطانِ فاجْتَنِبُوه لعلكم تُفْلِحُون ﴾ (١) .

كما أن سبب نزول الآية دليل آخر على خطأ تأويل قدامة ، حيث قال البراء بن عازب رضي الله عنه : « مات ناس من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر ، فلما نزل تحريمها قال ناس من أصحاب النبي ﷺ : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟ فنزلت : ﴿ ليسَ على الذينَ آمَنُوا وعملوا الصالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِموا إذا ما اتَّقَوا وآمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ ثُمّ اتّقَوا وآمنوا ثُمَّ اتّقَوا وأحْسَنوا واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنين ﴾ » (٢) .

ومن التأويل الفاسد ما يأتي من **إعمال الرأي في الآيات الكريمة أو الأحاديث الشريفة بلا علم** . ومثاله ما روى الترمذي أن رجلاً « جاء إلى عبدالله بن مسعود فقال : إن قاصاً يقصّ يقول : إنه يخرج من الأرض الدخان فيأخذ بمسامع الكفار ، ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام . فغضب ، وكان متكئاً فجلس ثم قال : إذا سئل أحدكم عمّا يعلم فليقل به – قال منصور : فليخبر به – ، وإذا سئل عمّا لا يعلم فليقل : الله أعلم ، فإن من علم الرجل إذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول : الله أعلم ، فإن الله تعالى قال لنبيه : ﴿ قُلْ ما أسألُكم عَليهِ مِنْ أجْرٍ وما أنا مِنَ المُتَكَلِّفين ﴾ (٣) .

إنّ رسول الله ﷺ لمّا رأى قريشاً استعصوا عليه قال : اللهم أعنّي عليهم بسبعٍ كسبع يوسف . فأخذتهم سَنَةٌ (٤) ، فحصّت كل شيء ، حتى أكلوا الجلود والمَيْتَة . وجعل يخرج من الأرض كهيئة الدخان ، فأتاه أبو سفيان فقال : « إن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم .

قال : فهذا لقوله : ﴿ فارْتَقِبْ يَوْمَ تأتي السَّماءُ بدُخانٍ مُبينٍ ★ يَغْشى النّاسَ هذا عَذابٌ أليمٌ ★ ربَّنا اكْشِفْ عنَّا العَذابَ إنّا مؤمِنُون ﴾ (٥) ، فهل يُكشَفُ عذابُ الآخرة ؟ » (٦) .

ومن هذا القبيل تأويل مصطفى كمال المهدوي لقوله تعالى : ﴿ والسّارِقُ والسّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللهِ واللهُ عَزيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧) ، حيث قال : « إن الآية لا تذكر سارقاً

(١) سورة المائدة ، الآية : ٩٠ . وانظر : الشاطبي ، الموافقات ١ : ١٠١ .
(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، ح ٣٠٥١ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . السنن ٥ : ٢٣٧ – ٢٣٨ .
(٣) سورة ص ، آية : ٨٦ .
(٤) السَّنَة : القحط والجدب . انظر : ابن منظور ، لسان العرب .
(٥) سورة الدخان ، آية : ١٠ – ١٢ .
(٦) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، ح ٣٢٥٤ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . السنن ٥ : ٣٥٣ – ٣٥٤ .
(٧) سورة المائدة ، آية : ٣٨ .

أيّ سارق ، وإنما هي تأتي به معرفًا بـ(أل) التعريف ، فتقول : والسارق والسارقة ، وأل التعريف لاتأتي في القرآن عبثاً ، ولا يوجد في القرآن حرف زائدٌ إلا لحكمة ومعنى مقصود وسبب ، وفارق بين كلمة (سارق) وكلمة (السارق) فالسارق الذي تقطع يده في القرآن هو محترف السرقة ، الذي يرتكبها ويعاودها ، أما الذي يسرق في ظرف انفعالي فلا تنطبق عليه الآية ، وإنما يؤخذ بقوانين الردع الجنائية السائدة ، وينذر بقطع يده إذا عاود السرقة ، فإذا عاد إلى السرقة بعد خروجه من السجن فهو (السارق الحق) الذي يقع تحت طائلة الآية »[١] .

فصاحب هذا القول - كما يظهر من تأويله -يفتقد كثيراً من قواعد اللغة العربية ، فـ (ال) التي تدخل على اسم الفاعل - كما في هذه الآية - واسم المفعول ؛ موصولة بمعنى (الذي)[٢] ، وليست للتعريف بمعنى العهد كما هو مفهوم كلامه . ويؤيّده ما نقل ابن عطية عن المبرد أنه قال : « أخْتارُ أن يكون ﴿ والسارق والسارقة ﴾ رُفِعا بالابتداء ، لأن القصد ليس إلى واحدٍ بعينه ، فليس هو مثل قولك : زيداً فاضربه . إنما هو كقولك : مَنْ سرق فاقطع يده . قال الزجاج : هو المختار »[٣] .

يضاف إلى ذلك أن (ال) العهدية لها ضوابط وقرائن تدلّ عليها ، فإذا كانت للعهد الذكري ضابطها أن يسدّ الضمير مسدّها مع مصحوبها ، كقوله تعالى : ﴿ كما أرْسَلْنا إلى فِرْعَونَ رَسُولاً ★ فَعَصى فِرْعَونُ الرَّسُولَ ﴾[٤] . وكذا كل (ال) واقعة بعد اسم الإشارة ، أو (أي) في النداء ، أو (إذ) الفجائية[٥] .

ومن التأويلات الفاسدة ما جاء **لإثبات مذهب خاطئ ، أو رأي مبتدع** ، وعامة تأويلات الفرق المنحرفة من هذا الباب ، ومن الأمثلة عليها :

١ - تأويل سهل بن عبدالله التستَري لقوله تعالى : ﴿ وقُلنا يا آدَمُ اسْكُنْ أنْتَ وزَوْجُك الجَنَّة وكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئتُما ولا تَقْرَبا هذهِ الشَّجَرَة فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمين ﴾[٦] ، قال : « لم يرد الله معانى الأكل في الحقيقة ، وإنما أراد معاني مساكنة الهِمَّة مع شيء هو غيره ، أي لا يهمّ بشيء هو غيري . فآدم صلوات الله عليه لم يعتصم من الهِمَّة والفعل في الجنة فلَحِقه ما لَحِقه من أجل ذلك .

(١) نقلاً عن : وهبه ، شبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي المعاصر : ٣٢ - ٣٣.
(٢) انظر : السيوطي ، الإتقان ١ : ١٩٧ .
(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز ٤ : ٤٣٤ .
(٤) سورة المزمل ، آية : ١٥ - ١٦ .
(٥) انظر : السيوطي ، الإتقان ١ : ١٩٧ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٣٥ .

قال : وكذلك كل من ادّعى ما ليس له ، وساكن قلبه ، ناظراً إلى هوى نفسه ، لحقه الترك من الله ، مع ما جبلت نفسه عليه ، إلا أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره ، وينصره على عدوّه وعليها »[1] .

فسهل بن عبدالله حمّل (الاقتراب من الشجرة) معنى الهِمّة والتدبير ، ومعنى سكون القلب لغير الله ، وهي معانٍ لا وجه لها في اللغة ، وليس ثمّةَ دليل يخرجها عن ظاهرها إليه ، بل سياق الآية الكريمة يؤكّد إرادة الأكل دون غيره من المعاني حيث أباح له الأكل من عامّة ثمار الجنة ، ثم نهاه عن شجرة بعينها ابتلاءً واختباراً .

وإنّما قَصَدَ سهلٌ - ضمناً - تأييدَ مذهب كثير من المتصوفة في ترك الاكتساب .

٢ - تأويل بيان بن سمعان التميمي[2] لقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرونَ إلا أنْ يأتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ والملائكةُ وقُضِيَ الأمْرُ وإلى الله تُرْجَعُ الأمُور ﴾ [3] ، قال : « أراد علياً فهو الذي يأتي في الظُلَل ، والرعد صوته ، والبرق تبسُّمه »[4] .

وهذا التأويل لإثبات معتقد طائفة من الشيعة في علي بن أبي طالب ، حيث يعتقدون أنه لم يقتل ، بل قتل شبيهه ، كما قتل شبيه عيسى ابن مريم عليه السلام ، وأنه صعد به إلى السماء ، وهو الآن في السحاب ، وهو المهدي المنتظر الذي يأتي آخر الزمان . فكان بعضهم إذا سمع صوت الرعد قال : عليك السلام يا أمير المؤمنين[5] .

٣ - احتجاج الخوارج على مذهبهم بتخليد العصاة من المؤمنين في النار بمثل قوله تعالى : ﴿ وما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها ﴾ [6] ، فقد روى الطبري أن نافع بن الأزرق الخارجي قال لابن عباس رضي الله عنهما : « أعمى البصر ، أعمى القلب ، يزعم أن قوماً يخرجون من النار وقد قال الله جلّ وعزّ : ﴿ وما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها ﴾ . فقال ابن عباس : ويحك ، اقرأ ما فوقها ، هذه للكفار »[7] .

والآيتان هما قوله تعالى : ﴿ إنّ الذينَ كَفَروا لَوْ أنَّ لَهُمْ ما في الأرْضِ جَميعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ القِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أليمٌ ★ يُرِيدُونَ أنْ يَخْرُجُوا مِنَ النّارِ وَماهُمْ

(١) التستري ، تفسير القرآن العظيم : ١٦ - ١٧ . وانظر : الشاطبي ، الموافقات ٣ : ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٢) بيان بن سمعان ، صاحب الفرقة البيانية ، وكان يقول بألوهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان يقول : أنا المذكور في القرآن في قوله تعالى : ﴿ هذا بَيانٌ للنّاسِ وهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقين ﴾ [آل عمران : ١٣٨] . انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ١ : ١٥٢ - ١٥٣ . وعبدالقاهر ، الفَرْق بين الفِرَق : ٢٢٧ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢١٠ .

(٤) الشهرستاني ، الملل والنحل ١ : ١٥٢ .

(٥) انظر : عبدالقاهر ، الفَرْق بين الفِرَق : ٢٢٤ .

(٦) سورة المائدة ، آية : ٣٧ .

(٧) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٠ : ٢٩٤ . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ٤ : ٤٣٣ .

بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (١) .

٤ - ما نُقِل عن الحسين بن منصور الحلاج أنه كان يدعي الربوبية من خلال مذهبه في الحلول والاتحاد ، ويتأول في ذلك تأويلات مختلفة منها تأويله قولَ الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي في السَّماءِ إلهٌ وفي الأرضِ إلهٌ ﴾ (٢) .

فقد روى ابن الجوزي عن حامد الوزير أنه سأل بنت السَّمري عن الحلاج فقالت : « حملني أبي إليه فقال : قد زوّجْتُك ابني سليمان ، وهو مقيم بنيسابور ، فمتى جرى شيء تنكرينه من جهته فصومي يومك ، واصعدي في آخر النهار إلى السطح ، وقومي على الرماد ، واجعلي فطرك عليه ، وعلى ملح جريش ، واستقبليني بوجهك ، واذكري لي ما أنكرتيه منه فإني أسمع وأرى (٣) .

قالت : وكنت ليلة نائمة في السطح فأحسست به قد غشيني ، فانتبهت مذعورة لما كان منه ، فقال : إنما جئتك لأوقظك للصلاة . فلما نزل قالت ابنته : اسجدي له ، فقلت : أوَ يسجدُ أحدٌ لغير الله ؟ فسمع كلامي فقال : نعم ، إله في السماء وإله في الأرض » (٤) .

٥ - تأويل بعض المتصوِّفة لقوله تعالى : ﴿ وإن يأتوكُمْ أُسارىٰ تُفادُوهُمْ ﴾ (٥) ، « قال أبوعثمان : غرقى في الذنوب . وقال الواسطي : غرقى في رؤية أفعالهم . وقال الجنيد : أسارى في أسباب الدنيا ، تفدوهم إلى قطع العلائق » (٦) ، قال ابن الجوزي : « وإنما هذه الآية على وجه الإنكار ، ومعناها إذا أسرتموهم فديتموهم ، وإذا حاربتموهم قتلتموهم ، وهؤلاء قد فسّروها على مايوجب المدح » (٧) .

ثانيًا : تأويل الحروف :

وأما تأويل الحروف فوقع في هذه الأمة من قبل غلاة الشيعة ، ومن الأمثلة على ذلك (٨) :

المثال الأول :

الآية كما في القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الذينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ

(١) سورة المائدة ، آية : ٣٦ - ٣٧ .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٨٤ .
(٣) يتأوّل الحلاج في هذه العبارة - ضمناً - قول الله تعالى : ﴿ قالَ لا تَخافا إنَّني مَعَكُما أسْمَعُ وأرىٰ ﴾ [طه : ٤٦] .
(٤) ابن الجوزي ، تلبيس إبليس : ١٧٢ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٨٤ .
(٦) ابن الجوزي ، تلبيس إبليس : ٣٣٢ .
(٧) المصدر السابق . وانظر له : زاد المسير ١ : ١١٠ - ١١١ .
(٨) جميع هذه الأمثلة منقولة عن كتاب إحسان إلهي ظهير (الشيعة والقرآن) ، إذ لم أستطع الوقوف على المصادر الأصلية .

فأنْزَلْنا على الذين ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُون ﴾ (١) .

وبعد التحريف : روى محمد بن الفضل عن أبي جعفر قال : « نزل جبرائيل بهذه الآية على محمد صلى الله عليه وآله هكذا : فبدّل الذين ظلموا آل محمد حقهم قولاً غير الذي قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا آل محمد حقهم رجزاً من السماء من السماء بما كانوا يفسقون » (٢) .

وتأويلهم لها أن هذه الأمة يخالفون قول الله تعالى فيما يوجب حِطّةً لذنوبهم وهو (الولاية) كما خالف بنوإسرائيل أمره بأن يقولوا حطة عند دخول الباب سجداً ، وبدّلوها بغيرها حذو النعل بالنعل ، فمن لم يقبل ولاية آل محمد ﷺ فقد ظلمهم (٣) .

المثال الثاني :

الآية كما في القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِها نأتِ بِخَيرٍ مِنْها أوْ مِثْلِها ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَدِير ﴾ (٤) .

وبعد التحريف : قال عمر بن يزيد: « سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تعالى : ﴿ ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِها نأتِ بِخَيرٍ مِنْها أوْ مِثْلِها ﴾ فقال : كذبوا . ما هكذا هي نزلت ، إذا يَنسخُها ويأت بمثلها لِمَ يَنسخها . قلت هكذا قال الله . قال : ليس هكذا قال تبارك وتعالى . قلت : كيف ؟ قال : ليس فيها ألِفٌ ولا واو ، قال : ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها مثلها .

يقول : ما نُميتُ من إمام أو ننسه ذكره نأت بخير منه من صلبه مثله » (٥) .

وهذا التحريف إنما هو لإثبات معتقد غلاة الشيعة في حصر الإمامة بعلي رضي الله عنه وذريته من بعده .

المثال الثالث :

الآية كما في القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا تَوَلّىٰ سَعىٰ في الأرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها ويُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾ الآية (٦) .

وبعد التحريف : روى الكليني – أحد مفسري الشيعة – عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال – وحاشاه من ذلك – : « وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل بظلمه وسوء سريرته والله لا يحب الفساد » (٧) .

(١) سورة البقرة ، آية : ٥٩ .
(٢) نقلاً عن : ظهير ، الشيعة والقرآن : ١٦٩ .
(٣) انظر : المصدر السابق .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٠٦ .
(٥) نقلاً عن : ظهير ، الشيعة والقرآن : ١٧٣ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٠٥ .
(٧) نقلاً عن : ظهير ، الشيعة والقرآن : ١٧٥ .

وأمثال هذا التأويل إنما يتأوله الشيعة في معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لما جرى بينه وبين علي رضي الله عنه وأبنائه من بعده .

المثال الرابع :

الآية كما في القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ وكذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداء على النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ الآية [1] .

وبعد التحريف : روى النعماني عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية هكذا : « وجعلناكم أئمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » [2] .

والمعنى - بزعمهم - أن علياً رضي الله عنه والأئمة من بعده واسطة بين النبي ﷺ وبين الناس . ومن شأن هذا التحريف التوصل إلى مايعتقدون من حصر العلم في علي وأئمة الشيعة دون غيرهم .

والمتأمل في مجمل تحريفات غلاة الشيعة يدرك الصبغة المشتركة بينها وبين معتقدات أهل الكتاب المحرفة . فحصر العلم في أئمة آل البيت يماثل حصر اليهود للعلم في سبط واحد من أسباطهم . وكذا اعتقاد العصمة في هؤلاء الأئمة والتسليم الكامل لكل ما يصدر عنهم ، كما يتلقى عامة أهل الكتاب من الأحبار والرهبان . والسبب في ذلك يعود - والله أعلم - إلى عبدالله بن سبأ ، فهو الذي ابتدأ التأويل والتحريف ، يقول عبدالقاهر البغدادي : « وقال المحققون من أهل السنة : إن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود ، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده ، لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارى في عيسى عليه السلام » [3] .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٤٣ .
(٢) نقلاً عن : ظهير ، الشيعة والقرآن : ١٨٥ .
(٣) عبدالقاهر ، الفَرْق بين الفِرَق : ٢٢٤ .

المبحث الخامس

عدم تعليل ما لا يعلل

تعريف العلة :

العِلة أساس القياس وأهم أركانه ، لأنها الجامع المشترك بين الأصل والفرع ، ولعلماء الأصول أقوال متعددة في تعريفها ، منها :

١ - يقول الخطيب البغدادي : « العلة الشرعية أمارة على الحكم ودلالة عليه »(١) .

٢ - وقال الفرّاء : « وأما العلة في المعنى الجالب للحكم .

وقيل : المعنى الذي تعلق به الحكم .

وقيل : الصفة المقتضية للحكم »(٢) .

٣ - وقال الماتريدي : « العلة هي المعنى الذي إذا وجد يجب الحكم به معه »(٣) .

٤ - وقال عبدالوهاب خلاف : « العلة هي المعرّف للحكم »(٤) ثم قال : « وأما علة الحكم فهو الأمر الظاهر المنضبط الذي بني عليه الحكم ورُبِط به وجوداً وعدماً »(٥) .

التعليل بالحِكمة :

أنزل الله تعالى الشريعة الإسلامية لصالح العباد ، فما من حكم إلا وفيه جلب مصلحة أو دفع مفسدة ، ولا يلزم من ذلك أن تعرف حِكمة كل جزئية من جزئيات الشريعة ، فمنها ما تُدرك حكمته ، ومنها ما لا يدرك لأمرٍ يريده الله ، وقد ثبت باستقراء الأحكام أن حِكمة تشريع بعض الأحكام تكون أمراً خفياً غير ظاهر ، أو تقديرياً غير منضبط(٦) . ولكن يبقى العبد مطالباً بالانقياد لأوامر الله تعالى ، والتوجّه له ، وإفراده بالعبادة .

وإزاء ذلك فقد اختلف العلماء في التعليل بالحكمة ، فذهب بعضهم إلى التعليل بها مطلقاً فقال:

---

(١) الخطيب ، الفقيه والمتفقه ١ : ٢١٠ . وانظر : السبكي ، الإبهاج ٣ : ٤٠ .
(٢) الفرّاء ، العدة في أصول الفقه ١ : ١٧٥ - ١٧٦ .
(٣) الماتريدي ، أصول الفقه : ١٩١ . وانظر : الجرجاني ، التعريفات : ١٥٤ .
(٤) خلاف ، أصول الفقه : ٦٤ .
(٥) المصدر السابق : ٦٥ .
(٦) انظر : المصدر السابق : ٦٤ .

« يصح التعليل بمجرد الحِكمة سواء كانت ظاهرة أو خفية ، منضبطة أو غير منضبطة »[1] . واشترط آخرون للتعليل بها ما اشترط في العلة فقالوا : « إن كانت الحكمة المجرّدة ظاهرة منضبطة صح التعليل بها وإلا فلا »[2] ، فهي هنا لا تختلف عن العلة التي اعتمد عليها الأصوليون في القياس ، والتي عليها الاعتماد في هذا المبحث .

ما لا يعلل في الشريعة :

تواتر عن العلماء رحمهم الله أنه ما كلّ ما في الشريعة يجري فيه القياس ، يقول حماد بن سلمة : « كنتُ أسأل إبراهيم - النخعي - عن الشيء أهتمّ به فيقيسه لي . ويجيء الشيء فلا أعرفه ، فيقول : ليس في كل شيء يجري القياس »[3] .

وقد ثبت عن النبي ﷺ النهي عن تكلّف ما لا يعني مما لم يقع أو لا يترتب عليه عمل حيث قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً . فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا . ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »[4] .

فالأحكام الشرعية منها قسم استأثر الله تعالى بعلم عللها اختباراً لعباده ، وهي الأحكام التعبدية في العبادات ، فالمقصود الأول منها التعبد لله تعالى بما قضى وشرع من أحكام ، والوقوف عند حدودها ، مثل تحديد جهة القبلة ، قال تعالى : ﴿ ولله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إنَّ اللهَ واسعٌ عَلِيمٌ ﴾[5] ، ومما قيل في تأويل الآية « أن اليهود لما أنكروا أمر القبلة بيّن اللهُ تعالى أنّ له أن يتعبّد عباده بما شاء ، فإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى بيت المقدس ، وإن شاء أمرهم بالتوجّه إلى الكعبة »[6] .

وكذا مناسك الحجّ[7] ، وتحديد عدد الركعات في الصلوات ، ومقادير الأنصبة التي تجب فيها الزكاة ، ومقدار ما يجب فيها[8] ، وما روي عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله أنها كرهت السؤال عن علة قضاء الحائض الصوم دون الصلاة ، فقد روى الإمام مسلم عن معاذة قالت : « سألت

---

(١) ابن النجار ، شرح الكوكب المنير ٤ : ٤٧ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الخطيب ، الفقيه والمتفقه ١ : ٢٠٨ .
(٤) رواه مسلم في كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ، والنهي عن (منع وهات) وهو الامتناع من أداء حقّ لزمه ، أو طلب ما لا يستحقه ، ح ١٠ (١٧١٥) . الصحيح ٣ : ١٣٤ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١١٥ .
(٦) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٨٢ .
(٧) انظر الآيات في سورة البقرة : ١٩٦ - ٢٠٠ ، ٢٠٣ . وانظر : الشاطبي ، الموافقات ٢ : ٣٠١ .
(٨) انظر : الشاطبي ، الموافقات ٢ : ٣٠٠ . وخلاف ، أصول الفقه : ٦٢ .

عائشة رضي الله عنها : ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ؟ فقالت : أحرورية أنت ؟ فقلتُ : لست بحرورية ، ولكني أسأل . قالت : قد كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة »(١) ، « وهذا يرجح التعبّد على التعليل بالمشقة »(٢) . ولكن إذا « تبيَّن بنصّ أو إجماع معنى مراد في بعض الصور فلا لوم على من اتّبعه ، لكنّ ذلك قليل »(٣) .

وأحكام العادات « إذا وُجِد فيها التعبد فلا بدّ من التسليم ، والوقوف مع المنصوص ، كطلب الصداق في النكاح ، والذبح في المحل المخصوص في الحيوان المأكول ، والفروض المقدّرة في المواريث ، وعدد الأشهر في العدد الطلاقية ، والوَفَوِيَّة ، وما أشبه ذلك من الأمور التي لا مجال للعقول في فهم مصالحها الجزئية حتى يقاس عليها غيرها »(٤) .

وكما تقدّم آنفاً فإن هذه الأحكام وأمثالها لها حكم شرعية ظاهرة أو خفية ، لكنها تبقى جملية عامة ، لا تُعطي علة خاصة يفهم منها حكم خاص(٥) .

ومما لا يعلل ولا يجري فيه القياس كذلك :

أولاً : ما كان مختصاً بالله تعالى ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا خلق اللهُ الخَلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله »(٦) ، فقد نهى النبي ﷺ عن الاسترسال في القياسات العقلية التي لا سبيل للعقل إلى إدراكها .

ومن هذا الباب ما اختصّ الله تعالى به من الأفعال **كالهداية** ، قال تعالى : « واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم ﴾(٧) ، وقال سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ ﴾(٨) .

ثانياً : ما كان مَعْدولاً به عن سَنَن القياس ، وهو على ضربين(٩) :

١ - ما لم يعقل معناه ، إما لكونه استُثْني من قاعدة عامة ، وقام الدليل على تخصيصه ، مثل الأحكام التي قام الدليل على اختصاصها بالنبي ﷺ كزواجه بأكثر من أربع نساء ، وتحريم نكاح زوجاته بعد موته ، قال تعالى : ﴿ وَما كانَ لَكُمْ أنْ تُؤذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أنْ تَنْكِحُوا أزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ

(١) رواه مسلم في كتاب الحيض ، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة ، ح ٦٩ . الصحيح ١ : ٢٦٥ .
(٢) الشاطبي ، الموافقات ٢ : ٣٠٨ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق ٢ : ٣٠٧ - ٣٠٨ .
(٥) انظر : المصدر السابق ٢ : ٣٠١ .
(٦) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ، ح ٢١٢ (١٣٤) . الصحيح ١ : ١١٩ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٢١٣ .
(٨) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .
(٩) انظر : ابن النجار ، شرح الكوكب المنير ٤ : ٢١ . والسرخسي ، أصول السرخسي ٢ : ١٤٩ .

أَبَداً ﴾ [1] ، وقوله تعالى في حقّ أمهات المؤمنين رضي الله عنهن : ﴿ يا نِساءَ النَّبيِّ مَنْ يأتِ مِنْكُنَّ بفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَها العَذابُ ضِعْفَينِ وكانَ ذلكَ على اللهِ يَسيراً ★ ومَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ ورَسُولِه وتَعْمَلْ صالِحاً نُؤتِها أجْرَها مَرَّتَينِ وأعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيما ﴾ [2] .

أو لم يستثن كعدد الركعات ، وتقدير نصاب الزكاة ، ومقادير الحدود والكفارات .

٢ – ما عُقِل معناه ولكن لا نظير له ، ولا يتصور القياس عليه ، سواء كان له معنى ظاهر كقصر الصلاة في السفر ، أو لا معنى له ظاهر كالقسامة .

وسبب منع التعليل كما قال السرخسي : « أن التعليل يكون مقايسة ، والحكم المعدول به عن القياس الثابت بالنص لا مدخل للقياس فيه على موافقة النص ، ولا معتبر بالقياس فيه على مخالفة النصّ ، لأن المقصود بالتعليل إثبات الحكم به في الفرع ، والقياس ينفي هذا الحكم ، ولا يتحقق الإثبات بحجّة النفي ، كما لا يتحقق التحليل بما هو حجّة التحريم » [3] .

ثالثًا : المنسوخ ، فلا يقاس عليه « لعدم ثبوت الحكم فيه ، لأن الفرع لا يثبت إلا بأصل ، فإذا لم يَثْبُت الأصل لم يَجُز إثبات الفرع من جهته » [4] .

وإلى جوار ما تقدم ينبغي للداعية إذا أراد أن يعلل حكماً شرعياً أن يذكر بالهدف الأسمى وهو الانقياد لله تعالى وطلب المثوبة منه ، ثم يتجنب بعد ذلك المبالغة في التعليلات ، ويبتعد عن التعليلات غير الدقيقة ، أو التعليلات المادية .

فمن التعليلات غير الجامعة [5] :

١ – تعليل تحريم لحم الخنزير بأن من اعتاده تذهب غيرته على النساء والحرمات ، كما هو مشاهد لدى الأوربيين ، فهذا التعليل غير منضبط لأن طائفة من أولئك تحرم لحم الخنزير ولاتأكله ، ومع ذلك لا غيرة عندهم على نسائهم ، كما أن معظم النصارى في بلاد الشرق يأكلون لحم الخنزير وتجد عنهم غيرة على النساء .

وكذلك تعليل تحريم لحم الخنزير بأن فيه الدودة الشريطية ، وهي خطيرة جداً على صحة الإنسان ، فمثل هذا التعليل غير مطرد لوجود مثل هذه الدودة في بعض الأبقار ،

---

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٥٣ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية : ٣٠ – ٣١ .
(٣) السرخسي ، أصول السرخسي ٢ : ١٥٠ .
(٤) الخطيب ، الفقيه والمتفقه ١ : ٢١٤ .
(٥) انظر جميع هذه الأمثلة : القرضاوي ، ثقافة الداعية : ٨٤ – ٨٧ .

وقد أحلّ الشرع أكلها .

فالأمر الذي يجب التنبه إليه في مثل هذا أن المطعم قد يكون له مثل ذلك التأثير ، والتحريم يقي من هذه المضار ، ولكن لا يصحّ عدّها علة التحريم .

٢ - حصر علة تحريم الزنى في اختلاط الأنساب . فمثل هذا الأمر إنما هو واحدٌ من حِكم الشرع في التحريم ، ولكنه ليس علته ، وإلا فما بال العقيم التي لا تلد ، أو التي لا زوج لها إذا اتخذت خدنا يعاشرها دون أن تلد منه ، حتى وإن ولدت منه فإنه غير مختلط بغيره .

ولهذا فالحق أن يقال : إن سبب التحريم هو أمر الله تعالى بتجنبه : ﴿ ولا تَقْرَبوا الزِّنى إنّه كانَ فاحِشَةً وَساء سَبِيلاً ﴾ [1] . والله تعالى أعلم بمصالح عباده ، وهذه الأسباب بعض تلك المصالح لا كُلّها .

٣ - أن يقال في علة تحريم الربا : إنه استغلال من قبل الأغنياء لحاجة الفقراء . فهذه العلة وجه من الوجوه ، والمشاهد في زماننا أن المتعاملين بالربا في معظمهم من كبار الأغنياء ، وإنما يفعلون ذلك لتوسيع تجاراتهم ، وزيادة مدخولاتهم .

كما أن المصارف - وهي الغنية - تعطي المودعين من ذوي الدخول المتدنية فوائد على ودائعهم ، فلو عمل بالتعليل المذكور لم يكن حرج من ذلك في هذه الصورة .

وإذاً ينبغي للداعية أن يأخذ جانب الحذر والحيطة في تعليلاته ، ولا يطلقها إلا بعد تثبت ودراسة ، مع التأكيد دائماً على الأمر الشرعي المقتضي له أولاً .

(١) سورة الإسراء ، آية : ٣٢ .

الفصل الثاني

موانع الاستفادة
من المنهج العقلي في سورة البقرة
وسبل التغلب عليها

المبحث الأول

موانع الاستفادة من المنهج العقلي في الدعوة

شاءت إرادة الله تعالى وحكمته أن يواجه الدعاة إليه سُتُراً وحُجُباً تحول بينهم وبين عقول وقلوب كثير من المدعوين ، وبخاصة أهل الرياسة والسيادة في أقوامهم ، فتجد هؤلاء يتردّون في الضلالة ، ويترددون بين تلك الحجب ، ممنوعين من الخير ، متمادين في الباطل ، متشابهة قلوبهم وأفعالهم في ردّ الحق ومناوأته ، والشيطان يزيدهم في الغي ، ويزين لهم سوء أعمالهم ، فترى الكثير منهم لا يفقه دلائل الحق إذا عرضت عليه ، بل يزداد عمهاً وضلالة ، يقول الله تعالى : ﴿ إنّ الذين كَفَروا سَواءٌ عَلَيهِم أأنْذَرْتَهُمْ أمْ لمْ تُنْذِرْهُم لا يؤمِنُونَ ★خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وعَلى سَمْعِهِمْ وعَلى أبْصارِهِم غِشاوَةٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

وسواء كان هؤلاء هم أصحاب القليب في بدر ، أو أحبار اليهود في المدينة ، فقد طبع الرانُ قلوبَهم حتّى اسودّت ، وانغلقت على الباطل ، فلم يلامس الإيمان قلوبهم ، ولم يجد إليها سبيلاً ، وأصبح الإنذار وعدمه سواء ، فعميت قلوبهم كما تعمى الأبصار في حلكة الليل ، يقول مُضَرِّس الأسدي (٢) :

وليلٍ يقـول المرء من ظُلُماتـه		سواءٌ بصيراتُ العيونِ وعُورُها

يقول القرطبي : « الخَتْمُ على القلوب : عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفِكْر في آياته . وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعوا إلى وحدانيته . وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته » (٣) .

كما تخبر الآيات الكريمة أنه صرحوا بذلك للنبي ﷺ ، حيث قال سبحانه : ﴿ وقالُوا قُلُوبُنا في أكِنَّةٍ مِمّا تَدْعُونا إلَيهِ وَفي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَينِكَ حِجابٌ فاعْمَلْ إنَّنا عامِلُون ﴾ (٤) .

ووقع ذلك فعلياً لعتبة بن ربيعة – وكان من سادات قريش – ، فقد روى ابن كثير أن قريشاً بعثته ليحاور النبي ﷺ ، فقرأ عليه النبي ﷺ من قوله تعالى : ﴿ حم ★ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم ★ كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُون ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ فإنْ أعْرَضُوا فَقَلْ أنْذَرْتُكُمْ

(١) سورة البقرة ، آية : ٦ – ٧ .
(٢) ديوان مضرس الأسدي : ٦٩ .
(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ١٨٦ .
(٤) سورة فصلت ، آية : ٥ .

صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُود ﴾[1] ، فقام عندها عتبة ورجع إلى قريش ، فقالوا له : ما وراءك؟ قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته . قالوا : فهل أجابك ؟ قال : نعم . ثم قال : لا والذي نصبها بَنِيَّة - يعني الكعبة - ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . فقالوا : ويلك ، يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال ؟ قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة »[2] .

وفيما يأتي سوق لبعض تلك الحجب التي وضعها الكفار من المشركين وأهل الكتاب وكل من سار على شاكلتهم حائلاً بينهم وبين الدعوة :

أولاً : الجحود والإنكار :

واجه جميع رسل الله تعالى من أقوامهم الإعراض والنفور ، كما واجه ذلك النبي ﷺ ، وبخاصة من الملأ والكبراء ، فهم عادة ما يتحملون وزر صدّ الناس عن الحق ، برفعهم راية العداء ، وتغاضيهم وإعراضهم عن كل دلائل الحق وآياته .

وقوله تعالى : ﴿ والذينَ كَفَروا وكَذَّبوا بآياتِنا أولئكَ أصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُون ﴾ [3] إنما هو حديثٌ عن أولئك الكفار الذين أشركوا بالله تعالى ، وكذّبوا بالقرآن الكريم [4] ، سواء كانوا من قريش أمثال أبي جهل عمرو بن هشام الذي أقرّ بصدق النبي ﷺ ولكن حجبه عن الإيمان تنافس الشرف مع بني عبدمناف [5] .

أو الوليد بن المغيرة الذي ضَنّ بمكانته في قريش فقال عن القرآن الكريم : « إن هذا إلا سحرٌ يؤثر ، يأثره عن غيره » وهو الذي قال يَصِفُ القرآن : « إنّ لقوله الذي يقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلوا ولا يعلى ، وإنه ليحْطِمُ ما تَحْتَه » [6] .

أو النضر بن الحارث الذي بلغ من عصيانه وتجبره أن قال : « سأنزل مثل ماأنزل الله » [7] ، وهو ذاته الذي قال ذات يوم لقريش : « يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانه ، حتى إذا

---

(١) سورة فصلت ، آية : ١ - ١٣ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ : ٦٠ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٣٩ .
(٤) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ١ : ٢٦٥ - ٢٦٦ .
(٥) انظر صفحة ٧٤ من هذه الرسالة .
(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ : ٥٩ . وانظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٢٧٠ .
(٧) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٣٠٠ .

رأيتم في صُدْغيه الشَّيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السَّحرة ونفثهم وعَقْدهم ، وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه . يامعشر قريش ؛ فانظروا في أمركم فإنه والله نزل بكم أمرٌ عظيم »[١] .

وما بلغ هؤلاء وأمثالهم هذا المبلغ في الجحود والعداء إلا لأن الران طبع قلوبهم فهي سوداء مربدّة ، لا تتبع إلا هواها ، ولذا لم يكن طلبهم الآياتِ من النبي ﷺ لمعرفة الحق ، أو رغبة في الفهم والتدبر ، بل مكابرة ورغبة في التعجيز ، ولذا لم يجبهم النبي ﷺ إلى طلباتهم[٢] ، ولمّا قام من مجلسهم قام معه عبدالله بن أمية المخزومي - ابن عاتكة عمَّة النبي ﷺ - فقال : « يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم من العذاب . فوالله لا أومن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى منه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدّقك »[٣] .

وشبيهاً بذلك الجحود والإنكار بل أشدّ منه ما واجه النبي ﷺ من أهل الكتاب في المدينة المنورة ، فقد ناصبه سادة اليهود العداء ، معرضين عما لديهم من علم ، وما ظهر لهم من دلائل على صدقه ﷺ ، وفيهم تأوّل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى : ﴿ إنّ الذين كَفَروا سَواءٌ عَلَيهِم أأنْذَرْتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لا يؤمِنُونَ ﴾[٤] ، أي « أنهم كفروا بما عندهم من العلم من ذكره ، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق لك ، فقد كفروا بما جاءك ، وبما عندهم مما جاءهم به غيرك ، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً ، وقد كفروا بما عندهم من علمك »[٥] .

ومن أشدّ ما واجه به أحبار اليهود الدعوة **التجاهل والكتمان** ، وذلك أن الله تعالى أودع في كتبهم بشارات بالنبي ﷺ ، وأخذ عليهم فيها العهود والمواثيق ليَتّبعنّ النبي ﷺ[٦] ، فلما بُعث من غير بني إسرائيل ساءهم ذلك ، وآثروا الكفر على الإيمان ، والمتتبع للآيات الكريمة يجدها كثيراً ما تذكّر أهل الكتاب بذلك ، وتأمرهم بامتثاله ، كما في قوله تعالى : ﴿ وآمِنُوا بِما أنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٣٠٠ .
(٢) الآيات في سورة الإسراء ٩٠ - ٩٣ ، وانظر صفحة ٧٦ من هذه الرسالة .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ : ٤٩ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٦ .
(٥) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ : ٢٥٧ .
(٦) انظر صفحة ١٠٠ من هذه الرسالة .

مَعَكُمْ ولا تَكُونُوا أوَّلَ كافرٍ به ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثَمَناً قَليلاً وإيّايَ فاتَّقُون ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿ الذين آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أبْناءَهُم وإنّ فَريقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

فكان من أوائل ما بادؤوا به النبي ﷺ أن تجاهلوا ما لديهم من علم تجاهه ، حيث قال له ابن صوريا : « يا محمد ، ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنْزِل عليك من آية بيِّنة فنتبعك بها » (٣) ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ ولَقَدْ أنْزَلْنا إلَيكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وما يَكْفُرُ بِها إلا الفاسِقُونَ ﴾ (٤) . ولم يستح هذا اليهودي من مقولته مع أنه - كما قال ابن كثير : « لم يكن بالحجاز بَعْدُ أعلمَ بالتوراة منه » (٥) ، إضافة إلى علمه بأن ناساً من أشراف اليهود وعلمائهم تابعوا النبي ﷺ وآمنوا به ، وأماطوا اللثام عن تلك البشارات، أمثال عبدالله بن سلام ، ومخيريق ... وغيرهما .

بل كانت تُقِرّ بذلك ألسنتهم إذا حزبهم أمر أو رأوا ما يسوءهم ، فقد روى ابن كثير أن عمرو ابن سُعدى القرظي (٦) أقبل على منازل بني النضير بعد جلائهم منها فرآها خراباً ، ثم رجع إلى بني قريظة وهم في كنيسهم فقال : رأيت اليوم عِبَراً قد عُبِّرنا بها ، رأيت منازل إخواننا خالية بعد ذلك العزّ والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع ، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم ، وخرجوا خروج ذُلّ . ولا والتوراة ما سُلِّط هذا على قومٍ لله بهم حاجة .

وعدد مقتل كعب بن الأشرف ، وابن سنينة ، وجلاء بني قينقاع . ثم قال : يا قوم قد رأيتم ما رأيتم ، فأطيعوني وتعالوا نتبع محمداً فوالله إنكم لتعلمون أنه نبي قد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان أبوعمير وابن حراش ، وهما أعلم يهود ، جاءانا يتوكفان قدومه ، وأمرانا باتباعه ، جاءانا من بيت المقدس وأمرانا أن نقرئه منهما السلام ، ثم ماتا على دينهما ودفناهما بحرتنا هذه .

ثم تحاور مع الزبير بن باطا وكعب بن أسد في ذلك ، فما كان من كعب إلا أن قال : ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً (٧) .

والآيات الكريمة متضافرة في الحديث عن كتمان اليهود وتجاهلهم دلائل الحق في دعوة

(١) سورة البقرة ، آية : ٤١ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٤٦ .
(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٣٩ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٩٩ .
(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ : ٢٣٥ .
(٦) يذكر المؤرخون أن عمرو بن سعدى القرظي أبي أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم بالنبي ﷺ وقال : « لا أغدر بمحمد أبداً » فنجا من القتل يوم نزلت بني قريظة على حكم النبي ﷺ ، وفيه قال ﷺ : « ذاك رجل نجاه الله بوفائه » . انظر : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٢ : ٥٨٦ . وابن هشام ج٢ : ٢٣٨ . وابن كثير ، البداية والنهاية ٤ : ١٢٣ .
(٧) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٤ : ٨٢ . وانظر خبر حيي بن أخطب صفحة ٩٢ من هذه الرسالة .

النبي ﷺ ، حتى إنهم تواصوا بكتمانه ، وأعرضوا عما في التوراة لأجل ذلك ، قال تعالى : ﴿ ولَمّا جاءهُم رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الذينَ أوتُوا الكِتابَ كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهورِهِم كأنَّهُم لا يَعْلَمونَ ﴾ (١) .

وكلّم رسولُ الله ﷺ ذات مرّة أحبار اليهود فقال لهم : « يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق . فقالوا : ما نعرف ذلك يا محمد . فجحدوا ما عرفوا وأصرّوا على الكفر . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يا أيها الذين أوتُوا الكِتابَ آمِنوا بِما نزّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكم مِنْ قَبْلِ أن نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها على أدْبارِها أو نَلْعَنَهُم كما لَعَنّا أصْحابَ السَّبْتِ وكانَ أمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ » (٢) .

وكما يلاحظ في الآيات المتحدثة عن جحود الكفار وإنكارها ، فإنها مشتملة على التهديد والوعيد لمن فعل ذلك : ففي الآية الأولى قال سبحانه : ﴿ أولئكَ أصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُون ﴾ (٣) ، وقال في الآية الثانية : ﴿ وما يَكْفُرُ بِها إلا الفاسِقُونَ ﴾ (٤) ، وقال في آية النساء : ﴿مِنْ قَبْلِ أن نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها على أدْبارِها أو نَلْعَنَهُم كما لَعَنّا أصْحابَ السَّبْتِ وكانَ أمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ » (٥) . وما ذلك – والله أعلم – إلا لما في الجحود والإنكار من طمسٍ للحق، وقطعٍ للحوار، ومنعٍ للتدبر والتفكر في الدلائل والعظات الدالة على الحق .

ثانياً : التعالي :

يختص الملأ وسادة الأقوام بهذه الصفة دون غيرهم من عامة الناس ، والدافع لهم على ذلك ماهم فيه من جاه وسلطان ومال ، فلا تطيب نفوسهم أن ترضخ للحق وتتبع الداعي إليه ، حرصاً على مكانتهم أن تذهب ، وهيبتهم أن تضيع . وما ذاك إلا وسواسٌ من الشيطان ، فما أذلّ الدين عزيزاً ، ولا أهان كريماً ، بل زاده شرفاً ورفعة .

ولتلك الدوافع كان الملأ أول من يعادي الرسل ويتنقص منهم ويؤذيهم ، كما فعلوا مع نوح عليه السلام حيث أخبر الله تعالى عنهم قال : ﴿ فقالَ المَلأُ الذينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إلا بَشَراً

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٠١ . وانظر صفحة ١١١ من هذه الرسالة .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٥٦١ . والآية في سورة النساء برقم ٤٧ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٣٩ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٩٩ .
(٥) سورة النساء ، آية : ٤٧ .

مِثْلَنا وما نَراكَ اتَّبَعَكَ إلا الذين هُمْ أراذِلُنا بادِيَ الرَّأيِ وَما نَرىٰ لَكُمْ عَلَينا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُم كاذِبِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه : ﴿ ثُمَّ أرسلنا مُوسى وأخاهُ هارُونَ بِآياتنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ ★ إلى فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ فاسْتَكْبَروا وكانُوا قَوْماً عالِينَ ★ فَقالُوا أنُؤمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُون ﴾ (٢) .

ولمّا بُعث النبي ﷺ ، كبُر على مَلَئها أن يكون النبي من غيرهم ، فقال الوليد بن المغيرة : «أيُنْزَلُ على محمدٍ وأُتْرَكُ وأنا كبير قريشٍ وسيدها ، ويترك أبومسعود عمرو بن عمرو الثقفي سيد بني ثقيف ، فنحن عظيما القريتين » (٣) فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقالُوا لولا نُزِّلَ هذا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم ★ أهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا ورَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًا ورَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٤) .

وتسوق الآيات الكريمة في سورة البقرة أوّل مشهد للتعالي لدى المنافقين ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وإذا قِيلَ لَهُم آمِنوا كما آمَنَ النّاسُ قالوا أنؤمِنُ كما آمَنَ السُّفهاء ألا إنَّهُم هُم السّفهاء ولكن لا يَعْلَمونَ ﴾ (٥) ، فترى الواحد منهم يضع نفسه موضع المتعالي الذي ينظر إلى الناس من علٍ ، ويترفع باستكبار عن عامة الناس وضعفائهم ، ويتأفف من الدخول في أمرٍ للفقراء والضعفاء فيه شأن، فهذه نظرتهم القاصرة المملوأة بالغرور والكبرياء ، ولو أزال تلك الحجب عن عقله وقلبه ونظر بتدبّر وإخلاص إلى ما جاء به النبي ﷺ ، وتفكّر في دلائل الحق ، لأدرك عظمة الله في قلبه ، وعرف عظيم نعمته وفضله ، ولما بقي في نفسه شيء يمنعه عن الطاعة والانقياد له سبحانه .

وأما أحبار اليهود فأظهروا تعاليهم واستكبار بألوان شتى وضروب متعددة ، فتارة يدّعون أن قلوبهم محفوظة عما سوى اليهودية ويقولون - كما أخبر الله عنهم - : ﴿ وقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ ﴾ (٦) ، يريدون بذلك إظهار الاستغناء عن دين الإسلام ، وربما قصدوا تيئيس النبي ﷺ من أنفسهم حتى لا يعاود محاورتهم ودعوتهم .

---

(١) سورة هود ، آية : ٢٧ .
(٢) سورة المؤمنون ، آية : ٤٥ - ٤٧ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ : ٨٧ .
(٤) سورة الزخرف ، آية : ٣١ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٣ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٨٨ . وانظر صفحة ١٠٩ من هذه الرسالة .

وتارة يدعون النبي ﷺ والمؤمنين إلى دينهم ، كما أخبر الله سبحانه عنهم في قوله : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أو نَصارىٰ تَهْتَدوا ﴾ (١) ، وذلك زيادة في التمادي في ضلالهم ، وإظهار الثقة بدينهم ، حتى إنهم شتموا من آمن من أحبارهم بالنبي ﷺ وقالوا : « ما آمن بمحمد ولا اتّبعه إلا شرارنا » (٢) ، يريدون بهم عبدالله بن سلام ، وثعلبة بن سَعْية ، وأسيد بن سَعْية ، وأسد بن عُبيد ... وغيرهم من مَسلَمة بني إسرائيل (٣) . وهم في ذلك كله يدركون في قرارة نفوسهم أنهم على باطل .

وكثيراً ما واجهوا النبي ﷺ بمثل ذلك الاستعلاء ، فحين أكرم الله تعالى النبي ﷺ والمؤمنين بالنصر في بدر ، أراد ﷺ أن يعظ اليهود وينصحهم ، ويحذرهم مصير الجاحدين ، فكلمهم في سوق بني قينقاع وقال لهم : « يا معشر يهود ، احذور من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم عهد الله إليكم . فقالوا : يا محمد ، إنك ترى أنا قومك ؟! لا يغرّنك أنك لقيت قوماً لا عِلمَ لهم بالحرب فأصبتَ منهم فرصة ، أما والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس » (٤) ، فكان من آثار ذلك الصلف والاستعلاء أن أذلّهم الله تعالى ، فأخرجوا من ديارهم بعد مقولتهم هذه بيسير أذلاء محتقرين .

ولم يرعو إخوانهم من اليهود ولم يتعظوا ، ولم تطب نفوسهم أن تتبع النبي ﷺ ، بل بقي التعالي حاجزاً بينهم وبين الحق ، فالحوار الذي تقدم بين عمرو القرظي والزبير بن باطا وكعب بن أسد تمخض عن الحالة المسيطرة عليهم ، حيث قال كعب : « ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً » (٥) .

وتلك حال المتعالي على الحق دائماً ، فهو مطموس البصيرة ، متردٍ في الضلالة ، مبعدٌ عن رحمة الله ، لا يهتدي بهدى ، ولا ينتفع بعلم ، وأنّى له ذلك وقد أوصد عقله وقلبه أمام الحق .

ثالثاً : التحريف والتلبيس :

أعظم ما في التحريف أنه يصرف الأذهان عن النظر في دلائل الحق ، وبخاصة إذا صدر ممن يعتقد فيه العلم والنصيحة .

وتقدم في مبحث التحريف (٦) أن أكثر ما انصب عليه جهد اليهود تحريف صفة النبي ﷺ

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٥ .
(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٥٥٧ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق ج١ : ٥٦١ .
(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ٤ : ٨٢ . وانظر صفحة ٣٤٤ من هذه الرسالة .
(٦) انظر ١٠٠ من هذه الرسالة .

تحريفاً حرفياً ، كما يفهم ذلك من مدلول قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ للذين يَكْتُبُونَ الكِتابَ بأيْدِيهِم ثُمَّ يَقُولُونَ هَذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [1] ، يقول القرطبي : « قال ابن إسحاق والكلبي : كانت صفة رسول الله ﷺ في كتابهم ربعة أسمر ، فجعلوه آدم سِبْطاً طويلاً ، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبي الذي يبعث في آخر الزمان ليس يشبهه نعت هذا » [2] . أو كان التحريف للمعاني ، ففي كلا الضربين صرف لأذهان عامة اليهود والأعراب عن النظر في أمر النبي ﷺ اعتماداً على مقولة هؤلاء الذي وثقوا بعلمهم .

ولا يقل شرّ التلبيس عن التحريف إن لم يكن أشدّ منه ، فالنبي ﷺ أكثر ما تخوّف على أمته الأئمة المضلون [3] ، لأنهم يعمدون إلى الباطل فليبسونه بالحق ليبدو للناس حقاً ، وتعلق تلك الشبهة بعقولهم ، أو أنهم يثيرون الشُّبَهَ حول الحق حتى تَزَعْزَعَ ثقة ضعاف القلوب فيه .

فكفار قريش عمدوا إلى إثارة الشبه حول النبي ﷺ ، فقالوا : شاعر ، وساحر ، ومجنون ... ونحو ذلك مما يثير الشكوك في شخص النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وكانوا يتلقّون العمّار والحجيج ويحذرونهم من النبي ﷺ والاستماع إليه .

ويروي ابن هشام في قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه أنه لما قدم مكة مشى إليه رجال من قريش فقالوا له : « يا طُفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا [4] ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلِّمنَّه ولا تسمعنّ منه » [5] .

فكان من أثر مقولتهم هذه أن حشا أذنيه قطنا حتى لا ينفذ إليهما شيء من قول النبي ﷺ ، إلا أن الله تعالى أراد له الهداية فأسمعه بعض تلاوة النبي ﷺ ، فانزاحت تلك المخاوف عن قلبه ، وأفاق إلى رشده فقال : « واثُكل أمي ، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول !؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته » [6] ، فأتمّ الله له الأمر حتى جالس النبي ﷺ وأسلم بين يديه .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٧٩ .

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٩ .

(٣) الحديث رواه الترمذي في كتاب الفتن ، باب ما جاء في الأئمة المضلين ، ح ٢٢٢٩ . السنن ٤ : ٤٣٧ .

(٤) قال ابن فارس : « العين والضاد واللام أصل واحد صحيح يدلّ على شدة والتواء في الأمر » . والمعنى : أي أعيانا أمره ، أو ضيّق علينا. [ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ٤ : ٣٤٥ - ٣٤٦] .

(٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٣٨٢ . وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ : ٩٧ .

(٦) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٣٨٣ .

كما روي أن النبي ﷺ كان يعرض دعوته على القبائل في الحج يأتي منازلهم، ويدعوهم لنصرته والإيمان بالله تعالى، وخلفه عمه أبولهب يُعَقّب على كلامه ويقول: « يابني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه »(١).

فالسامع لمقالة قريش في النبي ﷺ لا يبعد أن يدور بخَلَده أن لوكان مع هذا الرجل خير لماتركه قومه، ولسبقوا الناس قاطبة إليه، وإذ لم يحصل ذلك فلا حاجة لهم به، فيأتيهم بذلك حجاب من الشيطان يحول بينهم وبين التفكر في دعوة النبي ﷺ.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ إنّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم ★ طَعَامُ الأثِيم ﴾(٢)، وأشار به الناس إلى أبي جهل ابن هشام « صنع عجوة بزُبْدٍ، ثم دعا إليها ناساً فقال لهم: تزقّموا، فإن الزَّقُّوم هو عجوة يُثْرَد بالزبد، وهو طعامي الذي حدَّث به محمد »(٣).

قال ابن عطية: « وإنما قصد بذلك ضرباً من المغالطة والتلبيس على الجهلة »(٤).

وبذل يهود المدينة ما أمكنهم لبث الشبهات حول النبي ﷺ ودعوته، ومن أبرز مواقفهم تلك ما يأتي:

١ - عندما أظهر عبدالله بن سلام إسلامه وإقراره بالنبي ﷺ، وكشف عن بشارة التوراة به؛ جاءه حيي بن أخطب في نفر من أحبار يهود فقالوا له: « ما تكون النبوّة في العرب، ولكنّ صاحبك مَلِك »(٥).

فكأنهم أرادوا أن يلبسوا عليه الأمارات التي عرفها من التوراة في النبي ﷺ، وفي ذلك إشارة إلى أن البشارة لم تكن نصيةً، بل مفهومة من عبارات التوراة.

٢ - ولما أُمِرَ النبي ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ وحَيْثُما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وإنَّ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّهِم وَما الله بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُون ﴾(٦)، أخبر سبحانه وتعالى في آية أخرى أن قوماً من أهل السَّفَهِ والبَهْتِ سيكون لهم في

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ٢: ٣٤٩. وابن هشام، السيرة النبوية ج١: ٤٢٣.
(٢) سورة الدخان، آية: ٤٣-٤٤.
(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز ١٣: ٢٨٥. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية ج١: ٣٦٢. وابن كثير، البداية والنهاية ٣: ٨٨.
(٤) ابن عطية، المحرر الوجيز ١٣: ٢٨٥.
(٥) ابن هشام، السيرة النبوية ج١: ٥٧١.
(٦) سورة البقرة، آية: ١٤٤.

ذلك مقال ، فقال سبحانه : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ما وَلاهُم عَنْ قِبْلَتِهِم التي كانُوا عَلَيها ﴾ [1] ، وذلك أنه قالوا : « قد التبس عليه أمره وتحيّر » [2] ، وكانوا من قبلُ استحسنوا صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس وقالوا : « ما اهتدى إلا بنا » [3] .

قال ابن هشام : « ولما صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة ، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، أتى رسولَ الله ﷺ رفاعةُ بن قيس ، وقَرْدَم بن عمرو ، وكعب بن الأشرف ، ورافع بن أبي رافع ، والحجّاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف ، والربيع بن الربيع بن أبي الحُقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق فقالوا : يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ، ارجع إلى قبلتك التي كنتَ عليها نتّبعك ونصدّقك . وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه » [4] ، فنزلت الآيات : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لرَؤوفٌ رَحِيم ﴾ [5] .

٣ - محاولة تشكيك الناس في الإسلام ، فقد تآمر عبدالله بن صَيف ، وعديّ بن زيد ، والحارث بن عوف وقال بعضهم لبعض : « تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدوةً ، ونكفر به عشية ، حتى نلبس عليهم دينهم لعلّهم يصنعون كما نصنع ، ويرجعون عن دينه » [6] ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يا أهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بالباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وأنْتُمْ تَعْلَمونَ ★ وَقالَتْ طائفَةٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ آمِنُوا بالذي أُنْزِلَ على الذينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ واكْفُروا آخِرَه لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ★ ولاتُؤمِنُوا إلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُم قُلْ إنَّ الهُدىٰ هُدَىٰ اللهِ أنْ يُؤتىٰ أحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُم أو يُحاجُّوكُم عِنْدَ رَبِّكُم قُلْ إن الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يؤتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيم ﴾ [7] .

٤ - محاولة تشكيك زيد بن اللصيت - وهو من أحبار اليهود الذي أظهروا الإسلام نفاقاً - في صدق النبي ﷺ ، حيث روى ابن كثير أنه قال حين ضلّت ناقة النبي ﷺ : « يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته . فقال رسول الله ﷺ : والله لا أعْلَمُ إلا ما علّمَني الله ، وقد دلّني عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها . فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك » [8] .

(١) سورة البقرة ، آية : ١٤٢ . وعند القرطبي : « السفيه : البهّات ، الكذّاب ، المتعمّد خلاف ما يعلمه » [الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٤٨] .
(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٤٨ .
(٣) المصدر السابق ٢ : ٨٢ .
(٤) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٥٥٠ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٤٢ - ١٤٣ .
(٦) ابن هشام ، السيرة النبوية ج١ : ٢٥٣ .
(٧) سورة آل عمران ، آية : ٧١ - ٧٣ .
(٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ : ٢٣٩ .

رابعاً : التقليد[1] :

يعد التعصب من أشد الحجب التي تحول دون وصول الدعوة إلى المدعوين بطبقاتهم المختلفة ، فالعادات والأفكار المعهودة عن الآباء والأجداد تكتسب سلطاناً على النفوس يورثها قداسة تسيطر على القلوب ، فيجمد المرء عليها ولا يتحمل عناء تمحيصها أو الوقوف على حقيقتها .

و كثيراً ما تعرض القرآن الكريم لذكر أمثال هؤلاء موبخاً لهم على إهمال عقولهم وإلغائها جرياً على سنة الآباء ، كما في قوله تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا ما أنْزَلَ قالوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَينا عليه آباءنا أَوَلوا كانَ آباؤهُم لا يَعْقِلون شيئاً ولا يَهْتَدون ﴾ [2] . وقال سبحانه : ﴿ وإذا قيل لهم تَعالَوا إلى ما أنْزلَ اللهُ وإلى الرَّسولِ قالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عليه آباءنا أَوَلو كان آباؤهم لا يَعْلَمون شيئاً ولايَهْتَدونَ ﴾ [3] ، وقال عزّ وجل : ﴿ إنَّهم ألْفَوا آباءهم ضالِّينَ * فَهُم على آثارِهم يُهْرَعُون ﴾ [4] .

وأعظم سوءة للتقليد التعصب لتلك العقائد الموروثة ، وعدم الحِيْدَة عنها ، والحمية لها ، وإن بان للمتعصب خلافها .

وأشدّ الناس في ذلك اليهود ، فلما حاصر النبي ﷺ بني قريظة ، عرض عليهم كعب بن أسد الدخول في الإسلام فأبَوا وآثروا القتل ، وقالوا : « لا نفارق حكم التوراة أبداً » [5] . ودخل حيي بن أخطب مع بني قريظة في حصنهم بعد هزيمة الأحزاب وهو يشعر أن الدائرة عليهم ، وفضّل - كسائر اليهود - القتل على الدخول في الإسلام ، وقال لما جيء به للقتل مخاطباً النبي ﷺ: « أما والله ما لُمتُ نفسي في عداوتك ، ولكنه من يَخذل الله يُخذَل . ثم التفت إلى الناس وقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه » [6] .

وإذا كان التعصب لتلك العقائد الموروثة أودى ببني إسرائيل ، فلا عجب من أن تكون هذه العصبية ذاتها واحدة من العوامل المؤججة لحركة الردّة بعد وفاة النبي ﷺ ، فقد عادت أحلاف الجاهلية آنئذٍ بين طيء وأسد وغطفان ، وتعصبوا لطليحة بن خويلد الأسدي ، وفي ذلك يقول عيينة بن حصن : « والله لأن نتّبع نبياً من الحليفين أحبّ إلينا من أن نتّبع نبياً من قريش » [7] .

---

(١) انظر : أبوزهرة ، تاريخ الجدل : ٩ - ١٠ . و د . حسن عبد العال ، مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية : ١٩٠ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٧٠ .
(٣) سورة المائدة ، آية : ١٠٤ .
(٤) سورة الصافات ، آية : ٦٩ - ٧٠ .
(٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٢ : ٥٨٤ . وابن هشام ، السيرة النبوية ج٢ : ٢٣٥ . وابن كثير ، البداية والنهاية ٤ : ١٢٢ .
(٦) ابن هشام ، السيرة النبوية ج٢ : ٢٤١ .
(٧) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٣ : ٢٥٧ .

وانتصرت بنو تغلب لسجاح بنت الحارث ، وهم يعلمون أنها ليست أهلاً للنبوة ، وفي ذلك يقول شاعرهم عطارد بن حاجب[1] :

أمست نَبِيَّتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكراناً

وآزر بنو حنيفة مسيلمة الكذاب ، ومبصروهم يجزمون بكذبه ، حيث روى الطبري أن طلحة النَمري جاء اليمامة فقال : « أين مسيلمة ؟ قالوا : مه ، رسول الله . فقال : لا حتى أراه ، فلما جاءه قال : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم . قال : من يأتيك ؟ قال : رحمٰن . قال : أفي نورٍ أم في ظلمة ؟ فقال : في ظلمة . فقال : أشهد أنك كذاب ، وأنّ محمّداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر »[2] .

وكذا كل فتنة تظهر ، لا تخلوا العصبية منها . فإذا عرف الداعيةُ مُحاوِرَه ، أمكنه أن يقدر الأمور بحسبها ، فقد يتمكن من إخماد تلك العصبية في نفس المدعو ، أو يتجنبها في الحوار ، وإلا عالج الأمر بحكمة وأناة .

خامساً : القول بغير علم :

حث القرآن الكريم المسلم على التعلم والاستزادة منه كما في قوله تعالى : ﴿ وقُلْ ربِّ زِدْني عِلماً ﴾[3] ، وفضل في مواطن أخرى العالمين على غيرهم ، كما في قوله سبحانه : ﴿ قل هَلْ يَسْتَوي الذين يَعلَمُون والذين لا يَعْلَمون ﴾[4] . وذلك - والله أعلم - لأن العلم يوسع مدارك الفكر ، ويقوي ملكة الفهم والاستيعاب .

وأما مجانبة العلم والاسترسال على الجهالة فإنها تحجِّم الفكر ، وتبدد الطاقات الذهنية التي وهبها الله للإنسان ليستفيد منها لا ليضيعها .

ويزداد الأمر سوءاً وتعقيداً إذا اقترن بقلة العلم ، كبر واعتداد بالرأي ، فيمسى المرء معهما لايهتدي لصواب ، ولا يميز حقّاً من باطل .

ولذا نهى الله سبحانه عن النظر بدون علم فقال : ﴿ ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[5] ، لأنه أقرب طريق للجدل بالباطل ، الذي هو سمة بارزة لدى الكفار الجاحدين ، يقول الله تعالى :

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٣ : ٢٧٤ .
(٢) المصدر السابق ٣ : ٢٨٦ .
(٣) سورة طه ، آية : ١١٤ .
(٤) سورة الزمر ، آية : ٩ .
(٥) سورة الإسراء ، آية : ٣٦ .

﴿ الذين يُجادِلُون في آياتِ اللهِ بِغَيرِ سُلْطانٍ أتاهُم كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وعِنْدَ الذين آمَنُوا ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ ما يُجادِلُ في آياتِ اللهِ إلا الذينَ كَفَروا ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ ولا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِير ★ ثاني عِطْفِه لِيُضِلَّ عن سَبِيلِ اللهِ لَهُ في الدُّنْيا خِزْيٌ ونُذيقُه يَوْمَ القِيامَةِ عذابَ الحَريق ﴾ (٣) .

كما أنه مسلك من مسالك أهل الكتاب تجاه الدعوة الإسلامية ، حيث أكثروا منه في سبيل إعاقة الدعوة ، وتشكيك الناس فيها ، ونصرة دينهم . وأثبت القرآن عليهم ذلك في مواطن عديدة ، منها قول الله تبارك تعالى - فيما يحكيه عنهم - : ﴿ وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنا النّارُ إلا أيّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَه أمْ تَقُولُونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ (٤) ، ولا شك بأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، وإلا فأين أعمالهم الصالحة التي يرجون بها دخول الجنة ؟! أوأين حجتهم على دعواهم هذه ؟ (٥) .

ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿ وقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلا مَنْ كانَ هُوْداً أوْ نَصارىٰ تِلْكَ أمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُم إنْ كُنْتُم صادِقِين ﴾ (٦) ، يقول الطبري : « وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، إلى إحضار حجّة على دعواهم ما ادَّعوا من ذلك ، فإنه بمعنى تكذيبٌ من الله لهم في دعواهم وقيلهم ، لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبداً » (٧) .

ومنها كذلك قوله تعالى : ﴿ أم تَقُولُونَ إنَّ إبراهِيم وإسْماعِيلَ وإسْحاقَ وَيَعْقُوبَ والأسْباطَ كانُوا هُوداً أو نَصارى قُلْ أأنْتُم أعْلَمُ أم اللهُ ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَه مِنَ اللهِ وما اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلون ﴾ (٨) ، وهنا إلجاءٌ لهم ليكذّبوا أنفسهم ويقولوا : الله أعلم . فتظهر عندها الفرية في دعواهم هذه على الأنبياء الكرام عليهم السلام ، فليس لهم بها من علم ، وما لهم عليها من برهان ، وإنما يريدون بها نصرة أهوائهم .

وكما أظهر الله تعالى كذب أهل الكتاب في هذه المواطن وغيرها ، وأثبت لهم صفة الجدل بالباطل ، والقول بغير علم ، فإنه سبحانه أظهر كذلك كذب المشركين فيما ادّعوا حرمته من بعض

(١) سورة غافر ، آية : ٣٥ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٤ .
(٣) سورة الحج ، آية : ٨ - ٩ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٨٠ .
(٥) انظر صفحة ١٢٤ - ١٢٥ من هذه الرسالة .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١١١ .
(٧) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢ : ٥١٠ . وانظر صفحة ١٢٧ من هذه الرسالة .
(٨) سورة البقرة ، آية : ١٤٠ .

مطاعمهم ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إنَّه لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين ★ إنَّما يأمُرُكُمْ بالسُّوءِ والفَحْشاءِ وأنْ تَقُولُوا على الله ما لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، فالناس في الجاهلية كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام (٢) ، فأخبرهم الله تعالى « أن قيلهم هذا من الكذب الذي يأمرهم به الشيطان ، وأنه قد أحله لهم وطيَّبه ، ولم يحرم أكله عليهم ، ولكنهم يقولون على الله ما لا يعلمون حقيقته ، طاعة منهم للشيطان ، واتباعاً منهم خطواته ، واقتفاءً منهم آثار أسلافهم الضُّلال ، وآبائهم الجهّال » (٣) .

سادساً : تجهيل أهل العلم :

للعلماء مقام عالٍ ، ومكانة رفيعة ، لما حباهم الله تعالى به من علم ، فهم ورثة الأنبياء ، وعنهم يؤخذ الدين ، فحقهم الإجلال والتوقير والاحترام ، يقول النبي ﷺ : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم . ثم قال : إن الله وملائكته وأهل السمٰوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير » (٤) .

وأدرك الصحابة رضوان الله عليهم مكانة العلماء ووجوب احترامهم وتوقيرهم ، فكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يأمر بالتواضع للعلماء (٥) . كما أثر عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه كان يأخذ بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه ويقول : « هكذا نفعل بالعلماء والكبراء » (٦) . وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : « من حق العالم ألا تكثر عليه السؤال ، ولا تعنته في الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشي له سراً ، ولا تغتاب عنده أحداً » (٧) .

وأما من لم يعرف قدر العلم ، فلن يعرف قدر العلماء ، ولن يُوْلِيهم ذلك الاحترام والتقدير ، فإنما هو جاهل ، وقد قيل : « من أمَّل شيئاً هابه ، ومن جهل شيئاً عابه » (٨) ، ونسب لعلي بن أبي

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) البحيرة : هي الناقة إذا ولدت عشرة بطون شقُّوا أذنها وسيَّبوها ، فلا تُركب ولا يُحمل عليه . [الراغب ، المفردات : ٣٧] . والسائبة : الناقة التي تسيَّب في المرعى فلا تُردّ عن حوض ولا علف ، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن . [الراغب ، المفردات : ٢٤٦] . والوصيلة : هي الشاة إذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فلا يذبحون أخاها من أجلها . [الراغب ، المفردات : ٥٢٥] . والحام : البعير إذا ضرب عشرة بطون كان يقال : حَمي ظهره فلا يركب . [الراغب ، المفردات : ١٣٣] .

(٣) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٣٠٤ .

(٤) رواه الترمذي في كتاب العلم ، باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة ، ح ٣٦٨٥ . السنن ٥ : ٤٨ .

(٥) انظر : ابن مفلح ، الآداب الشرعية ١ : ٢٢٤ .

(٦) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٩٩ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) ابن مفلح ، الآداب الشرعية ١ : ١١٣ .

طالب رضي الله عنه أنه أنشد[1] :

الناس من جهة التِّمْثال أكفاء — أبوهم آدم والأم حـــــواء
وإنما أمّهات الناس أوعية — مستودَعاتٌ وللأحساب آباء
وإن يكن لهم من أصلهم شرف — يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم — على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه — والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففُز بعلم تعش حيّاً به أبداً — الناس موتى وأهل العلم أحياء

وما لهؤلاء مَثَلٌ فيمن سبق مِثْلُ بني إسرائيل الذين استهانوا بأنبيائهم ، وأكثروا من إيذائهم ، بل وأقدموا على قتل من قدروا عليه منهم ، ولم يحشموا نبي الله موسى عليه السلام من الإيذاء والنسبة إلى أعمال الجهلاء ، وهو الذي كتب الله على يديه خلاصهم من فرعون وقومه ، فقالوا له حين أمرهم أن يذبحوا بقرة - فيما يحكي القرآن عنهم - : ﴿ أَتَتَّخِذُنا هُزُواً ﴾[2] . فبادرهم موسى عليه السلام بقوله - كما أخبر القرآن عنه - : ﴿ قال أعُوذُ بالله أنْ أكُوْنَ مِنَ الجاهِلِين ﴾[3] « لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل ، فاستعاذ منه عليه السلام ، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء . والجهل نقيض العلم ، فاستعاذ من الجهل . كما جهلوا في قولهم : أتتخذنا هزواً ، لمن يخبرهم عن الله تعالى »[4] .

وما زال بنو إسرائيل على ذلك الخلق في تجهيل الأنبياء ، وإلحاق الأذى بهم ، حتى آذن الله تعالى بزوال النبوة عنهم إلى النبي ﷺ ، فتفطرت أكبادهم غيظاً وحقداً .

وإن كان ذلك الخلق عند بني إسرائيل من أسباب زوال النبوة عنهم ، فليحذر المسلمون منه، فقد يكون ذلك إيذاناً بزوال العلم ورفعه كما أخبر النبي ﷺ حيث قال : « إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناسٌ جهّالٌ يُسْتَفْتَون فيُفْتُون برأيهم فيَضِلُّون ويُضِلُّون »[5] ، وقال ﷺ في حديث آخر : « إنّ بين يدي الساعة لأيّاماً ينزل فيها الجهل ، ويُرْفَعُ فيها العلم ، ويكثر فيها الهَرَج ، والهَرَج القتل »[6] .

---

(١) ديوان علي بن أبي طالب : ٧ . وانظر : الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٧٧ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٦٧ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٦٧ .
(٤) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١ : ٤٤٦ - ٤٤٧ .
(٥) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالسنة ، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس ، ح ٧٣٠٧ . الصحيح ٤ : ٣٦٥ .
(٦) رواه البخاري في كتاب الفتن ، باب ظهور الفتن ، ح ٧٠٦٢ . الصحيح ٤ : ٣١٤ .

ولا يلزم من احترام العلماء وتقديرهم وإعطاءهم حقهم التغاضي عن أهل البدع والضلالة من المتظاهرين بالعلم ، فليسوا أولئك بعلماء صدق ، بل لا بد من إظهار عيوبهم بالحجج والبراهين الدامغة ، ويحسن أن يترك مثل هذا للعلماء أنفسهم ، فهم أقدر على معرفة هؤلاء ، وكشف شبهاتهم وضلالتهم .

المبحث الثاني

سبل التغلب على الموانع

كلّف الله تعالى الدعاة إليه بالبلاغ ، وقال مخاطباً النبي ﷺ : ﴿ يا أيُّها النَّبيّ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّك ﴾ (١) ، ولم يكلّفه قبول الناس واستجابتهم ، حيث قال سبحانه : ﴿ فإنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ ومَن اتَّبَعَنِ وَقُل للذينَ أوتُوا الكِتابَ والأمِّيينَ أأسْلَمْتُمْ فإنْ أسْلَمُوا فَقَد اهْتَدَوا وإن تَوَلَّوا فإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ واللهُ بَصِيرٌ بالعِبادِ ﴾ (٢) .

وليس البلاغ بالأمر الهين ، فالدعوة تحتاج إلى عزم وجهد كبيرين ، حتى إنّ النبي ﷺ لما نُبِّئ وأمر بالدعوة ظنّ أنه مقتول ، فأراد أن يستوثق لأهله وقضاء دينه فقال لبني هاشم : « أيكم يقضي عني ديني ، ويكون خليفتي في أهلي » (٣) ، قال ابن كثير : « ومعنى قوله في هذا الحديث : من يقضي عني ديني أو يكون خليفتي في أهلي ؟ يعني : إذا مت ، وكأنه ﷺ خشي إذا قام بإبلاغ الرسالة إلى مشركي العرب أن يقتلوه ، فاستوثق من يقوم بعده بما يصلح أهله ، ويقضي عنه » (٤) .

وليتم البلاغ على وجهه يحتاج الداعية إلى الاتصال بالمدعو ، وتبليغه الدعوة ، فقد كان النبي ﷺ يغشى قريشاً في أنديتها ، ولا يسمع بشريف قدم مكة إلا كلمه ودعاه ، وإذا حضرت المواسم تعرض للوفود والحجيج يدعوهم إلى الله تعالى .

وليس طرق الأسماع كافياً في البلاغ ، بل لا بد من اتخاذ السبل المتاحة والمعقولة ليفهم المدعو الدعوة ويعرف غاياتها ومراميها ، وذلك يتطلب إزاحة العوائق ، وإزالة موانع القبول قدر المستطاع ، مع ملاحظة أن الناس ليسوا سواسية في الاستجابة فمنهم السريع المبادر كأبي بكر الصديق وخديجة بنت خويلد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً ، ومنهم المتباطئ المتردد ، ومنهم المسوّف ، ومنهم من لا يقبل الدعوة أصلاً ولا يستجيب لها .

وبما أن الحديث جرى آنفاً حول موانع الاستفادة من المنهج العقلي ، فمن الضروري بيان السبل الكفيلة – بإذن الله – بإزالة تلك العوائق والحجب ، وفيما يأتي طرف منها :

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٦٧ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٢٠ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ : ٣٩ .
(٤) المصدر السابق .

أولاً : تحديد الموضوع المدعوّ إليه :

تقتضي مصلحة التبليغ ألا يدخل الداعية في خلافات عريضة ، وخصومات مطولة مع المدعوين ، لما يورث ذلك من الملل والسآمة ، وإضاعة الجهد والوقت دون فائدة .

وبإمكان الداعية أن يتجنب جلَّ ذلك إذا حدد الموضوع ، سواء كان الطرح من قبله أو من قبل المدعوّ .

فإذا كان الطرح من عنده لم يزد على موضوع واحد ، حتى إذا وجد قبولاً انتقل إلى غيره ، وفق حالة المدعو ، وإلا توقف عنده . فالنبي ﷺ حين أُمِرَ بالإنذار ، أراد - حين وقف على جبل أبي قبيس - أن يقررهم على صدقه أولاً ، حتى إذا أقروا انتقل بهم إلى الإنذار ، ولم يزد على الإنذار شيئاً آخر ، حيث إنه الهدف الأول في ذلك الموقف .

وإن كان الطرح من طرف المدعو ، لم يدخل معه في التشعبات التي يطلقها ، وتوقف عند الغاية والهدف الذي يسعى له ، فلمّا أكثرت قريش على النبي ﷺ من طلب الآيات والمعجزات ؛ امتثل لأمر الله تعالى : ﴿ قُلْ سُبحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلا بَشَراً رَسُولاً ﴾ [1] ، ولم يزدهم على أن قال : « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربّه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » [2] .

وبالتأمل في الموضوعات التي عنيت بها الآيات الكريمة في سورة البقرة ، تتبين أهمية تحديد الموضوع ، إذ يتمكن الداعية من الإحاطة به ، وحصر جميع أطرافه ، ومعالجته معالجة شاملة لا تدع مجالاً للشطط ، ولا مدخلاً للشبهات ، وتسقط جميع الدعاوى المقامة ضدّها . وقد نبه العلماء إلى ذلك في آداب الجدل ، فقال الخطيب البغدادي : « ويلزم المجيب أن يسدّ بالجواب موضع السؤال ، ولا يتعدّى مكانه ، ويجعل المثل كالممثل به ، ويختصر في غير تقصير ، وإن احتاج إلى البيان بالشرح أطال من غير هذر ولا تكدير ، ويقابل باللفظ المعنى حتى يكون غير ناقص عن تمامه ، ولا فاضل عن جملته » [3] .

والآيات الكريمة تقدم خير منهج لذلك ، فعند الحديث عن التوحيد ؛ أثبتته لله تعالى أولاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وإلٰهُكُمْ إلٰهٌ وَاحِدٌ لا إلٰهَ إلا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيم ﴾ [4] ، ثم عَرَضت لِدلائل

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٩٣ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ٣ : ٤٩ .
(٣) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٣٤ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٦٣ .

الوحدانية فساقتها واحدة تلو أخرى ، فعرضت دليل الخلق والإبداع ، ودليل العناية والتسخير ، ودليل الحركة والتغيُّر ، لخدمة الغاية والهدف المثبت ابتداءً ، يقول الله تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الذي خَلَقَكُمْ والذينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُون * الذي جَعَلَ لَكُم الأرضَ فِراشاً والسَّماءَ بِناءً وأنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لَكُمْ فلا تَجْعَلُوا للهِ أنْداداً وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأرْضِ واخْتِلافِ الليلِ والنَّهارِ والفُلْكِ التي تَجْري في البَحْرِ بما يَنْفَعُ النَّاسَ وَما أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فأحْيا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وتَصْريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ لآياتٍ لِقَومٍ يَعْقِلونَ ﴾ (٢) .

وبمجموع تلك الدلائل تزول الشبهات العالقة بأذهان المشركين حول آلهتهم من ضرورة تعددها لتسع الناس والتي كانت مثار تعجب واستنكار من قبلهم كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك في قوله : ﴿ وعَجِبوا أنْ جاءَهُم مُنْذِرٌ مِنْهُم وقالَ الكافِرونَ هذا ساحِرٌ كَذّاب * أجَعَلَ الآلِهَةَ إلٰهاً واحِداً إنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجاب * وانْطَلَقَ المَلأ مِنْهُم أن امشُوا واصْبِروا على آلِهَتِكُم إنّ هذا لَشَيْءٌ يُراد * ماسَمِعْنا بِهذا في المِلَّةِ الآخِرَةِ إنْ هذا إلا اخْتِلاق ﴾ (٣) . كما تنتفي فكرة نفعها وضررها ، فالله وحده هو الخالق المدبر المتصرف في هذا الكون وليس أحدٌ سواه .

وعندما توجهت الآيات الكريمة لإثبات صدق النبي ﷺ وصحة رسالته ، خاطب المشركين بما يناسب حالهم ، فتحدتهم بأفضل ما عندهم ، حيث دعتهم إلى معارضة القرآن الكريم ، فقال سبحانه : ﴿ وإنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مما نَزَّلْنا على عَبْدِنا فأتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِه وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِن دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُم صادِقِينَ * فإنْ لمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلوا فاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُها الناسُ والحِجارَةُ أعِدَّتْ للكافِرينَ ﴾ (٤) ، وبذلك تسقط دعواهم التي أخبر عنها القرآن : ﴿ إنْ هذا إلا قَوْلُ البَشَر ﴾ (٥) .

وناقش القرآن الكريم كذلك أهل الكتاب في الموضوع نفسه ، فأخبر عن معرفتهم بالنبي ﷺ، وأنهم باشروا تحريف صفاته والبشارات به كي يصدوا الناس عن اتباعه ، بغياً وحسداً (٦) .

ولما كان اليوم الآخر موضع المحاورة بين النبي ﷺ والمشركين ، أقام لهم الدلائل عليه من خلال قدرة الله تعالى على الإحياء ابتداءً فقال سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرونَ باللهِ وَكُنْتُمْ أمْواتاً فأحْياكُم ثُمَّ يُميتُكم ثُمَّ يُحْييكم ثُمّ إليه تُرْجَعُون ﴾ (٧)، كما استدل القرآن بخبر من أماتهم الله تعالى وأحياهم

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٢ - ٢٣ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٦٤ .
(٣) سورة ص ، آية : ٤ - ٧ .
(٤) سورة البقرة ، اية : ٢٢ - ٢٣ .
(٥) سورة المدثر ، آية : ٢٥ .
(٦) انظر صفحة ٩٢ ، ١٠٠ من هذه الرسالة .
(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .

في الدنيا ، حيث قال سبحانه : ﴿ ألم تَرَ إلى الذين خَرَجُو من دِيارِهِم وهُم ألوفٌ حَذَرَ الموتِ فقال لهم اللهُ مُوتُوا ثم أحْياهُم إنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ على النّاسِ ولكنّ أكثَرَ النّاس لا يَشْكُرُون ﴾ [١] ... ونحو ذلك من الدلائل والحجاج في موضوع اليوم الآخر [٢] .

وعندما أراد القرآن الكريم تعرية المنافقين وكشف حالهم ، أخبر سبحانه عن مخادعاتهم : ﴿ يُخادِعُونَ اللهَ والذينَ آمَنوا وما يَخْدَعونَ إلا أنفُسَهُم وما يَشْعُرون ﴾ [٣] ، و مرض قلوبهم : ﴿ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ [٤] ، وإفسادهم : ﴿ ألا إنَّهُم هُمُ المُفْسِدونَ ولكن لايَشْعُرون ﴾ [٥] ... وما إلى ذلك من القضايا الكاشفة لخباياهم وسوء معتقدهم .

وهكذا في كل موضوع يتعرض له القرآن الكريم ، تجده محدداً ، مجموع الأطراف، لا شتات فيه ولا اضطراب . وفي ذلك درس بليغ للدعاة ، والمعني منهم بالحوار بخاصة ، فإن تحديد الموضوع يحفظه من التشعب الذهني ، ويقيه من الانجرار إلى موضوعات خارجة عن الموضوع الأساس الذي أقام الحوار لأجله ، ومن ثم يبقى الهدف منصوباً ، والعزيمة قائمة لإثبات الحق . وبذلك يوصي الخطيب البغدادي فيقول : « وليعمد إلى المقصود من كلام خصمه ، ولا يتعلق بما يجري في عُرْضِه مما لا يعتمده ، فإن المعوَّل على المقصود ، والظهورُ على الخصم بإبطال ما قصده وعوَّل عليه واعتمده » [٦] .

إضافة إلى أن التحديد يمنع الآخرين من إدخال التلبيسات والشبهات المفسدة لغرض الداعية ، فإن أبى إلا إقحامها سهل عليه تعرية تلك الشبهات وردّها بسهولة ويسر .

كما أن التحديد يعين على اختيار الطريقة الملائمة والمناسبة لحسم الحوار وإيجازه ، والوصول إلى الحق بأقرب الطرق وأقصرها ، ومثال ذلك محاورةُ القرآن الكريم لأهل الكتاب في إبطال دينهم المحرف ونفي الإيمان عنهم :

فأثبت أولاً أن دين إبراهيم عليه السلام الذي يحتجّ به اليهود هو الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ ووَصَّىٰ بِها إبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إنّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنْتُمْ مُسْلِمُون ★ أمْ كُنْتُم شُهَداءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوتُ إذْ قالَ لِبَنِيه ما تَعْبُدونَ مِنْ

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٤٣ .
(٢) انظر صفحة ٨٢ - ٨٩ من هذه الرسالة .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٩ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ١٠ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ١٢ .
(٦) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٣٦ .

بَعْدي قالوا نَعْبُدُ إلٰهكَ وإلٰه آبائكَ إبراهِيمَ وإسْماعِيلَ وإسْحاقَ إلٰهاً واحِداً ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون ﴾ [1] .

ثم دعاهم إلى دين إبراهيم عليه السلام الذي أثبته له فقال سبحانه : ﴿ وقالوا كُونوا هُوداً أو نَصارىٰ تَهْتَدوا قلْ بل مِلَّة إبراهِيم حنيفاً وما كان مِنَ المُشْرِكينَ ★ قُولُوا آمَنّا باللهِ وما أُنْزِلَ إلَيْنا وما أُنْزِلَ إلى إبْراهِيمَ وإسْماعِيلَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ والأسباطِ وما أُوتي مُوسى وعِيسى وما أُوتي النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَينَ أحَدٍ مِنْهم ونَحْنُ له مُسْلِمونَ ﴾ [2] .

وفي نهاية الحوار يتوصل إلى الغاية المقصودة ، فيثبت عدم إيمانهم وأنهم على باطل من خلال عرض حالهم على الحقائق المتقدمة ، قال تعالى : ﴿ فإنْ آمنوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُم به فقد اهْتَدوا وإنْ تَوَلَّوا فإنّما هم في شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُم اللهُ وهو السَّمِيعُ العَلِيم ﴾ [3] .

ثانياً : العلم الوافي بالموضوع [4] :

العلم عُدَّة الداعية التي يرتكز عليها ، ووسيلته التي يعتمد عليها - بعد توفيق الله تعالى - في عملية التبليغ والمحاورة ، والبصيرة التي تحدث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هذه سَبِيلي أدْعُوا إلى اللهِ على بَصِيرةٍ أنا ومَن اتَّبَعني وسُبْحانَ اللهِ وما أنا من المُشْرِكين ﴾ [5] . قال الراغب الأصفهاني : « أي على معرفةٍ وتحقق » [6] . وبهذا فالقرآن الكريم يرسم الدعوة على أساس من العلم اليقيني ، والحجة الدامغة ، والبصيرة النافذة ، بعيداً عن الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً.

وتلك البصيرة هي التي تقي الداعية من القول بغير علم ، فلا يدافع عن فكرة لا يعرفها ، ولا يناقش موضوعاً دون أن يستوعبه أو يعدّ له إعداداً دقيقاً ، وقد قيل في أدب المجادل : « أن يكون نطقه بعلم ، وإنصاته بحلم ، ولا يعجل إلى جواب ، ولا يهجم على سؤال ، ويحفظ لسانه من إطلاقه بما لا يعلم ، ومن مناظرته فيما لا يفهم ، فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الخجل والانقطاع ، فكان فيه نقصه وسقوط منزلته عند من كان ينظر إليه بعين العلم والفضل ، ويجدره بالمعرفة والعقل ، والعرب تقول : عيي صامت خير من غبي ناطق » [7] .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٢ - ١٣٣ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ١٣٤ - ١٣٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ١٣٦ .
(٤) انظر : الندوة ، في أصول الحوار : ٤٢ - ٤٣ .
(٥) سورة يوسف ، آية : ١٠٨ .
(٦) الراغب الأصفهاني ، المفردات : ٤٩ .
(٧) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٣١ .

والإتقان سمة من سمات المؤمنين كما أخبر بذلك النبي ﷺ فقال : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »(١) . وليس مثل الإتقان في الدعوة معيناً على حسن البلاغ ، وجودة العرض، ومن ثَمَّ جذب نفس المحاور والسامع ليتفهم ويتدبر .

ومن علائم الاتقان وحسن الإعداد أن يحترس في انتقاء الكلمات حذراً من تداخل المعاني ، يقول الخطيب البغدادي فيما يلزم المحاور : « أن يكون كلامه يسيراً جامعاً بليغاً ، فإن التحفظ من الزلل مع الإقلال دون الإكثار ، وفي الإكثار أيضاً ما يُخْفي الفائدة ويضيع المقصود ، ويورث الحاضرين الملل »(٢) .

والعلم بموضوع الحوار : تفاصيله ، وشواهده ، والحجج والبراهين المتعلقة به ؛ يبعث الطمأنينة في قلب الداعية ، ويعطيه قوة وثباتاً تمكنه من خَصْمِ المعاند ، وردّه على أعقابه ، كما في مجادلة إبراهيم الخليل عليه السلام مع النمرود ، قال تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربّه أن آتاه اللهُ الملكَ إذ قال إبراهيم ربيَ الذي يُحْيِي ويُمِيت قال أنا أُحْيِي وأُمِيْتُ قال إبراهيمُ فإنَّ اللهَ يأتي بالشّمس من المشرق فأتِ بها مِن المَغْرِب فبُهِتَ الذي كفر واللهُ لا يهدي القوم الظالمين ﴾(٣) .

ومما أثر عن ابن القاص أحمد بن أحمد - فيما لا بد للمجادل من معرفته - أنه قال : « الأصول سبعة : الحِسُّ ، والعقل ، ومعرفة الكتاب والسنّة ، والإجماع ، واللغة ، والعبرة . فلا بدّ للمتناظرين من معرفة جمل ذلك .

فالحواس خمس : السمع والبصر والشمّ والذوق واللمس .

والعقل على ضربين : غريزي ومستجلب .

والكتاب والسنة على ضربين : فمجمل ومفسّر ، وطريق السنّة على ضربين : فمتواتر وآحاد .

والإجماع على ضربين : فإجماع الأمّة ، وإجماع الحجّة .

واللغة على ضربين : فأحدهما في معنى الأصل لا يعذر عالم بجهله ، والثاني ذات وجوه وشعب.

فمن أنكر الحس أنكر نفسه ، ومن أنكر العقل أنكر صانعه ، ومن أنكر عموم القرآن أنكر حكمه ، ومن أنكر خبر الآحاد أنكر الشريعة ، ومن أنكر إجماع الأمة أنكر نبيه ، ومن أنكر اللغة سقطت محاورته ، لأن اللغات للمسميات سمات . ومن أنكر العبرة أنكر أباه وأمّه »(٤) .

---

(١) رواه أبويعلى الموصلي في مسنده ٤ : ٢٥٣ برقم ٤٣٦٩ .
(٢) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٢٨ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٥٨ .
(٤) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ١٩ - ٢٠ .

ومما يعين على الإتقان، أن يكون الداعية ملماً بالأمثال والنماذج القرآنية التي فيها عظة وعبرة. ومن الأمثال في سورة البقرة:

أمثال المنافقين، قال تعالى: ﴿ مَثَلُهم كمَثَل الذي استوقَد ناراً فلمّا أضاءتْ ما حولَه ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُم في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُون ★ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُم لا يَرجِعُون ★ أو كصَيِّبٍ من السماء فيه ظُلُماتٌ ورَعْدٌ وبَرْقٌ يَجْعَلون أصابِعَهم في آذانِهم مِن الصَّواعق حَذَر الموتِ واللهُ مُحيطٌ بالكافرين ★ يَكادُ البَرقُ يَخْطَفُ أبصارَهم كُلَّما أضاءَ لهم مَشَوا فيه وإذا أظلَم عليهم قامُوا ولو شاءَ اللهُ لذهب بسَمْعِهم وأبصارِهم إنّ الله على كُلِّ شيءٍ قَدير ﴾[1].

وأمثال الكفار، قال عزّوجل: ﴿ ومَثَل الذين كَفَروا كمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِما لايَسْمَعُ إلاّ دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُم لا يَعْقِلون ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُم بالمَنِّ والأذىٰ كالذي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاء النّاسِ ولا يُؤمِن باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُه كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لايَقْدِرونَ على شَيءٍ مِمّا كَسَبوا واللهُ لا يَهْـدِي القَوْمَ الكَافِرين ﴾[3].

وأمثال المسلمين، قال سبحانه: ﴿ مَثَل الذين يُنْفِقُونَ أمْوالَهُم في سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيم ﴾[4]. وقال في آية أخرى: ﴿ ومَثَل الذين يُنْفِقُونَ أمْوالَهُم ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أنْفُسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فإنْ لَمْ يُصِبْها وَابِلٌ فَطَلٌّ واللهُ بِما تَعْمَلونَ بَصِير ﴾[5].

ومن النماذج التي أوردتها سورة البقرة:

آدم عليه الصلاة السلام في أنموذج المبادر إلى التوبة من الخطيئة، قال تعالى: ﴿ فتَلَقّى آدمُ مِن رَبِّهِ كَلِماتٍ فتابَ عليه إنَّهُ هو التّوابُ الرّحيم ﴾[6].

والقرية التي تحايل أهلها على دين الله فأصابها عذاب الله، قال جلّ ذكره: ﴿ ولَقَدْ عَلِمْتُم الذينَ اعْتَدَوا مِنْكُم في السَّبتِ فَقُلْنا لَهُم كُونُوا قِرَدَةً خاسِئينَ ★ فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَينَ يَدَيها وما خَلْفَها ومَوعِظَةً للمُتَّقِينَ ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٧ - ٢٠.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٧١.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦٤.
(٤) سورة البقرة، آية: ٢٦١.
(٥) سورة البقرة، آية: ٢٦٥.
(٦) سورة البقرة، آية: ٣٧.
(٧) سورة البقرة، آية: ٦٥ - ٦٦.

وإبراهيم ويعقوب عليهما السلام الذين أوصيا بالتمسك بالاسلام والدوام عليه، قال سبحانه: ﴿ ووَصَّىٰ بِها إبْراهِيمُ بَنيهِ ويَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إنّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنْتُمْ مُسْلِمُون ★ أمْ كُنْتُم شُهَداءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوتُ إذْ قالَ لِبَنِيه ما تَعْبُدونَ مِنْ بَعْدِي قالوا نَعْبُدُ إلٰهكَ وإلٰه آبائكَ إبراهِيمَ وإسْماعِيلَ وإسْحاقَ إلٰهاً واحِداً ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون ﴾ (١) .

والقوم الذين فرّوا من الموت ، قال تعالى : ﴿ ألمْ تَرَ إلى الذينَ خَرَجُوا من دِيارِهم وهُم ألوفٌ حَذَرَ الموتِ فَقالَ لَهُم اللهُ مُوتُوا ثُمّ أحْياهُم إنّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ على النّاسِ ولكنَّ أكْثَرَ النّاس لا يَشْكُرون ﴾ (٢) .

والفئة القليلة التي تمسكت بحبل الله فنصرها ، قال سبحانه : ﴿ قال الذين يَظُنُّونَ أنّهُمْ مُلاقُوا اللهِ كَمْ مِن فئةٍ قَليلَةٍ غَلَبتْ فئةً كَثيرَةً بإذنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصّابِرين ★ وَلَمّا بَرَزوا لِجالُوتَ وجُنُودِه قالوا رَبَّنا أفْرِغْ عَلَينا صَبْراً وثَبِّتْ أقْدامَنا وانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرينَ ★ فَهَزمُوهُم بإذْنِ اللهِ وقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وآتاه اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَه مما يشاء ولولا دَفْعُ اللهِ النّاس بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرْضُ ولٰكِنَّ اللهَ ذو فَضْلٍ على العالَمين ﴾ (٣) .

وتلك الأمثال وهذه النماذج تُعدّ ذخيرة جيدة ، تجعل الداعية يلم للموضوع الواحد بوجوه واحتمالات قد لا تخطر بباله ، كما أنها حجة حاضرة بالغة العبرة والدلالة ، ومن الضروري له أن يتعمق في معانيها بسؤال العلماء عنها ومطالعة آرائهم فيها .

ثالثاً : وضوح الحجّة (٤) :

البَيِّنَة : « الدلالة الواضحة ، عقلية كانت أم محسوسة » (٥) .

والبيان والوضوح سمة لا زمة لدعوة الحق ، فقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بالـ« بَيِّن » فقال : ﴿ شَهْرُ رَمَضانَ الذي أنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدىً للنّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الهُدَىٰ والفُرْقانِ ﴾ (٦) ، أي «واضحات ، من البيان الدالّ على حدود الله وفرائضه وحلاله وحرامه » (٧) . وقال سبحانه في موضع آخر : ﴿ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكِتابٌ مُبِينٌ ★ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السّلامِ

(١) سورة البقرة ، آية : ١٣٣ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٣ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٤٩ – ٢٥١ .
(٤) انظر : الندوة ، في أصول الحوار : ٤٣ – ٤٤ .
(٥) الراغب الأصفهاني ، المفردات : ٦٨ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٨٥ .
(٧) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣ : ٤٤٨ .

ويُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِه ويَهْدِيهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

كما وصف الحجج والبراهين التي أعطاها رسله وأنزلها في كتابه العزيز بالبيِّنات ، فقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ ورَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجاتٍ وآتَينا عِيسى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ وأيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الذينَ مِن بَعْدِهِم مِن بَعْدِ ما جاءَتْهُم البَيِّناتِ ولكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ ومِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ولَو شاء اللهُ ما اقْتَتَلُوا ولكنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيد ﴾ (٢) . ومن بينات عيسى عليه السلام : إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، مع الإنجيل الذي آتاه الله تعالى إياه (٣) . والبينات التي اختلف الناس فيها هي « ما جاءهم من آيات الله ما أبان لهم الحق وأوضح لهم السبيل » (٤) .

وقد آتاهم الله تعالى البيان والحجج الواضحة القوية ليكون بلاغهم مبيناً على أكمل وجه ، كما في قوله الله تعالى : ﴿ فإنْ تَوَلَّوا فإنَّما عَلَيكَ البَلاغُ المُبِين ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ وما على الرَّسُولِ إلا البَلاغُ المُبِين ﴾ (٦) .

والتأكيد على بيان القرآن والآيات وبلاغ الرسل عليهم السلام ، يكشف عن ضرورة اهتمام الداعية بمنطقه وبيانه ، لتكون حجته قوية واضحة ، فقوة التعبير ، وفصاحة اللسان من أسس الحوار الناجح . وقد سئل الأحنف بن قيس عن البلاغة فقال : « صواب الكلام ، واستحكام الحجة، والاستغناء عن الإكثار » (٧) . ونقل عن الشافعي محمد بن إدريس أنه قال : « أحسن الاحتجاج ما أشرقت معانيه ، وأُحْكِمَتْ مبانيه ، وابتهجت له قلوب سامعيه » (٧) ، وكأنه يرحمه الله كان يتحدث عن سجية ترسخت فيه حتى عرفت عنه ، يقول الربيع بن سليمان : « كنّا جلوساً في حلقة الشافعي بعد موته بيسير ، فوقف علينا أعرابي فقال : أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ فقلنا : توفي رحمه الله . فبكى بكاءً شديداً ، وقال : توفي ؛ رحمه الله وغفر له ، فلقد كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويبدي على خصمه واضح المحجة ، ويغسل من العار وجوها مُسْوَدَّة ، ويوسّع بالرأي أبوباً منسدّة » (٨) .

وأما ضعف الحجة ، ورداءة الأسلوب ، فلهما آثار عكسية على شخصية الداعي ، وعلى عمله

(١) سورة المائدة ، آية : ١٥ - ١٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٣ .
(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٣٧٩ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٣٧٦ .
(٤) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٣٨٠ .
(٥) سورة النحل ، آية : ٨٢ .
(٦) سورة العنكبوت ، آية : ١٨ .
(٧) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٣٤ .
(٨) المصدر السابق ٢ : ٣٧ .

ويُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِه ويَهْدِيهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

كما وصف الحجج والبراهين التي أعطاها رسله وأنزلها في كتابه العزيز بالبيِّنات ، فقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ ورَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجاتٍ وآتَينا عِيسى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ وأيَّدْناهُ بِرُوحِ القُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الذينَ مِن بَعْدِهِم مِن بَعْدِ ما جاءَتْهُم البَيِّناتِ ولَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ ومِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ولَو شاء اللهُ ما اقْتَتَلُوا ولكنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيد ﴾ (٢) . ومن بينات عيسى عليه السلام : إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، مع الإنجيل الذي آتاه الله تعالى إياه (٣) . والبينات التي اختلف الناس فيها هي « ما جاءهم من آيات الله ما أبان لهم الحق وأوضح لهم السبيل » (٤) .

وقد آتاهم الله تعالى البيان والحجج الوضحة القوية ليكون بلاغهم مبيناً على أكمل وجه ، كما في قوله الله تعالى : ﴿ فإنْ تَوَلَّوا فإنَّما عَلَيكَ البَلاغُ المُبِين ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ وما على الرَّسُولِ إلا البَلاغُ المُبِين ﴾ (٦) .

والتأكيد على بيان القرآن والآيات وبلاغ الرسل عليهم السلام ، يكشف عن ضرورة اهتمام الداعية بمنطقه وبيانه ، لتكون حجته قوية واضحة ، فقوة التعبير ، وفصاحة اللسان من أسس الحوار الناجح . وقد سئل الأحنف بن قيس عن البلاغة فقال : « صواب الكلام ، واستحكام الحجة، والاستغناء عن الإكثار » (٥٣) . ونقل عن الشافعي محمد بن إدريس أنه قال : « أحسن الاحتجاج ما أشرقت معانيه ، وأحكِمتْ مبانيه ، وابتهجت له قلوب سامعيه » (٧) ، وكأنه يرحمه الله كان يتحدث عن سجية ترسخت فيه حتى عرفت عنه ، يقول الربيع بن سليمان : « كنّا جلوساً في حلقة الشافعي بعد موته بيسير ، فوقف علينا أعرابي فقال : أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ فقلنا : توفي رحمه الله . فبكى بكاءً شديداً ، وقال : توفي ، رحمه الله وغفر له ، فلقد كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويبدي على خصمه واضح المحجة ، ويغسل من العار وجوها مُسْوَدَّة ، ويوسّع بالرأي أبوباً منسدّة » (٨) .

وأما ضعف الحجة ، ورداءة الأسلوب ، فلهما آثار عكسية على شخصية الداعي ، وعلى عمله

---

(١) سورة المائدة ، آية : ١٥ - ١٦ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٣ .
(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٣٧٩ . وابن عطية ، المحرر الوجيز ٢ : ٣٧٦ .
(٤) الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥ : ٣٨٠ .
(٥) سورة النحل ، آية : ٨٢ .
(٦) سورة العنكبوت ، آية : ١٨ .
(٧) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٣٤ .
(٨) المصدر السابق ٢ : ٣٧ .

في الدعوة ، حيث يبتعد الناس عنه ، ولا يقبلون منه . ومن هنا كان على الداعية أن يحذر من كل ما يضعف حجته ويؤثر على وضوحها ، يقول ابن المعتز في التحذير من الانفعال والغضب : « شِدَّةُ الغضب تعثر المنطق ، وتقطع مادة الحجة ، وتفرق الهمة »(١) . مع مجانبة التكلف اقتداءً بالنبي ﷺ الذي قال - فيما يحكي القرآن عنه - : ﴿ وما أنا مِنَ المُتَكَلِّفِين ﴾(٢) ، أي « لا أتكلّف ولا أتخرّص ما لم أومر به »(٣) .

رابعاً : الإنصاف في المحاورة(٤) :

النِّصْف : أحد شِقَّي الشيء ، وانْتَصَفَ من فلان : استوفى حقّه كاملاً . والإنصاف : العدل ، والاسم منه : النَّصَف والنَّصَفَة(٥) .

ومن خلال المعنى اللغوي يظهر أن المراد بالإنصاف في الحوار والمجادلة تقديم شقي المناظرة أو المحاورة ، وأهل الحقّ - في الجملة - يمتازون بذلك عن غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى ، فيعرضون ما لهم وما عليهم ، مما يوافق رأيهم أو يخالفه ، أداءً للأمانة ، ولعرض الصورة الكاملة عن الحقائق أمام الناس ، وأما أولئك فلا يكادون يظهرون إلا ما وافق هواهم .

ولا شك بأن إنصاف الخصم شاقّ على النفس ، وليس بالأمر الهين ، وإنما أقدم عليه أهل الحقّ من المسلمين لثقتهم التامة بدينهم ، و يقينهم بأن الله تعالى سيؤيدهم ويظهرهم على مخالفيهم . وأما الطبع البشري المفتقر لذلك اليقين فلا يستسيغ الإنصاف ولا يقبله ، ولذا كان الحيف والمواربة سمة عامة لأهل الأهواء ، والمذاهب المنحرفة ، ولا يظهر الحق على ألسنتهم إلا لِماماً ولغاية في أنفسهم .

والقرآن الكريم يقرر تلك الميزة ويرسم للمسلمين النهج القويم الذي يسيرون عليه في هذا المضمار ، حيث قال سبحانه : ﴿ ولا تَبْخَسوا النَّاس أشْياءَهم ﴾(٦) ، والآية هذه وإن كانت في المبايعات فإنها تُعَمَّم حتى تشمل كافة الأحوال السلوكية التي تقتضي من المسلم العدل والإنصاف .

وهذا من جانب التوجيه إلى العدل والإنصاف ، وأما من جانب التطبيق فإن القرآن الكريم

---

(١) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٣٧ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ٣٦ .
(٣) سورة ص ، آية : ٨٦ .
(٤) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٥ : ٢٣٠ .
(٥) انظر : بكار ، فصول في التفكير الموضوعي : ٨٩ ، ١٢٩ .
(٦) انظر : الفيروزابادي ، القاموس المحيط : ١١٠٦ - ١١٠٧ (طبعة الرسالة) .
(٧) سورة الأعراف ، آية : ٨٥ .

رغم شدته على أهل الكتاب وتقريعه الدائم لهم على كفرهم وعنادهم، أورد في أكثر من موطن مواقف منصفة لبعض أهل الكتاب، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ الذينَ آتَيْناهُم الكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أولئكَ يُؤمِنُونَ بِهِ ومَنْ يَكْفُر به فأولئك هُم الخاسِرُون ﴾(١). ففي هذه الآية الكريمة إلماحة إلى معادن أهل الكتاب فمنها الخيِّر الذي ينتفع بالعلم ويقبل الحق، ومنها الرديء الذي لا ينتفع بعلمه ولا يقبل الحقّ. وهؤلاء الذين يتلون الكتاب حقّ تلاوته، هم طائفة من علماء بني إسرائيل آمنوا بالله تعالى وصدّقوا رسوله ﷺ فأثنى الله تعالى عليهم بذلك، محذراً الآخرين الذين حملهم البغي والحسد على التكذيب ولزوم الباطل(٢).

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَيْسوا سَواءً مِنْ أهْلِ الكِتابِ أمَّةٌ قائمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ الليلِ وهُمْ يَسْجُدُون ★ يؤمِنُونَ باللهِ والـيَوْمِ الآخِرِ ويأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَونَ عَنِ المُنْكَر ويُسارِعُونَ في الخَيْراتِ وأولئكَ من الصَّالِحين ﴾(٣). قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: « ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواء »(٤)، وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: « لمّا أسلم عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سَعْية، وأسيد بن سَعْية، وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود، فآمنوا وصدّقوا ورغبوا في الإسلام ورسخوا فيه قال أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَواءً ﴾ الآية »(٥).

كما أنصفهم الله تعالى في قوله: ﴿ ومِنْ أهْلِ الكِتابِ مَنْ إنْ تأمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤدِّهِ إليكَ ومِنْهُمْ مَنْ إنْ تأمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤدِّهِ إليك إلا ما دُمْتَ عَلَيهِ قائماً ذلِكَ بأنَّهُم قالوا لَيْسَ عَلَينا في الأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ ويَقُولُونَ على اللهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمونَ ﴾(٦)، وهذا وصفٌ لحالهم، وليس تعديلاً لهم، ولا حثّاً على ائتمانهم، بل « ينبغي اجتناب جميعهم »(٧).

وكما أنصفهم القرآن الكريم في ذكر أخبارهم وأحوالهم، أنصفهم في المجادلة والحوار، رغم بطلان دينهم فضلاً عن حججهم، ومن مظار إنصافهم في الجدل والمحاورة ما يأتي:

١ - دعوتهم إلى أمر جامع متفق عليه، فأهل الكتاب لما أكثروا من الجدال في الدين، وزعموا أنهم أهدى، وأن دينهم الحق، وأنهم على دين إبراهيم عليه السلام، أراد الله تعالى أن يقيم

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢١.
(٢) انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢: ٥٦٤ - ٥٦٥، ٥٧٢.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٢ - ١١٣.
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٧٥.
(٥) المصدر السابق.
(٦) سورة آل عمران، آية: ٧٥.
(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١١٦.

عليهم الحجة من خلال اعتقادهم بإبراهيم عليه السلام ، فبيّن الدين الصواب الذي كان عليه ، وأنه لم يكن على شيء من دين اليهود أو النصارى فقال سبحانه : ﴿ يا أهْلَ الكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ في إبْراهيمَ وما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ والإنْجيلُ إلا مِنْ بَعدِه أفلا تَعْقِلونَ ★ ها أنْتُم هؤلاء حاجَجْتُم فيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ واللهُ يَعْلَمُ وأنْتُمْ لا تَعْلَمون ★ ما كانَ إبراهيمُ يَهُودياً ولا نَصْرانياً ولَكِن كانَ حَنيفاً مُسْلماً وما كانَ مِنَ المُشْرِكين ﴾ (١) ، ثم دعاهم إلى اعتناقه والتمسك به فقال سبحانه : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللهُ فاتّبِعوا مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

والقاعدة المتفق عليها عادة ما تيسر السبيل أمام الداعية ، وتجنبه الكثير من العناء ، وتختصر عليه طويل الجدال وعقيمه ، وتضع المدعو في موقف محدد ، فإما أن يهتدي ويؤمن ، أو يأبى ويكفر . وهذه من خصائص الجدل القرآني ، وهي الإنصاف في المحاورة ، والإلزام في النتيجة (٣) .

٢ - عرض حُجَّة الخصم وافيه المعنى ، وهنا تتجلى إحدى خصائص القرآن الكريم وهي إيجاز اللفظ مع وفاء المعنى (٤) ، فحين يعرض القرآن الكريم لأقوال أهل الكتاب يذكرها موجزة مستوفية كافة المعاني التي يريدونها كما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لَنْ تَمَسَّنا النّارُ إلا أيّاماً مَعْدُودة ﴾ (٥) ، وقوله سبحانه ﴿ وقالوا قُلُوبُنا غُلْف ﴾ (٦) ، وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لَنْ يَدْخلَ الجَنَّةَ إلا مَنْ كانَ هُوداً أو نَصارىٰ ﴾ (٧) ، ونحو ذلك من الآيات الموجزة العرض الوافية المعنى .

ومن فوائد ذلك العرض إعطاء المتلقي الصورة الحقيقية لأبعاد حجة الخصم ، بما لا يدع له فرجة للمراجعة والتطويل ، أو التنصل من أقواله بدعوى اختزالها وضياع المعنى الحقيقي لها . ويتبع ذلك نقض تلك الحجة وفكّ عراها .

ويلاحظ بأن اختزال حجة الخصم ، وإغفال بعض جوانبها - كما يقع من بعض الناس - ، يعطي صورة غير حسنة عن شخصية العارض ، وينبئ عن عدم ثقته بما يدعو إليه ، ولا ينبغي ذلك للداعية المسلم .

٣ - إتاحة الفرصة للخصم ليقدم حجته وإن كان الحقّ واضحاً ، فالإنصاف يقتضي عدم

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٦٥ - ٦٧ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٩٥ .
(٣) انظر : د . زاهر الألمعي ، مناهج الجدل في القرآن الكريم : ٤١٨ .
(٤) انظر : د . الرومي ، خصائص القرآن الكريم : ٤٧ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٨٠ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٨٨ .
(٧) سورة البقرة ، آية : ١١١ .

احتقار الخصم وتصغيره وإن كان على باطل ، كما يقتضي إعطاءه الفرصة كاملة ليبدي ما عنده من حجج ، ثم تأتي بعد ذلك براهين الحق لتدحض تلك الحجج ، وتردّ المحتجّ بها على أعقابه ، والله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يسائل بني إسرائيل عن حجتهم في ترك البيانات ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرائيلَ كَمْ آتيناهُم مِنْ آيةٍ بَيِّنةٍ ومَنْ يُبَدِّل نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقاب ﴾ (١) . فالله تعالى آتاكم يا بني إسرائيل آيات منها : عصا موسى عليه السلام ، ويده ، وفلق البحر ، والمن والسلوى ، وتفجير الينابيع من الحجر ، وآيات كثيرة غيرها ، فماذا فعلتم بها ؟ وماذا كان موقفكم منها ؟ ولماذا أعرضتم عنها ؟ وما هي حجتكم في تنكب الطريق ، وتبديل النعمة ، وقتل الأنبياء ، ونقض العهود والمواثيق ؟ ! ، ليس إلا البغي والحسد ، واتباع الهوى وملاذ الدنيا .

خامساً : استيعاب حجج المدعو :

الاستيعاب وإدراك دقيق المعاني ناتج عن حسن الاستماع ، وحضور الذهن ، وإمهال المتكلم حتى يقضي حديثه ، وعدم مداخلته أو قطع حديثه ، وبذلك أوصى لقمان الحكيم ابنه فقال : « يا بُني ، كن سريعاً تَفَهَّم ، بطيئاً تكلّم ، ومن قبل أن تتكلم تفهَّم » (٢) . وقال أحد الحكماء : « تعلم حسن الاستماع ، كما تعلم حسن الكلام ، فإن حسن الاستماع إمهالك المتكلم حتى يفضي إليك بحديثه » (٣) .

كما أن من دواعي الاستيعاب التريث في الجواب وعدم الإقدام عليه إلا بعلم ، وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله يقول : « لا خير في جواب قبل فهم » (٤) .

ومن فوائد الاستيعاب أن الداعية قد يقف من كلام على ما يبطله ، يقول عبدالله بن المعتزّ : « ربّما دلت الدعوى على بطلانها ، والتزيد فيها قبل امتحانها ، وكذب نفسها بلسانها » (٥) . ويقول الخطيب البغدادي : « وينبغي أن يكون كل واحد من الخصمين مقبلاً على صاحبه بوجهه في حال مناظرته ، مستمعاً كلامه إلى أن ينهيه ، فإن ذلك طريق معرفته ، والوقوف على حقيقته ، وربما كان في كلامه ما يدلّ على فساده ، وينبهه على عواره ، فيكون ذلك معونة على جوابه » (٦) .

وللداعية في المنهج القراني خير مُعِين على ذلك ، فالمتمعن في الإجابات القرآنية يدرك

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢١١ .
(٢) الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ٢ : ٣٧ .
(٣) المصدر السابق ٢ : ٣٣ .
(٤) المصدر السابق ٢ : ٣٧ .
(٥) المصدر السابق ٢ : ٣٣ .
(٦) المصدر السابق ٢ : ٣٢ .

بوضوح كيف أنها تناولت لبّ الموضوع وهدفه .

فلما التفت القرآن الكريم للمنافقين ، لم يقف عند ظواهرهم ، بل سبر غورهم ، وكشف حقيقة أمرهم . وكذا حينما تعرّض لتصرفات أهل الكتاب وبخاصة يهود المدينة الذين أرادوا فتنة النبي ﷺ والمؤمنين عن دينهم ، فنبه سبحانه إلى مقصدهم الحقيقي : فهم لا يحبون الخير للمسلمين ، ولن يدعوا محاربة المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا .

وفي باب المجادلة عندما قال أهل الكتاب - فيما يحكي القرآن عنهم - : ﴿ قلوبنا غلف ﴾ علم الله تعالى أن مقصدهم الكفر، فأجابهم عن مقصدهم ولم ينشغل بغيره حيث قال سبحانه : ﴿ بل لَعَنهم اللهُ بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾ (١) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٨٨ .

الخاتمة

الخـــاتمـــة

إن الدعوة إلى الله وإن كانت متأصلة عملياً في حياة الدعاة المخلصين وتطبيقاتهم ؛ إلا أن الالتفات إليها من حيث هي علم ، والعناية بمناهجها وأساليبها ووسائلها ليعطي آمالا عِراضاً في تطور هذا الاختصاص وتقدمه وتعمّق جذوره .

وعقب بسط الحديث عن الدعوة بالمنهج العقلي في هذه الرسالة ؛ أجد من الوفاء لهذا العلم تقديم ما توصلت إليه من نتائج ، وهي كالتالي :

أولاً : أن المنهج العقلي واحدٌ من أهم المناهج المستخدمة في الدعوة ، بل إن المناهج الأخرى الحسيّة والعاطفية - الوجدانية - لا يمكنها أن تستقل عنه في العملية الدعوية ، فهو الذي يدرك نتائج التجربة ، ويتحكم في المشاعر والأحاسيس بحيث لا تخرج عن الإطار الشرعي ، وهذه إحدى مميزات المنهج العقلي .

ثانياً : أن المنهج العقلي المستخدم في سورة البقرة - وفي القرآن الكريم كله فيما أعتقد - ليس هو المنهج الذي ينادي به أهل المنطق ، أو يسير عليه الفلاسفة ، فآيات القرآن الكريم بيِّنة ، ودلائله واضحة ، وحججه قويّة ملزمة ، يفهمها قليل العلم ، كما يدرك معانيها العلماء ، بخلاف استدلالات أولئك واحتجاجاتهم المائلة إلى التطويل والغموض ، وبما التكرار والتناقض .

ثالثاً : أن العقل السليم لا يسعه إلا التسليم بسلامة الحجج القرآنية وصحتها ، ولا يمكنه ردّها ، أو زعْمُ تعارضها . وغاية المُعْرِض أن يثير الشّبه ويعمد إلى التلبيس والتحريف . والحجج والدلائل الشرعية كفيلة - بإذن الله - بإزلتها وكشفها .

رابعاً : أن المنهج العقلي لا يتناول كل شيء من قضايا الشريعة ، فهنالك أمور غيبية لا شأن للعباد بها ، وأحكام تعبدية لا مساغ للعقل في مناقشتها . ومن الإدراك أن يعرف المرء أنه لا يدرك كلّ شيء ، لأن إدراك كل شيء يخالف الطبيعة البشرية المحدودة المتسمة بالضعف والنقصان ، ومن زعم ذلك فقد اتخذ لنفسه صفة من صفات الألوهية .

وبناءً عليه فإن المسلم يُعْمِل عقله فيما تأذن به الشريعة ، ويطلقه من حيث أطلقه الله . وإنما أخفقت المدارس العقلية لأنها لم تفرق بين ما يمكن إدراكه وما لا يمكن إدراكه فيما يختص بأمور الشريعة بخاصة .

خامساً : أن المنهج العقلي في الدعوة يدفع المدعوين إلى التجرد ، والتخلص من الرغبات المنحرفة ، أو التأثيرات المصاحبة ، التي تحول في أحيان كثيرة بين المرء وبين قبول الدعوة . كما يدعوهم إلى التروي في ردود الأفعال ، وعدم ابتدار أمرٍ قبل وعيه وفهمه .

سادساً : أن سورة البقرة من أعظم سور القرآن الكريم تأثيراً في الجانب الدعوي ، فقد قدمت أُطَراً عامة تناولت جميع فئات أمّة الدعوة وهم المشركون والمنافقون وأهل الكتاب ، وكلّ من سار على نهجهم .

كما شملت أمة الإجابة وهم المسلمون الذي تابعوا النبي ﷺ وصدّقوه ، فوضعت لهم الأحكام والقواعد الكفيلة بإقامة الشريعة ، وبناء المجتمع المسلم ، وتنظيم شؤونه ومصالحه .

سابعاً : أن هذه السورة الكريمة بلورت السبب الرئيس - والله أعلم - لحرمان بني إسرائيل نعمة النبوة ونزعها منهم ، وهو الاستهانة بشرع الله تعالى بالتحريف و التعطيل و إيذاء الأنبياء . وفي ذلك لفتٌ لأنظار المسلمين بأن يجتنبوا سيرة أولئك ويحاذروا طريقتهم ، فالعقاب كما حلّ بأولئك سيقع بمن نهج نهجهم ، ودافِعُه - بإذن الله - تعظيم شرع الله تعالى ، والوقوف عند حدوده ، وتكريم العلماء .

ثامناً : أن صفاء الإيمان وسلامة العقيدة مرتبطان باتباع منهج أهل السنة رضوان الله عليهم ، وهذا ما قرره العلماء من قبل . وقد تبين من خلال هذه الدراسة أن من وافق أهل المنطق أو الفلسفة لم يسلم من آثارهم ، فالأشعري رحمه الله رغم تبرُّئه من الاعتزال وتصديه لأربابه ، لم يتخلّص منه وبقيت عنده بعض آثاره كما نبه لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية [١] .

(١) انظر صفحة ٤٠ من هذه الرسالة .

والمتأمل في الآيات الثلاث التي ختمت بها سورة البقرة يجد فيها تلخيصاً وافياً لأبرز ما جاء فيها من موضوعات ، فقوله تعالى : ﴿ لله ما في السَّمٰوات وما في الأرضِ وإنْ تُبْدوا ما في أنفُسِكم أو تُخفوه يُحاسِبْكُم بهِ اللهُ فيغفر لِمَن يشاءُ ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ واللهُ على كلِّ شيءٍ قدير ﴾ (١) ، يلخص ما جاء في صدر السورة وثناياها عن الوحدانية بدلائلها المتعددة .

وقوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسولُ بِما أُنْزِلَ إليهِ مِن رَّبِّه والمؤمِنونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِه لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحدٍ من رُسُلِهِ وقالُوا سَمِعْنا وأطعْنا غُفْرانَكَ ربَّنا وإلَيكَ المَصير ﴾ (٢) ، يحمل في طياته ما وقع من أهل الكتاب تجاه الأنبياء عامة ، من تفريق بينهم ، وكفر ببعضهم ، واعتداء على دين الله تعالى بالتحريف وتعطيل الأحكام اتباعاً لأهوائهم .

ويظهر إلى جانب ذلك سمة أهل الحقّ : النبيّ ﷺ والمؤمنين ، وهي الإيمان بالله تعالى ، وبرسله جميعهم من ذُكِرَ منهم ومَنْ لم يُذْكَر ، وإقامة أركان الإيمان كما أمر بها الله تعالى ، والسمع والطاعة .

وإكراماً من الله تعالى لهذه الأمة الملتزمة بأمره المنقادة لشرعه ، يأتي وعده الكريم : ﴿ لا يكلِّف اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَها لها ما كَسبتْ وعَليها ما اكْتَسبت ﴾ (٣) ، وهنا يتجلى العدل الإلهي ، فلا إعنات ولا إثقال ، وأيضاً لا محاباة كما افترت يهود على الله تعالى .

وهذه الإلماحة الموجزة تذكر بآيات كثيرة في سورة البقرة ، رتبت الثواب والعقاب على الاتباع وعدمه ، كما في قوله تعالى : ﴿ بلى مَنْ كَسَبَ سيِّئةً وأحاطتْ بهِ خَطيئتُهُ فأولئكَ أصْحابُ النّارِ هُم فيها خالِدون * والذين آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ أولئكَ أصْحابُ الجَنَّةِ هم فيها خالِدون ﴾ (٤) ، فمنهج المسلم أن يجتهد ولا يتواكل ، والله تعالى يعذره فيما عجز عنه ، ولذلك لفت سبحانه أنظار هذه الآمة إلى التوجه له بهذا الدعاء : ﴿ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسينا أو أخْطأنا ربَّنا ولا تَحْمِلْ عَلينا إصْراً كما حَمَلْتَهُ على الذينَ مِن قَبلِنا رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لنا بِهِ واعْفُ عَنّا واغْفِرْ لنا وارْحَمْنا أنْتَ مَوْلانا فانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرين ﴾ (٥) .

وبهذا يلجأ المسلمون إلى الله تعالى ، ويرجون رحمته بأن يرفع عنهم التكليفات التي ابتلى بها بني إسرائيل جرّاءَ عنادهم وتطاولهم على انبيائهم وميلهم للمخالفة ، إذ بلغت كفارة بعض أفعالهم حدَّ القتل ، وحُرِّم عليهم العمل يوم السبت ، كما حُرِّمت عليهم كثير من الطيبات من الرزق .

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٨٤ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٨٥ .
(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٨٦ .
(٤) سورة البقرة ، آية : ٨١ – ٨٢ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٨٦ .

كما يستمدون العون منه سبحانه على أعداء الإسلام المناهضين لشرع الله ، والذين جاء في سياق السورة الكريمة أنهم لا يكفون عن معاداة المسلمين ومحاربتهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ اليهودُ ولا النَّصارىٰ حتَّىٰ تتَّبعَ مِلَّتَهُم ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكم حتَّى يَرُدُّوكُم عنْ دِينِكُم إن اسْتَطاعُوا ﴾ (٢) .

وهذا الدعاء يعكس حديث النفس المؤمنة المطمئنّة ، المقبلة على شرع الله تعالى ، الواثقة بنصره ، الخالية من الأوهام والشكوك ، بخلاف النفوس المريضة المذبذبة البعيدة عن منهج الله ، التائهة في ظلمات الباطل .

ولا يفوت الباحث في ختام هذه الكلمة أن يتوجه بنداء إلى الجامعات والمراكز العلمية ذات الصلة يوصيها فيه بأن تكثف من عنايتها بعلوم الدعوة على نحو عام ، وبالمناهج الدعوية بخاصة ، وإعطائها حقها من البحث والدراسة ، وذلك لأنها مصابيح تساعد كثيراً في الوصول - بإذن الله - إلى أهداف الدعوة وغاياتها ، وتنير السبيل أمام القائمين بها .

وقد لاحظ الباحث أثناء إعداد هذه الرسالة أن هنالك بعض الأساليب في الحوار والمجادلة تصلح أن تكون موضوعات لأطروحاتٍ علمية مثل : المعارضة في القرآن الكريم ، والمناقضة في القرآن الكريم ، على أن يراعِي المتناول لها الالتزام بالخصائص القرآنية ، ومجانبة المناهج المنطقية أو الفلسفية المعقّدة .

والله من وراء القصد ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) سورة البقرة ، آية : ١٢٠ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٢١٧ .

الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس الأشعار

فهرس الأعلام

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : القرآن وعلومه

القرآن الكريـــم

١ - الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي جلال الدين عبدالرحمن ، ط٤ ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ١٣٩٨ هـ .

٢ - أسباب النزول ، للواحدي علي بن أحمد النيسابوري ، تحقيق أحمد صقر ، ط٣ ، دار القبلة بجدة ومؤسسة علوم القرآن بدمشق ١٤٠٧ هـ .

٣ - استخراج الجدل من القرآن الكريم ، لعبدالرحمن بن نجم الحنبلي ، تحقيق الدكتور زاهر الألمعي ، ط٢ ، مطابع الفرزدق ، الرياض ١٤٠١ هـ .

٤ - أمثال القرآن ، لابن قيم الجوزية عبدالله بن محمد ، تحقيق الدكتور موسى العليلي ، مكتبة القدس .

٥ - الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، لابن المنير أحمد بن محمد الاسكندراني (بحاشية الكشاف للزمخشري).

٦ - البحر المحيط ، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٣ هـ .

٧ - البرهان في علوم القرآن ، للزركشي بدر الدين محمد بن عبدالله . تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، ط٣ ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٠ هـ .

٨ - البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، للزملكاني عبدالملك بن عبدالواحد ، تحقيق د. خديجة الحديثي ود. أحمد مطلوب ، دار إحياء التراث الإسلامي .

٩ - تأويلات أهل السنة ، للماتريدي محمد بن محمد ، تحقيق د . إبراهيم عوضين والسيد عوضين ، القاهرة ١٣٩١ هـ .

١٠ - تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة عبدالله بن مسلم ، عناية أحمد صقر ط٢ ، دار التراث ، القاهرة ١٣٩٣ هـ .

١١ - التحرير والتنوير ، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر .

١٢ - التسهيل لعلوم التنزيل ، لمحمد بن أحمد بن جزى الغرناطي ، تحقيق محمد اليونسي وإبراهيم عوض ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

١٣ - تفسير أبوالسعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٤ - تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة عبدالله بن مسلم ، تحقيق أحمد صقر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٨ هـ .

١٥ - تفسيرالقرآن العظيم ، لإسماعيل ابن كثير الدمشقي ، دار المعرفة ، بيروت . وطبعة دار الشعب (محققة) .

١٦ - تفسير القرآن العظيم ، لسهل بن عبدالله التُستَري ، عناية محمد النعساني ، ط ١ ، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٢٦ هـ .

١٧ - التفسير الكبير ، للفخر الرازي ، ط٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٨ - تفسير المراغي أحمد مصطفى ، ط٢ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧٩ هـ .

١٩ - تفسير النسفي عبدالله بن أحمد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٨ هـ .

٢٠ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (بيان إعجاز القرآن للخطابي ، والرسالة الشافية لعبدالقاهر الجرجاني ، والنكت في إعجاز القرآن للرماني) تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد سلام ، ط٢ ، دار المعارف ، مصر ١٣٨٧ هـ .

٢١ - الجامع لأحكام القرآن ، لمحمد بن أحمد القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٥هـ.

٢٢ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لمحمد بن جرير الطبري ، تحقيق محمود وأحمد شاكر ، دار المعارف ، مصر .

٢٣ - الجدل في القرآن الكريم للدكتور محمد التومي ، الشركة التونسية ، ١٤٠٠ هـ .

٢٤ - الجمان في تشبيهات القرآن ، لابن ناقيا عبدالله بن محمد البغدادي ، تحقيق عدنان زرزور ومحمد الدّاية .

٢٥ - حاشية الجرجاني على الكشاف للزمخشري (انظر : الكشاف للزمخشري) .

٢٦ - خصائص القرآن الكريم ، للدكتور فهد الرومي ، ط٥ ، مطابع البكيرية ، الرياض ١٤١٠ هـ .

٢٧ - دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، للدكتور زاهر بن عواض الألمعي ، ط١ ، مطابع الفرزدق ، الرياض ١٤٠٥ هـ .

٢٨ - دراسات قرآنية ، لمحمد قطب ، ط٤ ، دار الشروق ، بيروت ١٤٠٣ هـ .

٢٩ - روح المعاني ، لمحمود الألوسي ، عناية محمد حسين العرب ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٣م .

٣٠ - زاد المسير في علم التفسير ، لعبدالرحمن بن علي بن الجوزي ، ط٤ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٧ هـ .

٣١ - الشيعة والقرآن ، لإحسان إلهي ظهير ، ط٣ ، إدارة ترجمان السنة ، باكستان ١٤٠٣ هـ .

٣٢ - عجائب القرآن ، للرازي محمد بن عمر ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤ هـ .

٣٣ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، للحسن بن محمد النيسابوري ، تحقيق إبراهيم عوض ، مطبعة الباب الحلبي ، القاهرة .

٣٤ - في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، ط٩ ، دار الشروق ، بيروت ١٤٠٠ هـ .

٣٥ - الكشاف للزمخشري محمود بن عمر ، ط١ ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٧ هـ .

٣٦ - لباب التأويل في معاني التنزيل ، للخازن علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي ، ط٢ ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ١٣٧٥ هـ .

٣٧ - لغة القرآن الكريم ، للدكتور عبدالجليل عبدالرحيم ، ط١ ، مكتبة الرسالة الحديثة ، الأردن ١٤٠١ هـ .

٣٨ - مباحث في علوم القرآن ، لمناع القطان ، ط٩ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٢ هـ .

٣٩ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لعبدالحق بن عطية الأندلسي ، تحقيق الرحالي الفاروقي وعبدالله الأنصاري وعبدالعال إبراهيم ومحمد العناني ، ط١ ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر ١٣٩٨ هـ .

٤٠ - معالم التنزيل ، للبغوي الحسين بن مسعود الفرّاء ، ط٢، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ١٣٧٥ هـ.

٤١ - المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني الحسين بن محمد ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت .

٤٢ - مناهج الجدل في القرآن الكريم ، للدكتور زاهر عواض الألمعي ، مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض .

٤٣ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للبقاعي إبراهيم بن عمر ، ط٢ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ١٤١٣ هـ .

٤٤ - النكت والعيون ، للماوردي علي بن حبيب ، تحقيق خضر محمد خضر ، ط١ ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت ١٤٠٢ هـ .

ثانياً : السنة وعلومها

٤٥ – الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، للأمير علي بن بلبان ، عناية كمال يوسف الحوت ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧ هـ .

٤٦ – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، للمباركفوري محمد بن عبدالرحمن ، نشر محمد عبدالرحمن الكتبي ، المدينة المنورة .

٤٧ – التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، لابن فرح القرطبي ، تحقيق أحمد السقا، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

٤٨ – تذكرة الموضوعات ، للفتني محمد بن طاهر الهندي ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة .

٤٩ – الجامع الصحيح ، لمحمد بن إسماعيل البخاري ، عناية محب الدين الخطيب ، ومحمد فؤاد عبدالباقي وقصي محب الدين الخطيب ، ط١ ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ١٤٠٠ هـ .

٥٠ – دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، لأحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق عبدالمعطي قلعجي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥ هـ .

٥١ – سنن الترمذي محمد بن عيسى ، تحقيق أحمد شاكر وآخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٥٢ – سنن الدارمي عبدالله بن عبدالرحمن ، عناية عبدالله هاشم المدني ، شركة الطباعة الفنية ، القاهرة .

٥٣ – سنن أبي داود سليمان بن الأشعث ، عناية عزت دعاس ، ط١ ، نشر محمد علي السيد ، مصر ١٣٨٦ هـ .

٥٤ – السنن الكبرى للبيهقي أحمد بن الحسين ، ط١ ، دار المعارف النظامية ، الهند ١٣٤٤ هـ .

٥٥ – صحيح البخاري = الجامع الصحيح .

٥٦ – صحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، عناية محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٣ هـ .

٥٧ – صحيح مسلم بشرح النووي ، عناية محمود توفيق ، مطبعة حجازي ، القاهرة .

٥٨ – العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين ، لحسين غنّام ، تحقيق إبراهيم الماس ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر .

٥٩ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لأحمد بن علي بن حجر ، المطبعة السلفية ، القاهرة .

٦٠ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للهيثمي علي بن أبي بكر ، مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

٦١ – المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٦٢ – المسند ، للإمام أحمد بن حنبل ، دار صادر ، بيروت .

٦٣ – مسند أبي يعلى الموصلي ، تحقيق إرشاد الحق الأثري ، ط١ ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ١٤٠٨ هـ .

٦٤ – المصنف ، لعبدالرزاق الصنعاني ، عناية حبيب الرحن الأعظمي ، ط١ ، نشر المجلس العلمي ، الهند ١٣٩٢ هـ .

٦٥ – المعجم الصغير ، للطبراني سليمان بن أحمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٦٦ – المعجم الكبير للطبراني سليمان بن أحمد ، تحقيق حمدي السلفي، ط١ ، نشر وزارة الأوقاف العراقية ١٣٩٨ هـ .

٦٧ – النهاية في غريب الحديث ، لمجد الدين ابن الأثير ، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٦٨ – النووي على مسلم (صحيح مسلم بشرح النووي) عناية محمد توفيق ، مطبعة حجازي ، القاهرة .

٦٩ - نيل الأوطار لمحمد بن علي الشوكاني ، دار القلم ، بيروت .

ثالثاً : الفقه وأصوله

٧٠ - الإبهاج في شرح المنهاج (منهاج الوصول إلى علم الأصول) لعلي بن عبدالكافي السبكي وعبدالوهاب بن علي السبكي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيرت ١٤٠٤ هـ .

٧١ - الأحكام السلطانية ، للماوردي علي بن محمد بن حبيب ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٧٢ - أحكام القرآن ، لابن العربي محمد بن عبدالله ، تحقيق محمد علي البجاوي ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٤ هـ .

٧٣ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول ، للشوكاني محمد بن علي ، ط١ ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .

٧٤ - أصول السرخسي ، لمحمد بن أبي سهل السرخسي ، تحقيق أبوالوفاء الأفغاني ، دار المعرفة ، بيروت .

٧٥ - أصول الفقه ، للماتريدي محمد بن زيد ، تحقيق عبدالمجيد تركي ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥م .

٧٦ - أصول الفقه ، لمحمد بن زكريا البرديسي ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٣ م .

٧٧ - أصول الفقه ، لمحمد أبي زهرة ، دار الفكر العربي .

٧٨ - البحر المحيط في أصول الفقه ، للزركشي بدر الدين محمد بن عبدالله ، ط١ ، دار الكتبي ، القاهرة ١٤١٤هـ .

٧٩ - بدائع السلك في طبائع الملك ، لابن الأزرق محمد بن علي الأصبحي ، تحقيق د . علي سامي النشار ، نشر وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٧ م .

٨٠ - البرهان في أصول الفقه ، للجويني عبدالملك بن عبدالله ، تحقيق د . عبدالعظيم الديب ، ط١ ، مطابع الدوحة الحديثة ١٣٩٩ هـ .

٨١ - تفسير النصوص في الفقه الإسلامي ، للدكتور محمد أديب الصالح ، ط٣ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٤ هـ .

٨٢ - شرح الكوكب المنير ، لابن النجار محمد بن أحمد الحنبلي ، تحقيق د . محمد الزحيلي و د . نزيه حماد ، ط١ ، نشر جامع أم القرى ، مكة المكرمة ١٤٠٨ هـ .

٨٣ - العدّة في أصول الفقه ، لمحمد بن الحسين الفرّاء ، تحقيق د. أحمد بن علي المباركي ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٠ هـ .

٨٤ - علم أصول الفقه ، لعبدالوهاب خلاف ، ط١٥ ، دار القلم ، الكويت ١٤٠٣ هـ .

٨٥ - الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية أحمد بن عبدالحليم ، عناية حسين مخلوف ، دار المعرفة ، بيروت .

٨٦ - الفروق ، للقرافي أحمد بن إدريس ، عالم الكتب ، بيروت .

٨٧ - الفقيه والمتفقه ، لأحمد بن علي الخطيب البغدادي ، عناية إسماعيل الأنصاري ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٠ هـ .

٨٨ - مجموع الفتاوى ، لابن تيمية أحمد بن عبدالحليم ، جمع عبدالرحمن بن محمد الحنبلي وابنه محمد ، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض .

٨٩ - المحصول في علم الأصول ، للرازي محمد بن عمر ، تحقيق د . طه جابر العلواني ، ط١ ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٠ هـ .

٩٠ – المسوّدة في أصول الفقه ، لشهاب الدين أحمد بن محمد الحنبلي ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٩١ – المغني (والشرح الكبير) ، لعبدالله بن أحمد بن قدامة ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٩٢ – الموافقات في أصول الشريعة ، للشاطبي إبراهيم بن موسى ، شرح الشيخ عبدالله دراز ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .

٩٣ – الوجيز في أصول الفقه ، لعبدالكريم زيدان ، ط٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١١ هـ .

رابعاً : العقيدة والمذاهب الفكرية

٩٤ – الإبانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري ، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٠٥ هـ .

٩٥ – إظهار الحق على الخلق ، لرحمة الله الكيرانوي ، طبعة الشؤون الدينية بدولة قطر .

٩٦ – اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، للفخر الرازي ، عناية د . علي سامي النشار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٢ هـ .

٩٧ – أقانيم النصارى ، للدكتور أحمد حجازي السقا ، ط١ ، دار الأنصار ، القاهرة ، ١٣٩٧ هـ .

٩٨ – إنجيل برنابا ، ترجمة د . خليل سعادة .

٩٩ – التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي في القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد ، للدكتور عبدالمجيد بدوي ، ط١ ، عالم المعرفة ، جدة ١٤٠٣ هـ .

١٠٠ – تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام ، للدكتور إبراهيم الكيلاني ، مكتبة الأقصى ، الأردن.

١٠١ – التوراة السامرية ، ط١ ، دار الأنصار ، القاهرة ١٣٩٨ هـ .

١٠٢ – الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح ، لابن تيمية أحمد بن عبدالحليم ، عناية علي المدني ، مطبعة المدني ، القاهرة.

١٠٣ – درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية أحمد بن عبدالحليم ، تحقيق د . محمد رشاد سالم ، ط١ ، نشر جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض .

١٠٤ – رسالة حجج النبوة (رسائل الجاحظ) ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط١ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٧٩ م .

١٠٥ – العقيدة النظامية . لإمام الحرمين الجويني ، عناية محمد زاهد الكوثري ، مطبعة الأنوار ، القاهرة ١٣٦٧ هـ .

١٠٦ – الفَرْق بين الفِرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، لعبدالقاهر البغدادي ، ط٥، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٤٠٢ هـ .

١٠٧ – الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) نشر دار الكتاب المقدس في العالم العربي .

١٠٨ – ماهي النصرانية ، لمحمد تقي العثماني ، مكتبة دار العلوم ، كراتشي ١٤٠٣ هـ .

١٠٩ – الملل والنحل ، للشهرستاني محمد بن عبدالكريم ، تحقيق محمد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٤ هـ .

١١٠ – مناهج الأدلة في عقائد الملة ، لابن رشد ، تحقيق د . محمود قاسم ، ط٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ م .

١١١ – الولاء والبراء في الإسلام ، لمحمد بن سعيد القحطاني ، ط٤ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ١٤١١ هـ .

١١٢ – اليهود في القرآن ، لعفيف عبدالفتاح طبارة ، ط٨ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠ م .

خامساً : الدعوة والثقافة الإسلامية

١١٣ – الآداب الشرعية والمنح المرعية ، لمحمد بن مفلح الحنبلي ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة .

١١٤ – إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ، دار الندوة الجديدة ، بيروت .

١١٥ – الأخلاق الإسلامية وأسسها ، لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ، ط١ ، دار القلم ، بيروت ١٣٩٩هـ .

١١٦ – أدب الدنيا والدين ، للماوردي علي بن محمد بن حبيب ، تحقيق مصطفى السقا ، دار الفكر .

١١٧ – أسس الدعوة وآداب الدعاة ، لمحمد السيد الوكيل ، دار الطباعة والنشر الإسلامية ، القاهرة .

١١٨ – أصول الدعوة ، لعبدالكريم زيدان ، مكتبة المنار الإسلامية ، ١٤٠١ هـ .

١١٩ – إعلام الموقعين عن رب العالمين ، لابن قيّم الجوزية ، تحقيق الشيخ عبدالرحمن الوكيل ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة .

١٢٠ – إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ، لابن قيم الجوزية ، عناية محمد عفيفي ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

١٢١ – تاريخ الدعوة الإسلامية بين الأمس واليوم ، لآدم عبدالله الألوري ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

١٢٢ – تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، للراغب الأصفهاني ، عناية الدكتور أسعد السحمراني ، دار النفائس .

١٢٣ – تلبيس إبليس ، لأبي الفرج بن الجوزي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٢٤ – ثقافة الداعية ، للدكتور يوسف القرضاوي ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٣ هـ .

١٢٥ – خصائص الدعوة الإسلامية ، لمحمد أمين حسن ، ط١ ، مكتبة المنار ، الأردن ١٤٠٣ هـ .

١٢٦ – دراسات في حضارة الإسلام ، لهاملتون جب ، ترجمة د. إحسان عباس و د. محمد نجم ، ود . محمود زايد ، ط٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩ م .

١٢٧ – الدعوة الإسلامية مضامينها وميادينها ، لعبدالكريم الخطيب ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٢ هـ .

١٢٨ – الدعوة إلى الإسلام ، لطالب إلب . بحث ضمن كتاب : الدعوة الإسلامية الوسائل ، الخطط ، المداخل ، أبحاث ووقائع اللقاء الخامس للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد في نيروبي بكينيا ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ .

١٢٩ – خصائص الدعوة الإسلامية ، لمحمد أمين حسن ، ط١ ، مكتبة المنار ، الأردن ١٤٠٣ هـ .

١٣٠ – دراسات في حضارة الإسلام ، لهاملتون جب ، ترجمة د. إحسان عباس و د. محمد نجم ، ود . محمود زايد ، ط٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩ م .

١٣١ – الدعوة الإسلامية مضامينها وميادينها ، لعبدالكريم الخطيب ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٢ هـ .

١٣٢ – الدعوة إلى الإسلام ، لطالب إلب . بحث ضمن كتاب : الدعوة الإسلامية الوسائل ، الخطط ، المداخل ، أبحاث ووقائع اللقاء الخامس للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد في نيروبي بكينيا ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ .

١٣٣ – شبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي المعاصر ، لتوفيق علي وهبة ، ط٣ ، دار اللواء ، الرياض ١٤٠٠ هـ .

١٣٤ – فصول في التفكير الموضوعي ، للدكتور عبدالكريم بكار ، ط١ ، دار القلم ، دمشق ١٤٠٣ هـ .

١٣٥ – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٢ هـ .

١٣٦ – المدخل إلى علم الدعوة ، للدكتور محمد أبوالفتح البيانوني ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٢ هـ .

١٣٧ – مع الله ، لمحمد الغزالي ، ط٥ ، المكتبة الإسلامية ، ١٩٨١ .

١٣٩ – مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية ، للدكتور حسن إبراهيم عبدالعال ، دار عالم الكتب ، الرياض ١٤٠٥ هـ .

١٣٩ – المنافقون وشعب النفاق ، لحسن عبدالغني ، ط١ ، دار البحوث العلمية ، الكويت ١٤٠١ هـ .

١٤٠ – منهج تربوي فريد في القرآن الكريم ، للدكتور محمد البوطي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٣ هـ .

سادساً : السِّيَر والتراجم

١٤١ – أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير علي بن محمد ، المكتبة الإسلامية .

١٤٢ – الإصابة في تمييز الصحابة ، لأحمد بن علي بن حجر ، ط١ ، نشر مكتبة المثنى ، لبنان .

١٤٣ – الإكمال ، لابن ماكولا ، عناية عبدالرحمن المعلمي ، نشر أمين دمج ، بيروت .

١٤٤ – البداية والنهاية ، لابن كثير الدمشقي ، تحقيق أحمد أبوملحم وعلي عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبدالستار ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيرت ١٤٠٥ هـ .

١٤٥ – تاريخ بغداد ، لأحمد بن علي الخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

١٤٦ – تاريخ الرسل والملوك ، لمحمد بن جرير الطبري ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢ م .

١٤٧ – تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، لجمال الدين المزي ، تحقيق د . بشار عواد معروف ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٨ هـ .

١٤٨ – رجال من التاريخ ، للأبي الحسن الندوي .

١٤٩ – سير أعلام النبلاء ، للذهبي محمد بن أحمد ، محقق بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط٤ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٦هـ .

١٥٠ – السيرة النبوية ، لإسماعيل بن كثير الدمشقي ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٦ هـ .

١٥١ – السيرة النبوية ، لابن هشام محمد بن عبدالملك المعافري ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي ، مؤسسة علوم القرآن – دار القبلة للثقافة والنشر .
والطبعة الرابعة من دار إحياء التراث العربي ، بيرت ١٣٩١ هـ.

١٥٢ – طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ، عناية د . عبدالعليم خان ، دار الندوة الجديدة ، بيروت ١٤٠٧ هـ .

١٥٣ – الطبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي عبدالوهاب بن علي ، تحقيق محمود الطناحي وعبدالفتاح الحلو ، ط١ ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٨٣ هـ .

١٥٤ – الطبقات الكبرى ، لمحمد بن سعد ، دار بيروت ، بيروت ١٤٠١ هـ .

١٥٥ – طبقات النحويين واللغويين ، لمحمد بن الحسن الأندلسي ، تحقيق محمد إبراهيم ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة .

١٥٦ – فوات الوفيات ، للكتبي محمد بن شاكر ، تحقيق إحسان عباس ، دار صابر ، بيروت .

١٥٧ – الفهرست ، لابن النديم ، محمد بن إسحاق ، تحقيق رضا المازندراني ، ط٣ ، دار المسيرة ، ١٩٨٨ م .

١٥٨ – الكامل في التاريخ ، لعزالدين ابن الأثير ، ط٢ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ .

١٥٩ – الكامل في ضعفاء الرجال ، لابن عدي الجرجاني ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٥ هـ .

١٦٠ – لسان الميزان ، لابن حجر أحمد بن علي ، ط٢ ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ١٩٧١ م .

١٦١ – الوافي بالوفيات ، للصفدي خليل بن أيبك ، ط٢ ، نشر فرانز شتاينز بفيسبادن ، ألمانيا ١٩٨١ م .

سابعاً : اللغة والأدب

١٦٢ – أساس البلاغة ، للزمخشري ، محمود بن عمر ، تحقيق عبدالرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت .
١٦٣ – تاج العروس من جواهر القاموس ، لمحمد مرتضى الزبيدي ، ط١ ، المطبعة الخيرية ، مصر ١٣٠٦ هـ .
١٦٤ – الحيوان لعمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار الجيل ، بيروت .
١٦٥ – ديوان الأخطل ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط٤ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٣٩٩ هـ .
١٦٦ – ديوان علي بن أبي طالب ، جمع وترتيب عبدالعزيز الكرم ، ط١ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٩ هـ .
١٦٧ – ديوان الفرزدق ، دار صادر ، بيروت ١٤٠٤ هـ .
١٦٨ – ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، ط١ ، شركة دار الأرقم ، بيروت ١٤١٧ هـ .
١٦٩ – ديوان مضرس بن ربعي الأسدي ، تحقيق د . نوري حمودي القيسي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج١ م٣٧ ، ١٤٠٦ هـ .
١٧٠ – الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، ط٢ ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٩ م .
١٧١ – فقه اللغة وسرّ العربية ، لإسماعيل الثعالبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
١٧٢ – القاموس المحيط ، للفيروزاباذي محمد بن يعقوب ، ط٢ ، المطبعة الحسنية ، مصر ١٣٤٤ هـ .
والطبعة الثانية لمؤسسة الرسالة ١٤٠٧ هـ .
١٧٣ – الكتاب ، لسيبويه ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط٣ ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٣ .
١٧٤ – لسان العرب ، لابن منظور محمد بن مكرم ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٨٨ هـ .
١٧٥ – مجمع الأمثال ، للميداني أحمد بن محمد ، تحقيق محمد إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي .
١٧٦ – معجم مقاييس اللغة ، لأحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ط٣ ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ١٤٠٥ هـ .
١٧٧ – المنتخب من غريب كلام العرب ، للهُنَائي علي بن الحسن ، تحقيق د . محمد العُمري ، ط١ ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٩ هـ .

ثامناً : المنطق والفلسفة

١٧٨ – تاريخ الجدل ، لمحمد أبي زهرة ، ط٢ ، دار الفكر العربي ١٩٨٠ .
١٧٩ – التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت ، لعثمان أمين .
١٨٠ – تهافت الفلاسفة ، لأبي حامد الغزالي ، تحقيق د . سليمان دنيا ، ط٦ ، دار المعارف ، مصر .
١٨١ – ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ، للدكتور عبدالرحمن حسن الميداني ، ط١ ، دار القلم ، بيروت ١٣٩٥ هـ .
١٨٢ – في أصول الحوار ، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ط٤ ، ١٤١٥ هـ .

١٨٣ – الكافية في الجدل ، للجويني عبدالله بن عبدالله ، تحقيق د . فوقية محمود ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٩٩ هـ .

١٨٤ – مبادئ فلسفة ، لـ أ . س . رابوبرت ، ترجمة أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٩ م .

١٨٥ – معيار العلم في فن المنطق ، لأبي حامد الغزالي ، ط٤ ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٣ م .

١٨٦ – نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، للدكتور علي سامي النشار ، ط٣ ، دار المعارف ١٩٦٥ م .

تاسعاً : معارف عامة

١٨٧ – التعريفات ، للشريف علي الجرجاني ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٣ هـ .

١٨٨ – مناهج البحث العلمي ، لعبدالرحمن بدوي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٨ م .

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة